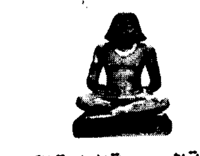

بيتر فرانس
أوربا والآثار المصرية
ترجمة
إبراهيم محمد إبراهيم
راجعه وقدم له
دكتور عبد الرحمن الشيخ

بيتر فرانس

أوربا والآثار المصرية

ترجمة
إبراهيم محمد إبراهيم

راجعه وقدم له
دكتور عبد الرحمن الشيخ



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٩

أوروبا والآثار المصرية

• الكتاب: أوربا والآثار المصرية
The Rape of Egypt
How the Europeans Stripped Egypt of its Heritage
• الكاتب: بيتر فرانس PETER FRANCE
• الكتاب الأصلى صادر باللغة الإنجليزية ويصدر
باللغة العربية بإذن خاص

• الطبعة الأولى ٢٠٠٩
• طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
كورنيش النيل، رملة بولاق، القاهرة.
ت:٢٥٧٧٥٢٢٨/٢٥٧٧٥٠٠٠
فاكس: ٢٥٧٥٤٢١٣(٠٠٢٠٢)
ص.ب: ٢٣٥ــ الرقم البريدى:١١٧٩٤رمسيس
WWW.gebo.gov.eg
Email: info@gebo.gov.eg

فرانس، بيتر.
أوربا والآثار المصرية/ تأليف بيتر فرانس؛ ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم؛ راجعه وقدم له عبد الرحمن الشيخ.ــ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩.
٢٨٠ ص؛ ٢٤سم. ــ (الألف كتاب الثانى)
تدمك ٨ ١٦١ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ــ أوربا ــ تاريخ ــ عصر النهضة
٢ ــ الآثار الفرعونية
أ ــ إبراهيم، إبراهيم محمد. (مترجم).
ب ــ الشيخ، عبد الرحمن. (مراجع ومقدم).
ج ــ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٣٧٧ / ٢٠٠٩
I.S.B.N - 978 - 977 - 421 - 161 - 8
ديوى ٩٤٠,٢١

الألف كتاب الثانى
نافذة على الثقافة العالمية

الألف كتاب فى سطور .....

صدر مشروع الألف كتاب الأول عام ١٩٥٥ بإشراف الإدارة العامة للثقافة، التابعة لوزارة التربية والتعليم. وقد اهتم بأمهات الكتب العالمية والكلاسيكيات، كما شمل العلوم البحتة، والعلوم التطبيقية، والمعارف العامة، والفلسفة وعلم النفس، والديانات، والعلوم الاجتماعية، واللغات، والفنون الجميلة، والأدب بفروعه، والتاريخ والجغرافيا والتراجم. وتوقف العمل به عام ١٩٦٩.

صدر مشروع الألف كتاب الثانى عام ١٩٨٦عن الهيئة المصرية العامة للكتاب. وقد اهتم بترجمة الكتب الحديثة محاولةً منه للاتصال بالثورة العلمية والثقافة العالمية المعاصرة .

وقد قُسمت إصدارات المشروع إلى ١٩ فرعًا هى: الموسوعات والمعاجم، والدراسات الاستراتيجية وقضايا العصر، والعلوم والتكنولوجيا، والاقتصاد والعلوم الإدارية، ومصر عبر العصور، والكلاسيكيات، والفن التشكيلى والموسيقى، والحضارات العالمية، والتاريخ، والجغرافيا والرحلات، والفلسفة وعلم النفس، والعلوم الاجتماعية، والمسرح، والطب والصحة، والآداب واللغة، والإعلام، والسينما، وكتب غيرت الفكر الإنسانى، والأعمال المختارة.

(أنظر القائمة آخر الكتاب)

الفهرس

مقدمة المراجع ٧

مقدمة المؤلف ١٥

الفصل الأول

الجنرال بونابرت، عضو الأكاديمية ٢٣

الفصل الثانى

ساحة للنهب ٤٤

الفصل الثالث

لصالح الأجيال المتعاقبة ٧٩

الفصل الرابع

الثعلب والقنفذ والكولونيل ١٠٥

الفصل الخامس

الاتصال الحضارى ١٣١

الفصل السادس

عين الغيور ١٥٢

الفصل السابع

علم الآثار لا يعرف العواطف ١٧٨

الفصل الثامن

سياسات الآثار ١٩٣

الفصل التاسع

علم آثار التوافه المهملة ٢١٣

الفصل العاشر

فاصل مسرحى قصير وختام فخم ٢٣٧

قائمة المراجع ٢٦٣

مقدمة المراجع

ربما يُدهش القارئ العربى عندما نطالعه فى صدر مقدمة كتاب عـن الآثـار المصرية، أن هذه الآثار كانت ـ ولازالت ـ صفحة مهمة فـى تـاريخ الفكـر الأوربى بل والعالمى، وليست مجرد صفحة لتأصيل عراقة مصر وأهل مصر.

لقد استعرض المؤلف (بيتر فرانس) بالإضافة لهذا، تاريخ الحملـة الفرنـسية على مصر، وجهود محمد على لإقرار الأمن فيها، وتتبع مواقف الولاة والباشوات، والخديو إسماعيل من القوى الأوربية المتصارعة، ومن الآثار المصرية، بل إنـه خصص الفصل الثامن للسياسة الأثرية، أى ارتباط الآثار بالسياسات المختلفة داخليا وخارجيا.

لكن الذى نريد أن نركز عليه حقيقة، هو أهمية هذه الـصفحات فـى تـاريخ الأديان (كل الأديان)، وتاريخ العبادات الباطنية (الصوفية أو الثيوصوفية)، فلـيس من السهل فهم أىّ دين دون الرجوع لآثـار الحـضارات الـسابقة، والحـضارة المصرية على نحو خاص، ومن هنا كان الحفاظ على الآثار واجبا دينيا، فالكتـب السماوية جميعا تدعونا "للسير" فى الأرض، لننظر عاقبة من كانوا "قبلنا".

وهذه الصفحات أيضا ذات أهمية كبيرة لتبيان أثر الحـضارة المـصرية فـى أوربا ـ حتى فى عصر التنوير ـ فكرا وفنا ودينا.

والتكالب على آثار مصر يعكس أيضا الصراع السياسى والعسكرى لفــرض الإرادة على مصر، واستعمارها، ومن خــلال صــفحات هــذا الكتــاب الــشائق سنستعرض ــ مع استطرادات ضرورية ــ هذه الأفكار جميعا.

نبدأ ــ كما بدأ المؤلف ــ بحكاية رجل، أو إن شئت: دجال، طبقت شــهرته الآفاق فى العقدين الأخيرين من القرن الثامن عشر (أى فى عصر التنوير)، قال إنه حُمل إلى مصر حين كان طفلا صغيرا، وأخذ إلى كهف يقع تحت الهرم الأكبــر، فتجلّت له روح القبط الأكبر Great copht، فأطلعته على أسرار النيل الخالدة، وأن الوصول "للحقيقة" لا يكون إلاّ بأداء طقوس بعينها بشكل صــحيح، وكــان يعنــى طقوسا مصرية قديمة. وكلّفه القبط الأكبر بالتبشير بهذه الطقوس لتكــون أساســا لحركة الماسونية الدولية (أو حركة البنّائين الأحرار).

وأسس الرجل بعد ذلك ما أسماه (مجمع الماسونية المصرية). كل هذا مهــم، لكن الأهم أن هذا الرجل لم يجد مجالا يطبق فيه الحكمة السرية المصرية القديمــة سوى الطاقة الجنسية وإعادة الشباب. لقد راح يجوب العالم يبيع شرابا يقوّى الطاقة الجنسية، يأتى بقوّة مفعوله بفعل تعرضه لطقوس وتعاويذ مصرية قديمة، وتحمّس له لمشروبه ملوك وأمراء منهم لويس الخامس عشر (فرنسا) وكاترين (روســيا)، وانتقل الحماس له إلى الجمهور. لقد حقق الرجل شهرة كبيــرة، إذ كــان النــاس يتجمعون حوله بكثرة كثيرة إذا ماظهر، لدرجة أنه كان يــضطر الــسلطات إلــى استدعاء حرس مسلّح لحفظ النظام.

إلى هنا، وقد يبدو الأمر مفهوما، فالرجل قد دق على وتر اللذّة، وهــو وتــر حساس، وربطه بطقوس قديمة، وهو وتر غيبى مثير.

معنى الكلام

لكن الرجل بشّر بأنه تلقى الحكمة من كائن "غيبى"، ومعنى هذا أنــه هــو ــ وحده ــ مالك زمامها. وأن هذا الكائن "الغيبى" كلفه "بالدعوة" إليها. إنه إذن يهــدد المسيحية فى الصميم، ويلغى حكمة العهدين؛ القديم والجديد. لذا تحرك البابا وشكل محكمة دينية حكمت على الرجل ــ وإن شئت قلت الدجال ــ بالإعدام، ثم خفــف

الحكم إلى السجن مدى الحياة، ومات "نبى القبط الأكبر" فى محبسه، وبذلك طُويت صفحته.

لقد كان حديثنا فى السطور السابقة عن أليساندرو دى كاجليوسترو Alessandro Di Cagliostro، الذى عُرف باسم أكثر بساطة هو: جيوسب بالسامو Giuseppe Balsamo، الذى صدر حكم بإعدامه فى سنة ١٧٩١، ثم خفف الحكم — كما سبق القول — إلى السجن مدى الحياة.

لكن بالسامو هذا لم يكن نهاية المطاف فى هذا الاتجاه الغيبى الأوربى المرتبط بمصر القديمة، ففى عام ١٧٩١ راح ساراستو الكاهن المسيحى الأعلى فى فيينا ينادى الإلهين المصريين القديمين إيزيس وأوزوريس، متوسلاً إليهما أن يدلاّه إلى حكمة العصور.

الآثار المصرية، والإصلاح الدينى فى أوربا

وكما كانت الآثار المصرية إلهاما للصوفيين والثيوصوفيين والغيبيين؛ كانت أيضا — وهذا هو الأهم — دليلا ساقه رجال الدين المسيحى، واليهودى، باختلاف اتجاهاتهم، لدعم روايات العهد القديم (الأسفار الخمسة الأولى منه هى التوراة)، أو لتفنيدها وإظهار منافاتها للحقيقة.

ولاشكّ لدىّ أنه كان للآثار المصرية — ولايزال — دور مهم للتخفيف كثيرا من وطأة الغلو الدينى فى الغرب وغير الغرب .

فكما أكّد علماء الآثار فى الغرب، بدأ عصر نارمر (الملك مينا) فى الألف الرابعة قبل الميلاد (حوالى ٣١٠٠ ق.م)، وسبقته حضارات أخرى كثيرة لم تكن مصر فيها موحّدة تحت تاج واحد، بل لقد كانت مصر عامرة بالسكان فى العصر الحجرى القديم (على وفق التقسيم الجيولوجى الذى أخذ به الجيولوجيون)، فكيف إذن نفهم أن الله (أو الثالوث على وفق العبارة الواردة فى الكتاب)، قد خلق الإنسان فى ٢٣ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق.م، فى الساعة التاسعة صباحا ؟

لاحظ أن التقويم العبرى يأخذ بهذا حتى يومنا هذا. هنا وجدنا الفكر الدينى المسيحى فى أوربا ينقسم انقساما واضحا، وهو انقسام طبيعى نجده فى أديان أخرى:

قسم تمسك بالنص الدينى رغم الحقيقة العلمية الواضحة، المتمثلة هنا بالأثر المصرى المادى الواضح المحسوس الملموس، الذى يمكن تحديد عمره الزمنى بوسائل علمية لا تحتمل الشك.

وقسم رفض أن يغمض عينيه عن هذه الحقيقة العلمية الماثلة (الأثر المصرى)، وتمخض موقفهم هذا بدوره عن موقفين: موقف "كفر" بالكتاب المقدس (خاصة العهد القديم)، وموقف طالب بإعادة تفسيره.

وسنورد هنا نُتَفا من هذين القسمين. نجد أن جون ليتفوت John Lightfoot الاختصاصى فى الكتاب القدس وكتابات الحاخامات (بما فى ذلك التلمود وغيره) يؤكّد أن خلق الإنسان ليس أقدم من هذا (٤٠٠٤ ق.م) ما دامت السماوات والأرض قد خلقها (الله) فى وقت واحد. وأكد هذا الأسقف جيمس أشر James Ussher، الذى لم يكتف بهذا التأييد وإنما كتب عبارة دالّة عليه فى هامش إحدى نسخ الكتاب المقدس، وجرى طبعها بعد ذلك فى النسخ المطبوعة، ومنذ سنة ١٧٠١ اعُتبرت ضمن النص المقدس نفسه، وقرأها الناس على أنها جزء منه. العالم المسيحى الأول (ليتفوت) عاش فى القرن السابع عشر، والعالم المسيحى الثانى (أشر) عاش فى أواخره، وطُبعت إضافته فى مطلع القرن الثامن عشر، واستمرت بعد ذلك .

فى ظل هذه المعلومات، وهذه التحليلات، يمكننا أن نتساءل: هل كانت آثار مصر بعيدة عن موقف فولتير من الكتاب المقدس؟ وهل كانت آثار مصر بعيدة عن موقف الثورة الفرنسية من الكتاب المقدس ومن البابا ــ فى بعض مراحلها؟ وهل كانت آثار مصر بعيدة عمّا عُرِف باسم التناول النقدى للعهد القديم على نحو ما نتناول أى كتاب آخر ــ وهو اتجاه شاع فى أوربا كلها فى القرن الثامن عشر، ولازال حتى اليوم؟

لقد حاول البعض الخروج من هذا المأزق التاريخى للتوفيق بين الحقيقة الأثرية الماثلة، وما يناقضها، بأن قال: إن الله قد خلق العالم سنة ٤٠٠٤ ق.م، بما فى ذلك الأحفورات والآثار القديمة، ثم أرجع زمانها (بقدرته) إلى ماقبل هذا. وهو موقف اتخذه بعض علماء الدين اليهود بمن فيهم جيولوجيون، للتوفيق بين الحقائق العلمية الماثلة الملموسة ورواية التوراة، وقد أفاض فى هذا "ألان أنترمان" وهو يهودى تحول للمسيحية فى كتابه: (اليهود؛ عقائدهم وشريعتهم)، وهو كتاب أظنه سيصدر قريبا فى هذه السلسلة. لكن هل ستصمد هذه المحاولات التوفيقية أمام آثار مصر؟ هذا ما نشك فيه .

تماما كما تهاوت الخرافات التى تحلّقت حول الأهرام من القول بأن الذين بنوها هم الذين "هبطوا مْن السماء"، أو بقايا سكان قارة أطلنتس، أو بتطيير أحجارها فى الفضاء بفعل تأثير الحروف العبرية، والقبالة اليهودية — لقد تهاوى كل هذا أمام الحقيقة العلمية الأثرية الواضحة الباقية الملموسة: تلك هى مساكن بناة الأهرام، وهذه هى جثثهم، بل وهذا هو أثاثهم، بل وهذه هى بقايا ما كانوا يأكلون .

الحفاظ على الآثار إذن واجب وفريضة، ليس من منظور أنها صفحة من تاريخ الإنسانية فحسب، بل من منظور دينى يخدم الدين، أىّ دين، والذين يحطمونها أو يهملونها أو يسْعون لذلك لا يفهمون حتى دينهم. فلننظر فى الأرض لنرى "عاقبة" الذين كانوا قبلنا.

لقد طالب نابليون علماء الحملة الفرنسية بأن يحرزوا تقدما فى دراسة التاريخ الحقيقى true لمصر الفرعونية، وفى تفهم "الدلالة الحقيقية real signi ficance" لآثارها القديمة (انظر الفصل الأول من هذا الكتاب).

ولقد رفض دينون المصاحب للحملة الترتيب الزمنى الوارد فى الكتاب المقدس والذى تقره الكنيسة، اعتمادا على أن الفن (الآثار) الذى وجده فى دندرة فن قديم، ومع هذا فهو ليس فنا بدائيا. يقصد أنه لابد أن يكون مسبوقا بمراحل طويلة تطور فى أثنائها إلى أن وصل إلى هذا المستوى الراقى: "فكم مضى من العصور حتى تصل أمة خلاّقة إلى هذه النتائج.. وإلى هذه الدرجة من الكمال..".

ونجد فى الصفحة الأخيرة من الفصل الثالث أن رجال الدين الفرنسيين كانوا يتصدون ضد شراء الآثار التى قد "تنقص من سلطان الكتاب المقدس". وسيجد القارئ فى الفصل السابع طوفانا من الآراء المتناقضة فى إنجلترا، محورها الربط بين الآثار المصرية والنزاع حول صحة الكتاب المقدس (العهد القديم خاصة)، مما يؤكد أن الآثار المصرية إن كانت صفحة مجيدة فى تاريخ مصر فهى أيضا صفحة فاعلة مؤثرة فى الفكر الأوربى.

فى ضوء كل هذا، ألا يدهش المرء لأن المؤسسات العلمية والتعليمية الدينية ـ والإسلامية منها خاصة ـ لم تدرج بعد مقررات عن الآثار المصرية والتاريخ المصرى القديم فى مقرراتها عن تاريخ الأديان؟

إنها دعوة إذن للأزهر الشريف لإنشاء قسم للآثار، لا الآثار الإسلامية فحسب، وإنما الآثار المصرية القديمة، وآثار العصور الأخرى المتعاقبة، ففى هذا تأصيل للفكر الدينى.

بقى القول إننى استعنت مع الأستاذ المترجم فى تحقيق المصطلحات الفرعونية وضبطها بالمطبوعين التاليين:

ـ معجم الحضارة المصرية القديمة، الذى ألفة جورج بوزنر وآخرون، وترجمه أمين سلامة، وراجعه د.سيد توفيق. والكتاب من منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ـ الموسوعة الأثرية العالمية، التى أشرف على إعدادها ليونارد كوتريل، ترجمة د. محمد عبد القادر محمد، ود. زكى إسكندر، وراجعها د.عبد المنعم أبو بكر، ط٢ (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧).

أما فيما يتعلق بحكام مصر من أسرة محمد على، ومن تولى مناصب مهمة من أفراد الأسرة الآخرين، فقد استعنا لضبط أسمائهم بالمرجعين التاليين:

ـ موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلى اليوم مع صورهم وأعلامهم ورموزهم، للدكتور ناصر الأنصارى .

ـ هؤلاء حكموا مصر، إعداد حمدى عثمان، ومراجعة د. ناصر الأنصارى.

ولقد وجدت اختلافا طفيفا بين ما أورده مؤلف كتابنا هذا وما ورد فى المرجعين المذكورين فيما يتعلق بصلات القرابة بين هؤلاء الحكام، ونوهنا عنه فى حينه .

بقى القول إن الأخ إبراهيم، كان متمكنا تماما من فهم المعانى المقصودة، مالكا لناصية اللغتين، وقد أبقيت على أسلوبه كما هو دون تغيير يُذكر، وهذا هو عهدى به منذ راجعت ترجمته المهمة لكتاب (المجتمع المصرى فى العهد العثمانى).

وعلى الله قصد السبيل .

د. عبد الرحمن عبدالله الشيخ

مقدمة المؤلف

بلاد العراقة

في ٢١ مارس ١٧٩١، أصدرت محكمة التفتيش الكهنوتية في روما حكما بالإعدام على الكونت أليساندرو دى كاجليوسترو. وتم تخفيف الحكم إلى السجن المؤبد في إحدى القلاع تحت حراسة مشددة دون أدنى أمل في العفو. ورغم هذا الحكم لم يكن الكونت يمثل أى تهديد على استقرار الكنيسة العالمية، فهو لم يزد ببساطة عن كونه مجرد دجّال جوّال، يدّعى علاج الأمراض، عاش في عصر كانت فيه المنافسة في المهنة التي اختارها لنفسه منافسة ضارية.

بعد أن طرد الكونت أثناء شبابه من أحد الأديرة، حيث كان يتلقى تدريبا كهنوتيا، انغمس في حياة الفسق والفجور، فتزوج من امرأة جميلة لا خلاق لها هي لورينزا فيليتشيانو، وسافر معها في أنحاء العالم المختلفة يبيع شرابا سحريا للحب، وأنواعا من أكسير الشباب والجمال. وأخذ الكونت يكسب كسبا غير شريف في معمل للكيمياء السحرية القديمة في شارع هوايت بلندن. فأدى ذلك إلى عدد من القضايا القانونية، لذا انتقل إلى ساليسبورج. وفي ذلك البلد، وجد في أمير روهان الكبير شخصا شديد التحمس لتصديقه، فقام بتقديم هذين الزوجين اللذين يسويان العجائب إلى أعلى الدوائر الأوربية.

ولقى الكونت وزوجته كل التكريم والحفاوة فى بلاط ملوك مثل لويس الخامس عشر وكاترين العظيمة، وسرعان ما امتدت شهرتهما إلى جميع مستويات المجتمع، حتى إنهما حينما كانا يظهران علنا كان الحرس العسكرى يُستدعى للقيام بحفظ النظام.

حين نطقت محكمة التفتيش الكهنوتية بحكمها، أخيرا، تم إرسال لورينزا فيليتشيانو إلى أحد الأديرة، أما الكونت، فقد تم إرساله إلى قلعة سان ليو، حيث مات هناك عام ١٧٩٥.

إن حياة الكونت كاجليوسترو تجعل من يقرؤها يشعر وكأنه يقرأ حكاية من الحكايات القوطية المرعبة القديمة، بل إنها أوحت بالروايات لكتاب من أمثال دوما وشيلر، وأعمال هجائية لأناس مثل جوته وكاترين العظمى، وإذا كان هناك من يتذكر كاجليوسترو اليوم، فإنما ذلك يكون على صفحات الكتابات الغامضة الخرافية المثيرة للتسلية. غير أنه يستحق مكانا فى التاريخ باعتباره شاهدا على شيء أكثر أهمية من حياته العملية: ونعنى بذلك الاستحواذ على خيال عصره للأرض والبلاد التى زعم أنها مصدر قوته الخارقة للطبيعة. وكانت هذه البلاد هى مصر. ومع أن الكونت كان اسمه ببساطة جوسيب بالسامو، وكان ابنا لأسرة فقيرة فى باليرمو، كما كان يقول لجمهوره، إلا أنه قد حمل إلى مصر حين كان طفلا، وأخذ إلى كهف يقع تحت الهرم الأكبر، حيث ظهرت له روح تسمى القبط الأكبر، وأطلعته على أسرار النيل التى لا يحدها زمن. وقيل للصبى إن الحقيقة العظمى التى عين الفراعنة سدنة عليها، يمكن الوصول إليها من خلال أداء سلسلة من الطقوس الغامضة تعرف باسم الطقوس المصرية. وكلف جوسيب بإعادة إدخال هذه الطقوس إلى العالم، وذلك بجعلها أساس البنائين الأحرار الدولية أو الماسونية الدولية. وبعد ذلك بسنوات، أسس مجرد محفل يسمى "أتباع الماسونية العليا المصرية" فى باريس. وبنى معبدا مقدسا لإيزيس يتولى هو رئاسته باعتباره إعادة لتجسيد القبط الأعظم.

وبهذا الدور جلب الكونت على نفسه الحكم الذى حكمت به روما عليه، ذلك لأن الكنيسة لم تكن تنظر بعين الرضا للماسونية أو لمصر ذات الأسرار الغامضة.

كان الظن بأن مصر تمتلك نوعا ما من الحكمة القديمة ظنا شائعا منذ الأزمنة الرومانية، وبين الآباء المسيحيين الأوائل. وتم إحياء هذا الظن أثناء عصر العقل (التفكير) الذى كان سائدا فى حوالى القرن الثامن عشر والقائل بالاعتماد على العقل، ومن أبرز فلاسفته ديكارت.

إذ انجذب الناس إلى فيزياء نيوتن وفلسفة لوك، وابتعدوا عما أسماه فولتير "الخضوع الذليل لإرادة السماء" كما يمليها الكهنوت. وكانوا يفضلون الاستماع إلى تعاليم الحرية والاعتدال، وفسروها على أنها حرية المرء فى أن يكون معتدلا فى أمور الدين. ولم تكن هذه سوى مجرد خطوة قصيرة نحو إبدال الإيمان الدينى بالمثالية الأخلاقية. غير أن الكثيرين، عموما، وجدوا أن المبادئ الأخلاقية بدون سند صوفى أو خارق للطبيعة ليس فيها يرضى الخيال. فأخذت تزدهر تلك العبادات السرية التى تدعو إلى الكمال الأخلاقى عن طريق الحقائق السرية التى لا تنكشف إلا للمطلعين على طريقة أداء طقوس خاصة لا يعرفها سواهم. فانتعش الصلورديون (؟) (أعضاء الصليب الوردى Rosicrucians) والماسونيون، إذ زعم كلاهما لأسراره الغامضة أصلا مصريا. وفى الثلاثينيات من القرن الثامن عشر، دشنت رواية سيثوس فترة من الهوس الأدبى بمصر، ذلك أن هذه الرواية سجلت المحاولات والطقوس اللازمة من أجل الوصول للحكمة؛ فبدأت المبانى على الطراز المصرى تزين صور المنظر الطبيعى فى أوربا.

وصارت المسلات والأهرام شائعة فى الإقطاعيات الكبرى؛ وكان كاسل هوارد يمتلك أربعة أهرامات كبيرة؛ كما كان المتنزه فى ستو به مقصورتان مسقوفتان بهرمين، بالإضافة إلى هرم مصرى يبلغ ارتفاعه ستين قدما، قام بتصميمه سير جون فانبرو. كذلك كانت بوابة قلعة شيربورن فى دورسيت تحمل شخوصا مصرية تمسك بالنذور. كما كان برج كنيسة سينت لوك بفينزبورى يتخذ شكل مسلة مصرية. وزينت قاعة البلياردو فى بيت كيرنيس باباردينشير برسومات مصرية متكررة. كما ذاعت كتب التنجيم والكونيات والكيمياء (السيمياء) القديمة والسحر. وزعم الكثير من هذه الكتب أن مصدرها هو الكتابات الهيرمزية التى كتبها هيرمز تريسمجيستوس، وهو اسم يرمز لكم هائل من كتابات السحر والكيمياء القديمة، التى اعتبرها الإغريق معادلة للإله المصرى توت. ومع أن

الدارسين كانوا يجادلون بانتظام فى صحة نسب هذه الكتابات وشخصية مؤلفها، إلا أن مصر كانت من البعد والقدم والغموض بحيث يمكن أن يشار إليها ويستدل بها بكل ثقة من جانب من يتطلعون إلى استدعاء ما هو غامض واستكشاف كنه ما يستعصى على الإدراك. لذا ففى ١٧٩١، نفس السنة التى أدين فيها كونت كاجليوستو، وطئت أقدام تامينو وبامينا أرض مسرح المراعى فى فيينا كى يستمعا إلى الكاهن الأعظم ساراسترو وهو ينادى الإلهين المصريين بأن يقوداهم إلى حكمة العصور.

لم تكن مصر فى القرن الثامن عشر هى أرض الآثار التى وضع فيها الغيبيون بوتقات فنونهم الممنوعة، كما لم تكن مصدر الإلهام لبستانيى المناظر الطبيعية كى يرضوا بها عملاءهم بما يقدمون من مناظر غريبة غير مألوفة — فحسب — وإنما كانت أيضا الحلبة التى كان يتصارع فيها متصلبو الرأى من رجال العلم مع الكنيسة. فكانت عراقة مصر تواجه بنفس الحماس الذى كانت تواجه به معجزات الكتاب المقدس. فطبقا لما قاله د. جون لايتفوت، نائب مستشار جامعة كيمبريدج الشهير فى القرن السابع عشر، باعتباره عالما فى الكتاب المقدس وكتب الحاخامات، فإن عمر الكون ليس ببعيد مادامت السماء والأرض والمركز ومحيطه خلقت معا فى نفس البرهه، وكانت السحب مليئة بالمياه. وقعت هذه الحادثة وخلق الثالوث الإنسان فى الثالث والعشرين من أكتوبر ٤٠٠٤ ق .م. فى التاسعة صباحا. وقد أيد هذه التواريخ جيمز أشر، أسقف آرماج. كما كُتِبَت على هوامش الطبعة المعتمدة للكتاب المقدس من ١٧٠١، واعتبر هذا الهامش معصوما من الخطأ شأنه شأن النص ذاته. وعلى ذلك ، فقد صار من المقبول بحكم الكتاب المقدس أن مصر لاتكاد تكون لها أية حضارة قديمة فى زمن الكتاب المقدس، لأن العالم لم يكن قد وجد منذ وقت كاف من الزمن. بل إن مصر هى الأرض البدائية التى هرب إليها الآباء فى زمن المجاعة. فهى مجرد مكان للخرافة والهمجية لم يخلصها سوى رسالة الإنجيل.

وتم تحدى هذه النظرة للتاريخ، إذ أشار سير وولتر رالى فى كتابه تاريخ العالم (١٦٠٣—١٦١٦) إلى أنه فى زمان إبراهيم "كانت بمصر الكثير من المدن الرائعة ... ولم تكن تلك المدن مبنية بالطوب وإنما بالحجارة المقطعة بالمعاول....

وهذه الروعة لابد لها من أصل أكثر قدما مما افترضه هؤلاء الناس". واتجه قديس فلسفة الشك القديم، فولتير، إلى العهد القديم بحثا عن الأدلة، وأعاد إلى الذاكرة قصة الهبات التى تلقاها إبراهيم من الفرعون مقابل عطف زوجته: من أغنام وثيران وأتن وخدم وخادمات وإبل، ومن المؤكد أن هذا كان مؤشرا على أن مصر كانت حضارة غنية قوية فى ذلك الوقت، ومن ثم حضارة قديمة.

أثناء القرن الثامن عشر، كان رجال اللاهوت والفلاسفة قادرين على الدخول فى مناقشات وهم يستريحون على مقاعد وثيرة تتناول عراقة مصر، لأن عددا قليلا من الناس كانوا قد زاروها فى ذلك الوقت بالفعل. فكان الكثير مما كان يعرف عن مصر على نطاق واسع، غير حقيقى، وكانت حقيقة مصر مجهولة. فربما كان هيرودوت هناك فى منتصف القرن الخامس ق.م، ذلك أنه قد كتب عن النيل وما به من حيوانات، وكذلك الآلهة والملوك، واصفا ممارسة التحنيط بالتفصيل. وكان هو أول من أوحى بأن الإغريق ربما تعلموا طقوسهم الدينية وأساطيرهم التى تتناول الآلهة، من المصريين.

كما كان هناك زميله الصقلى ديودوروس. وقد أعطى هذا الرجل اسمه لمكتبة من الكتب (المقصود عدد كبير من الكتب) زعم أنها تضم العديد من الرحلات من بينها رحلات إلى مصر ٦٠ ٥٧ ق.م، وكان من كبار المزودين بالحكايات التى لم يتم فحصها. وكان ديودوروس، فى العصور القديمة، يعتقد أن مصر هى أكثر المناطق من حيث الكثافة السكانية فى العالم المعروف، وأنها قد أسهمت بالكثير فى ثقافة أثينا .

فى وقت مبكر من القرن الثامن عشر، خاطر بعض الرحالة بالدخول إلى المناطق التى يسهل الوصول إليها من دلتا النيل، وأحضروا معهم حكايات وأشياء تثير الفضول من الإسكندرية أو القاهرة. ففى عام ١٧٢٣ جلب توماس سيرجينت أحد جامعى الآثار، لجمعية علماء الآثار فى لندن، طردا من الآلهة المصرية جاءت مؤخرا من القاهرة الكبرى. كان يتكون من أوزيريس نحاسى، وهاربوكراتيز Harpocrates من النحاس، وتيرمينوس، وشكلا عاريا نحاسيا مشوها عن الذوق

الأفضل، وإيزيس، وتمثال لطفل، وكاهن مصرى صغير، وقطة، وخنفس حجرى له أجنحة وكتابة هيروغليفية مكتوبة بمعجون غريب أزرق اللون.

وفيما بين عام ١٧٢٠ وعام ١٧٣٣، سافر صاحب النيافة توماس شو حول الإسكندرية والجيزة. ويعد هذا الرجل رائدا لجماعة من علماء الدين، وقام بعمل دراسة خاصة للكتاب المقدس والنباتات. كما قام بفحص أبى الهول والأهرام، وخرج باستنتاج مؤداه أن الأهرام كانت معابد ولم تكن قبورا. ونشر ماتوصل إليه فى عام ١٧٣٨ وقال: "لا يوجد ماهو أكثر إثارة للتفكير من السفر على صفحة النيل".

وفى ١٧٣٧، خاطر صاحب النيافة ريتشارد بوكوك بالذهاب إلى ما هو أبعد من هذا، وذلك بالإبحار فى النيل حتى فيلة. وعاد لينشر مجلدين ضخمين من كتاب "وصف للشرق" (١٧٤٣ــ ٥). وفى نفس الوقت، كان فريدريك لودفيج نوردين يقوم برحلات بشكل منفصل، وهو قبطان بحرى دنماركى نشر مجموعة من الرسوم وأعمال النحت.

وبلغ تأثر نوردين بما رآه فى مصر حدا جعله يعلن أن وجهة النظر التى كان يقول بها الكلاسيكيون من أن اليونان وروما هما مهد الحضارة الأوربية، تعد وجهة نظر خاطئة، واتخذ جانب هيرودوت وديودوروس فكتب: "فليتوقفوا عن الحديث عن روما، ولتصمت اليونان". غير أن الدارسين الكلاسيكيين لم يكن ليرهبهم قبطان بحرى دنماركى.

لقد كان الجدال حول الترتيب التاريخى حسب ما جاء فى الكتاب المقدس والتفوق الثقافى جدالا ضاريا، يدور فى فراغ من الجهل الذى يكاد يكون جهلا مطبقا.

وفى ٣٠ نوفمبر ١٧٧٥، استمعت جمعية علماء الآثار إلى ورقة قدمها د. جون وودوورد، عضو الجمعية الملكية، التى استنكرت بقوة ما يقوله أولئك الذين زعموا أن شعب إسرائيل أو الإغريق يمكن أن يكونوا قد تعلموا أى شىء من مصر. إذ لا يمكن أن تكون على هذا القدر من القدم فى حين أن كل ما بها من هندسة معمارية

يتألف من الأهرام، وهى مجرد أكداس بسيطة من الحجارة وضع الواحد منها فوق الآخر: "وأما المعابد التى احتفى بها الرحالة كل هذه الحفاوة، فهى همجية سيئة التصميم، وما بها من أشكال تزينها جامدة تفتقر إلى التناسب. وأما عن القول بأن الزخارف ابتكرت كى تحتفى بالانتصارات فى الحروب، فما هى تلك الانتصارات التى يمكن أن يكون المصريون قد حققوها كى يحتفوا بها؟ ألم يفتح قمبيز البلاد بأكملها، واستولى على بلسيوم بسهولة، وذلك بأن وضع القطط والكلاب ببساطة أمام جيش مصر مما جعل الجنود يستسلمون بدلا من المخاطرة بإيذاء حيواناتهم المقدسة، وبالنسبة للفكرة القائلة بأن مصر قد تضم بعضا من الحكمة الخالدة، فقد أشار د. وودورد إلى أن المصريين كان من عادتهم نزع المخ والأحشاء من الجثث قبل حفظها كى تستخدمها الأرواح الهائمة فى المستقبل. فما فائدة الجسد إذا ماخلا من المخ والأحشاء!".

ومع اقتراب عصر التنوير من نهايته، بدا أن أرض مصر تعنى كل شىء لكل شخص حسب تفكيره: فكانت تعنى بالنسبة للثقافة التحتية الخاصة بالغموض والأسرار مستودعا للأسرار الغامضة القديمة، أما بالنسبة لأصحاب النزعة الإنسانية(القائلة بأن الإنسان هو محور الكون)، فكانت مصر تقدم الأدلة التى يمكن أن تقوض نظرة الكتاب المقدس للتاريخ والترتيب الزمنى الذى وضعته الكنيسة. أما بالنسبة للكنيسة، فكانت بلادا همجية خلعت رؤى موسى عليها قداسة، وكذلك خلع عليها القداسة وجود يسوع. ورأى الفنانون أنها تتحدّى الأفكار الموروثة عن الجمال والتناسب. ورأى فيها المؤرخ تهديدا للتفوق الحضارى لروما واليونان القديمة. فمن المعروف، عموما، أن التأمل والتخمين لا يزدهر إلا مع غياب المعرفة اليقينية. وفى ربيع ١٧٩٨ كانت جماعة من العلماء تتجمع فى ميناء طولون من أجل القيام بغزو أخرج مصر أخيرا من عالم ألف ليلة وليلة كى تتبوأ مكانها الصحيح فى تاريخ البشرية.

الفصل الأول

الجنرال بونابرت، عضو الأكاديمية

كان الأسطول الفرنسي الذى تجمع فى ميناء طولون فى الأشهر الأولى من ربيع ١٧٩٨ قوة غزو سيرت كى تسدد ضربة لإنجلترا. وكان قائده الأعلى نابليون بونابرت (٢٨ سنة) قد قبل المنصب بنية أخذ الجيش عبر القنال الإنجليزى وهزيمة الإنجليز على أرضهم. إن ما حدث أنه كان هناك بعض التأخير فى تنظيم السفن؛ إذ كانت مطالبة الحكومة بقرض قيمته ثمانية ملايين فرنك لتمويل الغزو قد فشلت. كما كانت عودة المقاتلين إلى فرنسا من حملات على إيطاليا وألمانيا تضع ثقلا جديدا على كاهل الجمهورية، فتم إلغاء الحملة على الجزر البريطانية.

فى ذلك الوقت، كانت كراهية الإنجليز عاطفة شائعة (بين الفرنسيين)، فهم الذين كانوا يقفون فى طريق التوسع الفرنسى فى أوربا. لذا حين اقترح الجنرال بونابرت مهاجمتهم من خلال غزو مصر، مما يهدد الهند البريطانية، وافقت حكومة الإدارة الفرنسية بكل سرور. وكان لدى أعضاء الإدارة أسبابهم التى تجعلهم يسرون بأن يروا بونابرت وقد اتجه إلى بلاد أجنبية؛ فكان كل همهم أن يروه يرحل إلى أى مكان، إذ صار بؤرة جذوة حماس وطنى رأى أعضاء حكومة الإدارة أنها من حقهم.

ولم تكن مصر بعيدة عن باريس بعدا كافيا فحسب، وإنما كانت هدفا مناسبا لغزو فرنسى فى ذلك الوقت: كان الفتح الفرنسى لشمال ووسط إيطاليا يعنى وجود سفن جاهزة لأسطول البحر المتوسط، إذ قدمت البندقية وحدها تسع سفن واثنتى عشرة فرقاطة. فمع وجود وسائل النقل والمخازن، واستقدام البحارة من جنوا وسفينتا Civitta وفيكشيا Vecchia وأنكونا Ancona، أمكن جمع أسطول لغزو مصر دون إصابة الخزانة بالعجز. وتمت الموافقة على الخطة. وكان بونابرت يرى مصر ثمرة يسهل قطافها، إذ كانت البلاد، من الناحية النظرية، مركزا متقدما للإمبراطورية العثمانية التى صارت، مع نهاية القرن الثامن عشر شديدة الضعف والفوضى، بحيث يصعب عليها الدفاع عن نفسها.

كان المماليك يحكمون مصر لما يزيد عن خمسة قرون ونصف. وهم قوة عسكرية من أصول جورجية وشركسية، ولم تكن مصر تدفع للباب العالى، وهو البلاط العثمانى فى اسطنبول، سوى إتاوة صغيرة وغير منتظمة، ولم يكن لدى المماليك سوى سلاح الفرسان يدافعون به عن أنفسهم فى مواجهة المدفعية الفرنسية. وكانت الإسكندرية، مكان نزول القوات الفرنسية، بلا حماية ومكشوفة لأى هجوم. وبمجرد فتح مصر، سيكون فى إمكان الجيش الفرنسى أن ينقض على الإمبراطورية العثمانية وربما الهند البريطانية إيضا. ويمكن لهذا الجيش أيضا أن يواصل السير شمالا وشرقا على خطى المثل الأعلى لبونابرت، وهو الإسكندر الأكبر، وقد يمكنه تكرار انتصاراته. ومن حيث سير الأحداث، أظهر الغزو بالفعل محاكاة بونابرت لبطله، ولكن ليس فى الخطط العسكرية كقائد فاتح. إذ كانت للإسكندر، وهو تلميذ أرسطو، عادة اصطحاب فريق من العلماء فى غزواته ـــ من الجغرافيين وعلماء الفلك والجيولوجيا وعلماء طبقات الجو والفنانين ـــ بحيث تكون كل حملة عسكرية هى أيضا حملة استكشافية. فقرر بونابرت، بطريقة مشابهة، أن يحضر معه فى غزوه لمصر عددا من العلماء يمكنهم البحث فى المصادر الثقافية والطبيعية فى البلاد. وبينما انتهت الحملة العسكرية بالهزيمة، وضع علماؤها الأساس لاكتشاف وادى النيل الذى تبع ذلك .

ربما يكون الجنرال بونابرت قد حقق القليل فى مصر؛ إلا أن عضو الأكاديمية بونابرت يستحق أن يذكره التاريخ. لقد كان بونابرت قد انتخب، عند عودته من

إيطاليا ١٧٩٧ عضوا فى أكاديمية العلوم، وهى قسم من معهد فرنسا. وقد يكــون هذا التكريم نتيجة لما أثرى به المتاحف الفرنسية من كنوز روما وفلورنسا أكثــر منه اعترافا بتميزه الفكرى. وكان بونابرت معتزا بهذا الانتخاب حتى إنه كان يوقع على خطاباته ومراسيمه كـــ: "عضو المعهد" قبل توقيع القائد العــام. كمــا كــان يحضر اجتماعات الأكاديمية بانتظام مرتديا زى الأكاديمية الرائع الذى صممه جاك لوى دافيد .

وكان للأكاديمى بونابرت اهتمام خاص بمصر. ففى ربيع عام ١٧٩٨ ألقــى خطابا أمام الأكاديمية عن أهمية وادى النيل بالنسبة للأبحــاث الدوليــة، وأصــدر أوامره بأن يحسم العلماء الفرنسيون الذين يصحبون قوة الغزو للأبد مسأله إســهام مصر فى حضارة العالم القديم. وبناء على ذلك، تم جمع لجنة العلــوم والفنــون، وكانت مهمتهم المباشرة والعملية هى أن يقدموا أدق ما يمكن من معطيات علميــة للمساعدة فى إدارة الحرب، وبالتالى إنشاء مستعمرة فرنسية دائمة حتى يتم إحراز النصر.

كان المشروع بسيطا: أن تستفيد فرنسا من استيراد المنتج الزراعى المصرى الذى ستتم زراعته بأحدث مشورة علمية، كما تــستفيد مــن تــصدير بــضائعها المصنعة. وسوف تكسب مصر بأن تكون لها حكومة مستقرة متحضرة بالإضــافة إلى سوق خارجية مضمونة. وبهذه الطريقة يتم دخول المصريين ببطء فى مضمار الحضارة عن طريق الاتصال الوثيق مع أرقى ثقافات أوربا الحديثة. وفى مقابــل ذلك، سوف تتقدم الأبحاث الأوربية وذلك بالبحث المتعمق فى التــاريخ الحقيقــى لمصر الفرعونية، والمغزى الحقيقى لآثارها القديمة .

كانت اللجنة تتألف من واحد وعشرين من علماء الرياضــيات، وثلاثــة مــن علماء الفلك، وسبعة عشر من المهندسين المدنيين، وخمسة عشر من ضباط الإمداد والمساحة، وثلاثة من المخططين الهندسيين، وثلاثة من خبراء البارود. ويبــدو أن وظائف هؤلاء الفنيين فى قوة غازية مستعمرة وظائف واضحة؛ كما تم إلحاق أناس أقل نفعاً مثل النحاتين والموسيقيين والأدباء. وأخذوا معهم مكتبة تضم ما يقرب من خمسمائة مجلد، بما فى ذلك: دائرة المعارف بأكملها، وسجلات أكاديمية العلــوم،

وأعمال فولتير، والقرآن، والكتابات المقدسة عند الهندوس (الفيدا)، بالإضافة إلى مجموعة من حكايات الرحلات، وكتيبات عن التاريخ العسكرى، وأعمال فنية تقنية عن الهندسة والجراحة. وكان معظم أعضاء اللجنة من الشباب، البعض منهم فقط فى العشرينيات من عمرهم، وكان أكثرهم وقارا هو عالم الرياضيات جاسبار مونج، الذى يبلغ من العمر الثانية والخمسين، بالرغم من أن زوجته كانت تعارض فى أن يذهب فى مثل هذه السن المتقدمة، إذ كانت تطلق عليه "المجنون العجوز". ونفخ فيهم بونابرت جذوة الحماس التى كانت تفور من حماسه، وبينما كانوا يبحرون، عبر مونج عن حالة اللجنة فى خطاب موجه للقائد العام: "ها أنا ذا قد تحولت إلى مغامر شبيه بالذين اتجهوا إلى أمريكا بحثا عن الذهب Argonaut إنها إحدى معجزات جيسون الجديد(*) الذى لا يحرث البحارمن أجل غزو فليس Fleece الذى لا قيمة له، وإنما هو يحمل شعلة العقل إلى بلاد لم يتسلل إليها الضوء لفترة طويلة من الزمن، إنه يمد نطاق الفلسفة ويحمل المجد الوطنى إلى ميادين بعيدة".

وما إن صعد بونابرت على ظهر السفينة لوريانت (الشرق)، وهى سفينة بها ١٢٠ مدفعا، حتى قضى معظم الرحلة البحرية إلى مصر فى قمرته، التى اختارها خصيصا الأمير لاى بروى بحيث تناسب قائدا عاما توقع أن يصاب بدوار البحر طوال الرحلة. وكان بونابرت قد أمر مونج بأن يضع على السفينة مطبعتين، واحدة للغة العربية والأخرى لليونانية، حتى يمكنه أن يبدأ حرب الدعاية قبل بدء القتال الفعلى. وأدرك بونابرت، وهو يخطط لإنشاء مستعمرة فرنسية فى مصر أن لا أمان للقوى الاستعمارية إلا بخضوع من يحكمونهم على الأقل، إن لم يكن بموافقتهم. لذا كان عليه أن يقنع الأهالى المصريين بأنه يجب الترحيب بتغيير السادة. وكانت الخطوة الأولى هى إقناعهم بأن الفرنسيين لم يأتوا لاستعبادهم وإنما لتحريرهم.

وبينما كان الأسطول يتحرك من مالطة، شعر بونابرت بأنه فى صحة جيدة تسمح له بإملاء بيانه للمصريين: "ماذا يميز المماليك من حكمة أو مواهب أو

(*) Jason والإشارة هنا لنابليون نفسه، إشارة إلى إلياذة هوميروس إذ كانوا متأثرين بالأدب الإغريقى.

(المترجم).

فضائل حتى ينعموا وحدهم بحياة رغدة بهيجة؟ هل توجد أرض طيبة؟ إنها تخص المماليك. هل يوجد عبد جميل، أو دار جميلة؟ كلها تخص المماليك. لو كانت مصر إقطاعا خاصا بهم، فليبينوا الإذن الذى منحه لهم الله".

وبينما كانت الصيحة ضد الامتيازات الراسخة لها مفعول مدهش فى فرنسا الثورية، كانت الإشارة إلى الله محفوفة بالمخاطرة فى مصر، لأن المصريين، كمسلمين، لم يكن من المحتمل أن يرحبوا بقوة من الكفار مهما حسنت نواياهم، لذا استمر البيان يقول: "يا أهل مصر، سيقال لكم إنى جئت كى أقضى على دينكم؛ فلا تصدقوا ذلك، وأجيبوا بأنى أحترم الله، ورسوله محمد، والقرآن، أكثر مما يفعل المماليك ... ألم نقم نحن بتحطيم فرسان مالطة لأنهم، بجنونهم، ظنوا أن الله أراد منهم أن يهبوا لحرب المسلمين؟"، وفيما بعد تعرض عزم بونابرت على أن يقدم نفسه باعتباره متعاطفا مع أتباع النبى لامتحان قاس فى القاهرة. وحين كان على ظهر سفينة القيادة، ذكر قواته فقط بأنهم إذا ما قبلوا كمحررين لأهل مصر، فليكبحوا أى دافع للتصرف كفاتحين: "إن الناس الذين سوف نعيش معهم يتبعون دين محمد؛ وأول ركن فى عقيدتهم هو: "لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله" فلا تعارضوهم؛ واسلكوا معهم كما سلكنا مع اليهود والإيطاليين، وأظهروا الاحترام لمفتيهم وأئمتهم كما فعلتم مع الحاخامات والأساقفة... فالكتائب الرومانية كانت تحمى جميع الأديان".

عبر البيان عن عاطفة طيبة، ولا يوجد ما يدعو للنظر إليه نظرة ريبة. فبونابرت كان يرى مهمته باعتبارها مهمة لنشر الحضارة، وكان أول جوهر للحضارة فى التراث الذى كان يحاول محاكاته هو التسامح الدينى، فمضى يمنع قواته منعا باتا من الانغماس فى السلب والنهب: "... إن السلب لا يثرى إلا عددا قليلا؛ وهو يجلب لنا العار ويحطم مواردنا؛ ويكسبنا عداوة الأهالى الذين من مصلحتنا أن نكسب صداقتهم". وأعلن أن النهب جريمة كبرى، ولم يكن ذلك تهديدا فارغا. كان بونابرت يراوح الأمل فى أن تفتح مدينة الإسكندرية أبوابها ترحيبا بجيش التحرير الفرنسى، فاتضح أن دفاعاتها هزيلة، إذ كانت حصونها مزدحمة بالنساء والأطفال وهم يصيحون بهتافات التحدى، وكان لابد من إدخال القوات. وبعد بضع ساعات من القتال فى الشوارع، تمكن بونابرت من إنشاء مقر فى وسط

المدينة، حيث تلقى استسلام قواد الحاميات. وكان المدنيون قد أطلقوا النار على القوات الفرنسية، ولكن حين مثل جندى فرنسى أمامه متهما بأخذ خنجر من عربى مسالم، تم التحقق من الواقعة، وأمر بونابرت بأن يطلق الرصاص على الرجل فى الحال.

وبعد ذلك توجه إلى القاهرة. تم تقسيم القوات إلى طابورين، أحدهما يسير حول الساحل إلى رشيد، يصحبه أسطول صغير من القوارب تحمل المؤن. والطابور الآخر يسير إلى الداخل مباشرة لموعد على النيل، حيث يتجه الجيش بعد التحامه فيدخل المدينة.

تعد حملة ٢٥ يوليو من أكثر الحملات إثارة فى التاريخ العسكرى. إذ سارت القوات الفرنسية، التى عرقلتها الدوزنتاريا، عبر الصحراء. وكانت قبائل البدو تنهكها بالإضافة إلى مراد بك وفرسان المماليك. وتقدموا نحو النصر فى موقعة الأهرام، وجمعهم قائدهم بأن ذكرهم بأن أربعين قرنا تنظر إليهم. وتم توزيع بيانات بونابرت التى تم طبعها على ظهر السفينة لوريان (الشرق) على نطاق واسع، قبل وصول الجيش إلى القاهرة، وحملها بحارة مصريون إلى المدينة. وقيل لهم أن ينشروا الأخبار بأن الفرنسيين قد جاءوا "كمسلمين حقيقيين" لتحرير إخوتهم من المماليك. لم يكن لهذه البيانات أى تأثير، إذ شعر السكان بالذعر، وحين بلغتهم أنباء هزيمة جيش المماليك، أصابهم الفزع، فكدس التجار بضائعهم على ظهر الحمير واتجهوا إلى أطراف المدينة، حيث هاجمهم المواطنون الفارون وسرقوهم، فى حين أشعل الدهماء النار فى القصور وقاموا بنهبها. بعد يومين شاهد الجيش الفرنسى الحرائق عبر النهر، وخفت حدة الهستيريا ودخل بونابرت مدينة خاضعة، كى يواجه سكانا يملؤهم الفضول والتوجس لكنهم أصبحوا غير معادين.

واستولى القائد العام المنتصر على قصر فى وسط المدينة كان يملكه قاسم بك، أحد أكثر المماليك ثراء. وبدأ فى كسب ود زعماء الأهالى، فأنشأ مجلسا من شيوخ المصريين كى يُسدوا له النصح، وكان يظهر أمامهم بالزى المصرى. وكان يقيم لهم الولائم، التى كان يأكل فيها بأصابعه ويجلس القرفصاء على الأرض. ويروى أنه قال لهم: "حين أكون فى فرنسا أكون مسيحيا؛ وحين أكون فى مصر، فأنا من

أتباع محمد". وأخيرا أطلق على بونابرت السلطان الكبير، وأمر بأن الأعياد التى تحتفل بحياة النبى يجب أن تحتفل بها القوات الفرنسية أيضا.

والأهم من ذلك أنه أصدر أمرا فى ٢ أغسطس ١٧٩٨ لاختيار مبنى مناسب ليضم معهد مصر، وكان من المقرر أن يكون على غرار معهد فرنسا، ينتخب له العلماء والفنانون الممتازون لدفع المعرفة بحال مصر الراهنة وتاريخها وعلومها وفنونها. وتم اختيار مجموعة من القصور فى ضاحية النصرية Nasrieh (؟) تعكس بشكل مناسب تطلعات المعهد الرفيعة. بها يوجد المرصد، والمعمل الكيميائى، وورش الهندسة، بالإضافة إلى العينات الكثيرة التى كانت منتظرة. وكانت بقصر قاسم بك قاعة اجتماعات راقية يمكن أن يجتمع فيها علماء فرنسا ويتحدثون مع بعضهم البعض، بالإضافة إلى حدائق ظليلة يستطيعون التمشى فيها وتبادل الأفكار. وكانت أهداف المعهد محددة بشكل رسمى كما يلى:

تقدم ونشر المعرفة فى مصر. بحث ودراسة ونشر المعطيات الطبيعية والصناعية والتاريخية لمصر. تقديم المشورة فى مختلف المسائل التى تستشيره فيها الأقسام ــ الرياضيات والطبيعة والسياسة الاقتصادية والأدب والفن ــ ويكون بكل قسم اثنا عشر عضوا.

فى الاجتماع الأول للمعهد فى ٢٣ أغسطس ١٧٩٨، تم انتخاب بونابرت نائبا للرئيس وأصر بأن ينادى، داخل أسوار المعهد ببساطة، "بالمواطن بونابرت " إلى أن يحين وقت تزداد فيه معارفه فيتبوّأ مكاناً أرفع. وكان بونابرت يرى فى المعهد تجسيدا لأفضل مبادئ المثالية الثورية. فكل المعارف يمكن الوصول إليها بروح البحث العلمى الحرة، وما دامت المعرفة تسبغ النبل على البشر، فحتى جيش الاحتلال الذى مازال يتصارع مع عدو لم يتم إخضاعه لا يجب أن يهمل السعى إليها. وهكذا بينما كان الجيش الفرنسى يتقدم أعلى وادى النيل، ويتصادم مع حشود المماليك، كان مواطنوهم من الباحثين يتجمعون فى قصر قاسم بك وهم يتنسمون هواءه العليل، كى يستمعوا إلى أوراق أبحاث عن "الظاهرة البصرية التى تعرف بالسراب"، و"بعض الملحوظات عن جناح النعامة".

ولم يكن الاندفاع فى وادى النيل ببساطة عملية استكشاف، مع أن الاكتشافات التى تمت وسجلت كانت أخلد ما يذكر بها.

كان مراد بك، زعيم المماليك قد استقر مع ما يقرب من ٢٠٠٠ رجل، بالقرب من واحة الفيوم، وانضم إليه ٥٠٠٠ من الفرسان العرب غير النظاميين. وكان قادرا أيضا على أن يعول على الدعم من البدو للإغارة على الفرنسيين، كما كان على صلة مع المتمردين فى القاهرة والإسكندرية. فأدرك بونابرت أنه سوف ينهزم أو يدفع إلى أعلى الوادى إذا كانت خطة إقامة مستعمرة مسالمة قد تكون لها أية فرصة فى النجاح. فأرسل بونابرت قوة من ٥٠٠٠ رجل تحت قيادة الجنرال ديزى كى يتعامل مع زعيم المماليك.

وكان بارون دومينيك فيفان دينون، ممثل معهد مصر، مع القوة الفرنسية أو وراءها قليلا فى الكثير من الأحيان. إذ كان البارون قد طلب من بونابرت أن يصحبه إلى مصر لأنه فى سن الواحدة والخمسين كان عليه أن يكون أكثر اهتماما بتاريخ البشرية من اهتمامه بمستقبلها. وكان دينون الفنان والكاتب المسرحى وعالم الآثار والدبلوماسى صديقا لفولتير ومن ذوى الحظوة فى بلاط لويس الخامس عشر. وحين قامت الثورة كان دينون فى إيطاليا، فعاد إلى فرنسا كى ينقذ ممتلكاته، بدلا من أن يعد نفسه محظوظا بنجاته. فى الوقت الذى كان فيه معظم أفراد الأستقراطية يتخذون الاتجاه المعاكس. وكانت ممتلكاته قد صودرت وأعيد توزيعها. وفى الوقت الذى عاد فيه إلى بلاده كان قد انحدر به الحال إلى العمل لدى الفنان جاك لوى دافيد، حيث أوكل إليه العمل المهين وهو نسخ تصاميم الموضة.

على أى حال؛ كان دينون يتمتع بأصدقاء قدامى وكذلك بشخصية آسرة مكنته من اكتساب أصدقاء جدد من بينهم روبسبيير. وسرعان ما استنقذت معظم أملاك دينون وأعيدت إليه، وبدأ يتلقى الدعوات لحضور حفلات الاستقبال المسائية فى صالون جوزيفين دى بوهارنيه حيث التقى ببونابرت، فنسى ما لحق به من إذلال، وأعيدت له مكانته كفنان على مستوى وطنى، ثم انتخب عضوا فى الأكاديمية. وكان دينون يستقبل استقبالا حماسيا فى صالونات باريس بسبب أعماله الفنية

الماجنة بصفة رئيسية(*)، وكانت توزع بين أصدقائه، ونشرت عام ١٧٩٣. وكان من المتوقع أن تكون الصحراء هى إلهامه فى مصر، ولم يعقه التزامه بالكلاسيكية عن النظر للآثار المصرية نظرة غير متحيزة .

أثناء القرن الثامن عشر، كان أشد الكتب أثرا فى فرنسا حول الآثار المصرية هو كتاب مونفوكون Monfauçon "الآثار المشروحة والممثلة بالأشكال" (١٧١٩–١٧٢٤) L'Antiquité Expliquée et representee en figures ومع أن الكتاب أخرج وكتب بطريقة بديعة، إلا أن مونفوكون حكم على الفن المصرى جريا على ما كان متبعا فى ذلك الزمان، فنعته بالفظاعة والشذوذ وسوء الذوق. وكان دينون رجلاً يحظى بالقبول باعتباره رجلا متعقلا يتمتع بالسلطة؛ وكان مقدرا لاستجابته لفن وادى النيل وعمارته أن تشكل استجابة جيله. وكان دينون مولعا بالجمال، فحين تطوع بأن يصطحب الجنرال ديزى إلى الصحراء كان يعلم أن الرحلة سوف تكون فى أرض غريبة لا يضمن المرء فيها بقاءه. ولم يكن أحد فى الحملة قد جرب بعد الظروف التى كان على ديزى ورجاله مواجهتها، من حرارة وعواصف رملية، وعداء أناس مجهولين فى الجنوب، وعدم التأكد من توافر المؤن، والمضايقة المنتظمة من عدو تتنامى قوته، يعرف الأرض. فكتب دينون: "كنت معتادا على العيش المؤقت فى المخيمات ولم أكن أخشى تناول طعام الجيش".

خرجت الحملة فى ٢٥ أغسطس ١٧٩٨بقوة قدرها ٣٠٠٠ من المشاة يرتدون أزياء ثقيلة من الجوخ وحللا ذات قبات قرمزية وصفراء، و٢٠٠ من الخيل، وثمانى قطع من المدفعية، كلها تكون طابورا يزيد طوله عن ميلين، يجوس فى الرمال. وعلى رأس هذا الطابور كان هناك شخص صغير الحجم بدا أنه يزداد حماساً مع قرب العدو: كان الجنرال ديزى جنديا محترفا نشطا يبلغ الثلاثين من عمره؛ وكان دينون فى مؤخرة الجيش وأحيانا ما يكون غارقا فى رسوماته حتى إنه لا يرىَ الطابور، إنه الفنان الأرستقراطى دينون.

وجمع مراد بك قواته من أجل القيام بهجوم رمزى فى واحة الفيوم إذ أدرك أن هذا هو التكتيك المضمون لإيقاع خسائر فادحة بالفرنسيين، حيث كانت قواته

(*) هى سلسلة من الرسوم المستوحاة من فاليك، وهو إله إغريقى يرمز إلى الفحولة الجنسية. (المترجم).

أكثر قدرة على الحركة من الفرنسيين بما يحملونه من مؤن ومدفعية. بناء على ذلك تراجع إلى أعلى الوادى وعسكر بجانب النهر إلى أن أصبح الفرنسيون بالقرب منه تماما، قبل أن يتحرك جنوبا إلى داخل الأرض المجهولة. وكان، من آن لآخر، يميل إلى الخلف كى يهاجم الطابور الفرنسى من المؤخرة، فيقطع خطوط إمداده.

واستمرت الحملة طوال الجزء الأخير من الصيف الحار. وكان ديزى نافد الصبر ويرغب فى اللحاق بالعدو لإجباره على الدخول فى معركة حامية؛ أما دينون، فكان قانعا بالاندهاش من العجائب التى كانت تتكشف مع المسير من أحد المعابد إلى أحد الآثار إلى إحدى المدن القديمة، فحين كان يرسم رسوما سريعة كان يفعل ذلك كى يحتفظ بالمناظر لنفسه وللأجيال من بعده. وكانت هناك العديد من الأشياء المشتركة بين ديزى ودينون بالرغم من اختلاف مهنتيهما، وبالرغم من أن جيلا كان يفصل بينهما. فكان دينون يستحوذ على نفسه جمال ما يراه من حوله حتى إنه لم يكن يبالى بشدة الحرارة، ومرور الوقت، أو سلامته الشخصية. وكان كثيرا ما يتخلف عن اللحاق بالطابور، فلا يحس أحد بغيابه إلا حين يقام المعسكر فى نهاية اليوم، فكانوا يرسلون بقوة كى تحميه من البدو.

فى تلك الأوقات لم يكن دينون يهتم بما يأكل أو يلبس. وأثناء القيام بحملة، كان ديزى، بالمثل، تستغرقه المهمة التى يقوم بها. وكتب بونابرت عن القائد المفضل لديه أنه "فى المعركة، دائما ما يكون سيئ الملبس، وأحيانا ما تكون ملابسه قديمة، يكره الراحة والوسائل السهلة... وكان ديزى يلقى بنفسه تحت أحد المدافع، وهو ملفوف بعباءة، وينام نوما هنيئا وكأنما هو فى أحد القصور".

ولكن مصر كان لها أثر مختلف تمام الاختلاف على كل من الرجلين. ففى الصحراء الشاسعة حيث تتعب العين من الفراغ غير المحدود، وحيث يسود "صمت انعدام الوجود فى العزلة فى المكان الشاسع" كما كتب دينون، كان ديزى يشعر بالكآبة. فى إحدى الأمسيات، وبينما كانا يتحدثان فى خيمتهما على حافة الصحراء، أسر لدينون بأنه يعتقد أن مصر أرض منسية، أو أرض غير كاملة. فبعد أن قدمت العناية الإلهية بسخاء ما يحتاجه بقية العالم، لابد أن ما لديها قد نفد حين جاء الدور على مصر، فتركت الأرض دون أن تكملها. ومما يثير الدهشة أن رد دينون كان

ردا حديثا، إذ لام الإنسان على ذلك وليس العناية الإلهية، حيث كان يرد: "أليس ذلك، بالأحرى هو عجز هذا الجزء من العالم الذى سكنه الناس من الأزمنة السحيقة، أليس من الممكن أن يكون فعل البشر السيئ هو الذى انحدر بها إلى هذا؟".

ظلت الآثار تذهل دينون. وفى هيرموبوليس فى مصر الوسطى، زار بهو الأعمدة الشهير، وأعلن أنه مبنى ظل ينتظر لمدة أربعة آلاف سنة كى يبهره بما يتمتع به من كمال. وكتب فى تحد للافتتان بالعصور الكلاسيكية: "إن الإغريق لم يبدعوا أى شيء ذى طابع أكثر جلالا". ثم اضطره ديزى إلى ترك المكان قبل أن تتوافر له الفرصة حتى يكمل رسومه، وظل متضايقا لمدة ثلاثة أسابيع، لأن ضرورات الحملة العسكرية لم تتوافق مع تواجده فى مواقع الآثار القديمة .

ثم تحرك مراد بك متقدما أكثر نحو الجنوب مرة أخرى، فوصل الفرنسيون إلى دندرة، وهم يلحقون به، فتأكد اقتناع دينون بأن مصر ـ وليست اليونان ـ هى التى أنجبت أسمى ما لدى البشرية من فنون.

أثناء عصر العقل، كان يعد من الضرورى للأحكام الجمالية والعلمية أن تكون مبنية على العقل، فالجمال الحقيقى هو تعبير عن التناسب، والعقل. ولم يكن حماس دينون لما رأى استثناء من ذلك. إذ رأى أن معمار المعبد فى دندرة يتسق تماما مع العقل. والنقوش الموجودة على جدرانه "المبنية دوما على العقل، تتفق دوما مع بعضها البعض... وهو ذوق أساسه الصدق وتسلسل للتفكير العميق". وفى هذا الكلام تتجلّى الكلاسيكية فى أنقى صورها بلا إفراط أو رومانسية. "فلا إهمال ولا إفراط فى العبقرية الممتازة؛ فالوحدة والتجانس يحكمان كل شيء". وهنا يكمن مفتاح السؤال عن عراقة مصر، ذلك السؤال الذى انقسم حوله الباحثون عبر قرون من الزمن.

لقد كان دينون قادرا على المجادلة ضد الترتيب الزمنى فى الكتاب المقدس كما وضعته الكنيسة، وذلك بأن أشار إلى أن الفن الموجود فى دندرة فن قديم دون أن يجعله ذلك فنا بدائيا. وكان معنى هذا أن مصر، هى بحق مهد الحضارة: "..فكم مضى من العصور كى تقود أمة خلاقة حتى تصل إلى هذه النتائج، إلى هذه

الدرجة من الكمال، والسمو فى الفن، وكم يلزم من العصور كى يحدث نسيان تـام لهذه الكثرة من الأشياء ولإعادة توجيه الإنسان ... إلى حالة الطبيعة التى وجـدناه عليها".

فى دندرة، كان دينون يرسم بجنون. ففى أى لحظة قد تصلهم الأنباء بأن مراد بك على مقربة منهم، فيكون عليهم حزم أمتعتهم وترك أسمى بقعة فى مصر، ربما إلى الأبد. مما جعله يكتب: "ليس لدى ما يكفى من الأيادى والعيون، ورأسى أصغر جدا من أن يرى، ويرسم، ويصنف كل ما يثيرنى". وعندما فرغ ما كان معه مـن أقلام أخذ يصهر الطلقات كى يرسم بها إلى أن تصل الإمدادات.

فى دندرة، حيث كانت تعبد هاتور مرضعة الملك، المرأة الذهبية منذ أقدم مـا سجل فى التاريخ، بدا أن شيئا روحانيا خارقا للطبيعة يعلق بالبناء المنعزل العظيم عند حافة الصحراء. إذ اعترف أحد الضباط لدينون قائلا: "منذ أن حضرت إلـى مصر شعرت بأنى كنت ضحية الغش فى كل شىء، وكنت دائم الكآبة والسقم، إلى أن عالجتنى تنتارا Tentara (والمقصود دندرة)، فما رأيته اليوم عوضنى عن كـل ما مر بى من بؤس، وليست عابئا بما يقع لى أثناء الفترة الباقية فى هذه الحملـة. ولسوف أكون سعيدا دائما بوجودى فيها".

وبينما كانوا يتحركون من دندرة، وهم ينتقلون جنوبا فى أعلى النهر لتعقـب المماليك، حدثت حادثة بدا أنها تبين أن هذا الضابط لم يكن هـو الوحيـد الـذى يستجيب لألوان الجمال التى تملأ مصر. فى التاسعة صـباحا حـين داروا حـول منحنى فى النهر، رأوا حطام مدينة الأقصر والكرنك تنتشر أمـامهم؛ البانوراما الكاملة لطيبة القديمة. فتوقف الفريق بأكمله فى استجابة تلقائية لهذا المنظر الرائع، وكتب أحد الضباط: "وبدون أن يصدر أمر، شكل الناس صفوفا وحركوا أذرعهـم فى مصاحبة الطبول والفرق الموسيقية". ربما يكون فى هـذا القـول مـس مـن الرومانسية الغالية[*]، ولكن هناك روايات مستقلة تتحدث عن توقف القـوات مـن فرط الإعجاب، كما تتحدث عن تصفيقهم. لم يخالج دينون أى شـك فـى حمـاس الرجال لما فى المبانى القديمة من جمال، إذ كانوا يتحلقون حوله كى يحموا ظهره

---

[*] الغال هو جنس مكون للفرنسيين. (المترجم).

من لفح الشمس وهو يرسم. وكتب عن "العاطفة التى تسرى كالكهرباء فى جيش من الجنود، الذين جعلنى إحساسهم الراقى أمتلئ فرحا لكونى فى صحبتهم، والفخر بكونى فرنسيا."

وصلت الأنباء إلى ديزى بأن مراد بك يعسكر فى إسنا Esna، نحو ثلاثين ميلا إلى الجنوب، وكانت هى آخر قرية لها حجم يمكن أن يقال عنه إنه قرية فى ذلك الوقت. ومرة أخرى حرم دينون من مواصلة رسومه من أجل الانطلاق فى أثر العدو. ولكنهم وصلوا بعد رحيل المماليك بساعات فقط، بعد أن أحرقوا خيامهم وأمتعتهم الثقيلة كى تخف حمولهم أثناء الفرار. ومع ذلك، كانت هناك مباهج فنية فى إسنا، تعوضهم عن الإحباط العسكرى. وقال دينون عن حطام المعبد إنه: "أكمل بقايا للهندسة المعمارية القديمة". ووجد هناك المزيد من الأدلة على أسبقية وسيادة المصريين. كانت نقوش المعبد عبارة عن تصوير للمنتجات الطبيعية فى مصر؛ ومنها زهرة اللوتس والكرم والنخيل والغاب أو البوص وما إلى ذلك، مما يبين أن المصريين لم يقتبسوا من أحد فى وصولهم بفنهم إلى الكمال: إنهم اقتبسوا من الطبيعة. وكتب دينون: "لم يضف الإغريق سوى القصص الخرافية أو الأساطير إلى أعمال اللصوصية التى ارتكبوها فى حق المصريين".

وبقيت مشكلة، وهى كيف أن ثقافة وصلت إلى مثل هذا القدر من الكمال فى الأزمنة القديمة يمكن أن تنحدر إلى وضعها الحاضر فى نهاية القرن الثامن عشر. وعثر دينون على إجابة عن السؤال، وكانت هذه الإجابة تبعث الرضى العميق فى صدر أحد مثاليى عصر التنوير: لقد هبطت منزلة مصر نتيجة نفس التأثير الذى أخر تقدم أوربا لعدة قرون، أى نفس الطغيان الذى حررت فرنسا منه لتوّها، أى الكهنة. فتماما كما خلعت الكنيسة على أسرارها رداء من اللغة الميتة كى تحتفظ بقبضتها على عقول الناس العاديّين، كذلك فإن كهنة مصر القديمة أخفوا أسرارهم الغامضة فى أسرار الكتابة الهيروغليفية التى تستعصى على الفهم، والتى غطت جدران المعابد.

فكان دينون يرى توازيا واضحا بين اليسوعيين فى زمانه وكهنة مصر القديمة: "استبداديون وضعاء مراءون... يمتلكون جميع المعارف ويلفونها فى

شعار ولغز حتى يقيموا حاجزا بينهم وبين الناس. فكان الكهنة يخدمون الملك، وينصحونه ويطعمونه ويعظونه". حتى روعة طيبة استفزت ضميره الاجتماعى فأخذ يكتب بانفعال: "المعابد مازالت المعابد.. دائما المعابد ... فلا جدران ولا أرصفة ولا جسور ولا حمامات؛ لا ولا صرح للاستخدام العام؛ أو الراحة".

وإذا عدنا إلى المعهد، فإن حدود المعرفة كانت تتسع فى حذر. ففى كل خمسة أيام، كان الباحثون يجتمعون فى قاعة قصر قاسم بك، لمناقشة أحدث الاكتشافات والخطط. وكان الكيميائى بيرترولى يقرأ أوراقا أو أبحاثا عن تكون الأمونيا، وعن طرق المصريين لإنتاج النيلة أو النيلج الأزرق التى تحضر من النباتات، واقترح دوتيتر خطة عامة لإنشاء مدرسة حول الجاذبية الدقيقة الشعرية، وفوريى وكورى يتناقشان حول الرياضيات الرفيعة. وكانت هناك ورقة فى القرن التالى أعدها عالم الجيولوجيا دولوميو تحتوى على اقتراحات لانتقاء وحفظ ونقل آثار مصرية قديمة من مصر إلى فرنسا.

إذن كانت مناقشات هؤلاء العلماء فى المعهد ترهص بالنشاط الذى كان مقدراً له أن يجلب علماء المصريات وزوار وادى النيل الأقل وقارا. ولا توجد أدلة تفيد بأن هذه الاقتراحات أثارت ما يقلق الضمير. فما هى إلا اتباع لسوابق أقرت فى إيطاليا التى "حررت" كنوزها الوطنية من المتاحف الإيطالية، كى تجد لها ملجأ آمنا فى اللوفر، إذ بدا أنه من المعقول أن الأمة التى ناداها القدر كى تكشف المغزى الحقيقى لمصر يجب أن تتخم متاحفها بالآثار. فأنشئت مجموعة من الآثار فى المعهد كخطوة أولى نحو عملية النقل. وأنيطت المسئولية بدولوميو، ومنح مساعدون يقومون "بالجمع بحرص لجميع الآثار القديمة التى يمكنهم الحصول عليها، مع إيلاء الاهتمام بتلك الآثار التى ترى المصلحة المحلية أنها جديرة بالانتباه ولكن لا يمكن نقلها دون إحداث تلف بها". وسوف نتحدث لاحقا عن ذلك.

وجاءت أوائل العينات إلى المعهد من منطقة الدلتا، ولم ينس ديزى واجبه فى المساهمة فى هذا حتى وهو فى ذروة ملاحقته للمماليك. فأرسل بتمثالين كى ينضما للمجموعة، أحدهما لأبولو والآخر لأنتينو Antinoe، غير أن الفلاح الذى كلف بنقل أبولو وجد أن التمثال شديد الثقل، فألقى به إلى النيل من على ظهر السفينة. لم يكن

المعهد بالنسبة لبونابرت مجرد مركز للمعرفة أو للحصول على الآثار المصرية، بل كان يرى فيه وسيلة للفوز باحترام زعماء البلاد وثقتهم، ذلك أنه لم يكن قد أحرز تقدما كبيرا فى هذا الاتجاه. لقد كان على وعى، ربما على غير عادته، بالحاجة إلى حكم بلد من البلاد من خلال من وجد أنهم مسئولون لأنهم تقليديا فى يدهم مقاليد الأمور. ولطريقة الحكم غير المباشر هذه الكثير من المميزات، كنظام للاحتفاظ بالسلطة الاستعمارية فى الحكم، غير أنها تتوقف على الوعى الحساس بالثقافة والزعامة التقليدية التى تسعى السلطة الاستعمارية لتسييرها. وكان بونابرت يفتقر الى هذا الوعى.

كان يعرف أنه ينبغى أن يرى وهو يساند سلطة المفتين(*)والمشايخ، وقرر أن إحدى الطرق لفعل ذلك هى السماح لهم بالاستمرار فى حمل السلاح، وهو حق حرم منه بقية السكان. كما راعى بونابرت مسألة تقديرهم لذاتهم تقديرا صحيحا، وذلك بأن أمر بأن يلقوا الاحترام فى العلن، حتى من قبل القوات الفرنسية. ولكن حين واصل مهمته بأن أصر على أن يرتدوا وشاحا ثلاثى الألوان كشعار يدل على منزلتهم حتى تتعرف قواته عليهم، كان بذلك يعاملهم معاملة الموظفين الفرنسيين فى الأقاليم، فرفضوا هذا التشريف. إذ بينما كان المستشرقون قادرين على نصح بونابرت فيما يتعلق بالنظريات الراهنة فى الآثار المصرية، كانوا يعلمون القليل عن الثقافة المصرية فى أيامه. فكان بونابرت يسبح فى بحار مجهوله فى سعيه للفوز بثقة أناس كانت طريقتهم فى الحياة غريبة عنه.

ثمة أولوية واحدة كان يشترك فيها المصريون مع مواطنى التنوير: هى احترام التعليم. كانت القاهرة هى مقر جامع الأزهر صاحب الشهرة الدولية. وكان الأزهر دارا مقدسة للعبادة كما كان جامعة إسلامية. وفى وقت حكام مصر الذين حملوا لقب خديوى(**) كان يحضر للدراسة فيه بانتظام ١٢٠٠٠ طالب من كل أنحاء العالم، يدرسون عددا كبيرا من المواد الدينية والدنيوية. فإذا ببونابرت يجد

(*) ربما يعنى علماء الدين. (المترجم).

(**) من المفهوم أن فترة حاملى لقب الخديوى أتت بعد هذه الفترة الزمنية التى كانت فيها الحملة الفرنسية على مصر، وربما كان المقصود سلاطين المماليك. (المراجع).

أن "سوربون الأزهر" قد تقلص إلى ما يقرب من ١٢٠٠ طالب، كانوا يقضون كل وقتهم في دراسة القرآن والموضوعات الإسلامية الجامدة. غير أن فخاخ الإغراء بالبحث كانت ما تزال بادية: فهناك الطلبة المخلصون للعلم، والمكتبة، ودورات المحاضرات، والأساتذة الملتحون الذين دعاهم بونابرت كلفتة كرم بين الدارسين لزيارة المعهد. فكتب الجبرتى بما يفيد أنه حين كان أحد المسلمين يريد أن يزور المؤسسة، لم يكن أحد يمنعه من ذلك، بل على العكس، كان يلقى الترحيب ".. فأنا نفسى كانت لى الفرصة فى أن أزورالمكتبة عدة مرات. ورأيت هناك من بين ما رأيت مجلدا كبيرا عن تاريخ نبينا عليه الصلاة والسلام، وكانت ملامحه المقدسة ظاهرة ــ بقدر ما سمحت به معرفة الفنانين ــ على هذا المجلد. ... وكان هناك الكثير من الكتب الإسلامية بترجمة فرنسية ... وكان بعض الفرنسيين يدرسون اللغة العربية ويحفظون آيات من القرآن".

وكان علماء الأزهر شديدى التأثر، حتى إنهم نشروا الأنباء بين زعماء القاهرة بأن اهتمام الفرنسيين بالإسلام اهتمام صادق، فبدءوا يحضرون مناقشات فى علم الكلام فى المعهد بدعوة من بونابرت، الذى كان يلعب دور الباحث المخلص عن الحقيقة، والباحث النزيه. وحين اتضح لبونابرت أنه يحقق مزيدا من التقدم فى الفوز باحترام هؤلاء الناس، وذلك بترأس المناقشات الدينية، أكثر مما كان يحققه بارتداء الزى المصرى وأكل عيون الأغنام، قرر المضى قدما فى اغتنام هذه الميزة. فسأل: "أليس من المحتمل أن النجاح الذى واكب حملته علامة على فضل الله؟"، واستطاع أن يقتبس مقاطع من القرآن، زوده بها باحثوه، يمكن أن تفسر على أنها نبوءات بالغزو الفرنسى، وسأل هل كان من الممكن أن يحرز كل هذا النصر ضد حشود المماليك دون عون النبى؟ فإذا كان الفرنسيون فى مصر ببركة النبى وطبقا لما تنبأ به، أفلا يصدر الزعماء الدينيون فتوى، أو تفسيرا للقرآن، يرشد أهلهم بأن يقسموا قسم الولاء للفرنسيين، حتى يكونوا بطريقة سليمة مواطنين للبلد الأم فى الخارج"؟، فتشاور الأئمة والعلماء لفترة قصيرة، وأجابوا بأن الأمارات، حقا، فى صالح ما يقول، وأن يد النبى يمكن التعرف عليها فى الانتصارات التى حققها بونابرت، وبقى على بونابرت أن يظهر عرفانه وذلك بأن يعتنق الإسلام علنا؛ عندها سينالون شرف توجيه المؤمنين بحلف يمين الولاء. وسوف يكون من

المناسب، بالطبع، لو أن الجيش الفرنسى بأسره يستجيب بهذه الطريقة التـــى تـــدل على التقوى وليس القائد العام وحده.

ولم يكن لدى بونابرت الكثير من المبادئ المتعلقة بالدين، كما كـــان ولوعـــا باقتباس قول هنرى الرابع: "باريس تستحق قداسا". وبالمثل، كان على استعداد لأن يلزم نفسه بأى عقيدة تجعله سيد مصر، إذ كتب: "هل من المفهوم أن الإمبراطورية الشرقية، وربما إخضاع آسيا بأسرها، لم تكن تستحق سروالا وعبـــاءة"؟ غيـــر أن اعتناق الإسلام ينطوى على ما هو أكثر من مجرد تغيير الزى، إذ إن هناك شعيرة تمهيدية شعر بونابرت أنه لا يستطيع أن يدعو قواته لاتباعها؛ فهم علـــى اســـتعداد لأن يتخلوا عن حياتهم من أجله، ولكن ليس غرلاتهم. وحاول بونابرت أن يـــشرح هذا للعلماء، فمع استعداده التام للخضوع للعقيدة الحقة، قد يستغرق الأمـــر بعـــض الوقت حتى تصبح قواته ممتلئة بنعم الإسلام الكبيرة التى تجعل من شعيرة الختان خضوعا مفرحا إلى هذا الحد. فذهب العلماء للتفكير فى هذا الأمر، وعـــاد أربعـــة منهم، وهم كبارهم، بفتوى بدا أنها تفسح الطريق من أجل تسوية: يُسمح للفرنسيين فى مصر بدخول الإسلام دون ختان، كاعتراف خاص بحدود ميـــراثهم الثقـــافى. وتليت الفتوى فى جميع المساجد.

لكن كانت هناك عقبة أخرى: قد يسمح للجيش بالدخول فى حظيـــرة الإســـلام كما هم، ولكنهم ينبغى أن ينبذوا شرب الخمر إلى الأبد. وأحس الجنرال بأنه لديـــه فرصة مشابهة فى تخليص قواته من مشكلة الإفراط فى شرب الخمر مثلما حـــدث فى موضوع الغرلة، فوضع المشكلة أمام العلماء. فتلا ذلك المزيد من المناقـــشات. عندئذ تم تعويم القضية بأن الفرنسيين يمكن أن يقبلوا كمسلمين حقيقيين ولكن الشر متأصل فيهم، فهم محرومون بسبب ثقافتهم من القدرة على اتباع الخلق القويم؛ لكن هذا الرأى لم ينل التأييد. ومع مرور الوقت، تم العثور على حل: يمكن أن تتـــرك القوات الفرنسية لذنوبها ما داموا يوافقون على أن يدفعوا كزكاة خمس دخلهم بدلا من العشر المعتاد. وتوقفت المناقشة بينما كان بونابرت ينظر فى ذلك، ولكن ليس بشكل جدى؛ إذ كان كلا الجانبين يتصنع اتخاذ موقف أو اتجاه. فكان بونابرت يعلم أن تأييد الزعماء الدينيين سوف يكسب له خضوع الأهـــالى، وكـــان علـــى أتـــم الاستعداد لمحاكاة الإسكندر الأكبر، الذى قيل إنه عبد ابن جوبتر فى مقبرة آمـــون

رع. ولم تكن لديه أية وخزات ضمير فيما يتعلق بولاء قواته الروحى؛ فهم لم يكونوا يذهبون إلى الكنيسة حين كانوا فى إيطاليا، كما كان يقول، ولم يظهروا أى اهتمام بأن يفعلوا ذلك فى مصر .

وكان معتزا بأن يكتب عن الجيش تحت قيادته: "لقد اختفت كل علامة خارجية للمسيحية، بل كل عادة دينية من بين صفوفه". وحتى بعد قبول التنازلات التى طلبها، مع ذلك، سوف ينطوى التحول العام للإسلام، على الخضوع لسلطة خارج الجيش، لذا يجب رفض ذلك. وأما عن علماء الأزهر، فلم يكن لديهم الكثير من الأوهام فى دوافع بونابرت: فقد نال احترامهم بعبقريته العسكرية؛ أما كحاكم مدنى، فهو فى حاجة إلى التوجيه؛ ولم يكن هناك أبدا من يشك فى غدره المتأصل. فانفصل الجانبان.

واضطر بونابرت إلى أن يغير سياسته من الترضية إلى الترهيب. وكانت هناك حركات تمرد فى القاهرة ينبغى قمعها، كما أن عمليات الإعدام التى أمر بها كانت كثيرة ومتكررة، حتى إن الحاكم دوجوا كتب له يقول: "إن إطلاق الرصاص صار عملية متواصلة فى القلعة، حتى إنى أقترح إبدالى بجلاد. فسوف يوفر ذلك ما لدينا من طلقات، ويتسبب فى ضوضاء أقل". ووافق بونابرت على ذلك. وحين هددت الأمراض الجلدية التى انتشرت عن طريق العاهرات فى المدينة بالقضاء على القوات الفرنسية، وافق بونابرت على معالجة المشكلة طبقا لما يتمشى مع العرف المحلى، فوضع الفتيات فى أجولة وأحكم أغلاقها عليهن وألقى بهن فى النيل .

ورغم أن الفرنسيين لم يفعلوا بالسكان ما يدانى فظائع المماليك، إلا أن المصريين، مع ذلك، رفضوا قبول الفرنسيين كأسياد أفضل من المماليك. ذلك أن أمر المماليك كان مفهوما: كانوا يلحقون الظلم بالأهالى كى يقووا من أمنهم ورفاهيتهم. وكان هذا أمرا طبيعيا، ومتسقا مع الذات ويمكن توقعه. من ناحية أخرى بدا الفرنسيون مزدوجى الاتجاه: فلقد عبروا عن الاهتمام بسعادة المصريين وهى شيء غير مطروح فى جيش منتصر؛ وتحدثوا عن المساواة والإخاء؛ وأصروا على دفع ثمن السلع والخدمات التى كان من الممكن أن يغتصبوها عنوة.

فمن الواضح أنه لم يمكن الثقة فيهم. وحتى إذا كان المعهد قد فشل فى أن يكون جسرا بين الثقافتين، إلا أنه استمر فى أداء عمله بقوة، مزيحا حدود المعرفة إلى الوراء ومحتفظا بمعايير متحضرة .

حين قاد بونابرت حملة الى سورية ضد المماليك، صحب القوات عدد من كبار الباحثين. وسمح لمونج وبيرترولى بالسفر فى عربة الجنرال رغم كبر سنهما فوضعوا ملحوظات عن التاريخ الطبيعى للصحراء، وجمعوا الحشرات والسحالى والثعابين وغير ذلك من الكائنات الأصغر من ذوات الأربع من أجل المعهد؛ وأوحى هذا للمستشرق جوبير بأن يكتب ورقة بحث عن "تسمية القبائل العربية المخيمة بين مصر وفلسطين". وفى نفس الاجتماع استمعوا إلى ورقة قدمها بيرترولى عن "الفعل الانديومترى للكبريتيدات القلوية والفسفور"، و"محاكاة بالنظم لقصيدة رعوية كتبها جيسنر"، كما قدم جوفرى دى سان الير دراسة مفصلة عن أسماك النيل قام بوضع الرسومات لها زميلة ريدوت؛ أما فوريى فقد قدم أول شرح عالمى لنظرية جديدة فى الجبر، كذلك علق عالم الفلك نوى على الطرق المختلفة لقياس الزمن.

ثم انعقد اجتماع المعهد الذى كان له أكبر الأثر فى نمو علم المصريات فى ١٩ يوليو ١٧٩٩، حين قرئ خطاب كتبه المواطن لانكرى، عضو المعهد، "يبلغ فيه عن اكتشاف بعض الكتابات، فى رشيد، وهذه الكتابات قد تثير الكثير من الاهتمام". ففى ١٧٩٩، كان كابتن بوشار ضابط المهندسين، يقوم بالحفر فى أساس موقع دفاعى يسمى حصن سان جوليان، فى الضفة الغربية للنيل، حين لاحظ وجود قطعة كبيرة من البازلت الأسود على وجهها مغمورة فى الطين.

وحين تم تنظيف الصخرة، أمكن رؤية أن الكتابات فى ثلاثة أطواق منفصلة، كانت أكثرها انخفاضا باللغة الإغريقية، والثانية بأحرف مجهولة، والثالثة بالهيروغليفية. فإذا ما اتضح أن هذه الكتابات هى عبارة عن ترجمة إلى لغات مختلفة لنفس النص، فقد يقدم هذا الحجر مفتاحا يؤدى إلى فك رموز الكتابة الهيروغليفية. وحدد فقهاء اللغة الطوق الأوسط من الكتابة على أنها "حروف متصلة للغة المصرية القديمة"، وتعرفوا على الألفاظ المصرية فى الطوق

الإغريقى. وتمت الخطوة الكبرى نحو أعظم تقدم فى معرفة تاريخ المصريات. وبعد قراءة الخطاب بشهر، ركب بونابرت قاربا صغيرا فى النيل بعد منتصف الليل بقليل وأبحر إلى الإسكندرية، كى ينقل ما معه من هناك؛ إلى سفينة أخرى إلى فرنسا.

كان قد تلقى نبأ بأن الجيش الفرنسى فى إيطاليا يتراجع، وأن مالطة تحت الحصار، وأن الموقف السياسى فى باريس ـ تحت السيطرة المهتزة لحكومة الإدارة ـ آخذ فى التردى. وبذلك يكون حلم تكوين إمبراطورية فى مصر قد تبدد تقريبا. ظل الحلم يتلكأ فى حين كان جنرال كليبر يحاول أن يتبع التعليمات التفصيلية التى تركت له: استكمال استعمار مصر أثناء غياب قائده لفترة قصيرة، كما وعد. وكتب بونابرت: "سوف أصل إلى باريس، وسوف ألاحق هذه العصبة من المحامين الذين يسخرون منا فى حين أنهم غير قادرين على حكم الجمهورية، ولسوف أقوى هذه المستعمرة الرائعة". ووعد بأن يبعث بتعزيزات بمجرد وصوله إلى فرنسا، غير أن طموحات أخرى عطلته. ولم تصل التعزيزات أبدا. ونسيت مصر.

وسرعان ما وجد كليبر نفسه واقعا تحت هجوم من الأتراك والبريطانيين، واستطاع أن يتفاوض على سلام مشرف يسمح للفرنسيين بأن يغادروا مصر حاملين أسلحتهم، غير أنه لم يكن من اليسير استرضاء الحكومة البريطانية فتنكرت للاتفاقية. وكان لابد من أن تمر ثمانية عشر شهرا أخرى من القتال العقيم إلى أن أجبرت قوات مشتركة من البريطانيين والأتراك الفرنسيين على الموافقة على شروط أكثر قسوة فى ربيع عام ١٨٠١. وكان أهم بند فى معاهدة الاستسلام المذعن بالنسبة لتاريخ علم المصريات مكتوبا فى المادة السابعة، التى نصت على أن كل مجموعات المعهد صارت رهنا لدى البريطانيين. وحاول أعضاء المعهد الهرب بمجموعاتهم إلى فرنسا، غير أن السفن البريطانية أعادتهم. وقالوا إن مجموعة المعهد لا يفهمها العالم دون المعرفة التى تتوافر لأولئك الذين قاموا بجمعها. ومن الجرم فصل العلماء عن مادتهم الخام، وهو جرم لن يغتفره العالم. وأعلنوا: "أننا سوف نحرق ثرواتنا بأنفسنا قبل أن نسمح بهذا السلب والتخريب

الظالم. فأنتم لا تسعون إلا للشهرة. حسن جدا، يمكنكم أن تعولوا على ذاكرة التاريخ: إذ سوف تكونون قد أحرقتم مكتبة أخرى فى الإسكندرية".

ولم يستطع الجنرال مينو Menou (وكان كليبر قد اغتيل) أن يفهم السبب فى كل هذه الجلبة. إذ كتب للجنرال هاتشينسون: "لقد أبلغت توا أن العديد من مكونى المجموعات يودون أن يتابعوا ما لديهم من حبوب ومعادن وطيور وفراشات وزواحف فى المكان الذى تحددونه لشحن أمتعتهم. ولست أدرى ما إذا كانوا يودون أن يعتقلوا لهذا الغرض، غير أنى لا أستطيع منعهم". وبعد مرور بعض الوقت، تم التوصل إلى حل وسط، سمح للفرنسيين بموجبه بالاحتفاظ بمعظم المجموعة وشحنها إلى فرنسا. واحتفظ الجنرال هاتشينسون بحجر رشيد، الذى تم تقدير أهميته رغم أن كتابته ظلت دون أن تفك رموزها. وأرسل كهدية الى جورج الثالث، الذى أعطاه عن غير فهم للمتحف البريطانى. ومع ذلك، لم تنقطع صلة فرنسا به، إذ كانت لدى الباحثين نسخة خاصة بهم فى باريس.

أخفق الفرنسيون فى إنشاء إمبراطورية لهم فى مصر؛ ولم يطل عمر تهديدهم للبريطانيين فى الهند. وانتهت المغامرة دون أن تثمر عن أى ميزة عسكرية مضمونة رغم انسحاق المماليك. ومع ذلك، تم إنجاز شيء هائل: فللمرة الأولى أصبحت أبواب مصر مشرعة لأبحاث المؤرخين وعلماء الآثار. إذ زودهم المعهد بكتاب مرشد له مكانته؛ فإذا كان الفرنسيون لم يستطيعوا فتح مصر، فقد نجحوا نجاحا تاما فى وصفها فى كتاب "وصف مصر" العظيم، الذى نشر فى باريس فيما بين عامى ١٨٠٩ و٢٨ فى ثلاثة عشر مجلدا من اللوحات الفخمة الرائعة، وعشرة مجلدات أخرى من النص المكتوب.

وبينما وضع بونابرت أسس علم المصريات، كان أيضا منغمسا فى تصرفات عطلت تطور ذلك العلم. فعند مغادرته مصر، حمل معه سبع قطع أثرية صغيرة، هدية منه لجوزيفين، وضعتها فى مالاميزون. إحدى هذه القطع كانت تمثالا ينتمى للمملكة الوسيطة يمثل مصريا جالسا. وعرض هذا التمثال للبيع بعد ذلك بقرن فاشتراه لورد أمهيرست لورد هاكنى؛ وفى ١٩٢١، اشتراه ويليام راندولف، بارون الصحافة الأمريكى من مبيعات أمهيرست، وانتهى به المطاف فى متحف بروكلين. وهكذا بدأ نهب الكنوز المصرية بداية جادة.

الفصل الثانى

ساحة للنهب

قبل متابعة استكشاف وادى النيل، كان لابد من تهدئة البلاد. فحين رحل الفرنسيون، كانت سلطة المماليك قد أزيلت، ولكن لم يتم تدميرها، فتقدمت الحكومة التركية كى تكمل هذه المهمة، وأرسلت رسائل لطمأنة بريطانيا، وتعليمات أكثر تقليدية للأدميرال الأعلى، حسين باشا.

فدعا حسين باشا زعماء بكوات المماليك كى يقضوا وقتا لطيفا على ظهر سفينة القيادة (سفينة الأدميرالية)، وأخذ يلقى بهم إلى البحر أثناء عبورهم لخليج أبو قير فى قوارب مفتوحة. فتدخل الجنرال هاتشينسون، الضابط الذى يقود القوات البريطانية، لمنع الذبح المنظم لمن تبقى منهم، بل إنه طالب بإطلاق سراح السجناء. ومن الواضح أنه لم يكن من الممكن تسوية الأمور بشكل مرض مع وجود البريطانيين؛ فرحلوا فى مارس عام ١٨٠٣، وكان الممثل البريطانى الرسمى الوحيد هو القنصل الكولونيل ميست، إذ تُرك فى الإسكندرية ومعه تعليمات بأن يقدم النصح والإرشاد الأبوى... لينقل للحكومة البريطانية معلومات حقيقية عن الأحداث التى سوف تقع فى مصر العليا والسفلى (الدلتا والوادى) أثناء ما يجرى من مناقشات على السيطرة. وكان من المتوقع أن هذه المناقشات لابد أن تقع بين

المماليك والأتراك عندما لا يحس أى من الطرفين بالرهبة الشديدة من وجود الجيش (يقصد الجيش البريطانى)، وحين يشعران بالحاجة إلى النصيحة السليمة فسوف يقدمها القائد البريطانى، باعتبارها وجهة النظر الأكثر استقامة ونزاهة (وقد كانت بالفعل كذلك) يعززها سلوك كريم تصالحى هادئ تقريبا.

ومع رحيل المرشد المتعقل (المقصود الكولونيل ميسّت) فى طريق عودته بسلام إلى لندن، لم يتبقّ إلا أن يجمع الحاكم التركى محمد خسرو قواته ويسير جنوبا على طول الوادى، من أجل مواجهة فاصلة مع قوات المماليك، غير أن قواته رفضت أن تسير إلى أى مكان. وكانت هذه القوات تتألف، بشكل رئيسى، من المرتزقة الألبان الذين لم تُدفع متأخرات أجورهم. وحين كان رد الحاكم على مطالبهم هو إطلاق النار عليهم من القلعة، اجتاحوا المكان وقاموا بإزاحته. وكان البديل أشد سوءاً. فبعد أن تولّى طاهر باشا قيادة قوة من الأتراك الموالين، لم يدم حكمه أكثر من ثلاثة وعشرين يوما حين نفد صبر هذه القوات بسبب الإبطاء فى تسوية متأخراتهم، وكان من المحتم وضع مهمة القضاء على المماليك على الرف إلى أن يسوى من أرسلوا للقيام بهذه المهمة خلافاتهم. فأعقب ذلك فترة من الحرب الأهلية كان الألبان أثناءها يقاتلون الأتراك ١٨٠٦ــ ١٨٠٩، وكان المماليك يغيرون من آن لآخر على الطرفين. لقد كانت فترة تسودها البلبلة، وضع حدا لها رجل قوى وصل للسلطة بالتعامل مع الجماعات المتحاربة وتلاعب بها كما كان يحدث كثيرًا.

جاء محمد على، وهو ابن لفلاح مزارع ألبانى، إلى مصر قائدا لقوة من المرتزقة. وكان يساند كلا من الأتراك والمماليك فى الحرب الأهلية، وبمرور الوقت تمكن من أن يصبح سلطة مستقلة فى القاهرة، بقوة قوامها ١٠٠٠٠ من الألبان. وكان يحتج بأن همه الوحيد هو حفظ القانون والنظام فى العاصمة. وفى ١٨٠٥ شعر الجميع بأنهم يتمتعون بما يكفى من الأمن بحيث يتخذون الخطوة التالية، فسجن الحاكم التركى (الوالى العثمانى) بمساندة المشايخ المصريين، وبعث برسالة ودية إلى القسطنطينية يقول فيها إنه استولى على الحكم، كإجراء مؤقت ليس إلاّ، كى يحفظ النظام.

وفى السنة التالية، عين الباب العالى (الحكومة التركية) محمد على باشا على مصر. ذلك أن الباب العالى الذى كانت له خبرة استمرت قرونا فى جوانب القصور فى الحكم عن بعد، قد كون قدرة على قبول تلك الأشياء التى لا يملك تغييرها. وبعد طرد المماليك إلى الصعيد لم يكونوا قادرين على تقديم يد العون حين نزلت قوة الحملة البريطانية فى ١٨٠٧ كى تعيدهم للسلطة. ولم ينبع هذا التدخل من ثقة فى قدرات المماليك الإدارية بقدر ما كان نتيجة الرغبة فى تسديد ضربة للأتراك الذين وقفوا إلى جانب نابليون فى أوربا. وأرسل محمد على، الذين كان يقوم بحملة ضد البكوات فى ذلك الوقت، رسائل يعد فيها بالاستجابة لجميع مطالبهم إذا انضموا إليه فى طرد الغزاة. فقضت القوات المشتركة على البريطانيين فى الإسكندرية؛ ثم أجبروا من تبقى منهم على المسير إلى القاهرة حاملين رؤوس الموتى من رفاقهم، وتم تعليقها على أسنة الرماح حول ميدان الأزبكية.

وكان المماليك ينقسمون بين حلفاء محمد على، وهم الذين كانوا مناوئين للبريطانيين، وأولئك الذين كانوا يتطلعون للبريطانيين كى يعيدوهم لسلطتهم السابقة. وكانت ماتزال هناك مناوشات من وقت لآخر، حول القاهرة، فقرر محمد على أن يغير تكتيكاته. فدعا البكوات المماليك فى القاهرة لحضور حفل تكريما لابنه، الذى كان سيناط به أمر قيادة الجيش. وبعد أن تناول المماليك القهوة فى القلعة، اقتيدوا فى موكب أسفل المنحدر، والطريق الضيق المؤدى إلى البوابة الكبيرة، حيث حرس الشرف فى المقدمة، وآخر فى المؤخرة. وما إن عبر الألبان، الذين سبقوا البكوات البوابة حتى تم إغلاقها على المماليك، واستولى الألبان على الأسوار وأخذوا يطلقون عليهم النار. أما الذين حاولوا التراجع، فقد أطلق الحرس النار عليهم من الخلف؛ فقتل جميع المماليك الذين كان عددهم ٤٧٠ ما عدا أحد البكوات، كما تروى الحكايات، إذ ركب حصانه واتجه إلى الحواجز وقفز، فمات الحصان بسبب السقطة، وبقى الخيال.

ودانت البلاد لحكم محمد على، إذ هزم البريطانيين، وفاز بتأييد المصريين، وأخذ السلطة من الأتراك، وقضى على المماليك، وأصبح يتمتع بسلطة مطلقة، إذ كتب إدوارد لين أحد الزوار الإنجليز عنه: "يمكنه إعدام أى شخص من رعيته دون

الالتزام بشكلية عقد محاكمة، أو تقديم أى سبب؛ فحركة أفقية واحدة من يده تكفى للإيعاز بقطع الرأس".

وما إن استقرت السلطة فى يد محمد على، حتى بدأ فى تحويل مصر إلى دولة حديثة. وكان فى استطاعته أن يلعب دور المستبد الطيب. فكما كان يحكى لأحد الزائرين الأوربيين عن صراعاته الأولى: "لست أحب هذه الفترة من حياتى، وماذا يستفيد العالم بالتغنى بهذه الصراعات التى لا تنتهى، وهذا البؤس والدهاء وسفك الدماء، الذى قادتنى إليه الظروف قسرا..... لن يبدأ تاريخى إلى أن أنهض بهذه الأرض بعد أن تحررت من كل القيود... من تلك الغفلة التى دامت لعصور".

وحين كان محمد على يحاول أن يجعل مصر تليق بالعالم المعاصر، تطلع للغرب من أجل العون. وكان شغوفا بمقارنة نفسه بنابليون، وكثيرا ما لفت الانتباه إلى أنه هو ونابليون ولدا فى نفس العام. لقد حاول نابليون تحديث مصر، وألزم محمد على نفسه بالاستمرار فى إنجاز هذا العمل. فتم استدعاء الخبراء الغربيين للمساعدة فى تنظيم اقتصاد البلاد؛ ولقى التجار الغربيون الترحيب. وأخيرا، شجع محمد على إنشاء القنصليات كى يحمى مصالح الأجانب فى مصر. ومن خلال مثل هذه الخطوات انتقل الصراع الأنجلو فرنسى من ميادين القتال فى أوربا إلى وادى النيل، ومورس الصراع بنفس الكراهية، ولكن بقدر أكبر من الدهاء وقدر أقل من سفك الدماء.

أثناء الفترة الطويلة التى قضاها محمد على للوصول للحكم كان هناك القليل من النشاط القنصلى فى مصر. ويرجع ذلك، بصفة رئيسية، إلى عدم وجود سلطات مستقرة يمكن ممارسة الدبلوماسية معها. ومع ذلك فقد احتفظت القوتان العظميان بممثلين شغلوا أنفسهم بأمور أخرى، مثلما فعل الكولونيل ميست الذى تُرك فى ١٨٠٣ كمراقب نزيه للبريطانيين، والقنصل الفرنسى بيرناردينو دروفيتى. فأكثرهما انشغالاً وضع الأساس لبدعة الأنشطة فوق القنصلية، وذلك بأن أصبح أكثر من فى عصره تنظيما وطاقة فى جمع الآثار. اسمه عند الميلاد بيدمونتيز. ثم صار اسمه دروفيتى Drovetti بعد ذلك. كان صلبا ذكيا واسع الحيلة، ودرس القانون قبل التحاقه بالجيش الفرنسى، وخدم بوصفه كولونيل مع بونابرت فى

مصر. وعند عودته إلى أوربا عام ١٨٠١، فى الخامسة والعشرين من عمره، عين قاضيا عسكريا فى توران. وفى العام التالى، عاد إلى مصر نائبا للقنصل فى الإسكندرية.

وحين اعترف الأتراك بنابليون إمبراطوراً لفرنسا، ثأر البريطانيون بتمكين المماليك فى الإسكندرية، فانتقل دروفيتى إلى القاهرة للعمل على مساندة المعارضة، التى سرعان ما تمثلت فى محمد على، فوقف وراء المنتصر، وحين استولى محمد على مقاليد الأمور فى البلاد اتخذ دروفيتى مكانة الحليف والصديق. وكان الأثر العملى لهذا أن دروفيتى تولّى لبعض الوقت، أعمال التنقيب فى وادى النيل. كانت أعمال التنقيب فى السابق تتم بصورة عشوائية. لكن محمد على أمر بألا يترك أى أحد يتخذ طريقه بسلام أو يقوم بأعمال الحفر ما لم يكن قد حصل على إذن صريح منه على هيئة فرمان أو خطاب تفويض. وكان دروفيتى هو المسئول عن تقديم الطلبات للباشا من أجل الحصول على الفرمانات، وبذلك استطاع أن يعوق أية طلبات لها أهمية حيوية. وأثناء عمله فى مصر، كدس مجموعة شخصية كبيرة من الآثار كان يبتهج بعرضها على زواره، معلنا أنها، فى يوم ما سوف تثرى متاحف باريس.

أما الكولونيل ميست فكانت صحته معتلة، طوال خدمته فى مصر، بل أصيب بالشلل فى أواخر هذه الفترة، فلم يكن يشكل منافسا خطرا بالنسبة لدروفيتى. وعند تقديم ميست لاستقالته عام ١٨١٥، وصل رجل إلى مصر كى يحل محله، وكان هذا الرجل مكلفا بالكشف عن الآثار للمتحف البريطانى، وبدأ التسابق من أجل الحصول على كنوز النيل.

كان هنرى سولت نتاج عصر الرعاية الأبوية المهيمنة. ولم يفطن إليه المؤرخون المحدثون الذين كتبوا عن مصر لأن وصوله إلى السلطة كان عن طريق التعامل الذكى مع أفراد الطبقة الأرستقراطية وكبار المسئولين بشكل لم يعد يعترف به أحد باعتباره شكلا سليما من أشكال التعامل. كان سولت هو أصغر ثمانية أولاد لطبيب من ليتشفيد، قال عنه كاتب سيرته إن مرانه مكنه من أن تكون له "قدره هائلة على المنافسة"، وأنفق جزءا من هذا على تدعيم هنرى الصغير

باعتباره رساما غير ناجح للشخصيات فى لندن. وبدأ حظه يتغير حين وقعت عيناه، ذات يوم، على لورد فالينسيا ابن أيرل ماونتنوريس ووريثه وهو يتسكع فى قاعة فوزيلى فى بول مول فى صحبة مؤدبه (معلّمه) توماس بات الموقر. وتصادف أن كان بات هذا هو خال هنرى، لذا رأى الشاب أن هناك فرصة للتعرف إلى الطبقة الأرستقراطية، فقدم نفسه على الفور، فتم قبوله فى دائرة الأسرة بشكل لا يجعله لصيقا بها التصاقا تاما.

وفى عام ١٨٠٢ أعلن لورد فالينسيا أنه يخطط للقيام برحلة إلى الهند، فكتب هنرى سولت إليه مباشرة يطلب منه أن يصحبه كسكرتير أو رسام للمشروعات. وأجاب سيادة اللورد بأنه، فى الحقيقة، ليس فى حاجة إلى أى من هاتين الخدمتين، ولكن نظرا إلى وضع الشاب المحزن ورغبته فى ترك النهج الذى كان ينتهجه، فيمكنه مع ذلك أن يحضر. وسافرا لمدة أربع سنوات. وأثناء الرحلة قضيا بعض الوقت فى الحبشة؛ وحين عادا أوصى لورد فالينسيا أن تفتح بريطانيا مفاوضات تجارية مع الحبشة. وأرسل هنرى إلى هناك حاملا هدايا من ملك بريطانيا العظمى إلى الإمبراطور. فأعدت أوراق اعتماده كممثل بريطانى إلى الشرق الأوسط.

وبعد أن عاد سولت إلى لندن، قضى بعض السنوات يكتب رحلاته ويُدْعى إلى ولائم العشاء كى يحكى تجاربه، لكن إنجلترا لم تلائمه وكان دائم المرض. فحين علم أن الكولونيل ميست القنصل العام فى مصر استقال بسبب اعتلال صحته، لمح فرصته فسعى لنيل هذه الوظيفة. كانت خطته تتألف من التنقل فى لندن طالبا من ذوى النفوذ من أصدقائه أن يكتبوا نيابة عنه إلى وزير الخارجية لورد كاسلرى. وكان هناك اثنان من مسانديه هما لورد فالينسيا وسير جوزيف بانكس، الذى كان حينئذ رئيس الجمعية الملكية. وتكللت مساعى سولت بالنجاح فى الضغط على لورد كاسلرى. وحين تم تعيينه، أظهر عرفانه للسيدين بأن وعد بأن يجمع آثارا لهما. إذ كان لورد فالينسيا يرغب فى أن يزين مقر العائلة فى آرلى هول بالتحف، أما سير بانكس، فقد كان واثقا من أن أى شىء يستطيع سولت جمعه فى وادى النيل سوف يلقى الترحيب من جانب المتحف البريطانى، الذى كان أحد رعاته. وكان ويليام هاميلتون وكيلا بوزارة الخارجية، وقد تمتع سولت برعايته،

لذا طلب منه أن يتصيد حجر رشيد آخر، وأضاف مشجعا: "مهمـــا كلـــف ذلـــك، فلسوف تدعمه أمة مستنيرة بكل غبطة، إذ هى مشوقة إلى أن تستبق منافسيها فـــى عمل ما هو فى صالح العلم والأدب".

وبعد أن ضمن سولت منصبه، بقى عليه أن يجد زوجة تشاركه أعباءه ومكانته الدبلوماسية. فركز انتباهه على وريثة من بيرمنجهام تنتظر ثروة كبيـــرة، وأخـــذ يتودد إليها شخصيا وعن طريق الأشعار، على الرغم من تحفظات أبيها. غيـــر أن سولت أجبر على الإبحار إلى مصر وحده؛ إذ لم يشعر الأب أو الابنـــة أن شـــابة راقية مثلها تتمتع بكل ما يمكن أن تقدمه بيرمنجهام من صنوف الرقـــة والتهـــذيب يجب أن تتعرض لمختلف ألوان الحرمان فى القاهرة. غير أن مقر الرجل الأعزب الذى أنشأه سولت فى القاهرة فى عام ١٨١٦ كان من الممكـــن أن يكـــون مكانـــا محتملا بالنسبة لوريثة من بيرمنجهام. إذ إنه استخدم طاقم العاملين اللازم للحفـــاظ على مكانته الاجتماعية، وكان لديه سكرتير كتب هو عنه "أزوده بكل شىء". ولما كان الإيجار الذى يدفعه هو خمسين جنيها فى السنة، فقد كتب شاكيا إلى لنـــدن أن أقل الضروريات اللازمة كى يحافظ القنصل على الاحترام تكلفه كل راتبه. فهو فى حاجة إلى دخل إضافى، وفتح جهده ـــ للحصول على هذا الدخل ـــ فصلا جديـــدا فى قصة علم المصريات.

إن سرقة المقابر فى مصر لها تاريخ قديم مشين. فلما كانت العادة هى دفـــن الملوك والنبلاء ومعهم أغلى ممتلكاتهم، لذا فإن أول أحياء يستفيدون من الموتى هم الذين يقومون بدفنهم. وتسجل الكثير من أوراق البردى إجراءات قانونية اتخـــذت ضد منتهكى حرمة المقابر. ويقول تحقيق رسمى فى ١٣٠ ق.م: "هذه هى المقابر والأضرحة التى ترقد فيها أرواح القدامى المباركة من نساء وأنـــاس فـــى أرض المدينة الغربية، ولقد وجد أن اللصوص قد سطوا عليها جميعا، وأنهم أخرجوا من التوابيت والأضرحة الحجرية شاغليها وألقوا بهم فى الصحراء، وسرقوا ما بها من الأثاث الذى أعطى للموتى، وكذلك الذهب والفـــضة والزينـــة التـــى كانـــت فـــى التوابيت".

وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر، كان من عادة المنعمين الذين لا عمل لهم، أن يتجولوا فى البلاد الأجنبية ويجمعوا الأشياء الغريبة كى يملئوا بها حجراتهم الخاصة بما يثير الفضول فى بلادهم، فيستثيرون عجب أصدقائهم. ولم ينقص هذا بشكل خطير المخزون من كنوز وادى النيل، غير أن الشهية قويت أثناء القرن الثامن عشر. وفى الوقت الذى استقر فيه سولت فى القاهرة، كانت هناك تجارة مزدهرة فى الآثار والأشكال المزيفة. كان النحات الفرنسى جان جاك ريفو قد وصل إلى مصر عام ١٨٠٥، وقضى بها ما يزيد على الأربعين عاما، وكتب أن العرب تحيروا طويلا من القيمة الرفيعة التى يوليها الأجانب لقطع قديمة عديمة النفع من الحجارة والتماثيل، فخرجوا بالتفسير الخاص بهم فقال البعض إن المنقبين وثنيون يعبدون الآلهة القديمة لأنهم شاهدوهم يحتضنون التماثيل؛ ولأنهم شاهدوهم من آن لآخر يرطّبون الحجر بألسنتهم كى يحددوا تركيبها، فقالوا إنهم يمنحون القبلات خلسة لآلهتهم المعبودة. وهناك آخرون حيرهم ما يبذله الأوربيون من جهد ومال للكشف عن قطع متناثرة، وفسروا ذلك بأن قطع الرخام القديمة تحتوى على الذهب، وأن المنقبين قد عثروا على سر استخراجه. فاكتشف سولت عند وصوله أن الآثار أصبح من الصعب شراؤها لأن الطلب فاق العرض مؤقتا.

أثناء ذلك، كان دروفيتى فى جولة فى الصعيد، يشترى كل ما يمكنه العثور عليه كى يضمه إلى المجموعة الخاصة به، التى فحصها سولت وأعلن أنها تساوى ٤٠٠٠ جنيه. فى ذلك الوقت لم تكن هناك قيمة سوقية متفق عليها للآثار المصرية، وكان من المقدر أن يتسبب هذا الوضع فى تعقيدات مخيفة بعد ذلك فى حياة سولت العملية. غير أنه علم منذ أسابيعه الأولى فى مصر أن التنقيب سوف يجلب له المال، وكان هو فى حاجة إلى المال، فكتب إلى راعيه الأرستقراطى الذى نال لقب أيرل ماونتنوريس:" لقد اتبعت كل وسيلة لجمع الآثار، ويسرنى أنى قد حققت نجاحا عظيما؛ حتى إنى سوف أرسل فى الربيع أشياء لم ترها من قبل، على أنى أبلغك بأنى أترقب ما يمكن عمله فى الصعيد، بحيث إنى أجد نفسى غير قادر على الإحجام عن تكوين مجموعة لنفسى؛ على أى حال، يمكنك الثقة فى الحصول على نصيب طيب، ومع أن مجموعتى قد لا تجعل مجموعتك فريدة، إلا أنه يمكنك أن تعول على رفضى التخلى عنها، وعلى أنى سوف أتركها لك فى حال وفاتى، لقد

اضطررت الى دفع نفقات هائلة كى أكتسب اسما محترما ..."، وكان اكتساب اسم محترم ينطوى على إزاحة دروفيتى من احتكاره لتجارة الآثار.

كان دروفيتى قد كون وكلاء فى جميع المواقع على طول وادى النيل، لديهم تعليمات لإحباط أى حفر دون إذن من القنصل الفرنسى، وادّعى لنفسه الحق المنفرد فى جميع المواقع التى زارها. ومن حسن حظ سولت، أن صدرت الأوامر لدروفيتى بالانتقال إلى الإسكندرية قبل وصوله بوقت قصير، فأصبح سولت طليق اليد فى أن يستغل معرفته بمحمد على، تلك المعرفة التى يرجع تاريخها إلى زيارة سابقة كان قد قام بها لمصر فى صحبة لورد فالينسيا. وسرعان ما كتب تقريرا بأنهما على خير ما يرام، وأن النفوذ الفرنسى فى حالة من التراجع "ولأن الباشا لا يستمع إلا نادرا لأى شكايات سوى ما أقدمه له، ... فإن التجار فى الحالات الطارئة، يستنجدون بمساعىَّ الحميدة كى أعمل لصالحهم". وكان الأجانب الذين لا يوجد لهم قنصل فى مصر يقدمون الطلبات له باستمرار "كى يكونوا منضوين تحت لوائنا". وكانت النتيجة هى أن اتفق القنصلان على تقسيم الغنائم فيما بينهما، فتكون الضفة الشرقية من نصيب دروفيتى بينما تكون الضفة الغربية من نصيب سولت. فكتب المستكشف ريتشارد بيرتون: "كانت بلاد النيل فى ذلك الوقت ميدانا للنهب، كما هى الآن، وتكونت الثروات من أعمال الحفر، ليس بحثا عن الذهب، وإنما عن التحف؛ وصار ميدان الآثار ساحة معركة لجيشين من التراجمة والفلاحين، أحدهما تحت قيادة سولت المهيب، والآخر تحت قيادة دروفيتى".

ومع أن سولت قد تخلف عن دروفيتى بعقد فى دخول سوق الآثار، إلا أنه سرعان ما لحق به، ويرجع هذا إلى حد كبير، لجهود زميل ومستخدم هو فى نفس الوقت أحد معارفه ، فصفته الدقيقة غير واضحة لكنه غاية فى الأهمية، وحين مرت بسولت أوقات عصيبة أوكل إليه القيام بإحدى المهام. ولقد صار هذا الشخص من الشخصيات الشهيرة فى تاريخ علم المصريات، إنه: "عملاق التمثيل الصامت"، و"رجل السيرك القوى"، و"شمشون بادوا": جيوفانى باتيستا بيلزونى.

ولد بيلزونى فى بادوا عام ١٧٧٨، ابنا لحلاق، وقضى شبابه فى إنجلترا يعمل ممثلا فى الأسواق، والمسارح، وكذلك ساحرا، ورجلا يقوم بالأعمال القوية

الخارقة. وظهر فى سادلرز ويلز عام ١٨٠٣ مع جريمالدى، البهلوان الشهير، فى دور العملاق الذى يقتله جاك، كما قدم استعراضات لأعمال القوة. وقدم بيلزونى أيضا أعمال "أكوا دراما" أى التمثيل داخل الماء فى المسارح بالقرب من نهر التيمز، حيث تقوم نماذج للسفن بالمعركة مع بعضها البعض فى صهاريج مملوءة بالمياه، بينما تتلألأ حولها النافورات الملونة. وهذه الأعمال إن كانت غير مجهدة، إلا أنها كان لها دور أعظم فى مستقبله العملى.

فى ربيع ١٨١٥، كان بيلزونى يقيم فى مالطة مع زوجته سارة وصبى إيرلندى، هو جيمز كيرتين. فى ذلك الوقت التقى بأحد وكلاء محمد على يسمى خطأ كابتن إسماعيل جبل طارق .كان يفتش عن فنيين غربيين للمساعدة فى الخطة العظيمة لتحديث مصر. وكانت مشكلة مصر، لآلاف السنين، هى الرى، فخطر فجأة لبيلزونى أنه هو الرجل الذى يملك الحل. وشعر بيلزونى بالثقة فى قدرته على تصميم عجلة مائية يمكن أن تُنتج على نطاق واسع، على اتساع المساحة الصالحة للزراعة فى وادى النيل، مستخدما فى ذلك خلفيته فى الألعاب المسرحية المائية. وبلغ من تأثيره على وكيل الباشا حدا جعله يستقر فى أحد منازل القاهرة فى شهر أغسطس التالى ويتلقى عطية من محمد على قدرها ١٠٠ دولار إسبانى شهريا (حوالى ٢٥ جنيها إسترلينيا)، وتُرك كى يعكف على إنجاز اختراعه.

لم يحضر محمد على عرضا لعجلة بيلزونى حتى ربيع ١٨١٦، وحين تمت تجربتها دارت بطريقة جيدة، و كان يجرها ثور، وحكم الباشا بأنها تفوق جودة سابقاتها بأربعة أضعاف. ثم طلب أن يرى ما عساه أن يحدث لو أن العجلة جرها رجال، فقفز اثنا عشر رجلا من العرب يتقدمهم جيمز كيرتين داخل الطبلة. وبمجرد أن بدأت العجلة تدور، قفزوا جميعا خارجها، إذ جعل وزن المياه الطبلة ترجع إلى الخلف ملقية بكيرتين إلى الخارج، فكسرت إحدى ساقيه. كان هذا فألا سيئا؛ وحُكم بفشل التجربة. وحل اليأس ببيلزونى، ذلك أن راتبه كان متأخرا لمدة خمسة أشهر، وكان من غير المحتمل أن يُدفع؛ وهو لديه زوجة وابن عليه العناية بهما، خاصة وأن ابنه مكسور الساق. ولم تكن أمامه وسيلة يمكنه بواسطتها الحصول على المال. وكتب أحد أصدقائه: "هكذا يشجع الباشا الفنانين الأوربيين، فمبعوثوه فى البحر المتوسط يغرونهم بالدخول فى خدمته، ولكنهم سرعان ما

يتركون كى يندبوا ما تجلبه عليهم سذاجتهم". كان هذا الصديق هو جون لويس بوركهارت، الذى تنقل فى أرجاء كثيرة من مصر بعد أن درس اللغة العربية، وكان يرتدى الملابس العربية مسميا نفسه الشيخ إبراهيم.

وكان بوركهارت يقوم برحلة إلى الصعيد قبل لقائه ببيلزونى بثلاث سنوات. وحين كان يقضى بضعة أيام فى طيبة، رأى تمثالا هائلا فى الرمال وسط حطام أحد المعابد، وصفه راعى سولت، ويليام هاميلتون، بأنه "بالتأكيد أجمل وأكمل قطعة من النحت المصرى يمكن رؤيتها فى كل أنحاء البلاد". وقال الفلاحون من أهل المنطقة لبوركهارت إن الفرنسيين قد حاولوا أخذه غير أنهم لم يستطيعوا تحريكه؛ فالرأس الذى يزن سبعة أطنان يرقد فى الرمال الناعمة. فعزم بوركهارت على نقل الرأس، واقترح على سولت أنهما، معا، يدفعان نفقات النقل ويقدمان هذه القطعة للمتحف البريطانى.

وكان بيلزونى هو الوكيل الظاهر فى القيام بهذه المهمة. ولم يكن بيلزونى تنقصه الثقة بالنفس. فحين سمع عن مشروع نقل الرأس، قرر أنه هو الرجل المناسب للقيام بهذا العمل، وكان يتمتع بقوة بدنية هائلة، ويرى نفسه مهندسا، وأنه على ألفة تامة مع الحيل الميكانيكية، ولا يحتاج إلا للمال والعمال والمعدات كى يُتم عملية النقل. ومن الواضح أن القنصل الجديد هنرى سولت كان هو الرجل الذى يجب التعامل معه. فبما أنه يملك النفوذ فهو قادر على تدبير الاعتمادات، كما أنه يحاول أن يثبت قدميه فى ميدان تجارة الآثار. ووافق سولت فورا على المشروع، وأصدر التعليمات لبيلزونى بالبدء فى التنفيذ.

كان على بيلزونى أن يعد المعدات الضرورية فى بولاق، ثم يتوجه إلى أسيوط حيث يقدم خطاب تفويض لابن محمد على، إبراهيم باشا، الذى سوف يزوده بما يلزم من عمال وقوارب. بعد ذلك يتوجه بيلزونى إلى طيبة، حيث "لايبخل بأى نفقات أو جهد" فى نقل الرأس إلى ضفاف النيل، وإذا اقتضى الأمر ينتظر ارتفاع مياه النهر قبل أن يحاول إدخال الرأس فى أحد القوارب. وتم تزويده بتعليمات تفصيلية عن كيفية التعرف على الرأس، وكذلك تحذيره من خلطه برأس آخر، أقل شأنا منه، يقع بالقرب من الموقع. ثم قيل له أخيرا "سوف يكون مستر بيلزونى من

العطف بحيث يحتفظ بحساب منفصل بالنفقات التى تتكلفها هذه العملية، التى سوف تُسدد بكل سرور، بالإضافة إلى نفقاته الأخرى؛ أما عن المعرفة التى يتمتـع بهـا شخص مستر بيلزونى، فيعتقد عن يقين، أنها سوف تكون معقولة بحسب ما تسمح به الظروف".

فى ذلك الوقت، بدا أن بيلزونى سعيد وممتن. وقد أعطاه سولت ١٠٠٠ قرش (حوالى خمسة وعشرين جنيها) لشراء أية آثار أخرى قد يعثر عليها. فافترض أنه بما أن القنصل البريطانى هو الذى كلفه، فإن الحصول على هذه الآثار يصبح أمراً رسميا ويتم شحنها إلى المتحف البريطانى. بشكل ما اتخذ نهب المواقـع القديمـة صبغة الاحترام حين كان يتم لمصلحة إحدى الدول، وليس بغرض ربح يجنيه أحد الأفراد.

ذهب بيلزونى إلى بولاق وحمل المعدات اللازمة: أربع عشرة عارضة خشبية مربعة، وأربع أسطوانات تسوية مصنوعة من جذوع النخيـل، وبعـض الحبـال المصنوعة من ليف النخيل بأطوال مختلفة. ثم أبحر مع زوجته وجيمز عبر النيـل فى أرخص مركب أمكنه العثور عليه، وكان معه مترجم قبطى (يقصد مـصرى) شغوف بالزجاجة(*)، وحارس مسلح، وطاقم يتكون من خمسة أفراد وحارس مسلح. كان على وشك أن يواجه، لأول مرة، أخطار التجارة فى الآثار ــ الطبيعى منهـا وما هو من صنع البشر ــ فى وادى النيل.

وبعد خمسة أيام، وصلوا إلى منفلوط حيث التقوا بإبراهيم باشا وهو فى طريق العودة عن طريق النيل إلى القاهرة. وكان معه دروفيتى، الذى كان يزور وكـلاءه فى الصعيد ويتفاوض على شراء بعض الآثار كى يتخم مجموعتـه. كـان كـلا الرجلين مهذبا، رغم أنه لا يمكن أن يكون دروفيتى سعيدا برؤية وكيل منافسه فى طريقه كى يستخرج جائزة كهذه، وأخبر بيلزونى أنه لن تكون أمامه فرصة كـى يستأجر عمالا فى طيبة. إذ إن التنافس الصريح كان نادرا بين ممثلـى الـدولتين العظميين، كما كانت هناك وسائل أخرى لضمان فشل منافـسة الطـرف الآخـر.

(*) يقصد باحتساء الخمر. (المترجم).

وكلفتةٍ تدل على حسن النوايا، قدم دروفيتى لبيلزونى غطاء من الجرانيت لتابوت حجرىٍ كان مدفونا فى أحد المقابر، كان هو نفسه قد حاول الخروج به غير أنه فشل. وقال إبراهيم لبيلزونى أن يقدم خطاب تفويضه للدفتار (الدفتردار) الذى يتولى المسئولية فى أسيوط، ولوح بيديه مودعا.

وفى اليوم التالى، وصل بيلزونى إلى أسيوط ليجد أن الدفتردار بيه (بيك) غائب، فذهب ليزور الدكتور سكوتو، الطبيب الجنوى الذى كان يشرف على علاج إبراهيم، والذى أوصاه سولت بزيارته باعتباره شخصية يمكن أن تقدم العون. كان الدكتور سكوتو من عوامل التعويق، إذ قال له إنه من المستحيل العثور على عمال، لأن غيره حاولوا وفشلوا؛ وإنه لا يوجد ما يكفى من المراكب؛ كما أن التمثال ما هو إلا قطعة من الجرانيت لا نفع فيها. وحين لم تبد على بيلزونى أية علامة على التراجع، ألمح الطبيب بوجود أخطار، وكتب بيلزونى يقول: "وأخيرا، أوصانى بوضوح بألا أزج بنفسى فى هذا العمل، لأنى سوف ألقى الكثير مما لا يسر، وسيكون على مواجهة الكثير من العقبات". بالطبع، كان الطبيب الطيب يعمل هو نفسه، فى تجارة التحف لمصلحته. وحين عاد الدفتردار بيه (بيك)، أصدر أوامره للمدير المسئول عن إمداد بيلزونى بالعمال.

وواصل المركب الصغير طريقه ووصل إلى الأقصر بعد مغادرة القاهرة بثلاثة أسابيع ويوم واحد بالضبط. واندهشت الفرقة من المساحة الشاسعة من الحطام التى جعلت من طيبة أوسع متحف مكشوف فى العالم؛ ومجمعات المعابد الكبيرة مثل الكرنك الذى أذهل القوات الفرنسية، والتى كانت عرضة حتى فى ذلك الوقت للتنقيب من قبل وكلاء دروفيتى. ويسجل بيلزونى أنه لم يكن لديه من الوقت ما يكفى إلا لنظرة عابرة فحسب قبل أن يسرع إلى الضفة الغربية بحثا عن الرأس "كان الرأس هناك راقدا فى الرَّامسيوم، المعبد المقبرة لحفظ الجثة الخاصة برمسيس الثانى ووجهها متجه الى أعلى، كان يبدو أنه يبتسم لى، حين فكرت بأنه سوف يحمل إلى إنجلترا".

كان الرأس، فى الواقع، رأس تمثال جالس لرمسيس الثانى، غير أن الرومان ظنوا خطأ أنه للبطل الأسطورى ممنون، وسمي فى ذلك الوقت ممنون الشاب، كما

يسمى الآن. أخذ بيلزونى بجمال الرأس لكن حجمه لم يرهبه، وأمر على الفور بإنزال المعدات المستجلبة من القاهرة بعد أن أنزل سارة فى كوخ من الحجر فى الرَّامسيوم كمسكن مؤقت إلى أن يكتمل العمل. وصنع النجار منصة من الأخشاب تسمى عربة، حيث يُحمل الرأس إلى النهر. وتفحص بيلزونى الطريق؛ إذ كان من الواضح أن الأرض الواقعة بين الرَّامسيوم والنهر شديدة الانخفاض حتى إنها يمكن أن يغمرها الماء حين يحل الفيضان. لم تكن المياه من العمق بحيث يطفو فوقها المركب، وإنما هى من العمق بحيث تمنع عربته من المرور. كان من المتوقع أن يحل الفيضان فى غضون شهر، لذا لم يكن أمامه سوى أربعة أسابيع كى يوصل التمثال إلى ضفة النهر، أو فلينتظر حتى الصيف التالى. وكانت تلك فترة طويلة من الوقت.

ذهب بيلزونى كى يرى الحاكم ومعه الأمر بتجهيز العمال، ولقى الترحيب. إن روايتنا لما حدث قائمة على يومياته: "استقبلنى بذلك التهذيب الجم الذى يتصف به الأتراك، حتى لو لم يكونوا بأى حال ينوون الاستجابة لما تطلب... وعبارات المودة الناعمة، فالوقوف إلى جانب شخص لم يسبق لهم رؤيته أمر شائع بينهم بحيث يصبح فى النهاية، أمرا مسلما به، لا يعول عليه إلا من جانب من يجهلون عادات تلك البلاد، الذين يجب أن يعد من بينهم بيلزونى فى يوليو ١٨١٦، ولا بد أن مقاومته قد فترت حين أخبروه بأن العمال منشغلون جميعا فى الحقول؛ وأنهم يعملون من أجل إبراهيم باشا، ولا يمكن إيقاف هذا العمل؛ أو أن صيام رمضان اقترب حين لا يعمل أحد؛ أو أخيرا، أن نقل الرأس سوف يكون أمرا مستحيلا دون مساعدة محمد على نفسه.

على أى حال، أعلن الحاكم أنه مستعد للدخول فى متاعب لا حدود لها من أجل صديقه الجديد كى يتمكن من التغلب على هذه الصعاب الجسام، ووعد بأنه سوف يرسل له الرجال فى الصباح التالى. وحين وجد بيلزونى أنهم لم يصلوا، ذهب لمقابلة الحاكم، ولكنه فى هذه المرة كان مزودا بهدايا من البارود والبن. وغادر ومعه أمر للقائم مقام المحلى بتزويده بالرجال الذين يحتاج إليهم. ومع ذلك لم تنته متاعب بيلزونى لأن القائم مقام كان وكيلا لأحد التجار فى القاهرة، ومن الطبيعى أنه رأى أنه من حسن التجارة إحباط كل جامعى الآثار المنافسين. ولم

يصل أى عامل حتى ذهب بيلزونى بنفسه ورشا الرجال بـأجر مرتفـع مقـداره "ثلاثون بارة فى اليوم، وهو ما يعادل أربع بنسات ونصف بنى بالنقود الإنجليزية". فوصلت مجموعة صغيرة. ورُفع الرأس على العربة، حيث كانـت الأسـطوانات الخاصة بالتحريك موضوعة فى أسفل بحيث تطلق الأسطوانة بينما يُدفع الرأس إلى الأمام من الخلف، ويدار ويوضع تحت المقدمة ــ وهذه طريقة فنية بسيطة كانـت شائعة فى الأزمنة القديمة وما زالت تستخدم اليوم. وتحرك الـرأس بـبطء عبـر الرمال، وأرسل بيلزونى برسالة انتصار وحبور إلى القاهرة يقول فيها إن الـرأس فى الطريق.

كانوا آنذاك يعملون فى واحد من أشد فصول الصيف حرارة فى مصر، فانهار بيلزونى بعد يومين وتوقف العمل، ولم يستطع تناول الطعام، لكنه أجبر نفسه على العودة للعمل، موجها مجموعة العمال الذين كانوا يمهدون الطريق أمـام العربـة ويزيلون العوائق التى كانت توجد فى طريقها، كما كان يغير نوبـات مجموعـات الرجال الذين كانوا يدفعون العربة، وكذلك أولئك الذين كـانوا يـسيرون بجانبهـا ومعهم روافع كى تمنع الرأس من التدحرج.

وبعد مضى أسبوع، كانوا قد قطعوا نصف الطريق إلى النهر، ولكنهم كانوا قد وصلوا إلى مكان منخفض بشكل خطير، وكتب بيلزونى: "فى اليوم الخامس مـن الشهر دخلنا أرضا كنت متلهفا لعبورها خوفا من أن يصلها الماء فيعرقل مسارنا؛ وكنت أشعر بالسعادة حين أفكر فى أن الغد سوف يخرجنا من دائرة الخطر. لذلك وصلت إلى المكان فى وقت مبكر من الصباح، وأدهشنى أنى لم أجد أحدا سـوى الحراس والنجار الذى أبلغنى بأن القائم مقام قد أصدر أوامر للفلاحين بألا يعملـوا لدى الكلاب المسيحيين بعد ذلك. إنها مؤامرة. ففى خلال بضعة أيام، سوف يغمر الماء المنخفض الذى يوجد به الرأس بسبب ارتفاع النيل، وسيكون علينـا التخلـى عنه، ويصبح جاهزا لبيعه لأول تاجر أوربى يروق له".

ذهب القائم مقام إلى الأقصر فى انتظار التطورات. ويسجل بيلزونى أنه بحث عن الرجل "فى محاولة لاسترضائه بالكلام المعسول والوعود" لكنه أخفـق. وبـدأ يتراءى له أنه "فى بلاد لا يحترم فيها سوى الأقوياء، أما الضعفاء فسوف يحرمون

دائما من أى تميز". ويستمر فى حكايته فيقول إن الرجل استل سيفه، وعندها عاجله بيلزونى وهزه هزا عنيفا ولم يتركه إلا بعد أن أخذ سيفه وما معه من بستولات (عملة قديمة). وكان الحل الوحيد الممكن هو أن يجعل الحاكم يميل إلى جانبه. فذهب على الفور للقائه، وبعد أن سلم البستولات عربونا للصداقة، تسلم الأوامر اللازمة للحصول على العمال. وبعد ذلك بأسبوع، وصل الرأس إلى ضفة النهر.

كان هناك موضوع واحد يلزم تسويته: نقل غطاء التابوت الحجرى الذى أعطاه له دروفيتى، فأرسل بيلزونى نداء من أجل الحصول على مرشدين كى يعثروا على المقبرة التى كان يوجد فيها. فاقتيد إلى تجويف صغير فى الصخور على جانب الجبل، وبعد أن خلع معظم ملابسه، مر خلال ممر ضيق ومعه اثنان من العرب بالإضافة إلى مترجمه. وبعد أن زحفوا مسافة طويلة، وصلوا إلى خلاء مفتوح، تتفرع منه أنفاق بالغة الصغر لا يتمكن بيلزونى من المرور خلالها، فانتظر مع أحد العربيين فى حين ذهب مترجمه مع الآخر. وأصر ذلك العربى على أن التابوت الحجرى قريب، بالرغم من أنه كان من الواضح، فى ذلك الوقت، أنه لا يمكن إحضاره من الطريق الذى سلكوه. وبعد ذلك سمع بيلزونى صوت تكسر، تبعه صوت مترجمه وهو يصرخ: "أو يا إلهى! يا إلهى! لقد هلكت"، وتلا هذا صمت مطبق. فانتظرا، ثم سأل بيلزونى العربى عما إذا كان يعرف الكهف الموجود خلف الظلمة، فقال له الرجل إنه لم يحضر إلى هذا المكان من قبل، فبدا أن أفضل شىء هو العودة من حيث جاءا لكى يطلبا النجدة، لكن حين زحفا من خلال ما اعتقد بيلزونى أنه الطريق إلى الداخل، وصلا إلى طريق مسدود.

وأخذ ضوء الشموع يقل، وأصبحا محاطين بالمومياوات والعظام البشرية، وبدت جميع الأنفاق متشابهة. فأخذا يجربان نفقا بعد الآخر، لكنهما ظلا يعودان إلى نفس الخلاء المفتوح. وأخيرا وجد بيلزونى والعربى نفقا بدا أنه متصل بلا عائق لمسافة طويلة. وحينما سمعا صوتا يشبه صوت البحر الهائج على مسافة بعيدة، حثا الخطى إذ عرفا أن هذه أصوات بشر. ولما اندفعا إلى ضوء الشمس، كان أول من رأياه هو المترجم، الذى قال إنه بينما كانا يقتربان من الكهف الذى يوجد به التابوت الحجرى، سقط هو والعربى فى إحدى الحفر، فصاح العربى، ثم رأيا ضوءا قريبا،

فشقا طريقهما إلى الهواء الطلق. وكان العرب الآخرون حين خشوا على سلامة الرجل الذى سقط، مشطوا الطريق الذى مر به، وعندئذ أدرك بيلزونى أنهم سدوه أولا، وأخذوه إلى مدخل خلفى طويل يؤدى إلى الكهف، حتى لا يتمكن من إزاحة غطاء التابوت الحجرى إلى أن يكافئوا على "اكتشاف" المدخل الأوسع. فجعل بيلزونى الرجال يعملون على توسيع المدخل، وعاد إلى كوخه الحجرى فى الرّاميسوم حتى يسترد عافيته.

وبعد ذلك بثلاثة أيام، عاد بيلزونى ليجد أن الحاكم قد زار الموقع، وأمر بأن يقيد عماله ويزج بهم فى الزنزانة. إذ كان من المنتظر أن يزوره وكلاء دروفيتى حاملين الهدايا من الإسكندرية، وبعد أن استقبلهم الحاكم تذكر أن غطاء التابوت الحجرى غير متاح لهم لأنه قد باعه للقنصل الفرنسى.

يبدو أن بيلزونى لم يكن مهتما بعماله، إذ قال إنه سوف يكتب للقاهرة عن التابوت الحجرى، وطلب مركبا من سولت لنقل الرأس، وأمر ببناء جدار من الطين حول ممنون الشاب، ثم أبحر فى النيل بحثا عن كنوز أخرى مما يسهل حمله. فى نهاية الأمر، كان على سولت أن يدفع إيجار المركب، فبدا من المعقول الاستفادة منه. وفى (إسنا) البلدة القديمة التى أسماها الإغريق لاتوبوليس ـــ التقى بيلزونى بخليل بيه، أخى زوجة محمد على، الذى كان قد عين توا حاكما على المديريات العليا الواقعة بين (إسنا) وأسوان. وبعد أن استرخى بيلزونى على بساط جميل ودخن الغليون وشرب القهوة، أُعطى خطاب توصية لأمير نوبى، حسين كاشف، وترك يمضى فى طريقه.

كان لدى بيلزونى ما يكفى من الوقت كى يتأمل المعبد الموجود فى (إسنا)، الذى يرتفع عن النهر ارتفاعا يبلغ ٥٦٠ قدما ويقع فى وسط البلدة. فوجد أن القمامة تغطيه، وقال: "مما يثير الشفقة أن مثل هذه الصروح الجميلة يسكنها عرب أقذار مع قطعانهم". ثم واصل الإبحار إلى إدفو. وهنا على موقع بالقرب من النهر، يرتفع عن الوادى المحيط، يوجد معبد الحقبة البطلمية، وهو أكمل ما بقى فى مصر. ووجد بيلزونى أن الأكواخ تحيط به، وكذلك اسطبلات الخيل، وحين لاحظ وجود أكوام كبيرة من الحطام فى الرمال حول المعبد، خمن أن هذه الأكداس ربما

تحتوى على آثار قيمة. واستمر فى طريقه، لا يفعل سوى إزالة الرمال من أشكال أبى الهول "يجسد أسد ورأس أنثى بالحجم الطبيعى".

وفى أسوان حيث يقطع الشلال الأول على النهر جريانه، كان من الضرورى استئجار مركب للقيام بالرحلة إلى جزيرة فيلة وحتى الشلال الثانى. وكان هذا ينطوى على مساومة جادة مع أغا أسوان، ساعدت فيها سارة وذلك بأن أهدت زوجتى الأغا خرزا ومرآة، كما دخنت غليونا من التبغ معهما، فساهم هذا فى تخفيض إيجار المركب من ١٢٠ دولارا إلى عشرين فقط للرحلة ذهابا وعودة.

وكان هدف بيلزونى من المضى قدما إلى الشلال الثانى هو الوصول إلى أبو سمبل، حيث يدفن فى الرمال معبد ضخم كما سمع من بوركهارت، إذ بدا أنه من الممكن أن يبقى معبد مدفون دون نهب، وقد يحتوى معبد كبير على عدد من الأشياء الثمينة التى يمكن أخذها. وكان معبد رمسيس الثانى فى أبو سمبل مرئيا بشكل جزئى فوق جبل من الرمال، فهناك أربعة تماثيل ضخمة منحوتة من جدار من الصخر. فإذا ضارع المعبد التماثيل من حيث الحجم، فسوف يكون أعظم معبد فى مصر، ولم يسبق للإنسان الحديث أن رأى مثيلا له.

وحين نزل بيلزونى فى قرية أبو سمبل، وجد أنّ عليه أن يتعامل مع داود كاشف بن حسين كاشف، الذى يحمل له خطاب توصية. وحين سئل بيلزونى عن السبب الذى جعله يأتى إلى هذا المكان القصى، أجاب بأنه "يبحث عن الأحجار القديمة"، فضحك داود؛ إذ كان قد سمع هذه القصة من قبل. ذلك أن رجلا قد وصل من القاهرة بحثا عن الكنز، كما قال، وعاد بكومة من الذهب فى مركبه؛ "من المؤكد أن هذا هو السبب الحقيقى للزيارة، أليس كذلك؟"، وكانت إجابة بيلزونى إجابة فيها شىء من الصدق: "أجبت أن الأحجار التى أريد أن آخذها هى قطع مكسورة تخص الفراعنة القدماء؛ وإننا نأمل أن نعلم من هذه القطع هل جاء أجدادنا من هذه البلاد، وهذا هو السبب الذى حدا بى إلى القدوم بحثا عن الأحجار القديمة". وبدا أن داود قبل هذا على أنه مراوغة ساذجة تستحق الاحترام، يقصد بها تجنب قول الحقيقة.

وأخذ يسأل بيلزونى عن الطريقة التى سوف يقنع بها الناس بالعمل معه، ما دام الشيطان يحرس المعابد. ولم تفلح إجابة بيلزونى بأنه سوف يدفع لهم نقدا، سوى فى أن تجعل داود يستفز فيسأله: "وماذا يفعل أى شخص بالنقود فى أبو سمبل؟"، فأشار بيلزونى إلى أن كل ما يحتاجون إلى فعله هو أن يرسلوا بالنقود إلى أسوان ويشتروا الحبوب التى تلزمهم فى الشتاء، وقد قال هذا كتعريف للناس فى أبو سمبل بفوائد الاقتصاد النقدى. فرد داود بأنه لم يبلغ به الحمق حد إرسال النقود إلى تجار أسوان، ذلك أنهم، بالطبع سوف يحتفظون بها وينسون إرسال الحبوب.

أثناء النقاش، كان بيلزونى يعبث بقرش صاغ فأعطاه لواحد من أولئك المتحلقين الفضوليين قائلا إنه يستطيع أن يستبدل به حبوبا تكفى رجلاً لثلاثة أيام. وحين رفع الرجل هذه القطعة المعدنية الرقيقة ضج الناس المتجمعون بالضحك من التفكير فى أن أى شخص يمكن أن يبادل أى شىء له قيمة لقاء هذه القطعة المعدنية. فاقترح بيلزونى أن يجرب الرجل ذلك مع أى أحد من الطاقم الموجود على مركب الأجانب. وحين عاد الرجل ومعه مئونة ثلاثة أيام من الحبوب اندهش الناس. أما بيلزونى فإنه، بالطبع كافأ الطاقم. لقد وضع هذا الاستعراض بيلزونى فى الصدارة قبل دروفيتى، الذى كان قد ترك ٣٠٠ قرش قبل ذلك ببضعة أشهر فى أبو سمبل من أجل كشف وجه المعبد. فلم يكن من الناس إلا أن أعادوا إليه القروش عند رحلة العودة، وقيل له إن العمال لم يجدوا فائدة لها.

بدأ العمل ببطء، إذ كان أربعون رجلا يكدون فى نبش الرمال وبناء أسياج من سعف النخيل لمنع تدفق المزيد منها من أعلى؛ فكان الأمر، كما كتب بيلزونى، أشبه بمحاولة إحداث ثقب فى الماء. وبعد ما يقرب من أسبوع، كانوا قد أزاحوا الرمال عن وجه رع حوراختى الذى يشبه رأسه رأس الصقر على عمق عشرين قدما، فى منتصف الواجهة. فصب بيلزونى بعض الماء بالقرب من الجدار الموجود فوق المكان الذى ظن أنه مكان الباب، مما دمج الرمال بالقدر الذى يسمح له أن يحفر حفرة بعمق يتيح العثور على الفتحة.

ثم رأى أن إكمال العمل سوف يستغرق وقتا أكثر من المتاح له، كما واجهته مشكلة أخرى هى الحاجة إلى تلك الأداة التى كانت محتقرة ومجهولة منذ بضعة

أيام؛ "والآن صرت غير قادر مطلقا على التقدم بدونها. إنها النقود، التى كشفت عن سلطانها المعتاد هنا بين بشر شرهين للمال بشكل مثير. ذلك أن هؤلاء الناس البسطاء أصبحوا شغوفين بها". فقرر بيلزونى تأجيل العمل، بعد أن استخلص وعدا من داود بألا يسمح لأى شخص آخر بالاقتراب من المكان، فى مقابل بعض الهدايا. ثم وضع علامة على مستوى وجه المعبد الذى كشفه، وأبحر فى النهر.

فى فيلة، ذهب بيلزونى للبحث عن أى شىء يمكن شحنه كى يأخذه معه إلى القاهرة. وكانت هناك مسلة يبلغ طولها اثنتين وعشرين قدما، وعرضها قدمين عند القاعدة التى كانت قريبة من الماء بحيث يمكن نقلها، لكنها تطلبت مركبا أكبر، لذا امتلكها بيلزونى "باسم صاحب العظمة القنصل العام لبريطانيا فى القاهرة"، وأعطى الأغا أربعة دولارات كى يعين حراسة عليها ريثما يعود، فسأل الأغا عما سوف يدفع له مقابل إعطائه الإذن له بنقل المسلة. ولم يكن هذا السؤال غير معقول، فتردد بيلزونى "مع أنى كنت أملك تفويضا بموجب فرمان الباشا بأن آخذ ما أشاء من أحجار وتماثيل، غير أن هؤلاء الناس يعتقدون أن لهم الحق فى طلب أى شىء، وإذا كانوا لا يستطيعون أن يرفضوا رفضا صريحا تنفيذ ما يؤمرون به، إلا أنهم يملكون وضع ما يلزم من عراقيل فى الطريق، بحيث يجعلون مسعاك يكلل بالفشل". لذا وعد بأن يتلقى الأغا ٣٠٠ قرش بمجرد شحن المسلة بنجاح.

كما كان على الجزيرة أيضا سلسلة جميلة من الكتل المنحوتة تمثل الإله أوزيريس وهو يتلقى الهبات من الكهنة والأشكال النسائية. وكان طول الكتل ثلاث أقدام، ونصفا، وعرضها ثلاث أقدام غير أنها كانت أثقل من أن تنقل بيسر، إذ إنها كانت شديدة السمك، فترك بيلزونى النقود والأوامر مع الأغا ليعمل على قطعها، بحيث يكون سمكها معقولا ثم تشحن إلى الأقصر فى المركب التالى. ثم كانت هناك مشكلات تقف دون الخروج من أسوان، إذ أمر الأغا بأن تخفى جميع المراكب كى يخرج بأكبر قدر من المال مقابل استئجار مراكبه. وبعد ذلك، وصل بيلزونى وفرقته إلى الأقصر ليجدوا نقودا بعث بها سولت، ولكن لم تأت أية أخبار بشأن مركب من أجل رأس ممنون الشاب. ولحسن الحظ، كانت سفينة كبيرة قد وصلت توا من القاهرة، حاملة اثنين من وكلاء دروفيتى فى الطريق إلى أسوان، هما: جان

جاك ريفو، وهو نحات من مرسيليا وأحد جامعى الآثار المتحمسين، وفريدريك كايو، وهو عالم معادن وصانع حلى من نانت. وكانوا فى وضع جيد يمكنهم من تحطيم ثقة بيلزونى فى حكمه على الأعمال الفنية، ولم يضيعوا وقتا دون القيام بذلك.

فتفحص الاثنان ممنون الشاب دون حماس، وهزئوا من بيلزونى على تبديد ماله وطاقته على قطعة من الجرانيت لا نفع فيها، وقالوا إن السبب الوحيد الذى جعل الفرنسيين يتركونها أنها لا تستحق أن تنقل. وجمعوا السكان العرب، بشكل أقل دهاء، وأعلنوا أن أى شخص يبيع التحف للإنجليز أو لوكلائهم سوف يجلد بأمر من كاشف البلدة. ولكى يؤكّدوا هذا، انتحى مترجمهم ببيلزونى وأسر إليه بأنه إذا لم يوقف أعمال التنقيب التى يقوم بها، فمن المؤكد أن رقبته سوف تقطع. واستطاع بيلزونى أن يحول هذه الزيارة المثبطة للهمة لصالحه، وذلك بأن تفاوض مع أصحاب المركب بأن يعودوا من الأقصر إلى أسوان كى يحضروا الرأس، وأن يعيدوا قطع البلاط الحجرية التى تركها لدى الأغا.

واستطاع الملاك تحقيق صفقة رابحة بالإصرار على دفع ٣٠٠٠ قرش لاستئجار المركب (ما يقرب من خمسة وسبعين جنيها)، يدفع نصفها مقدما، وذلك لأن وزن الرأس كان ثقيلا جدا، كما أن ذلك، حدث بلا شك بسبب غياب المنافسة. ودفع بيلزونى النقود، ثم عاد إلى الكرنك، حيث كان قد ترك عشرين رجلا يعملون بنشاط على رفع الطين المضغوط الذى لم يتم حفره حديثا. لقد أزالوا التربة عن ثمانية عشر تمثالا، لكل منها رأس يمثل الإلهة سخمت، كانت ستة من هذه التماثيل فى حالة جيدة دون أى شرخ، وكان من بينهما تمثال أبيض يمثل جوبتر آمون. وقام بيلزونى بنقل أفضل هذه التماثيل إلى الأقصر، إذ كان يخطط لشحنها على المركب مع قطع البلاط الحجرى التى أخذها من أسوان. لم تكن هناك أية قطع من البلاط الحجرى على المركب حين رسا فى الأقصر؛ كل ما كان على المركب هو البلح ولا شىء غير البلح. ذلك أن وكلاء دروفيتى كانوا قد أقنعوا أصحاب المركب بخطر المجازفة التى ينطوى عليها العمل مع البريطانيين، فعرضوا أن يعيدوا لبيلزونى نقوده.

كانت مياه النيل تنخفض، فلم تكن هناك مراكب أخرى متاحة، وإذا أضاع بيلزونى الفرصة، فلسوف يبقى رأس ممنون الشاب على ضفة النهر حتى العام التالى، لذا قرر التوجه لخليل بيه (بيك) ليطلب إجبار أصحاب المركب على أن يوفوا باتفاقهم. ولم يكن لديه أمل كبير فى النجاح بما أن خليل بيه قد أبلغه فعلا بأنه لا يوجد أى مركب قادر على تحمل ما للرأس من وزن ثقيل. وتم إنقاذ الجهد الذى بذل فى ذلك اليوم عن طريق زجاجتين من الأنشوجة وزجاجتين من الزيتون، بدونها لم يكن للتمثال الجميل أن يقبع اليوم فى المتحف البريطانى.

كانت هذه الأشياء قد وصلت إلى الأقصر كهدايا لخليل بيه فى الوقت الذى كان بيلزونى يستعد لزيارته كى يطلب منه تنفيذ العدالة. وأسر المرسال الذى أحضرها لبيلزونى أن هذه الأشياء قد أغضبته غضبا شديدا، إذ تلقاها كهدايا من دروفيتى. فشعر البيه (البيك) بالإهانة لتلقيه هدية عديمة القيمة كهذه ــ لا تستحق إلا أن تهدى لأجنبى آخر ــ وأن غضبه العارم جعله لا يتقبل ماهو فرنسى. وكتب بيلزونى أنه كان عازما على أن "يطرق الحديد وهو ساخن"، وانطلق ومعه صاحبا المركب كى يطلب تنفيذ العقد، ووجد البيه (البيك) لايزال فى حاجة مواتية من الخوف من الفرنسيين، فمنح الحكم الذى كان يسعى للحصول عليه.

استخدم مائة وثلاثين عاملا فى عملية شحن الرأس. وكانت أرضية المركب تحت مستوى الضفة بثمانى عشرة قدما، فأنشأ بيلزونى جسرا منحدرا من الضفة إلى وسط المركب مستخدما أربعة من جذوع النخيل الكبيرة، كى يجعل أطنان الجرانيت السبعة تنزلق بيسر. وتم ربط الرأس بعربته المصنوعة من الكتل الخشبية الضخمة، المحكومة بحبال ملتفة حول قوائم تصل إلى الضفة. كما تم تجميع مسند قوى من الحصر والقش فى نهاية الجسر كى يكون معدا لاستقبال وزن الرأس الكبير. كما ألقوا (بشوال) من الرمل عبر الجسر لمنع سقوط الرأس فى حال حدوث ضعف فى الحبال أو العمال.

وحين اتخذت الكتلة الكبيرة طريقها هابطة من المنحدر، صدرت عن أصحاب المركب أنة هادئة، واستكانوا، إذ أحسوا بأنهم قد فقدوا المركب، وأخذ الناظرون يتناقشون فيما إذا كان الرأس سوف يتهشم بين أخشاب المركب ويغوص، أم أنه

سوف يستقر بسلام على ظهر المركب قبل أن يغوص بالمركب فى قاع النهر. وكان بيلزونى على وعى تام بأنه إذا مافُقد الرأس هنا فسيكون من المستحيل استرجاعه. غير أن الرأس تهادى ببطء وسلاسة إلى أسفل، واستقر فى المركب، واهتز المركب وظل طافيا، واندفع أصحاب المركب نحو بيلزونى وصافحوه.

حين أبحروا إلى القاهرة بعد ذلك بثلاثة أيام، كانوا يحملون أجمل بضاعة من الكنوز الأثرية أبحرت فى النيل فى العصور الحديثة. تلقى بيلزونى ١٠٠ جنيه مكافأة على جهوده، أعطاه كل من سولت وبيركهارت خمسا وعشرين جنيها ثمنا لممنون الشاب؛ وأضاف سولت خمسين جنيها من ماله الخاص، ويبدو أنه أحس بأن هذا غير كاف، لذا سمح لبيلزونى بالاحتفاظ بتمثالين برأس الأسد. وتم وضع البقية فى القنصلية، وتلقى بيلزونى تعليمات بأخذ الرأس إلى الإسكندرية فى انتظار شحنه إلى إنجلترا. وكتب أنه اندهش من التمييز بين الآثار بما أنه اعتقد أنه كلف بجمع الآثار من أجل المتحف البريطانى.

على أى حال، لقد بدا أن سولت يرى أنها ممتلكاته التى يمكنه التصرف فيها كما يشاء. ومما يثير الاهتمام، أن بوركهارت كان ينظر إليها بنفس النظرة. فبعد أن فحص المجموعة، كتب لسولت، فى ذلك الوقت أن "مستر بيلزونى قد نجح بشكل يفوق أكثر الآمال جموحا، ومن المؤكد أنه بذل أقصى جهده كى يقوم بالمهمة على أكمل وجه. ولقد أحضر سبعة تماثيل بالإضافة إلى الرأس، وهذا يمكن أن يكون تحفة قيمة تزين قاعة العرض الخاصة بك فى المستقبل".

وأما عن الوجهة النهائية أو ملكية هذه الكنوز، فلقد بدا أن بيلزونى معنى فقط بالعودة إلى أبو سمبل، واستكمال التنقيب عن المعبد العظيم قبل أن يزاحمه أى شخص آخر. لكنه، على أى حال، اشترط شرطا واحدا فى علاقته بسولت، وبين هذا الشرط أنه أكثر فهما مما ظن سولت، وهذا الشرط هو أنه إذا ما نجح فى أبو سمبل يُعْطَى خطاب تقدمة رسمى لجمعية الآثار فى لندن. إذ كان بيلزونى يسعى إلى الاعتراف به كسيد وباحث على غرار صديقه بوركهارت، وذلك فى مقابل اكتشافاته ـــ إذ كان يفضل ذلك عن التطلع للمال الذى قدر له أن يجذب الكثير من السادة والباحثين إلى وادى النيل سيرا على هديه.

وفى رحلة العودة من أبو سمبل، كان فى صحبة بيلزونى سكرتير سولت الخاص، وهو شاب اسمه هنرى بيتشى، ومترجم يونانى يعمل فى القنصلية، هوَ ينّى أتاناسى. فلا شك فى أن سولت أحس أن شخصا يثق به يجب أن يضع عينيه على بيلزونى الذى يتملكه نزوع لا يهدأ إلى عرض مبادآته فى مشروعات هائلة مكلفة. ويبدو أن بيتشى قد أرسل به كى يكون له أثر مهدئ على بيلزونى، وكى يكون مصدرا يعول عليه للحصول على المعلومات التى تصل إلى سولت. كما أنه كان يتحكم فى كيس النقود. وأما بيلزونى فكان قانعا بأن تحتفظ القنصلية به.

وكانت هذه الجماعة الصغيرة تحرز تقدما بطيئا فى مواجهة ريح جنوبية عاتية، حين سمعوا بأن اثنين من وكلاء دروفيتى يقومان بمسيرة تشق طريقها بالقوة نحو الكرنك، كى يسبقاهم فى الوصول إلى هناك. وكان بيلزونى يعلم أن المنطقة التى قام بالتنقيب فيها تضم كنوزا أخرى، وأنه سوف يفقدها ما لم يكن هناك للدفاع عنها. فاتجه ومعه ينى على حمار وحصان وجمل عبر الصحراء، وسافرا مسافة ٢٨٠ ميلا فى خمسة أيام ونصف، فتأخرا أكثر مما ينبغى، إذ كان الدفتردار بيه (بيك) قد أمر بحفر المنطقة متذرعا بأنه يفكر هو نفسه فى تكوين مجموعة. وحين وصل وكيلا دروفيتى توليا القيام بهذا العمل، بل إنهما استخدما كل القوة العاملة المتاحة فى الكرنك بحيث لا يستطيع بيلزونى أن يفعل أى شىء سوى الذهاب بحثا عن المركب الذى تركه يواجه الصعاب فى مجرى النهر وبه بيتشى ومعه المال.

فقرر بيلزونى أن يترك الفرنسيين فى الكرنك، ويركز جهده فى الحفر بين المقابر فى الجانب الغربى من النهر. وتُعرف ضفة النهر الشرقية بما فيها من مجمع للمعابد بالأقصر والكرنك باسم "طيبة الأحياء"، وتعرف الضفة الغربية باسم "طيبة الموتى"، حيث توجد بقايا المعابد التى تمتد على خمسة أميال، وهى فى معظمها معابد ملكية لحفظ الموتى بالمملكة الجديدة (أسرات الدولة الفرعونية الحديثة) تحتفظ بعبادات الملوك المدفونين فى مقابر منحوتة فى الشعاب الموجودة فى اتجاه الغرب.

عثر ويليام هاميلتون على عشر مقابر يسهل الوصول إليها فى هذا المكــان، فى بداية القرن العشرين، وكان يرى أن هناك الكثيــر غيرهــا تغمرهــا الرمــال والأحجار. بدأ بيلزونى البحث فى جزء غربى قصى من وادى الملوك، فيما وراء مقبرة أمينوفيس الثالث، التى كان الفرنسيون قد اكتشفوها. ذلك أن رجلا فى سمت بيلزونى حين كان يعمل فى أنفاق ضيقة تحت الأرض مكتظة بالجماجم المكدســة كان يحس بالذعر، وهو ما ينقله بإطناب فى مذكراته: "كمية هائلة من الرمال ترتفع وهى من النعومة بحيث تتغلغل فى الحلق، وفتحات الأنف فتخنقها، والفم إلى درجة تطلب معها رئتين قويتين كى تقاوما هذه الرمال والأبخرة المنبعثة من المومياوات ... كان سواد الجدار، والضوء الباهت المنبعث من الشموع أو المصابيح بســبب نقص الهواء، وكذلك الأشياء المختلفة التى كانت تحيط بى، والتى بدا أنها تتحاور، والعربان وفى أيديهم الشموع أو المصابيح، وهم عرايا تغطيهم الرمال، بل إنهم هم أنفسهم مومياوات حية، كل هذه الأشياء كان يبدو أنها تشكل مشهدا يستعصى على الوصف".

فى إحدى المرات فى القرنة (القرنا) وصل منهكا إلى نهاية ممر طويل ضيق كى يجد مساحة يمكنه التوقف فيها: "كنت أبحث عن مكان أستريح فيه، ووجــدت ذلك المكان، وتحايلت كى أجلس؛ ولكن حين ثقل وزن جسدى على جــسد إحــدى مومياوات المصريين، حطمه كما تتحطم علبة من الورق المقوى التــى تــستخدم لحفظ القبعات. لجأت إلى يدىّ، بالطبع، كى تتحملا ثقلى، غير أنهما لم تكونا عونا جيدا، حتى إنى غصت بالكامل بين المومياوات المحطمة، محدثا تهشما فى العظام وتناثرا فى الخرق البالية والصناديق الخشبية، مما أثار كما هــائلا مــن الرمــال أفقدتنى الحركة لنصف ساعة وأنا أنتظر حتى تخف وتهدأ مرة أخرى. ولم أستطع أن أتحرك من المكان، دون أن أزيد هذه الرمال هبوبا. وكنت أهشم مومياء فى كل خطوة أخطوها فى جزء منها أو آخر. ثم خطوت من هذا المكان الى آخر يشبهه، خلال دهليز يبلغ طوله قرابة العشرين قدما، ولا يتسع عرضه سوى لــزج جــسد خلاله. وكان يغص بالمومياوات فلم أتمكن من المرور دون أن يكون وجهى لصيقا بجثة متحللة؛ ولكن حين انحدر الدهليز إلى أسفل، لم أستطع أن أتحاشــى العظــام التى غطتنى إذ كانت ساقاى وذراعاى ورأسى تتدحرج من أعلى".

مع نهاية أبريل، كان لدى بيلزونى كم من الكنوز فى الأقصر، يكفى حمولة مركب ثان. وكان قد أضاف إلى هدية غطاء التابوت الحجرى الذى أهداه له دروفيتى رأسا كبيرا من الجرانيت، وذراعا من تمثال ضخم لتحتمس الثالث فى الكرنك، وأربعة تماثيل لها رأس أسد لسخمت، وقاعدة حجرية صلبة من معبد مونتو فى الكرنك، منقوشة بأشكال متصلة لحتحور ومونتو وتحتمس الثالث.

ثم وصل زائر غير مرغوب فيه. إذ كان الدفتردار بيك قد سمع من وكلاء دروفيتى عما أحرزه بيلزونى من تقدم، وأحس أنه مضطر لإظهار أن إتاوتهم لم تبدد وذلك بجعل الشيخ الذى أمد بيلزونى بالعمال يُضرب إلى أن فقد الوعى. وحين هدد بيلزونى بأن يكتب للقاهرة كى يبلغ الباشا كيف يستجيب زوج ابنته للفرمان الصادر عنه، بدا أن الدفتردار آخذ فى اللين، وأصدر ما زعم أنه تفويض لبيلزونى بأن يستخدم العمال فى القرنة. وتجمع الناس كى يسمعوا الأوامر الصادرة من قبل الدفتردار وهى تقرأ علنا، فذهل بيلزونى إذ سمع إعلانا يمنعهم من العمل لدى الإنجليز أو تقديم التحف لهم، ويأمرهم بألا يتعاونوا إلا مع دروفيتى أو وكلائه. فبدا أن الوقت قد حان لطلب العون من القاهرة .

وكتب بيتشى فورا إلى سولت وأبلغه بما حدث، وطلب التعويض بسبب الإهانة التى لحقت بالرعايا البريطانيين المسافرين تحت حماية فرمان صدر بناء على طلب القنصل البريطانى. ويعد رد سولت عظيم الدلالة، لقد أبلغهم بأنه قد رأى الباشا، الذى سوف يكتب للدفتردار بيه (بيك) ويتأكد من أنه لن يتصرف أبدا على هذا النحو مرة أخرى؛ لكنه استطرد يقول: "أتمنى على أى حال أن تفهموا بوضوح أنى لا أتفق معكم فى اعتبار هذا إهانة وطنية. أو أن له أى علاقة بصفتى القنصلية، إذ يجب أن تعلم أنه لا أنت ولا مستر بيلزونى مرتبطان فى الوقت الحاضر بالعمل رسميا معى؛ فأنتما ببساطة شأنكما شأن مسافرين يقومان بتكوين مجموعة آثار؛ لذا فلكما الحق فى التعويضات التى يمكن لأى رجل إنجليزى أن يتوقعها، ومن الضرورى تماما أن يكون هذا مفهوما بجلاء، لأنه كما تعلمان، أنى ليست لدى السلطة من الحكومة باستخدام أى شخص فى مثل هذه المساعى، وأنى أتحمل كل المصروفات وأقوم بعملية الجمع لنفسى، ويمكن اعتباركما فقط تعملان بصفة خاصة ".

من الممكن أن يكون بيتشى قد تكتم على هذا الجزء من الخطاب، لأن بيلزونى أحس بالحافز الشديد حتى اعتقد أنه الممثل الرسمى لأعظم أمم العالم، وهو مكلف بواجب جمع الآثار لمستودعها الوطنى ـ المتحف البريطانى. إذ من غير المحتمل قط أن يكون السكرتير القنصلى قد سمح لنفسه بأن يكون على علاقة حميمة مع لاعب سيرك سابق غير متعلم. فهو قد أسر، حقا، لكاتب سيرة سولت: "إن بيلزونى به ميل لعدم الرضى كما أنه يثير الشك بحيث إنه من بعض النواحى يصعب أن تكون للمرء أية علاقات معه".

لقد كان كل من بيتشى وبيلزونى يعلمان أنهما يتمتعان بحماية اسم القنصل البريطانى، وأن الإذن بالسفر والتنقيب قد مُنحا بسبب مكانة بيتشى الرسمية. وربما لم يحمل أيهما الزعم بأنه يستكشف معابد وقبور وادى النيل فقط وببساطة لإرضاء نزوة لدى مستر هنرى سولت. لم يكن هناك داع لبقاء بيلزونى فى الأقصر فى مواجهة دفتردار نشيط فى معارضته، لذا قرر أن يتجه الى أعلى النهر، بينما ينتظر ردا من القاهرة، كى يجمع قطع البلاط الحجرى المنقوشة التى تركها فى جزيرة فيلة أمانة عند الأغا، فوجدها حيث كدسها ـ غير أنها جميعا قد شوهت وكسرت. ونقش شخص ما بالفحم هذه الكلمات: "عملية فاشلة".

فبعد أن منع وكلاء دروفيتى نقل القطع كما رتب بيلزونى، عملوا على أن يستيقنوا من أنها لن تكون ذات قيمة بحيث لا تستحق النقل فى المستقبل. ولكن كانت هناك على الجزيرة أشياء تعوضه عن هذه القطع. إذ كان هناك خطاب قد وصل من سولت يحتوى على النقود والموافقة على أن يستخدمها بيلزونى فى محاولة ـ بل وفتح ـ المعبد العظيم فى أبو سمبل .

وفى نفس الوقت، وصل مركب يحمل صاحبى السعادة تشارلز ليونارد أيربى وجيمز مانجلز، وكلاهما قبطان فى البحرية الملكية. لقد سرهما أن ينضما إلى بيلزونى، الذى وافق على ذلك فورا غير أنه أصر فقط على التوقف فى فيلة للاحتفال بالرابع من يونيه، عيد ميلاد الملك جورج الثالث. فلو أن صاحب الجلالة علم، لوافق على هذا. وتم العثور على علم قديم وتم رفعه فوق أعلى نقطة على الجزيرة، وبالتحديد عند الظهيرة تجمع الرجال الأربعة وأطلقوا إحدى وعشرين

طلقة تعبيرا عن التحية. وتكررت هذه المراسم فى تلك الليلة، مما أرهب وأذهل العربان، الذين لم يستطيعوا فهم السبب فى استخدام كل هذا البارود دون قتل أحد.

فى أبو سمبل، كانت هناك المشكلات المعتادة المتعلقة باستئجار العمال. وكان هناك الأخوان "كاشف" اللذان بيدهما مقاليد الأمور، هما داود وخليل. فأشعل بيلزونى شرارة أدت إلى التنافس بين الأخوين، وذلك بأن قدم هداياه لداود، فغضب خليل واعتكف فى كوخه، ولم يوافق على الحضور لتناول طعام العشاء إلا حين قدم له هدية عبارة عن بندقية وبارود وكرة.

بعد ذلك، تم تنظيم العمال، غير أنهم كانوا يعملون ببطء شديد، مما جعل بيلزونى يقرر محاولة استخدامهم فى العمل بالمقطوعية، فقال إنه سوف يدفع ٣٠٠ قرش لفتح الباب، وأطلق للعمل ١٠٠ رجل، يسوقهم داود وخليل. ولما كان من المقدر للعمل أن يستغرق ثلاثة أيام، فقد دفع بيلزونى جزءا من الأجر فى البداية، وأكمل المبلغ حين اكتمل العمل.

فى اليوم الثالث، تذكر العمال أن شهر رمضان على الأبواب، وليس من المسموح القيام بأى عمل، فلم تتم المهمة؛ ولم يكن من الممكن استرداد النقود، فالكفار المسيحيون لا يلتزمون برمضان. واستيقظ قبطانا البحرية فى اليوم التالى قبل الفجر، وصعدا التل إلى وجه المعبد، ومعهما بيلزونى وبيتشى وينى المترجم اليونانى والانكشارى، وأخذوا يحفرون لمدة ساعتين ونصف قبل اشتداد حرارة الشمس. واستأنفوا العمل عند المساء .

وظل الفريق يعمل بلا انقطاع لمدة أسبوعين فى الرمال. وفى بعض الأحيان، كان أفراد طاقم المركب يساعدونهم، أو تنضم إليهم جماعات من القرويين المحليين. وحين ظهر الركن العلوى لأحد الأبواب، أمر بيلزونى بدق جذوع النخيل فى الرمال حول هذا الركن، وصب الماء والطين كى يمنع الرمال الناعمة من التغلغل إلى الداخل. ثم استمروا فى الحفر داخل هذا السور. وعند شفق اليوم التالى، كشفوا عن الفتحة.

كان الظلام شديدا بحيث يمنعهم من رؤية ما فى الداخل، كما كان الهواء المتسرب من خلال الثقب هواء فاسدا، لذا قرر بيلزونى الانتظار حتى يطلع الصبح التالى قبل دخول المعبد. وقبيل الفجر تسلقت المجموعة فوق المنحدر، وبدءوا فى العمل من أجل توسيع الثقب. وظل أفراد طاقم المركب فى الفراش.

ومع زحف ضوء النهار فى الأفق الشرقى، حدث شغب على المركب، واندفع القبطان على المنحدر وهو يصيح بأنهم ينبغى أن يبحروا فورا وإن لم يصعد الأجانب ظهر المركب فلسوف يتركونهم. وكان بيلزونى ومن معه منهمكين فى عملهم حتى إنهم لم ينتبهوا، فركع أفراد الطاقم على ركبهم وأخذوا يصيحون ويهيلون الرمل فوق رؤوسهم. ذلك أن داود وخليل كانا قد أمراهم بتعطيل الأجانب فى حالة نجاحهم فى الكشف عن الباب، فتجاهلتهم الجماعة التى تقوم بالحفر، وانسلوا واحدا بعد الآخر من خلال الفتحة الضيقة، فوجدوا أنفسهم فى بهو كبير يبلغ طوله وعرضه ما يزيد على خمسين قدما، ويبلغ ارتفاعه ثلاثين قدما. وعلى كل جانب كانت هناك أربعة أعمدة مربعة محفورة على شكل أوزيريس. وكانت على الجدران نقوش رائعة بالهيروغليفية ومشاهد للمعارك. وفى نهاية البهو، تنفتح حجرة صغيرة تؤدى إلى حجرة داخلية بها قدس الأقداس، الذى تتعامد فيه أشعة الشمس المشرقة على وجوه الآلهة الجالسين. فذهل الزائرون مما كشفوا عنه من رهبة وعظمة وجلال.

لم يكن بيلزونى، على أى حال، مكلفا بالقيام بالاكتشافات، وإنما بنقل الآثار القيمة؛ ومن هذه الناحية كان أبو سمبل مخيبا للآمال، إذ يسجل بيلزونى أنه لم يجد سوى "أسدين برأسى صقر بالحجم الطبيعى؛ ووجه صغير جالس، وبعض الأشغال النحاسية تخص الأبواب". فقام بيلزونى ومانجلز بعمل رسوم سريعة، غير أن الحرارة فى داخل المعبد كانت شديدة للغاية، ولذلك تركوا العملية لمن يأتى بعدهم من رحالة "قد يقومون بها فى ظروف أكثر ملاءمة مما وجدنا، حيث سيكون المكان أقل حرارة". كان ما لديهم من مؤن قليل، فلم يأكلوا أى شىء لمدة ثلاثة أيام سوى الحب المغلى فى الماء دون ملح، وقرروا شحن التماثيل والرأس إلى الأقصر.

رأى بيلزونى أن أكثر الأماكن التى يحتمل أن يعثر فيها على كمية من الآثار يقع فى إقليم طيبة، وحين وصل إلى هناك أصيب بإحباط، إذ اكتشف أن الفرنسيين قد باشروا العمل فى المنطقة بأكملها على الضفة الشرقية، وكانوا منهمكين فى الحفر عند المعابد فى كل من الأقصر والكرنك، فلم يجد بيلزونى ما يلزمه من العمال، لذا اتجه إلى الضفة الغربية، وبدأ مرة أخرى فى البحث عن مقابر غير مكتشفة فى وادى الملوك.

ويزعم بيلزونى أنه، فى ذلك الوقت، كانت لديه ملكة توحى له بوجود مقبرة مغمورة . ومن المؤكد أنه إما المهارة أو الحظ كان يعمل عمله منذ البداية، لأنه اكتشف على مدى ثلاثة أيام عددا كبيرا من المقابر. وبالرغم من أنها كانت رائعة الزخرفة، إلا أنها لم تكن تمثل الكثير من حيث قيمتها كغنيمة ثمينة، هذا باستثناء إبريق مصنوع من الفخار، وكذلك تمثال من الخشب بالحجم الطبيعى فى مقبرة رمسيس الأول لهذا الفرعون، بأنف قد لحق به الضرر .

ولاحظ بيلزونى، حين كان يميط اللثام عن إحدى المومياوات فى بحثه عن أشياء صغيرة لم تكتشف، لاحظ أن أربطة جديدة قد وضعت فوق الأربطة القديمة، مما يبرهن على أن المصريين كانوا يعتنون بموتاهم لسنين كثيرة؛ ولكن لم تكن هناك حلى، وكان هناك القليل من أوراق البردى. وعلى بعد خمسين قدما من مقبرة رمسيس الأول تقريبا، كان هناك منخفض صغير عند تل منحدر، وكانت شلالات من المياه تتدفق بقوة فيه حين يأتى المطر إلى طيبة. فقرر بيلزونى الحفر فى هذه البقعة، رغم أن الرجال قد أشاروا بأنه لا يمكن لأحد أن يبنى مقبرة عند سفح تنحدر منه المياه .

وفى خلال يومين، اكتشفوا مدخلا صغيرا على عمق ثمانى عشرة قدما، فحشر بيلزونى نفسه كى يدخل من هذا المدخل، فوجد أنه داخل دهليز يبلغ طوله ستا وثلاثين قدما، وارتفاعة ثمانى أقدام، به رسوم بديعة وكتابة هيروغليفية محفورة على الجدران والسقف. وفى نهاية الدهليز، كانت هناك بضع درجات تؤدى إلى دهليز آخر بديع الزخرفة أيضا، فعرف بيلزونى أنه داخل مقبرة ملك عظيم. ولكن الدهليز الثانى كانت تقطعه حفرة كبيرة؛ يبلغ عمقها ثلاثين قدما، وعرضها أربع

عشرة قدما، تمتد بين الجدارين. وعلى الجانب الآخر من الحفرة استطاع أن يرى ما بدا وكأنه جدار من الصخر الصلب. لقد كان، فى الواقع، مشيدا من الجص والحجر، وكان مزخرفا تماما مثل الصخر المحيط كى يخدع القدماء من لصوص المقابر، لكنه فشل فى ذلك، شأنه شأن معظم الجدران الزائفة. استطاع بيلزونى أن يرى عبر الحفرة ثقبا فى الجدار، ولاحظ أن حبال النخيل التى استخدمها اللصوص كى ينزلوا داخل الحفرة ويخرجوا منها قد تركت فى مكانها، وحين مسها استحالت إلى تراب.

وفى اليوم التالى صنعوا جسرا يمكنهم من عبور الحفرة، وذلك باستخدام عارضتين خشبيتين، وتمكن بيلزونى من توسيع الثغرة الموجودة فى الجدار، وتسلق من خلالها، فاكتشف سلسلة من الحجرات زخرفتها أكثر روعة من أى مقبرة تم كشفها حتى ذلك الوقت فى وادى الملوك. كان هذا ضريح ستحوس الأول أبى حارنس الثانى، الذى بنى بهوا على هيئة سقف محمول على أعمدة كما فى الكرنك والمعابد الموجودة فى أبيدوس والقرنة. وليس هناك ما يفوق جمال هذا المكان والقدرة على الحفاظ عليه فى حالة جيدة. كما وجد بداخله شيئا أخاذا فاتنا كتب عنه: "إنه جدير بأعلى قدر من الاهتمام، فلا يوجد مثيل له فى العالم، ولما كان على هذه الصورة، لم تكن لدينا أدنى فكرة عن وجوده. إنه ضريح من أرقى أنواع المرمر، يبلغ طوله تسع أقدام وخمس بوصات، وعرضه ثلاث أقدام وسبع بوصات، ولا يزيد سمكه عن بوصتين، كما أنه يصير شفافا حين يسلط الضوء عليه من الداخل. وهو منحوت بدقة من الداخل والخارج، ومزيّن بعدة مئات من الأشكال لا يزيد طول الواحد منها عن بوصتين ... ليس بوسعى أن أعطى فكرة عن جمال هذه القطعة الأثرية وما لها من قيمة، إننى أستطيع فقط أن أقول إنه لم يجلب إلى أوربا من مصر شيء يمكن أن يضارعها"..

قبل أن ينجح بيلزوني فى إحضار هذا الضريح الحجرى إلى مستقره الأخير فى وسط لندن، كان محطّاً لكل ما هو منعدم الذوق فى أيام علم المصريات الأولى. وقبل أن يتوفر لفريق بيلزونى الوقت كى يسجل كل ما وجده، جاءهم إلى الموقع أول الزوار البارزين. إذ اندفع العربان إلى المعسكر قادمين من الجبال وهم يقولون إنهم رأوا جماعة كبيرة من الفرسان الأتراك يعدون نحو الوادى. فشعر بيلزونى

بالقلق لأن الأتراك كانوا يميلون إلى تجنب هذا المكان. وبعد ذلك بنصف ساعة سمع إطلاق نار يتردد صداه بين التلال، فاعتقد أن المكان يُداهم، فى الوقت الذى أصبحت فيه فرقة من الفرسان المسلحين على مرمى البصر.

كانت هذه القوات ـ كما اتضح ـ تقوم بمصاحبة حامد أغا وحراسته، فهو قائد الجانب الشرقى من طيبة، وكان قد سمع عن هذا الاكتشاف فحضر كى يلقى نظرة على هذه الكنوز. وحيا بيلزونى تحية حارة، وقبل بحماس عرضا بالقيام بجولة فى المقبرة. فجمعت المصابيح، وقاد بيلزونى ضيفة فى الممرات ذات الزخارف البديعة، وخلال حجرات ثرية بالأشكال المحفورة والألوان البراقة. فبدا أن ذهن الأغا منصرف، ولا يبدو عليه أى مظهر من مظاهر الانبهار. ثم تبعه رجاله وهم يفتشون فى كل ثقب وركن. وبعد ذلك وصلوا إلى الضريح الحجرى الذى كان لايزال يحتفظ بلونه الأبيض الجميل.

جلس الأغا أمام الضريح، وصرف رجاله بعيدا، وسأل بيلزونى بثقة شديدة عما إذا كان يستطيع أن يرى "الكنز". وحين أجابه بيلزونى بأنه قد رآه كله، رد الأغا بأنه قد قيل له إنهم اكتشفوا ديكا ذهبيا كبيرا مليئا بالماس واللؤلؤ، وهو يطلب رؤيته. كان الديك الذهبى جزءا من الأدب الشعبى عند العرب، وقيل إنه من المحتمل أن يظهر فى مقبرة غير مكتشفة فى هيئة إبريق ملىء بالذهب فى سفح قوس قزح. وحين اقتنع الأغا، أخيرا، بأن بيلزونى لم يعثر على الديك، انسل خارجا وهو يشعر بالإحباط، فتبعه بيلزونى كى يصلح من حالته المزاجية، وسأله عن رأيه فى جميع الرسوم الجميلة، فأجاب الأغا بأن هذا مكان يصلح كحرملك، إذ إن الحريم سوف يجدن ما ينظرن إليه طوال النهار. وغادر المكان.

أما الزائرون الذين أتوا بعد ذلك فكانوا مهيئين جيدا من حيث تذوق الجمال. ذلك أن هنرى سولت قد وصل فى ثلاثة مراكب كبيرة بها: إيرل وكونتيسة بيلمونت، وابنة عمه جوليانا، والابنان اللورد كورى، وصاحب السعادة هنرى كورى، وشقيق الإيرل، وكابتن آرمال لورى كورى، من البحرية الملكية. أما حياتهم الروحية فكانت فى رعاية القس الخاص بالإيرل، صاحب النيافة مستر

لورى، وأما أجسادهم فكانت فى رعاية طبيبه د. روبيرت ريتشاردسون. وقــاموا جميعا بجولة استطلاعية حول المقبرة، وعبروا عن اندهاشهم وإعجابهم .

ويبدو أن بيلزونى كان مسرورا جدا بهذه الزيارة، وســجل أن ســولت كــان مفتونا بالتابوت حتى إنه قضى الأشهر الأربعة التالية فى الحفر فى المنطقــة دون أية نتيجة، أو إذا ما استخدمنا سخرية بيلزونى الخفيفة: "إنه سوف يصف بنفسه ما وجده، بالطبع، بدقة تفوق ما أستطيع أن أعبر عنه".

لا يوجد أية إشارة فيما سجله بيلزونى عن أى احتكاك وقع بينهما. غيــر أن سولت قال، إنه بعد رحيل أصحاب الإيرل بوقت قصير، بــدأ بيلزونـــى يخاطبــه "بأسلوب غامض إلى حد ما، فى شأن الأجر" إذ يبدو من المحتمل أن سولت كــان حريصا على تحديد علاقته ببيلزونى باعتبارها علاقة السيد بخادمه، رغبة منه فى أن يؤثر فيهم تأثيرا باهرا، إذ من المؤكد أنه لم يكن ليرغب فى أن تفهم هذه العلاقة على أنها علاقة زمالة. ولا ريب فى أن بيلزونى أصبح على وعى بذلك، وأنه شعر بالإهانة، فطلب من سولت أن يوضح علاقتهما، وعلى الأخص بأن يصلا إلى اتفاق بشأن ما يدفع له. فأجاب سولت بأنه فكر فى أن يدفع لبيلزونى مكافأة تتراوح بــين ٣٠٠ و ٣٥٠ قرشا شهريا، عدا نفقاته، غير أن النجاحات التى حققها بيلزونى حتى الآن فاقت التوقعات مما يستدعى إعادة النظر. وشعر سولت بأنه غير قادر علــى التنبؤ بما سوف ينتج عن إعادة النظر هذه، بما أنه قد وضع مبالغ كبيرة من المال ولم يتلقّ شيئا فى المقابل، غير أنه رأى أن يولى هذا الأمر مزيدا من الأهمية فيما بعد.

ولا عجب فى أن بيلزونى لم يجد فى هذا ما يرضيه، فعاد إلى هذا الموضوع فى اليوم التالى، حين وعد سولت بأن يعطيه ١٠٠٠ قرش (حوالى خمسة وعشرين جنيها شهريا) بأثر رجعى منذ الوقت الذى غادر فيه بيلزونـــى الإســكندرية، "وأن أنزل له عن أية أشياء أقدر على التخلى عنها، والتى قد يثبت أنها ذات نفع لــه ... ويمكنه أن يطمئن إلى أنى أعطى له براهين أخرى مرضية تدل على اعتبــارى". وكان هذا ترتيبا يمكن أن يلائم أى موظف متطلع يعمل فى إحدى القنصليات. وقد

يرجع زعم سولت بأن بيلزونى بدا عليه الرضى إلى بلادةِ الحِس أكثر من كونــه راجعا إلى الأمانة، إذ إن قناعة بيلزونى كانت قصيرة الأجل.

فبعد ذلك ببضعة أيام، وصل بيتشى مع جماعة أخرى من الرحالة الإنجليز، وكان سولت يشير عرضا أثناء تجوله معهم فى المقبرة إلى عدد الــسنوات التــى قضاها بيلزونى فى خدمته، فتفجر الحنق من نفس بيلزونى، قائلا للجماعــة التــى علت الدهشة وجوهها إنه لم يكن قط مستخدما لدى سولت؛ وإنه عمل مــن أجــل الأمة البريطانية؛ وهو رجل مستقل على استعداد لأن يقدم خدماته للأمة دون ثمن. إن ما أثار حفيظة بيلزونى هو ادعاء سولت المستمر بمجد هذه الاكتــشافات فقــط لأنه قام بتمويلها، ولكن بيلزونى هو الذى قام بهذه الاكتشافات، فيجــب أن يكــرم اسمه معها. ذلك أنه رفض وضعه كمستخدم مأجور لا يذكر اسمه.

من ناحية أخرى، شجعت الجماعة الإنجليزية سولت علــى أن يعتقــد أنــه يتصرف بكمال وعقل بل وبكرم، إذ إن بيلزونى، فى نهاية الأمر، كان فقط يجازف برقبته، أما سولت فقد كان يخاطر برأس ماله. ولما لم يكن هناك عقد بالمــشاركة الوجدانية بين سولت وبيلزونى ـــ إذ كان كل منهما يرى أن ســلوكه غايــة فــى التعقل، بينما يراه الآخر غير محتمل ـــ بدا أن إعطاء شكل رسمى لهــذه العلاقــة فكرة صائبة.

وعلى ذلك، فقد وقع الرجلان على اتفاقية فى ٢٠ أبريــل ١٨١٨ بــدا أنهــا توضح الأمور، بينما يبدو أن الموقّع جيوفنى بابتيستا بيلزونى لديه أفكار خاطئــة فيما يتعلق بالأشياء التى جمعت فى الصعيد تحت رعاية المحترم هنــرى ســولت وبنفقته، إذ ظن أنها للمتحف البريطانى؛ ولما كان قد شرح على نحو مرض للموقّع بيلزونى أن مثل هذه الأفكار قد بنيت كلية على غلطة، أوضحت ديباجة الاتفاقية أن كل طرف يتصرف على حدة؛ استمرت المواد كى تحدد أن سولت ســوف يــدفع مبلغا قدره ٥٠٠ جنيه لبيلزونى على مدى الاثنى عشر شهرا التالية؛ وأن ســولت سوف يعطى لبيلزونى تمثالا رأسه رأس أسد فى فناء القنصلية، وأن سولت تنازل لبيلزونى عن غطاء التابوت الحجرى الذى أعطاه له دروفيتى، وغير ذلــك مــن الأشياء التى قد يمكنه الاستغناء عنها؛ وأن التابوت المصنوع من المرمر ســوف

يعطى للمتحف البريطانى فى خلال ثلاث سنوات من تاريخ الاتفاقيـــة، و"ســـوف يعتبر الموقّع بيلزونى مستحقا لنصف الفائض لأى ثمن يمكن أن يدفع ثمنا للتابوت المذكور يزيد على مبلغ ألفى جنيه إسترلينى".

وفى المقابل، تعهد بيلزونى بالذهاب إلى طيبة وإحضار التابوتين الحجـــريين المتبقيين هناك فى رعاية هنرى سولت وعلى نفقته، ولكن ليس فى خدمتـــه، إذ إن سولت ما زال يقدم المال، وفى ذلك الوقت كان يحث الخطى إلى إرث قدره ٥٠٠٠ جنيه آل إليه بوفاة أبيه فى السنة السابقة. ومع أن سولت قد أصر على أن يكون له الحق فى التصرف فى الآثار إذ إنه دفع نفقات اكتشافها ونقلها، إلا أنـــه لـــمَ يكـــن يخامره أدنى شك فى وجهتها النهائية. وباستثناء القطع التى أرسلها لكسب عطـــف راعييه، كان مصير مجموعة هنرى سولت هو المتحف البريطانى، إذ لم يكن لديه شك فى أن هذه المؤسسة الوطنية العظيمة سوف تعترف به وتكافئه مكافأة سخية.

الفصل الثالث

لصالح الأجيال المتعاقبة

حين قام أمير ويلز وأميرتها بزيارة قصر الإقطاعية، الضيعة فى تشيلسى، فى شهر يونيه من عام ١٧٤٨، قام مالك الضيعة باصطحابهما فى جولة. كان هذا المالك سيدا طاعنا فى السن، غريب الأطوار، معتل الصحة، يلزم كرسيا للمرضى المقعدين، وأعرب أمير ويلز وأميرتها ــ من قبيل الأدب ــ عن إعجابهما بحجرة مليئة بعينات من النباتات المجففة، وأخذا يتجولان دون فهم، بجانب صفوف من الخزانات المكتظة بالأحجار الكريمة، والأسماك الغريبة، والطيور المحشوة بغرض الاحتفاظ بشكلها الأصلى، والميداليات الذهبية والفضية، وغير ذلك من الأشياء المثيرة للفضول التى يصعب التعرف عليها. وكان وصف هذه المجموعة يقع فى أربعين مجلدا من الصحائف؛ كما كانت هناك مكتبة مليئة بالكتب النادرة تضم ما يربو على ٤٢٠٠٠ مجلد، فعبر أمير ويلز عن السرور الذى يحس به إذ يرى مجموعة على هذا القدر من الروعة فى إنجلترا، وأضاف أنها "يجب أن تكرس لفائدة العلم ... وأن تكون للنفع العام من أجل الأجيال حتى آخر الزمان". ووافق مالك المجموعة، سير هانز سلوين على ذلك .

وكان سير هانز قد وضع وصيته من قبل، وعبر فيها عن رغبته فى أن تظل مجموعاته فى مكان واحد، وأن تكون موجهة فى العديد من النواحى لإظهار مجد

الرب ودحض الإلحاد، وبيان عواقبه، والانتفاع بالعلوم الطبيعية وغير ذلك من العلوم والفنون والنهوض بها، وكذلك من أجل فائدة البشرية... وأن تكون المجموعة فى مكان رئيسى فى مدينة لندن وما حولها، وأن يتوافد عليها من يستفيدون بها أقصى فائدة .. وأن يراها كل من يرغب فى ذلك دون تمييز .. لقد عاش سير هانز حياته بأكملها طبيبا لأفراد الأسرة المالكة وكذلك للطبقات الموسرة فى لندن، وكان أول رجل يمنح لقبا يمكن توريثه اعترافا بخدماته فى مجال الطب، ولما كان قد عاش حتى بلغ الثالثة والتسعين من عمره، فقد كان لديه الوقت والمال اللذان مكناه من إشباع شغفه الطاغى ألا وهو جمع التحف.

نصت وصية سير هانز على أن تظل مجموعته كما هى تدون أن تمس بعد وفاته، وقدم للملك مبلغا قدره ٢٠٠٠٠ جنيه كتعبير رمزى، وفى حالة رفض صاحب الجلالة، يؤول المال للبرلمان. كان جورج الثانى هو آخر ملك يقود قواته إلى ميدان المعركة، غير أنه، مثل أبيه، لم يكن شغوفا "بالشعر والرسم"، فقرر أنه يمكنه أن يجد سبلا أفضل ينفق فيها ماله؛ ولكن البرلمان قبل القيام بواجبه فى تكوين مجموعة تحف وطنية، على الرغم من معارضة رئيس الوزراء، ومن هنا وُلد المتحف البريطانى.

منذ البداية، كان القصد من المتحف البريطانى أن يكون مؤسسة تتمتع بأعلى مكانة، فكان الأوصياء ــ كما نص قانون البرلمان الصادر فى ٧ يونيو ١٧٥٣ ــ يضمون أناسا مثل كبير أساقفة كانتربيرى، وقاضى القضاة، ورئيس مجلس العموم باعتبارهم كبار الأوصياء (الأمناء)؛ يساعدهم وزير الخزانة، ورئيس الوزراء، وحامل أختام الملك، وكبير لوردات الأدميرالية، وأمين القصر الملكى، وأسقف لندن، ووزير المالية، وكبير قضاة إنجلترا، ومسئول الوثائق، والنائب العام ورئيس الجمعية الملكية. بعبارة أخرى، أوكل متحف الأمة لنفس الإدارة التى أنيط بها أمر الأمة نفسها. وبعد ذلك ألحق بهم رؤساء الأكاديمية الملكية للفنون، وجمعية جامعى ودارسى الآثار.

حين سمعت مسيز ديلينى ــ ابنة أخى لورد لانسداون، التى كانت تحب أن تكون على اتصال بالأحداث ــ عن وصية سير هانز، قالت فى البداية، كم هو

مخيب للآمال أن تفوتها متعة المشاركة فى المزادات، لكنها أضافت أنها "تأمل فى أن يبنى الملك متحفا يليق بملك". وعلى الفور قام أربعة من المعماريين بإعداد أربعة تصميمات، أحدها من طراز الروكوكو، والثلاثة الأخرى من طراز البلاديان.

ولكن كان الأوصياء البارزون حريصين فى استعمالهم للمال العام، فرأوا أنه قد يكون من الأوفر تحويل مبنى موجود بالفعل لكى يفى بالغرض. وبما أنه من الناحية القانونية يجب أن يكون المتحف "مستودعا واحدا عاما"، كى يبقى "من أجل النفع العام للأجيال القادمة"، لذا كانوا يبحثون عن شىء فسيح ودائم. فرفضوا عرضا ببكينهام هاوس، الذى بنى على غرار قصر بكينهام بمبلغ ٥٠٠٠٠ جنيه، باعتباره باهظ الثمن، واشتروا بدلا من ذلك بيت مونتاجيو فى بلومزبرى، من إيرل هاليفاكس، بمبلغ متواضع قدره ١٠٢٥٠ جنيه.

وإلى بيت مونتاجيو، الذى هو الآن المتحف البريطانى، أحضرت أول آثار مصرية يتم شراؤها ووضعها للعرض نيابة عن الأمة. لقد كانت أشياء صغيرة : وجوه آلهة من البرونز والحجر، وفخار من طين محروق، وأشياء مطلية بالزجاج، وتمائم، وبضعة جعارين مثل التى يمكن أن توجد فى أسواق بازارات القاهرة والإسكندرية، ثم ينتهى بها المطاف فى خزانات سير هانز سلوين.

وفى عام ١٧٥٦، استحوذ المتحف البريطانى على أول مومياء وكفن آلا إليه، بناء على وصية الكولونيل ويليام ليثيولير. وقبل الأوصياء بسرور هبة أخرى من المعروضات اشتملت على مومياء ثانية وتابوت، ومعهما "بجعة من القفار". وضعت جميع الأشياء للعرض فى حجرات المتحف العليا الأنيقة. وحين وصلت الآثار التى أخذت من علماء بونابرت عام ١٨٠٢، وكانت تحتوى على أشياء حجرية تزن عدة أطنان، كان من الواضح أن الأرضية لن تحتملها، فوضعت فى سقيفات مؤقتة فى الحديقة. وحين قرر الأوصياء شراء رخامات تاونلى ــ وهى آثار إغريقية ورومانية كانت تعرض فى قاعة عرض خاصة فى ميفير ــ جاءهم الإلهام ببناء جناح جديد فى الركن الجنوبى الغربى من دار مونتاجيو. وأصبحت

قاعة تاونلى، التى افتتحت فى ٣ يونيه عام ١٨٠٨، مقرا لمجموعات من الشخوص العارية على الطريقة الكلاسيكية، وكذلك بعض القطع الأكبر حجما من المجموعة المصرية.

ومن أجل تدعيم المجموعة المصرية، كان سير جوزيف بانكس قد كتب يلح على هنرى سولت بأن يمده بالآثار، إذ كان سير جوزيف بانكس رئيسا للجمعية الملكية وأمينا سابقا للمتحف البريطانى. وشعر سولت بهذه المساندة من هذه الشخصية صاحبة النفوذ، حتى إنه استخدم أمواله كى يمول عمليات بيلزونى، ولم يخالجه أدنى شك فى أنه سوف ينال التعويض الوافى. ومع ذلك انتظر سولت بنفاد صبر كى يتلقى تعبيرا عن العرفان بشأن رأس ممنون، الذى كان قد أرسله هو وبوركهارت هدية للمتحف البريطانى، إذ كان يتوقع على الأقل، خطاب شكر من لورد كاسلرى وزير الخارجية. وكان هناك صمت طويل، بل إنه لم يتلق خبرا ينبئه بأن الرأس قد وصل بسلام .

ورغم خيبة الرجاء إلا أنه لم يتخلَّ عن هدفه، فهو بلا شك عزا ما حدث إلى البيروقراطية المتباطئة. وكان يرى أنه فى خضم نضال وطنى من أجل الدفاع عن مصالح بلاده فى مصر فى مواجهة المصالح الفرنسية. ذلك أن دروفيتى كان قد نهب وادى النيل بحثا عن أثمن الكنوز من أجل متاحف فرنسا؛ وكان الزوار الرسميون يشجعونه ويخلعون عليه آيات الشرف فى كتابات الرحالة الفرنسيين على ما يؤديه لبلاده من خدمات .

لقد نقل سولت الحرب إلى معسكر العدو، إذ تمكن من الحد من نشاط الفرنسيين؛ واستولى على الضفة الشرقية للنيل. ومن خلال توكيله لبيلزونى، اكتشف ممنون الشاب، وفتح المعبد العظيم فى أبو سمبل، واكتشف أجمل المقابر فى وادى الملوك. لقد أرسل بالهدايا للمتحف البريطانى، وحافظ على الكلمة التى أعطاها لواحد من أكثر أوصيائه نفوذا؛ واستهلك رأس ماله، وأنفق مبالغ كبيرة من الألف والخمسمائة جنيه التى تركها له أبوه فى أعمال الحفر فى الصعيد .

وفى عام ١٨١٨، حين سمع الخبر المزعج بأن الأوصياء (الأمناء) غير ميالين لتلقى مزيد من الآثار من مصر، كانت هناك مجموعة كبيرة موجودة على

أرض القنصلية فى القاهرة، كما كانت هناك العديد من القطع قابعة فى مواقعها فى الصعيد فى حاجة إلى المال كى يتم نقلها. وكان الأوان قد فات للتوقف بالنسبة له. إذ إنه فى الواقع كان قد رفع مكافأة بيلزونى فى ذلك الوقت كى يبقى عليه فى عمله حيث هو، فى ذلك المكان البعيد، ولاشك فى أنه اعتقد أن التقرير الذى تلقاه والذى يشير إلى تغير فى المزاج، قد يكون تقريرا خاطئا أو مبالغا فيه، فكتب لراعيه وصديقه ويليام هاميلتون، الذى كان حينذاك وكيلا لوزارة الخارجية، طالبا النصح.

وأشار سولت إلى أنه قد أنفق الكثير من ماله الخاص حتى إنه قد لا يكون قادرا على العودة إلى إنجلترا أبدا ما لم يتخلص من مجموعة الآثار بثمن مرض: "سوف يحكم على بالبقاء هنا للأبد، وأظن أنك توافقنى على أن هذا لن يكون مصيرا مرغوبا فيه، بما أن الادخار من راتبى أمر غير ممكن لأنى أدفع الكثير من المال للحفاظ على هيبة القنصلية". وأخبر هاميلتون أن لديه "تمثالين خشبيين لملكين بالحجم الطبيعى، شهد هيرودوت بأنهما فى مقبرتيهما؛ وكذلك بعض رؤوس الأبقار؛ وغيرها من الحيوانات، وشخوص صغيرة"... يلزمه التخلص منها.

ومضى سولت فى ارتكاب ما قد تكون غلطته الأولى، زاعما أن تماثيله تلقى الضوء على النحت عند المصريين، "وتبرهن على حقهم فى ادعاء التفوق العظيم فى ذلك الفن، وتظهر على نحو مقنع أن الإغريق قد استعاروا الأسس إن لم يكن أكثر من ذلك، من هذا الشعب غير العادى". فمع أن هامليتون كان متعاطفا مع الآثار المصرية، بل إنه كتب أحد الأعمال الجادة الأولى التى تناولت هذا الموضوع، إلا أنه كان أيضا منشغلا بالنحت الكلاسيكى، إذ ساعد فى المفاوضات لشراء قطع رخام الجين، حيث كان سكرتيرا له، وتسبب هذا فى فضيحة صغيرة. ولم يكن ذلك ناتجا عن اعتقاد بأن قطع الرخام قد سرقت من اليونان، وإنما لأنها كانت غالية الثمن، فكان لا بد من تبرير الإنفاق من المال العام على النحت الإغريقى، لذا كان هاميلتون حساسا لأى إيحاء بأن أعمال النحت هذه قد لا تكون فريدة من نوعها.

ولما كان الأوصياء (الأمناء) قد ضغطوا من أجل إنفاق مبالغ كبيرة من المال فى العامين السابقين على قطع رخام تاونلى (٢٨٢٠٠ جنيه)، وقطع رخام الجين

(٣٥٠٠٠ جنيه)، وقطع الرخام الفيجالية التى بلغ ثمنها ١٩٠٠٠ جنيه، بعد كل هذا الإنفاق كانوا هم أيضا حساسين لأى ادعاء بأن أعمال النحت هذه لا تمثل الإنجاز الفنى الإنسانى فى أكمل صوره.

ثم ارتكب سولت غلطته الثانية. إذ كتب لهاميلتون يقول إنه من الصعب تقدير قيمة مجموعته، غير أنه ذكر بشكل عارض أنه يقع تحت ضغط كى يبيعها لكونت دى فوربان من أجل ملك فرنسا، لكنه رفض ما يعلم أنه ثمن مجز لأنه سوف يكون" آسفا إذ يرى مثل هذه الأشياء خارج إنجلترا". واستطرد سولت طالبا مساعدة حكومية لشحن هذه القطع لإنجلترا، وقال إنه يسعده قبول تقييم يقوم به هاميلتون نفسه، أو غيره من الأشخاص الذين قد تعينهم الحكومة.

وألحق سولت قائمة من الأسعار التى يرى أنها منصفة كى يساعد فى عملية التقييم، مضيفا أنه يجب النظر إليها على أنها "قيمتها المفترضة؛ غير أنى فى هذه الأسعار قد أكون مخطئا إلى حد كبير، إذ إنى لست أعلم مطلقا كيف يمكن أن تباع هذه الآثار، فمثل هذه لم تر قط فى أوربا".

ولا يبدو أن تقييماته غير الواثقة لم تكن معقولة، فإذا ما نظرنا إلى الوراء نجد رأسا ضخما لتحتمس الثالث من الكرنك بيع بخمسمائة جنيه، وذراعا توافقها بخمسين جنيه، وتمثالين لهما رأسا أسد بأربعمائة جنيه، وتمثالا جالسا لسيتحس الثانى، من طيبة، بثمانمائة جنيه. لقد كان أثمن ما فى هذه القائمة هو التابوت الحجرى من مقبرة سيتحس الأول، وقد مثل أكبر مشكلة أمام سولت، فكتب: "كان من المستحيل على أن أقدر قيمته، ولكنى أظن أنها ما بين ثلاثة وأربعة آلاف جنيه، فهو من المرمر، ولا يوجد ما يضارع المهارة التى صنع بها".

ومع أن خطاب سولت قد كتب لهاميلتون بصفة خاصة، إلا أن هاميلتون قد عرضه دون حصافة على العديد من الأوصياء (الأمناء)، بمن فيهم سير جوزف بانكس، فكتب سير جوزف خطابا عنيفا لسولت، وكان فى ذلك متأثرا بالكدمات التى خرج بها حديثا من الجدال الذى ثار حول الأموال التى أنفقت على أعمال النحت الإغريقية.

كما أن سير جوزف ربما كان يشعر بقليل من الذنب، سببه أن تشجيعه لسولت قد زود المتحف بادعاء إضافى يتعلق بما أنفق على الأعمال الإغريقية من أموال، فكتب يقول: سيدى العزيز، مع أننا، هنا، راضون تماما فى الحقيقة، بتمثال ممنون، ونعده رائعة من روائع النحت المصرى؛ إلا أننا لم نضع هذا التمثال بين أعمال الفنون الجميلة، فهو موجود فى الحجرات المصرية. أما إذا كان أى تمثال وجد فى مصر يمكن أن ينافس الأعمال العظيمة الموجودة فى قاعة تاونلى، فهذه مسألة تظل فى حاجة إلى إثبات، ما لم تكن حقا كذلك. ومن غير المحتمل تماما الحصول فى أوربا على الأسعار التى وضعتها على ما تمتلكه.

لم تنشأ فكرة عدم اعتبار "إحدى روائع النحت المصرى" "عملا من أعمال الفنون الجميلة" لدى سير جوزف بانكس، الذى كان ثريا وصاحب نفوذ، ويتمتع بشهرة محدودة فى مجال التاريخ الطبيعى (الأحياء)، وإن لم يكد يعد حكما على الذوق. فالفكرة فى الواقع كانت تعكس الأحكام المسبقة لدى قادة المجتمع، الذين ربوا تربية كلاسيكية، خاصة أوصياء (أمناء) المتحف البريطانى، الذين كان يهمهم الحفاظ على مقاييس مؤسستهم، والارتفاع بذوق الجمهور.

كانت المشكلة التى تواجه الأوصياء مشكلة مألوفة، فقد نص قانون إنشاء المتحف على "أن يتمكن الأشخاص المجدون المحبون للاطلاع من الوصول بحرية"، و كما قال أحد الأوصياء (الأمناء) "لا يجب وضع أية حدود للحرية العامة لجميع الناس العاديين من جميع المستويات والمذاهب، وهناك الكثير من التعديات التى سوف ترتكبها قلة من المنفلتين ولا يستطيع أحد منعها، إذ سرعان ما سوف يسبهم مثل هؤلاء الناس، إذا أقدموا على السيطرة عليهم أو معارضتهم". فأدخل إجراء إدارى للحفاظ على نص القانون، وفى نفس الوقت معارضة روحه: فكل الزائرين عليهم أن يقدموا أنفسهم عند سكن البواب (غرفة الاستقبال أو الحارس)، ويملئوا ورقة يكتبون عليها أسماءهم وأوضاعهم، لتبين المنفلتين قبل أن يمنحوا تذكرة.

وبما أن هذه العملية يمكن أن تستغرق عدة أسابيع، فقد جعلت الكثيرين يشعرون بالخذلان، لا لشىء إلا لاستنفاد صبرهم. وتزايد عدد مقدمى الطلبات، مع

ذلك، واتبعت عادة أخذ مجموعات فى جولات متعجلة، مع عدم تشجيع الحوار، فأدى هذا إلى احتجاج فورى من زائر من بيرمنجهام عام ١٧٨٥ "فى غضون ثلاثين دقيقة أنهينا رحلتنا فى المقر الأميرى، وهى رحلة كانت قمينة بأن تستغرق ثلاثين يوما، فخرجت كما دخلت من حيث المعرفة، كل ما هنالك أنى خوفا من إضاعة فرصتى، انتزعت نفسى فجأة من بين ثلاثة من الرجال الذين كنت منشغلاً معهم فى حوار شيق، وضاع على إفطارى، وتعرضت للبلل حتى جلدى، وأنفقت نصف كراون على العربة التى استأجرتها، ودفعت شلنين ثمنا للتذكرة، ودفعت بعنف فى الحجرات ... وكنت وضعت أهمية كبيرة على المتحف البريطانى أكثر من أى شىء يمكن أن أراه فى لندن، فإذا به هو المنظر الوحيد الذى أصابنى بالاشمئزاز ...".

ومع مقدم عام ١٨١٠، سمح "للأشخاص ذوى المظهر اللائق" "بأن يتأخروا فى الأقسام أو قاعة الآثار دون أى تحديد للوقت"، وكان هناك تغيير دقيق حاذق فى الجانب الذى يتم التركيز عليه، حين قال الأوصياء (الأمناء) إن هدفهم: "هو دفع العلوم والفنون إلى الأمام، وليس إشباع فضول الجماهير... بحثا عن التسلية". وفى إطار هذا الهدف، كانت الآثار المصرية تمثل مشكلة، ذلك أن معظم الناس كانوا يبحثون عن التسلية من وراء الحملقة فى مومياء أو سيدة برأس أسد، بدلا من النظر إلى صفوف باردة لا حياة فيها من التماثيل الكلاسيكية الحجرية. فقد تكون شعبية الآثار المصرية وما تثيره من فضول هو الذى جعل الأوصياء (الأمناء) يتعصبون ضد هذه الآثار، وربما الحاجة إلى تأكيد على الميزة الفنية الراقية فى المجموعات الإغريقية والرومانية، فوجد سولت نفسه يعمل فى مناخ من الآراء غير المواتية.

وفى مايو من عام ١٨١٩، تلقى سولت خطابا من صديقه وِيليام هاميلتون مصاحبا لخطاب سير جوزف بانكس يقول فيه: "لا يسعنى إلا الاتفاق مع سير جوزف فى توصيتك بألا توغل فى الحفر بحثا عن كنوز النحت المصرى المدفونة، ففى هذه الأوقات التى يسودها الاقتصاد فى الإنفاق، ربما يميل جون بول بسهولة إلى إحكام كيس النقود، حتى لو كان ذلك على حساب فقد الآثار الفريدة التى اكتشفتها".

حين تلقى سولت هذين الخطابين، كان مقيدا بالبقاء فى القاهرة أثناء نوبة من الطاعون تفشت فى البلاد، وغابت آماله فى تحقيق الأمن المالى وربما التكريم. كما كان تغير المزاج فى لندن مثيرا للمزيد من التنغيص، لأنه بدا نتيجة لمرشد (دليل) الأسعار البرىء الذى أرسله سولت لهاميلتون، مؤكدا على أنه قد لا يكون موافقا للسوق. لقد تناقلته فى الواقع، أيدى الأوصياء (الأمناء) الذين أحسوا بالذهول، ودمغ سولت المسكين بأنه "تاجر" وأنه "لورد الجين آخر" بسبب هذا المرشد السعرى (دليل الأسعار). لقد فقد ما كان يعتبره أغلى من رأسماله، ونعنى به ثقة أولئك الرجال الموجودين فى الوطن.

ومع ذلك، كان هناك طريق واحد متاح يسترد به كرامته، وعلى الفور اتبع سولت هذا الطريق. ففى ٢٨ مايو ١٨١٩، كتب أربعة خطابات. كان الأول موجها إلى سير جوزف بانكس يعرض فيه مجموعته الكاملة للمتحف البريطانى بدون أية شروط من أى نوع، معبرا فقط عن الأمل فى أن الأوصياء (الأمناء) قد يرون أنه من المناسب تعويضه ما أنفق من مصروفات، وألا تغض الحكومة النظر عن خدماته.

والخطاب الثانى كان موجها إلى صاحب النيافة تشارلز يورك، وهو راعى سولت فى وزارة الداخلية، أخبره فيه بالعرض، واعتذر عن "قائمة حمقاء" بالتقييمات، وشرح محنته المالية. وكتب أنه قبل منصب القنصل العام، أصلا، وهو يفترض أنه سوف يتلقى معاشا فى نهاية خدمته، شأنه شأن سلفه الكولونيل ميست. وعلم منذ ذلك الحين أن معاش الكولونيل ميست مرتبط بواجباته كمقيم وليس كقنصل عام، وأبلغ بأنه لا يجب أن يبنى أى شىء على هذه التوقعات، "وما دامت لا توجد أى فرصة فى توفير أى شىء من راتبى القنصلى، يتمشى مع ما أعتبره واجبا للاحتفاظ بمؤسسة كهذه بما يضمن احترام مكانتى، ويمكننى من دفع ضروريات الرحلة، فقد قضى علىّ بالحرمان فى مصر مدى الحياة".

وبالرغم من هذا المستقبل المرعب، وما يمكن أن يتحقق له من راحة من بيع مجموعاته للفرنسيين، فليس لسولت من رغبة سوى منحها للمتحف البريطانى: "ولم يهدنى إلى هذه الخطوة ميلى لخدمة الجمهور فحسب، وهو ميل قد تغلب على أية

اعتبارات شخصية فى عقلى، وإنما عن رغبة فى الإذعان لمشيئتكم".... ولا يوجد من سبب يدعونا إلى الافتراض بأن وطنية سولت لم تكن صادقة؛ ومع ذلك، فقد كان على وعى بأن المسؤولين الذين ينتظر أن يحصلوا على مكافآت حكومية هم الذين يظهرون إخلاصا للمصلحة الوطنية، دون أن يأملوا فى الحصول على مكافأة.

أما الخطابان الآخران، فكانا لصديقى سولت، للورد ماونتنوريس، ووليام هاميلتون، يخبرهما فيهما بالإجراء الذى اتخذه. وكان بالنسبة لهاميلتون، أكثر تحديدا إلى حد ما فيما يتعلق بآماله. فبينما كان يقسم بأنه "فى مقابل ألا أخسر ثقتك، وثقة سير جوزف ومستر يورك، فأنا أؤكد على أنى أتخلى عن جميع ما فى الكون من آثار"، واستطرد فى: "الخلود إلى فكرة أن الحكومة يوما ما سوف تتذكر خدماتى، وتمكننى بترتيب معين فى المستقبل، حتى أقضى أيامى الأخيرة فى أوربا".

لقد كانت خطوة جريئة تلك التى خطاها سولت حين تخلى عن أى ادعاء بأحقيته فى مجموعته، لمجرد الأمل فى أن يتلقى معاملة طيبة فى المستقبل. ولم يكن أمام سولت ما يفعله وهو حبيس منزله، والطاعون يحصد الأرواح من حوله، سوى القعود وانتظار النتائج. أثناء ذلك، تمكن من تسوية أموره مع بيلزونى مجملا دينه البالغ ١٦٩ جنيها إلى مائة جنيه، ومضيفا بضعة أشياء من مجموعته أحس بأنه يمكنه الاستغناء عنها.

ويسجل سولت أن بيلزونى "بدا فى غاية الرضى وعبر عن أمله، عند الفراق، بأن نظل أصدقاء". لا بد أن القنصل قد أحس بالحسد حيال بيلزونى، للمرة الأولى طوال علاقتهما، لأنه كان فى طريقه كى ينال معاملة الأشخاص ذوى الحيثية فى لندن.

وكان اسم بيلزونى قد أصبح له رنين أسماء الأبطال فى العاصمة عن طريق دورية فصلية، وهى صحيفة واسعة الانتشار نشرت انتصاراته على الفرنسيين فى وادى النيل. وأدخلت هذه القصص البهجة على قلوب القراء الذين كانوا يسرهم أن يتلقى الفرنسيون معاملة مزعجة مؤرقة فى ادّعاءاتهم بالعلم بمصر، لم تعف منها

حتى المجلدات الرائعة من كتاب وصف مصر "يعرف الجميع أن الفرنسيين قد أرسلوا جيشا صغيرا من العلماء مع جيشهم إلى مصر، كى يحتفلوا وليقر قرارهم فى بلاد البطالمة الخصبة العريقة، ويحتفوا بالفتح الذى لم يدعوا مجال للشك فيه. وحين أخرج هؤلاء من أرض كنعان بقوة السلاح البريطانى، لم يدخروا جهدا فى خلق غنيمة حرب فى هيئه كتاب ضخم كى يخلدوا شهرتهم، ذلك أن عدد الأقدام المربعة فى إحدى صفحاته لا مثيل له فى تاريخ صناعة الكتب.(*) كما أعلنت هذه الدورية الفصلية عن الهدية المتمثلة فى رأس ممنون الشاب للمتحف البريطانى، قائلة إنه من خلال جهود سولت، وبيلزونى من الوارد أن تصبح هذه المؤسسة (أى: المتحف البريطانى) أغنى مستودعات الآثار فى العالم. وكانت الدورية سعيدة إذ تنشر تعليقات سولت عن تفوق بيلزونى على أفضل الفرنسيين "فى الواقع، لقد مكنته مواهبه العظيمة، وعبقريته غير العادية فى الميكانيكا من أن يحرز نجاحا فريدا ... فى نقل قطع هائلة الحجم يبدو مما رأيناه أنها قد تحدت المهندسين الأكفاء الذين صحبوا الجيش الفرنسى" .

وردا على الادعاء المذهل الذى عبر عنه مسيو جومار، محرر دورية العلماء الفرنسيين، الذى قال إنه لما كان الفرنسيون قد ضحوا كثيرا كى يميطوا اللثام عن آثار مصر، فيجب أن يكافئوا باعتبارهم المالكين الحقيقيين لهذه الآثار. فعرض محرر الدورية الفصلية أعمال بيلزونى العظيمة فى المقابل، إذ قال: "لا نعتقد أن مستر بيلزونى قد نال قدرا كبيرا من التعليم، أو أنه يتمتع بعلم عميق، غير أنه من المؤكد أنه يملك موهبة عميقة للبحث ويتمتع بصبر لا ينفد... وبفضل ما بذل هذا الرجل من جهد، من المحتمل أن يصير المتحف البريطانى أول مستودع فى العالم للفن المصرى والآثار المصرية، ونثق فى أن كل تشجيع ممكن سوف يعطى لهذه الجهود، وذلك بمكافأته بسخاء لما قام به، وكذلك بإعطاء الوعود بالمزيد من المكافآت فى المستقبل التى تتناسب مع ما يقوم باكتشافه ".

(*) نظن أن "جيش مصر" يقصد به الجيش الذى سير لفتح مصر. كما أنهم لا يفرقون بين أرض مصر وأرض كنعان التى وردت فى التوراة، مما يثبت جهلا شديدا بهذه المنطقة، ليس أدل عليه من تسمية أرض مصر بأرض البطالمة. (المترجم).

كان الناشر جون مارى هو مؤسس هذه الدورية، لذا كان طبيعيا أنه بالنسبة لوضع هذا الرجل شديد الحماس لكل ما هو غريب، أن أخذ بيلزونى مخطوط كتابه: سرد لعمليات الاكتشافات الحديثة داخل الأهرام، والمعابد والمقابر، وأعمال التنقيب فى مصر وبلاد النوبة؛ وعن رحلة لساحل البحر الأحمر، بحثا عن برينيس القديمة، ورحلة أخرى إلى واحة جوبيتر آمون .

أدرك مارى أن هذا هو الوقت المثالى لنشر الكتاب، إذ كان رأس ممنون شامخا فى المتحف البريطانى كإعلان يصرخ باسم مؤلفه. وكانت هناك آثار أخرى قادمة، وكان بيلزونى قد خطط لعرض يخطف الأنظار فى وسط لندن، ذلك أنه كانت لديه قدرة على اشتمام ما تكافئه به الدعاية نظرا لحياته العملية على خشبة المسرح .

وكانت مصر ماثلة فى الوعى العام، فالحملة الفرنسية التى توجهت الى وادى النيل، ونشر كتاب وصف مصر، قد أثارا اهتمام الناس، الأمر الذى أطلق شرارة ما سمى "النهضة أو الإحياء المصرى"، رغم أن بعض مؤرخى المعمار يزعمون أن الاهتمام بالثقافة المصرية أو ما يشبه ذلك ظل حيا فى أوربا منذ أوائل عصر النهضة. ومع ذلك، لم تشتعل جذوة مصر كهوس وطنى قبل ذلك، فلم يكن لها مكانة الآثار الإغريقية أو الرومانية، ولم يكن لها الظلال الوطنية التى كانت للأسلوب القوطى .

ومع ذلك، وحتى فى التسعينيات من القرن الثامن عشر، قبل أن ينطلق بونابرت، صممت، قاعة بلياردو من أجل بيت كيرنيس فى أباردينشير، وبها ما يمثل الكتابة الهيروغليفية حول المدخنة والأفاريز والأبواب، وبها مدفأة مبنية على هيئة مدخل مقبرة .

وأثناء سنوات الاحتلال الفرنسى لمصر، وقبل أن تصل أسماع العالم أصداء كشوفهم، كان توماس هوب قد جمع أثاث "حجرته المصرية"، (أى حجرته المصممة على طراز الحجرات الفرعونية)، وديكورها، فى الدار الكبرى فى شارع داتشيس فى لندن. كان الزائرون فى ذلك المكان، يشاهدون حجرة صغيرة أو مخدعا يوجد به معلاق للعباءات على شكل رواق من الأعمدة فى المدخل تحت

خيمة من القطن؛ وكان هناك "كرسي مصري" يمثل كهنة يميلون إلى الأمام، وإيزيس مجنحة؛ وإفريز من الشخوص المصرية، ومومياء في صندوق زجاجي.

كما كان ويدودج ينتج تنويعة واسعة من أشكال أبي الهول، والجرار التي تتخذ شكل قبة، وزهريات تمثل موضوعات مصرية متكررة، مثلما يحدث في الأعمال الفنية التي كانت شائعة في القرن السابع عشر.

وكان مصممو المناظر الداخلية يميلون إلى التنويع بمزج الأعمدة ذكرية الشكل والأعمدة ذات النقوش الفرعونية، والمسلات وتماثيل أبي الهول والجعارين.

لقد أعطى تدخل بريطانيا في مصر، وكذلك الدعاية الكبيرة للانتصارات على الفرنسيين، دفعة لظهور أشكال من الموضة (الطّراز) تعيد للذاكرة عطر الشرق الغامض. إذ شكا روبيرت سوذى فى ١٧٠٨ إذ يقول: في الوقت الحاضر يعود الجنود من مصر وقد كسرت أطرافهم، وأصيبت عيونهم بالرمد، ومع ذلك فهم يحملون ذراعا على حمالة، أو يجوبون الشوارع وقد لونوا جفونهم بظلال خضر.

كل شيء الآن يجب أن يكون مصريا، فالسيدات يرتدين زينات من التماسيح، والمرء يجلس على أبي الهول في حجرة تعلق عليها صور المومياوات من كل جانب، وكذلك الرجال السود ذوو الأذرع النحلية والأنوف الطويلة ذات الأشكال الهيروغليفية، التي يكفي النظر إليها لجعل الأطفال يخشون الذهاب لفُرُشهم. بل أصبح من اللازم أن تتحول واجهات المحال إلى هذه الموضة، فتنقش بالأحرف المصرية، التي يمكنك أن تدرك، بلا شك، ما بها من غرابة، إذ إن المصريين لم تكن لديهم أحرف .

حين انطلق بيلزوني كي يقدم نفسه في لندن، كان المجتمع يدغدغ مشاعره كلُّ ما هو مصري، وكان مهيأ للمزيد من صنوف الإثارة المحسوسة، فوجد بيلزوني الموقع المثالي لمعروضاته في القاعة المصرية، بيكاديلي، التي توجد بها واجهة يقال إنها مبنية على الرسوم التي رسمها دينون للمعابد في دندرة. كانت النوافذ السفلى في الواقع، على شكل الهرم المدرج، وكان على جانبي الباب صفان من

اللوتس الغليظ، الذى يختلف عن اللوتس المصرى. ويعلو النوافذ تمثالان ضخمان، لا يستطيع سوى النحات أن يحدد أنهما يمثلان إيزيس وأوزيريس.

وكانت قاعة العرض محمولة من الداخل على أعمدة عليها نقوش اللوتس والأشكال الهيروغليفية ورؤوس تمثل هاتور. أما السقف فكانت تزينه إشارات الأبراج الفلكية. فأنشأ بيلزونى داخل القاعة نماذج بالحجم الطبيعى لحجرتين فى مقبرة سيتحوس الثانى، ونموذجا لميزان يزيد طوله على خمسين قدما من المبنى بأكمله. كما كان هناك نموذج يبلغ ارتفاعه أربع أقدام للهرم الثانى مصنوع من الشمع، ونموذج آخر يبين الممرات والحجرات الموجودة داخل الهرم. وكان هناك نموذج آخر لمعبد أبو سمبل على مدرج من ثلاثين درجة؛ وحول الجدران كانت هناك تماثيل من الجص من باريس — تمثل أوزيريس وحورس وأنوبيس برأسه الذى يشبه ابن آوى — حيث يعبدها الفراعنة ويقدمون لها الهبات. وكانت كلها بألوان براقة، بحيث تعيد إلى الأذهان الرسوم السريعة التى قام بها بيلزونى فى مصر. وكذلك كانت هناك الآثار الحقيقية، منها تماثيل لسخميت برأس الأسد، ومومياوات وصناديق زجاجية، مليئة بأشياء أصغر حجما مثل الزهريات التى تحتوى على أوعية للمومياوات، وقطع من حبل النخيل، وأحذية وأوراق بردى، ونتف من القبور والتماثيل والتوابيت الحجرية.

وانطلق المعرض انطلاقة طيبة، كانت لندن تحتشد ترقبا للتتويج الصيفى، وكانت القاعة المصرية تحتل موقعا جيدا فى الناحية الجنوبية من بيكاديلى، فى مواجهة الوصلة مع شارع بوند القديم، حيث كانت العربات تتوقف، كى تلتقط الركاب.

وفى يوم افتتاح المعرض، فى ٢١ مايو ١٨٢١، دفع ١٩٠٠ شخص نصف الكراون رسم الدخول، وتزاحموا داخل القاعة. وكتبت صحيفة التايمز رأيا متوازنا محبذا للمعرض: "نعتقد أن كل عين يجب أن تسر بهذا المزيج الفريد، والترتيب الذكى للأشياء الشديدة الجدة والمثيرة فى ذاتها .... فالعبقرية الميكانيكية والاجتهاد الذى لا يعرف الكلل — اللذان استطاع بهما مستر بيلزونى أن ينتقل لحلبة الجدل الأوربى على هذا النحو، ولولاه ما كانت لتنقل نتائج أعمال التنقيب فى مصر

يمنحان شهادة بأنه فنان، بقدر ما تعكس حصافته ونجاحه فى الكشف عن موضوع هذا المعرض غير العادى، مما ميزه على جميع الرحالة الأوربيين فى الأزمنة الحديثة.

ظل المعرض مفتوحا لما يزيد على عام، وصار ملتقى مفضلا، "يأتى إليه الممتازون من الناس"، كما كتبت ليدى بليسينجتون، "لمجرد قضاء ساعة من الزمان، أو ترقبا للقاء معارفهم".

كما عملت آثار النيل عمل السحر فى النفوس الأكثر رهافة، حتى إن الشاعر هوريشيو سميث تأثر فألف "خطابا للمومياء فى معرض بيلزونى": ".. وهل تجولت ــ ويالها من قصة عجيبة ــ فى شوارع طيبة منذ ثلاثة آلاف من السنين؟ حين كان ممنون فى ذروة المجد، ولم يكن الزمن قد بدأ يقلب هذه المعابد والقصور والأكداس المهولة، حيث الحطام ذاته عظيم". الشاعر فى شوق للتحاور: "تكلمى فلطالما كنت صامتة، إن لك للسانا بليغا.. هيا فلنسمع نغماته. ها أنت تشمخين بأقدامك فوق أديم الأرض، أيتها المومياء، تزورين ضياء القمر من جديد، ليس كأشباح هزيلة، أو مخلوقات شائهة، وإنما بعظامك ولحمك وأطرافك وقسماتك. غير أن المومياء تأبى أن تجيب إذ كان من غير الممكن البوح بأسرارالقبر، فإن طبيعة حياتك الخاصة تتكشف، فقد نبض القلب تحت الصدر الجلدى، والدمع ينهمر فوق الخد الترابى، هل شب الأطفال ولثموا ذلك الوجه؟.. ما عساه كان اسمك ومكانتك وعمرك وجنسك؟ ".

أثناء صيف عام ١٨٢١، بينما كان بيلزونى يختلط بالمجتمع الراقى فى لندن، ويندمج مع أفراد العائلة المالكة فى المحفل الماسونى الذى كان عضوا فيه، ويتناول العشاء مع سير وولتر سكوت فى حجرات جمعية ألماك فى سينت جيمز، أثناء هذا كله، كان سنده سير هنرى سولت يرقد فى القاهرة وقد أحالته حمى التيفود إلى هيكل عظمى. وظل الخطاب الذى أرسله إلى سير جوزف بانكس بلا رد، ولم يقدر له أحد عرضه غير المشروط بأن يقدم مجموعته الكاملة للمتحف البريطانى. وعندما تلقى أصدقاء سولت وراعوه تفسيراته لسوء الفهم الذى نجم عن قائمة الأسعار التقديرية التى أرسل بها، كانوا قد تحلقوا فى لندن. وكتب كل من ويليام

هاميلتون ولورد مونتنوريس وتشارلز يورك لبانكس يلحون عليه للضغط من أجل قبول عرض سولت، وأن يكون ذلك مقابل تعويض معقول.

وكان بانكس متفائلا، فبالرغم من أنه احتج على أن اعتذار سولت على إرسال قائمة الأسعار لم يشرح دوافعه لإرسالها أصلا، إلا أنه قال إنه سوف يعرض الأمر فى الاجتماع التالى لمجلس الأوصياء (الأمناء)، مضيفا بأنه لايكاد يخامره شك فى أن العرض "سوف يتم قبوله على الفور". على أى حال فقد مرض بانكس بحلـول ذلك الوقت مرضا خطيرا، ومات فى العالم التالى دون أن يتلقى أى قرار.

وكان هنرى سولت قد وجد فى مصر عزاء من نوع ما. كان قد أحـس منـذ وقت طويل بفراغ خطير فى حياته، عبر عنه للورد مونتنـوريس فـى أغـسطس ١٨١٨، ومع ذلك فإن الحاجة الماسة التى أحس بها، هى رفقة الزوجة:" ذلـك أن عواطفى قوية، وأريد أن يكون حولى من أستطيع أن أحب، فلو كان لـدىّ أبنـاء، لملأت السعادة قلبى؛ لكن هذا الجمود بالإضافة إلى البعـد عـن العلـوم والأدب والفنون والمعرفة والرقة والذوق، فإن ذلك عقوبة تكفى لإصابة المرء بـالجنون. ولكن مهما فكرنا فإن العجلة لابد أن تدور".

فى أكتوبر عام ١٨١٩، تزوج سولت أخيرا. وكانت زوجته هى ابنة مـستر بينسا البالغة من العمر ستة عشر ربيعا. ومستر بينسا هو تاجر ذائع الصيت مـن ليجورن فى إيطاليا، وكانت أسرته معه حين كان فى شأن من شئون تجارته فـى الإسكندرية. والتقى سولت بالفتاة هناك وتزوجها، وسرعان ما سقط صريع المرض فى يوم عرسه، وكان لابد من نقله إلى رشيد فى عربة مـدير المديريـة، حيـث استقبله جراح من القاهرة، وتم نقله إلى هناك كى يرحل عن الدنيا، إذ لم يكن لدى الأطباء أى أمل فى شفائه، ولم يبعث فى روحه بعض القوة سوى عزمه علـى أن يستمتع بالزواج الذى طالما تاق اليه .

وطوال عام ١٨٢٠ كانت صحة سولت معتلة، فطلـب الإذن بالـذهاب إلـى إنجلترا فى عطلة كى يقضى فترة النقاهة. ومنحت له العطلة فى ديسمبر من نفس العام، غير أن التوترات السياسية جعلت من الصعب عليه أن يترك منصبه، ذلـك أن السفن الهندية كانت تحاصر الموانئ فى البحر الأحمر، وكانت هناك مخـاوف

من زعزعة السلام مع روسيا، فقرر سولت البقاء فى مصر حتى تستقر الشئون الدولية. وقضى تلك الفترة بعيدا عن فراش المرض فى رعاية الباشا والاهتمام بواجباته الزوجية بقدر ما سمحت صحته حتى ذلك الوقت.

وفى نوفمبر عام ١٨٢٠، كتب للورد مونتنوريس:" سوف يسرك أن تعلم أن سيدتى فى حالة مبشرة، لقد ألم بها عرض سيئ على مدى شهرين، ولكن يسعدنى أن أقول، إنها تجاوزت الآن الشهر الثالث". كما تمكن سولت من تدبير سفينة شحن كى تنقل آثاره لترسل إلى لندن. وبالرغم من أنه كان لم يزل غير واثق بالنسبة لمآلها الأخير إلا أنه استخدم وكيلا هو بينجهام ريتشاردس، ليقوم بتخزينها فى المتحف البريطانى ريثما يتمكن من العودة إلى لندن وتسوية الأمر. واستمر سولت، أثناء ذلك، فى تدعيم مجموعة الآثار التى جمعها.

ولما أرقده مرة أخرى التيفود فى صيف ١٨٢١، قرر التوجه إلى أسوان للجو الأخف حرارة(*)، ومعه مترجمه ينى، وهناك قضى وقتا مثمرا وهو يرتب لنقل إحدى المسلات لصديقه بانكس، كما أخذ يستكشف المقابر الموجودة حول طيبة، وهناك تمكن ينى من إزاحة التراب من فوق بعض المقابر الخاصة التى لم يلاحظها أحد من قبل، ومنها واحدة لأحد "الكتاب الملكيين" عادت بإضافات إلى مجموعة سولت: "حصلت على تمثال له ولزوجته، وحامل الألوان الخاص به، ولوحة الألوان، وجعران على هيئة خاتم عليه اسمه".

كذلك اكتشف ينى مقعدا مصريا فى حالة جيدة، يشبه تلك المقاعد المرسومة على جدران مقابر الملوك. وهذا المقعد مرصع بالعاج والأبنوس، وله شكل أنيق، إذ إن أجزاءه متصلة بالكامل بواسطة خوابير أو دعامات خشبية، بدلا من المسامير أوغيرها من وسائل التثبيت. كما أنه عثر على قطع من آله هارب يسهل منها، أى هذه القطع، ترميم هذه الآله ... ولقد تم شحن هذه الكنوز إلى القنصلية فى القاهرة، وبقى سولت مع هذه الأشياء الثمينة إلى أن سمحت له تسوية الحرب بين اليونان وتركيا بمغادرة القنصلية، فعاد إلى الوطن وباعها للمتحف البريطانى.

(*) لم أفهم هذا. (المترجم).

فى لندن، لم يبد الأوصياء (الأمناء) أية اشارة تدل على أنهم توصلوا إلى أية نتائج فيما يتعلق بعرض سولت بإعطاء مجموعته للمتحف البريطانى، حين وصلت الفرقاطة التركية ديانا إلى ميناء لندن حاملة أبدع ما اكتشف حتى ذلك الوقت فى وادى النيل، وهو التابوت المرمرى الأبيض الشفاف من مقبرة سيتحس الأول.

كانت لدى بينجهام ريتشاردس تعليمات من سولت بتسليم التابوت للمتحف البريطانى، ومع ذلك، وقبل أن يتمكن من إنزاله من على الفرقاطة ديانا، كان بيلزونى قد وصل كى يقيم ادعاء. فبناء على اتفاق بيلزونى مع سولت كان من حقه نصف ما يكون ثمنا للتابوت فيما يزيد عن ٢٠٠٠ جنيه. وانقضت السنوات الثلاث التى يجب أن يمنح أثناءها التابوت للمتحف البريطانى؛ وكان لدى بيلزونى عرضا مؤكدا من فرنسا بمبلغ قدره ٣٠٠٠ جنيه، لذا لم يكن المتحف البريطانى مخولا باستلام التابوت ما لم يكن قادرا على تقديم عرض يكافئ ما عرض على بيلزونى. فأصبح ريتشاردس فى حيرة من أمره، فأقنع وكلاء الفرقاطة ديانا بتأخير عملية الإنزال، وكتب لكل الجهات طالبا المساعدة.

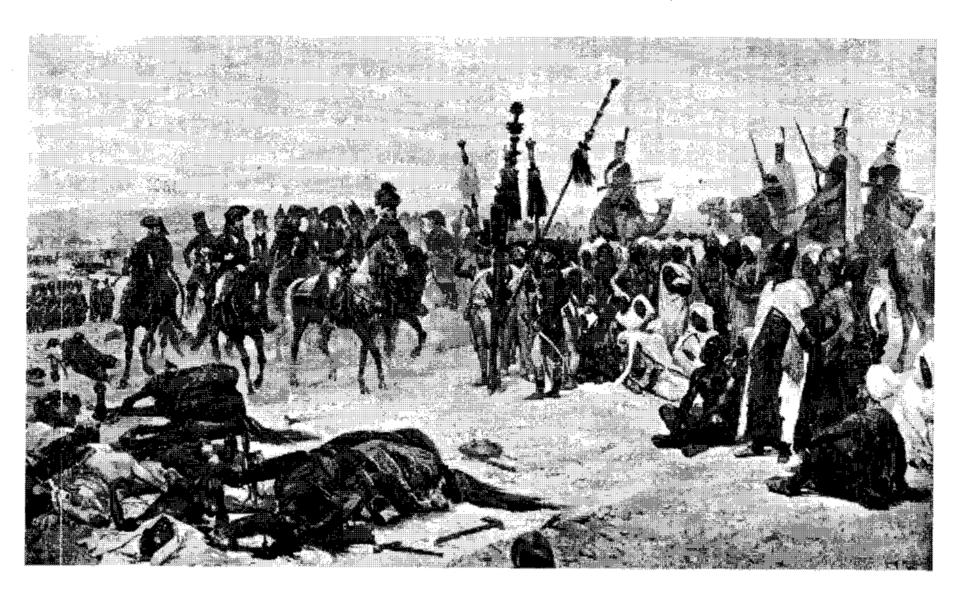
وأشار لورد مونتنوريس بأن التابوت قد صرح بدخوله بإعفاء من الجمارك، لأن المقصود كان ضمه للمجموعة الوطنية، وأنه إذا ما بيع لفرنسا فيمكن دفع الرسوم ربما بمبلغ باهظ يربو على الفروق بين تقييمات المتحف البريطانى ومبلغ ال ٣٠٠٠ جنيه التى عرضها بيلزونى.

كما أثار تشارلز يورك نقطة جوهرية لم يشر إليها أحد، وبدا أن سولت يميل إلى تخطيها وعدم تناولها، فلم يكن سولت ليتمكن من الحصول على التابوت لولا وضع الشخصية العامة التى أسبغتها عليه الحكومة البريطانية، والنفوذ المستمد من ذلك على عقل ونوايا الوزير محمد. فلم يكن من الملائم السماح بجعل التابوت ينقل لأنه قد تم الحصول عليه، ولو جزئنا، بفضل ممارسة النفوذ البريطانى الرسمى.

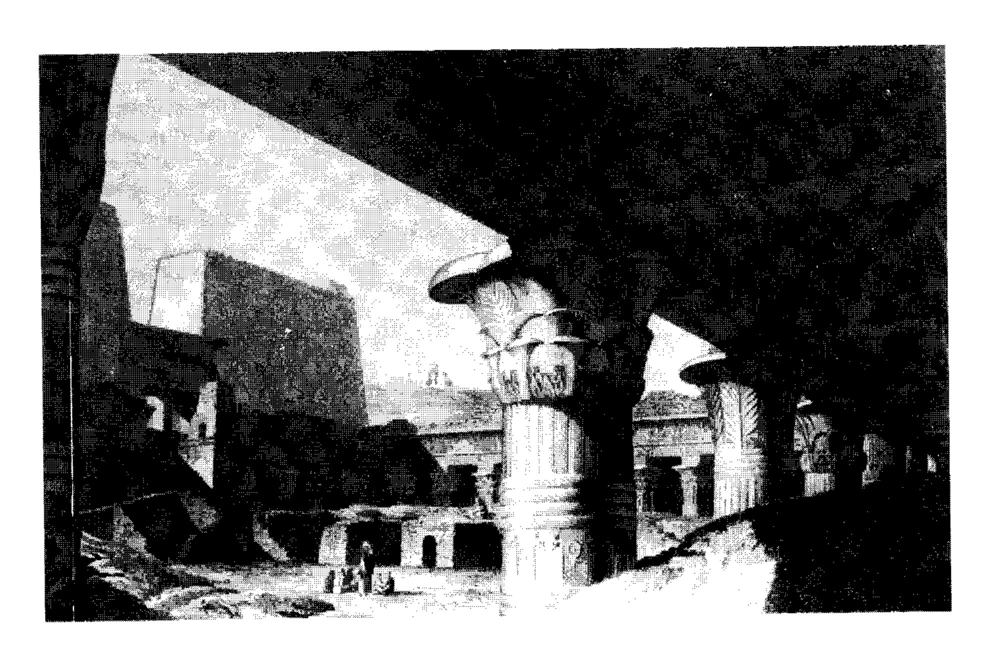
أما الخطاب الحاسم فجاء من والد ريتشاردس وهو فى حالة من الإعياء، مشيرا إلى أنه إذا ما تمكن بيلزونى بالفعل من ضمان عرض بمبلغ ٣٠٠٠ جنيه، فلسوف تتم مقاضاته إذا ما نقل التابوت للمتحف البريطانى بعرض أقل من ذلك. فتبنى ريتشاردس الأب وجهة النظر القائلة بأن الاتفاق بين بيلزونى وسولت غير



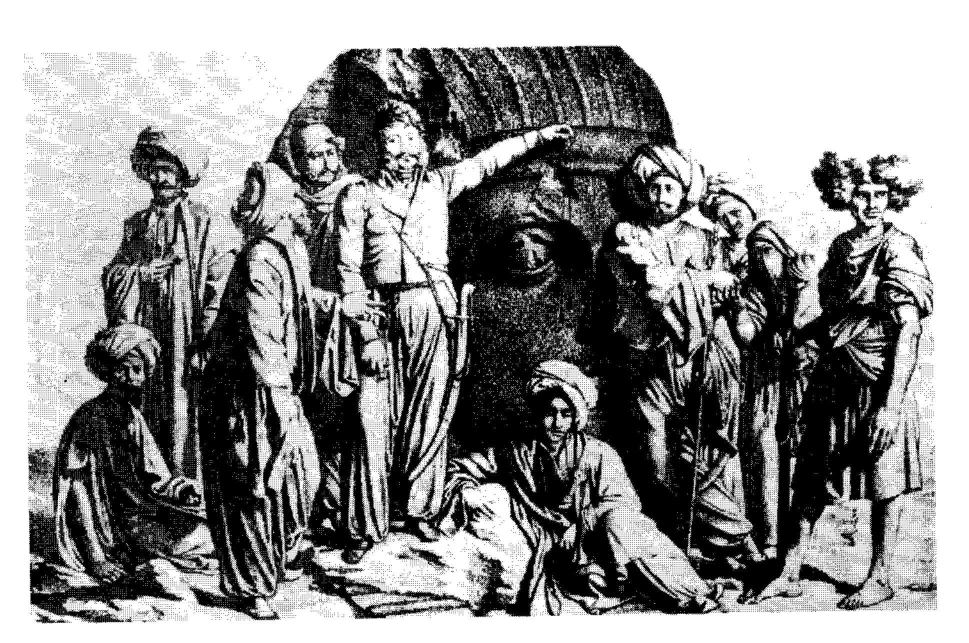
نابليون يتفقد مومياء، وحوله العلماء.



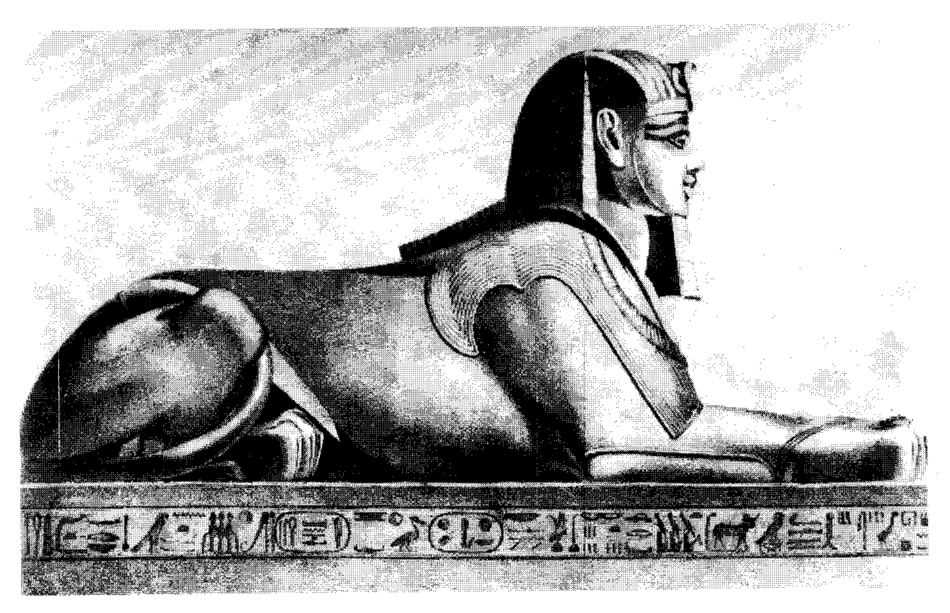
معركة الأهرام فى سنة ١٨٩٨ التى قتل فيها عدد كبير من البدو والمماليك.



معبد إدفو، كاد يدفن تماما فى الرمال.



بيرناردينو دروفتى، أكثر جامعى الآثار نشاطا فى تلك الأيام، يريح يده على جبين أحد تماثيل أبى الهول، وحوله مساعدون من أهل البلاد يعينونه على الحفر، بتكليف من محمد على.



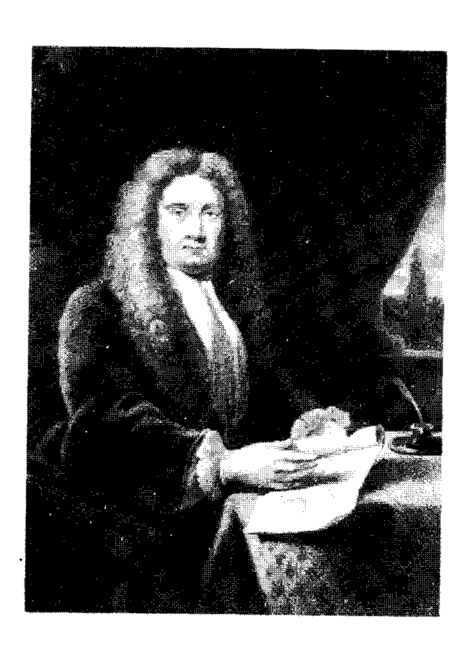
تمثال أبى الهول، من الجرانيت الأحمر، من طيبة. إحدى جواهر مجموعة هنرى سالت. موجود الآن فى متحف هرمتاج فى لينينجراد.



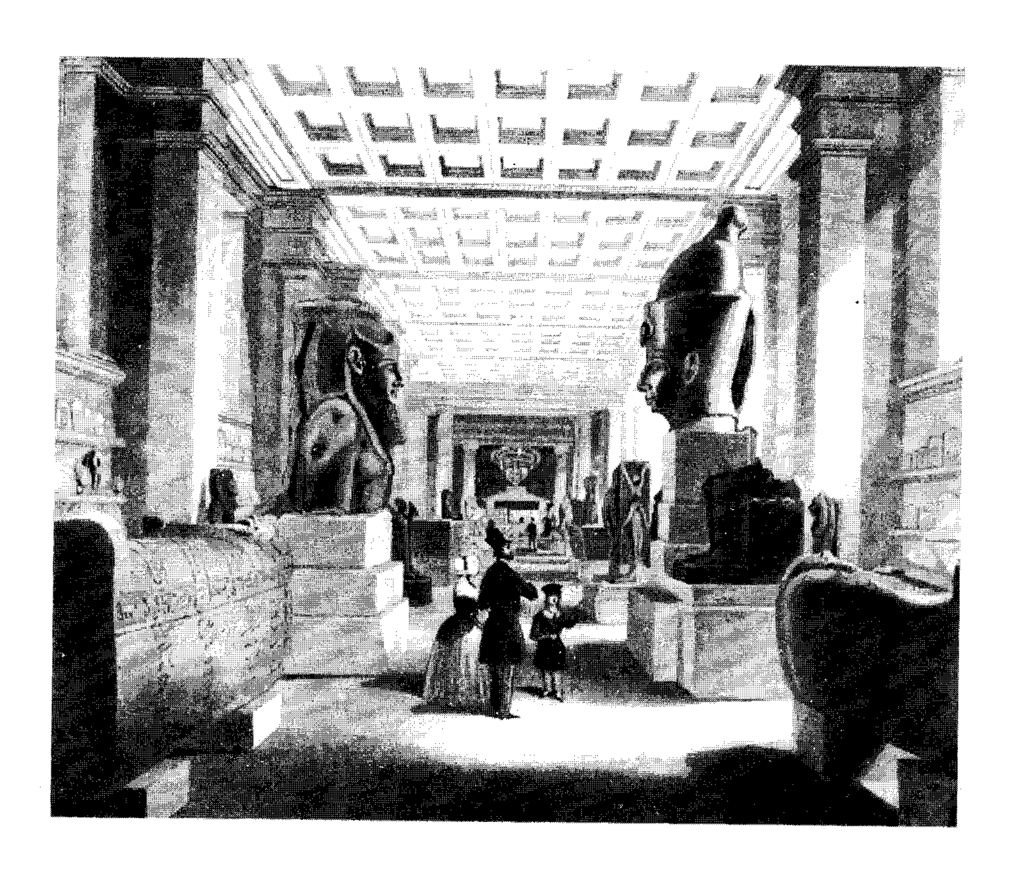
جيوڤانى بلزونى فى لباس أهل البلاد.



تمثال نصفى لرمسيس الثانى (من مجموعة هنرى سالت).



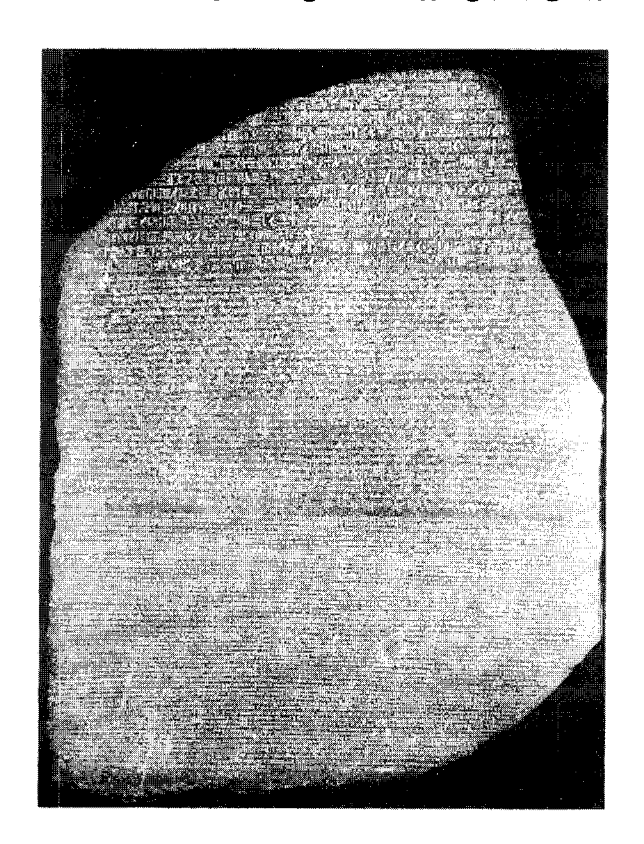
السير هانز سلون الذى كونت مجموعته أساس
مجموعة المتحف الوطنى البريطانى.



القاعة المصرية فى المتحف البريطانى بوضعها الذى بقيت عليه حتى الآن.



صالة الآثار المصرية فى بيكاديللى ، وواجهتها تحاكى معبد دندرة.



حجر رشيد (الهيروغليفية إلى الأعلى، والديموطيقية فى الوسط، واليونانية إلى الأسفل).

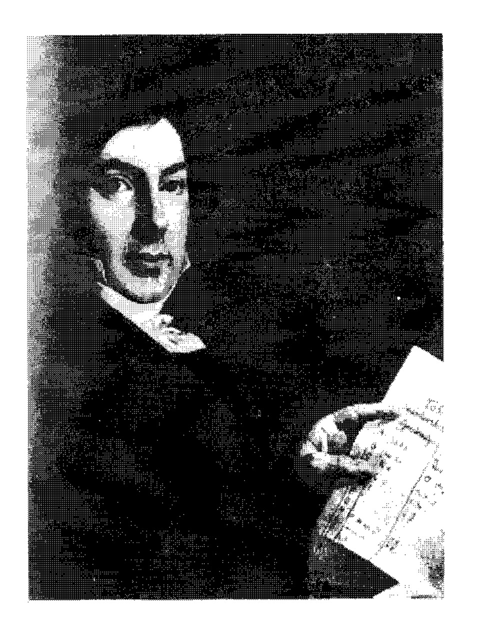


توماس يونج، الذى وصل للاستنتاجات الأساسية فى فك أسرار حجر رشيد.

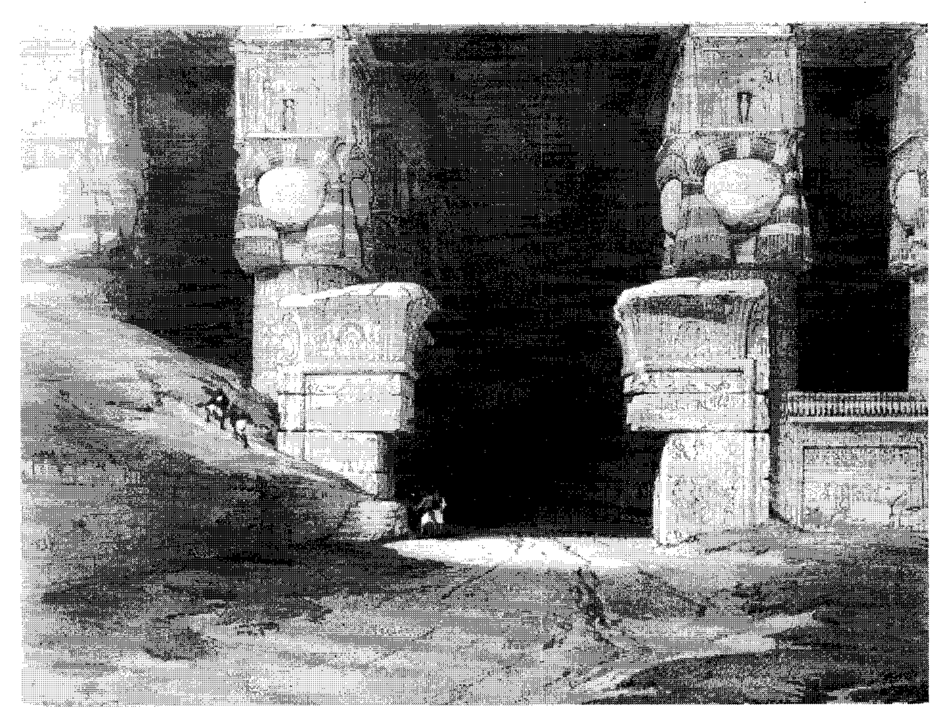
حفر لدائرة البروج فى سقف معبد دندرة. نقله إلى فرنسا ليلوريان، وهو الآن فى متحف اللوفر.



باروں فون بنسن الذى شجع ليبسيوس على
إجراء حفرياته فى مصر.



جان فرنسوا شامبليون.



معبد دندرة كما رسمه ــ بروعة ــ ديڤد روبرتس فى ديسمبر سنة ١٨٣٨.



ريتشارد ليبسيوس رئيس البعثة الأثرية
البروسية ١٨٤٢ ــ ١٨٤٨.



النسر البروسى يحلق أمام أهرامات الجيزة.

ذى صفة، وأنه حتى لو جاء بيلزونى إلى مكان الشحن والتفريغ وهو يحمل ٣٠٠٠ جنيه نقدا، فسيكون من الخطأ تسليم التابوت، لأن هذا قد يفسح الطريق لابنه كى يطلب إقامة مزاد للتعويض عن الأضرار التى تسبب فيها أوصياء (أمناء) المتحف البريطانى.

من الواضح أن وضع الوكيل الذى يتولّى شحن الآثار يعد مجازفة، تماثل ما يجازف به ذلك الوكيل الذى نقب وحفر للحصول عليها أصلا. فانحنى ريتشاردس المسكين للنصيحة القوية، وأرسل التابوت للمتحف البريطانى. أما بيلزونى فكان، بالطبع، يريد أن يضع يديه على التابوت كى يضيفه إلى معرضه الذى نجح نجاحا ساحقا فى القاعة المصرية (أى القاعة المخصصة للآثار المصرية)، لقد كان شديد العزم حتى إنه كتب للأوصياء (الأمناء) عارضا استعداده للتنازل عن اهتمامه بالتابوت إذا ما سمحوا له بعرضه لاثنى عشر شهرا، بل ستة أشهر.

واستغرق الأمر شهرين حتى ينظر الأوصياء (أمناء المتحف) فى طلب بيلزونى، وحين فعلوا ذلك، أخيرا، تحاشوا الوصول إلى قرار، وكتبوا لسولت وسألوه عما يريد فعله. كان سولت، فى ذلك الوقت، يزداد توترا. فلقد مضت سنتان منذ أن عرض مجموعته على المتحف البريطانى ولم يتلق أى رد.

وفى ١٠ مايو ١٨٢٢، كتب لأوصياء المتحف البريطانى مكررا عرضه غير المشروط بمنح المجموعة بالكامل، بعد أن ازدادت ونمت بمرور الوقت. واهتم سولت بالإشارة إلى أن تجميعها قد كلفه ما يربو على ٣٠٠٠ جنيه، وأنه أنفق ما آل إليه من إرث أبيه على تكديسها، وليس لديه ما يعينه هو وأسرته مع اعتلال صحته، "وعلىّ إذن، أن أركن إلى كرمكم، ولسوف أكون راضيا كل الرضا بما سوف تقررونه فى صالحى". وكان هذا، بالطبع، غش قراح .

إذ إن سولت قد كتب قبل ذلك بأسبوعين فقط لريتشاردس يبلغه بأنه استنجد بأصدقائه من أصحاب النفوذ؛ لورد مونتتوريس وتشارلز يورك وأحد الأوصياء، (الأمناء) ويليام بانكس، طالبا منهم الضغط من أجل الحصول على تعويض عادل له، مضيفا على سبيل الشرح: "ربما يكون من الصواب أن أسر إليك بأنى آمل الحصول على أربعة آلاف جنيه من الحكومة، وإلا فسوف أشعر بالإساءة. أما إذا

كان المبلغ خمسة آلاف فسوف أشعر بتمام الرضا. واعتقد أنــك تعلــم أن مــستر دروفيتى قد عرض علىّ فى مصر عشرة آلاف دولار (حوالى ألفى جنيــه) لقــاء التابوت، كما كرر نفس العرض على أحد الرحالة من بروسيا، هو بارون مينوتولى الذى رجانى إذا ما رفضت الحكومة أخذه بأن أجعله يعلم هذا الرفض. وفى فرنسا، يمكننى الحصول على ضعف ما ذكرته آنفا على الأقل لقاء مجموعتى، بالرغم من، ــ كما يلاحظ مستر يورك ــ أن هذه ليست حجة جيدة".

منح ريتشاردس سلطة الادعاء كى يتصرف نيابة عن سولت، فقال للأوصياء (الأمناء) إن مبلغ ٥٠٠٠ يمكن أن يكون مقبولا مقابل المجموعة والتــابوت معــا. وبما أن بيلزونى كان قد أبلغهم بأنه فى وسعه الحصول على ٣٠٠٠ مقابل التابوت وحده، فإن عملية حسابيه بسيطة حسمت الأمر بأن يدفع الأوصياء ٢٠٠٠ مقابــل المجموعة بدون أن تشمل التابوت ــ رغم أن الأمر استغرق عامــا بأكملــه كــى يتوصلوا إلى هذا القرار.

وفى اجتماع رأسه كبير أساقفه كانتربرى، فى ١٤ فبراير ١٨٢٣، تم تقــديم عرض رسمى بمبلغ ٢٠٠٠ جنيه ورفض التابوت. ولم يكن بيلزونــى، علــى أى حال، موجودا كى يتفاوض على بيع التابوت، وأنفق عاما بغير طائل يهدد برفــع قضايا ضد المتحف البريطانى محاولا امتلاك التابوت، منفقا الوقت فى التنقل فــى أرجاء أوربا يتقبل إطراء الجمهور.

وعند عودته إلى إنجلترا فى صيف ١٨٢٢، رتب لبيع محتويات معرضه فى القاعة المصرية(*) بالمزاد، ووفق على نحو معقول إذ بيع النموذج الضخم لمقبــرة سيتحس بمبلغ ٤٩٠ جنيها، كما بيع تمثالين برأس أسد يمثلان سخميت بهما تلــف ضئيل بمبلغ٣٨٠ جنيها، وتمثال آخر بحالة جيدة مقابل ٣٠٠، حتــى النموذجــان الشمعيان وجدا من يطلبهما، ذلك أن معبد إيزيس فى فيلة دفــع فيــه ٢٨ جنيهــا، والنموذج الشمعى لمعبد أبى سمبل بيع بمبلغ ٢٤ جنيه.

ساعدت هذه الأموال بيلزونى على شق طريقه حول أوربا فى جولة جديــدة، وفى أواخر ١٨٢٣، منح سلطة الدفاع لصاحب النيافة جورج آدم بــراون، وهــو

(*) المقصود القاعة التى تضم الآثار المصرية فى المتحف البريطانى. (المراجع).

زميل فى كلية ترينيتى بجامعة كيمبريدج. ثم قدم بيلزونى غطاء التابوت المصنوع من الجرانيت الأحمر الذى أعطاه له دروفيتى لمتحف فيتزويليام، وانطلق بحثا عن مصب نهر النيجر، وتوفى إثر إصابته بالدوسنتاريا وهو فى طريقه إلى تمبكتو، فى ٣ ديسمبر ١٨٢٣.

بدا لبعض الوقت أن التابوت لن يجد من يشتريه، فكتب سولت وهو فى حالة من اليأس بأن يبيعه ريتشاردس بألف وخمسمائة جنيه، على أن يبيعه فورا، فلم يقر للمتحف البريطانى قرار، وفى فبراير ١٨٢٤، تسلم ريتشاردس عرضا مؤكدا بألفى جنيه من مستر جون سلوين، وقبل أن يفض ريتشاردس يده تماما من التابوت كتب لأوصياء المتحف البريطانى فى ٢ أبريل عام ١٨٢٤، يعرضه عليهم مقابل نفس الثمن. ولم يستغرق الأمر منهم أكثر من ثمانية أيام كى يتوصلوا للقرار الخاطئ، ورفضوا العرض فى ١٠ أبريل. وبعد ذلك بشهر فى ١٢ مايو ١٨٢٤، وضع التابوت فى منزل سلوين، حيث يمكن التملى من النظر اليه اليوم.

كان عام ١٨٢٤ عاما سيئا بالنسبة لسولت، إذ إنه وقع فريسة للمرض معظم الأسابيع الأولى من ذلك العام، ومع قدوم عيد القيامة (الفصح) وضعت زوجته طفلا. وأصيبت بالحمى، ولم يتمكن الطبيب من رعايتها سوى لفترة وجيزة قبل أن يُستدعى للعناية بزوجته هو، التى أصيبت بالطاعون. وبعد ذلك بعشرين يوما توفى الطبيب نفسه متأثرا بالطاعون، وراحت زوجة سولت فى غيبوبة لم تفق منها أبدا، ثم مات الطفل، فحزن سولت حزنا شديدا على فقد زوجته، كما أضعفته علته، حتى إنه لم يعد قادرا على العنايه بابنتها جورجينا التى كانت حينئذ تبلغ عامين، فأرسلها الى ليجورن، حتى تقوم عائلة زوجته بالعناية بها.

فقد هنرى سولت أقرب الناس إلى قلبه، وصار وحيدا مرة أخرى فى أرض غريبة. ويبدو أن سولت التجأ إلى عمله، إذ إن القنصل فى الإسكندرية كان قد مات فى أكتوبر، فكان عليه أن يقوم بأعباء الوظيفتين دون أى زيادة فى الراتب. كما كتب قصيدة اسمها "مصر" نشرها نشرا خاصا فى الإسكندرية، وهى قصيدة طويلة مشحونة بالأفكار الفلسفية، يحسن تركها فى غياهب النسيان الذى سرعان ما غرقت فيه.

لقد آلم سولت أن أعمال الاكتشاف والنهب الشهيرة التى مولها على طريق وادى النيل ادعاها بيلزونى لنفسه، وطلب أن يُعترف به كأحد العلماء، فأرسل بمقالة عن نطق الهيروغليفية عند "يانج وشامبليون" ومعها لوحات بألوان الشمع الثابتة لريتشاردس، مصدرا تعليمات له بأن يعمل على نشرها فى أسرع وقت ممكن "أرجو أن تطبع فورا حتى لو كلفنى هذا مائة وخمسين جنيها". ومما يدعو للحزن أن أسبابا للتأخير حدثت، وظهر كتاب شامبليون: "موجز لنسق الهيروغليفية" قبل المقال الذى لم ينشر حتى عام ١٨٢٥.

واستمر سولت فى جمع الآثار بمساعدة من ينى الوفى. وفى أوائل ١٨٢٥، تمكن من جمع شحنة أخرى من الآثار، وفى هذه المرة شحنها إلى أقاربه فى ليجورن، إذ كان شديد الحذر من إرسالها إلى المتحف البريطانى. وفى ١٥ يونيه كتب لوكيله ريتشاردس فى لندن: "لقد جمعت مجموعة هى الآن فى ليجورن (جنوة)، وهى آثار تصل قيمتها إلى أربعة آلاف جنيه، عبارة عن أجمل مجموعة موجودة من البردى، وأحسن تشكيلة من البرونز المصرى، وعدة لوحات من ألوان الشمع الثابتة وكذلك أشياء من الذهب والخزف، مما سوف يجعل المجموعة الموجودة فى المتحف أفضل ما فى العالم، بوصفها مجموعة من الآثار المصرية؛ وإنى على أتم الاستعداد لتقديمها فى الحال للمتحف، فى حالة تمكنى من الحصول على معاش قيمته ٦٠٠ فى العام، يمكننى من التقاعد".

كان سولت لا يزال يبحث عن الأمن الذى يوفره له دخل يمكنه من الاستقرار فى لندن، ولو أن أوصياء (أمناء) المتحف البريطانى فكروا ولو لحظة فى حالته الصحية، لجازفوا بمنحه معاشا لم يكن ليكلفهم إلا قليلا. غير أن سولت لم يكن هذه المرة، يميل إلى المساومة، وكتب مرة أخرى لريتشاردس "سوف يسرنى سرورا عظيما أن تذهب المجموعة إلى إنجلترا؛ ولكن كفى تعاملا مع المتحف البريطانى، فآل سلوين هم من أتوجه إليهم".

ويبدو من المحتمل أن أوصياء (أمناء) المتحف البريطانى لم يعطوا فرصة التدبر فى هذا العرض، فبعد أقل من شهر من تقديمه، كتب سولت مرة أخرى لريتشاردس ليقول إن وكيلا يفحص مجموعته فى ليجورن (جنوة)، نيابة عن مشتر

من عائلة ملكية، يبدو أنه أكثر كرما بكثير وأقل انحرافا من أوصياء (أمناء) المتحف البريطاني. ومما يثير السخرية، أن المشترى الملكى لم يكن سوى ملك فرنسا، الذى قضى سولت حياته فى مصر فى الكيد له، والذى عمل كل من سولت وبيلزونى بلا توقف كى ينتزعا الأحجار من قبضته. كان سولت قد أرسل مجموعته لأخى زوجته، بيتر سانتونى، مع النصيحة بأنه يتوقع أن يجنى منها ما لا يقل عن ١٥٠ ,٠٠٠ مائة وخمسون ألف فرنك، فاستطاع سانتونى التأثير على وكيل الملك بالقدر الذى مكنه من ترتيب البيع بمبلغ ٢٥٠٠٠٠ فرنك (عشرة آلاف جنيه).

تمت عملية البيع فى أبريل من عام ١٨٢٦، ودفعت النقود لسولت على مدى أربع سنوات، ولم يقيض لسولت الاستمتاع بتلقى هذه النقود، إذ مات متأثرا بعدوى فى الأمعاء فى ٢٩ أكتوبر عام ١٨٢٧، ودفن جثمانه فى الإسكندرية، وكتب ابن عمه شاهدا على قبره: "صاحب السعادة توماس بت، ابن العم الذى يحمل نفس الاسم، وهو الذى كان تقديمه لسولت للورد فالينسيا فى قاعة فوزيلى هو الفرصة التى أطلقت سولت فى حياته العملية فى مصر، لقد استكشفت عبقريته المتيقظة ما بهذه البلاد من كتابة هيروغليفية، وغير ذلك من آثار، وأوضحتها. كما أن قلمه المتدفق الصادق، وما تتميز به أشعاره من أصاله حية بسيطة، نقلت للدنيا أفكارا نابضة بالحياة عن المشاهد التى أدخلت البهجة على نفسه. وفى خضم قيامه بواجباته الهامة ومساعيه المفيدة ... كان فى الثامنة والأربعين من عمره، وبعد فترة قصيرة من المرض، استدعى، كما نثق، إلى داره الأبدية التى هى أفضل من هذه الدار، فى اليوم التاسع والعشرين من أكتوبر، فى سنة ربنا ١٨٢٧".

كان، ينى، وكيل سولت فى مصر، لا يزال يكدس مجموعة هناك، تم إرسالها إلى ليجورن (جنوة) قبل وفاته بثلاثة أسابيع، ثم شحنت هذه المجموعة بعد ذلك، إلى إنجلترا؛ وعرضت فى المزاد فى سوذبى بشارع ويلينجتون عام ١٨٣٥. ونجد فى تنوع كتالوج الأشياء التى كانت معروضة للبيع رجع صدىً للتشكيلة العجيبة التى زعم سولت ملكيتها لنفسه، شأنه فى ذلك شأن غيره من قدامى متعهدى التنقيب عن مصر القديمة، على نحو غريب. وكانوا فى ذلك ينطلقون من تفوق ثقافى مفترض، أو ربما كان ذلك ينبع من مبدأ قديم بسيط: "الاحتفاظ بما يتم العثور

عليه"، ويضم الكتالوج:

قطعة رقم ٢: أربعون من تصاوير الآلهة من الخزف مختلفة، بعضها شديد الدقة...٩شلنات

قطعة رقم ١٠: صقر برأس بشرى.. ٨ شلنات

قطعة رقم ٥٧: سلة صغيرة، تحتوى على اليد اليمنى لمومياء أنثوية، بها على الإصبع الثانية (أظن يقصد السبابة) مجموعة جعرانية من الفضة.........١٩ شلنًا

قطعة رقم ١٧٠: تشكيلة من عيون المومياوات، مرصعة بالمرمر....... ٥ شلنات

قطعة رقم ٢١٥: ناقوس صغير من الذهب، وجد على رقبة مومياء لصبى (طيبة)... ٦جنيهات و٦ شلنات

قطعة رقم ٣٢١: ستة أزواج من الأقرطة حمراء اللون ذات أحجام مختلفة............. .... جنيه واحد و١١ شلنا

قطعة رقم ٣٤٣: زوج من العيون، من البرونز النقى أخذت من مومياء وجدت فى ممفيس، .... ٦جنيهات و٨ شلنات

قطعة رقم ٣٥٤: إوزة صغيرة باللون الأزرق، على خاتم ذهبى،......... ١٧ شلنا.

قطعة رقم ٣٦٣: قطعة عملة من الذهب Cufic money..................١٥ شلنا.

٤٠٧ـ مجموعة من أدوات النجارين، تتألف من بلطتين صغيرتين مختلفتين لهما مقابض خشبية؛ وثلاثة إزميلات، وسكينين................... ١٦ جنيها و١٥ شلنا

قطعة رقم ٥٢٢: ثلاث عينات من الخبز.................. جنيه واحد و٦ شلنات.

قطعة رقم ٩٢٩: كرة يلعب بها الصبية، داخلها من قشر الحبوب، أما الخارج فمن الجلد، وهى غريبة الشكل ....١٤شلنا.

قطعة رقم ١٢٠٠: زوج صنادل مما يلبس، جيد النقش (ممفيس).........١٧ شلنا.

كانت ذروة الإثارة فى كل يوم تتمثل فى بيع المومياوات، وكان ذلك دائما ما يترك حتى نهاية النهار ليتلكأ المشترون:

قطعة رقم ١٤٩: مومياء طفل صغير طوله قدمان وعشر بوصات، داخل صندوقها، تمثل داخله صورة شخصية وهى مرسومة على نحو عجيب، وبها حلقات على الكاحلين والرسغين والذراعين.................. ٣٦ حنيها

قطعة رقم ١٥٠: مومياء أنثى من طبقة راقية، ارتفاعها ٥ أقدام وأربع بوصات، معها صندوقها المنقوش نقشا رفيع الذوق .... ١٠٥ جنيهات.

قطعة رقم٨٥٢ : مومياء شخصية ملكية، فى صندوقين.... ٣٢٠ جنيها و٥ شلنات

قطعة رقم ١٢٦٩: مومياء لراقصة، فى حالة جيدة من حيث الحفظ، ارتفاعها ٥ أقدام.. ٢٨ جنيها و٥ شلنات

كان مجموع ما فى المزاد ١٢٧٠ من المعروضات، بما فى ذلك العملات والميداليات، والتماثيل الخشبية، والحجرية والبرونزية وكذلك صحائف مخطوطات من البردى، والجعارين وأدوات الزينة المصنوعة من الذهب، وكذلك الآلهة المعبودة من الخزف.

واستغرقت عملية البيع تسعة أيام، وتم جمع ٧١٦٨ جنيها و٨٦ شلنا. فإذا أضفنا هذا إلى مبلغ الـ ٢٠٠٠ جنيه الذى دفعه المتحف البريطانى، و٢٠٠٠ دفعها جون سلوين، ثمنا للتابوت، ومبلغ ١٠٠٠٠جنيه من ملك فرنسا، كان معنى هذا أن ممتلكات سولت وصلت إلى ما يربو على ٢١٠٠٠ جنيه، من أعمال التنقيب التى مولها أول بريطانى مهتم بالآثار، وأول جامع لها، وأول دبلوماسى فى مصر.

أما دروفيتى الذى بقى فى اللعبة فترة أطول إلى حد ما، فقد حقق نتائج أفضل. فى البداية كانت تواجهه مشكلات فى تصريف مجموعته التى جمعت تحت علم فرنسا وبوحى منها، وكان ذلك لأن رجال الدين الفرنسيين كانوا يقفون ضد شراء الآثار التى قد تنقص من سلطان الكتاب المقدس. ومع أن دروفيتى كان قد تلقى عروضا من إنجلترا ــ بل إن سولت حاول إقناعه بأن يبيع آثارا للمتحف

البريطانى – كذلك تلقى عروضا من ألمانيا، إلا أن دروفيتى، شأنه شأن سولت، أصر على ألا يبيع إلا للأمة التى يمثلها فى مصر. وفى النهاية، شأنه أيضا شأن سولت، نفد صبره وباع أول مجموعة كبيرة لديه لملك ساردينيا بمبلغ ٤٠٠٠٠٠ ليرة، أى ما يزيد عن ١٣٠٠٠ جنيه، وذهبت هذه المجموعة لتأسيس المتحف المصرى فى تورينو.

ثم بعد أن اعتلى العرش الملك شارل العاشر، فى سبتمبر عام ١٨٢٤ اشترى مجموعة دروفيتى الثانية بمبلغ ٢٥٠٠٠٠ فرنك (١٠٠٠٠ جنيه)، وكان هدفه من ذلك هو بعث الحياة فى مجد المملكة القديم. كما بيعت مجموعة ثالثة لمتحف برلين عام ١٨٣٦ بمبلغ ٣٠٠٠٠ فرنك.

قضى دروفيتى أواخر أيامه فى تورين، المدينة التى عمل فيها قاضيا عسكريا، والتى زودها بمجموعته من الآثار المصرية التى نالت شهرة دولية، ومات عام ١٨٢٥ حين كان نزيل إحدى مستشفيات الأمراض العقلية، وفى الوقت الذى كانت مجموعات سولت ودروفيتى تأخذ مكانها فى المتاحف الأوربية، كانت قد اكتسبت أهمية ومغزى يفوقان ما تثيره من الاندهاش والإعجاب، إذ كانت شاهدة على ماض قد بدأ الناس فى فهمه لأول مرة فى العصر الحديث، ذلك أن نظام الكتابة الذى سجل به هذا الماضى على نحو واسع كان قد تم اكتشافه.

الفصل الرابع

الثعلب والقنفذ والكولونيل

إن النزاع الذى دار حول مجموعات دروفيتى Drovetti وسولت Salt الأثرية، يبدو أقل إثارة للحيرة حين نتذكر أن الجامعين والمتاحف لم يكونوا يعرفون علام يتصارعون. إذ كان الجميع يرون التماثيل، و بعضها كانت لها أسماء معروفة، غير أن الجميع كانوا يجهلون من هم هؤلاء الملوك والملكات، ومتى كانوا يحكمون، وماذا حققوا. ذلك أنه فى بداية القرن التاسع عشر، لم تكن اللغة التى تحمل إجابات لهذه الأسئلة لغة مفهومة، بل إنه فى ذلك الوقت لم يكن أحد يعترف بهذه اللغة باعتبارها كتابة، فكلمة "هيروغليفية" التى استخدمت لوصف مجموعات من الصور والرموز، هى فى الواقع، مستمدة من الكلمة اليونانية التى تعنى "النحت المقدس" وليس "الكتابة المقدسة"، وهى كلمة لم تكن مستخدمة حتى ١٨٣٥ حين تم فك الرموز.

وكان الإغريق يعتقدون أن الهيروغليفية تضم حكمة مصر القديمة السرية، تلك الحكمة التى لم تكن متاحة سوى للكهنة، وقد نسى هؤلاء الكهنة سر فك الرموز قبل فتح الإسكندر الأكبر لمصر. فكان يظن أن الهيروغليفية إن هى إلا شاهد أخرس صامت على كشف أو وحى مفقود، فكانت تحمل هالة من السحر، وكان يظن أنه لو أمكن أداء الطقوس الصحيحة أو لو أمكن الترنم بالكلمات

الصحيحة الهيروغليفية، لأمكن اكتشاف القوة الأولية التى كانت تتمتع بها فى وقت من الأوقات.

وفى القرن السابع عشر، أخذ أحد الأساتذة اليسوعيين على عاتقه مهمة فك الرموز. كان أثاناسيوس كيرتشر Athanasi us Kircher متخصصا فى العلوم الطبيعية، كما كان واسع الاطلاع. وقد أنزل بواسطة حبل فى فوهة فيسوفيوس Vesuvius بعد الانفجار الكبير الذى وقع عام ١٦٣٠، كى يكتشف أسبابه. وكان قد اخترع آلة للجمع، وأنبوبة للتكلم، وهارب أيولى، وفانوسا سحريا؛ وكتب مقالات فى الطب والزلازل، وقام بعمل دراسة خاصة عن اللغات الكلاسيكية القديمة. وبدا أن قدر كيرتشر هو كشف أسرار الطبيعة للبشرية، وعندما كان طالبا، كان عازما على تناول أسرار الهيروغليفية، وحين كان فى روما أستاذا للرياضيات فى الكلية الرومانية، أخذ على عاتقه فك رموز النصوص الموجودة على المسلات الرومانية المختلفة.

وقد ترجم الأب كيرتشر نصا يشير كما نعرف اليوم، إلى القيصر دوميتيان هكذا: "القيصر دوميتيانوس حى للأبد". وهى ترجمة بعيدة تماما عن الصواب، إلى حد أنها كثيرا ما تقتبس على سبيل التخفف والتفكه، والصحيح هو: "من يتربع على الجبل، والمتمتع بالملكوت السماوى، والسلطة الرباعية، ويأمر الجو بواسطة موفثا (الرطوبة) MoPhtha الجوية النافعة إلى أمنون، الأقوى فوق الأرجاء السفلى...."

لقد كانت هناك انبثاقات لما يشبه البحث العلمى التى كانت من حين لآخر تلفت انتباه محبى الآثار، وفى ١٧٦٢ قال موظف الكنيسة فى فرنسا تاندو Tandeau إن الهيروغليفية علامات تعسفية تستخدم كزينة ترسم على المبانى والتماثيل التى توجد عليها، ولا يقصد منها نقل الأفكار أو الألفاظ. وكان تاندو فى هذا، على النقيض من عالم الروحانيات دى بالى Chevalier de Palin، الذى صرح عام ١٨٠٢ بأنه أخيرا قد عرف السر، فلو أن مزامير داود ترجمت إلى اللغة الصينية ثم كتبت بالأحرف القديمة لهذه اللغة، لأمكن إعادة إخراج الكتابات والبرديات (المقصود إعادة كتابتها reproduced) فى مصر.

وفى ١٨٠٦، بدا مرة أخرى أن الموضوع قد تمت تسويته، حين نشر جوزيف فون هامر ـ بورجستال ترجمته للأبجدية القديمة لأحمد بن أبى بكر بن وحشية؛ غير أنه قد اتضح أن المؤلف ما هو إلا مشعوذ، وما الكتاب سوى سلسلة من التهاويم عن الإشارات القبالية (الباطنية السحرية).

ثم نشر عالم المصريات الفرنسى وعالم المسكوكات الأثرية مارى ـ أليكساندر لينوار كتابه: "الشرح الجديد للأحرف الهيروغليفية" فى أربعة مجلدات، بين ١٨٠٩ و١٨٢١. وأشار لينوار فى هذه المجلدات إلى أن الهيروغليفية ما هى إلا شكل من أشكال اللغة العبرية، غير أن هذا الكشف سرعان ما اصطدم بالصخر وتهشم، تماما كما حدث لكشف كونت كيلوس، الذى أعلن عام ١٨١٢ أنه قد تمكن، أخيرا، من فك الرموز الهيروغليفية التى تغطى بهو الأعمد بمدخل المعبد القائم فى دندرة، وأنها ليست سوى المزمور المائة من مزامير داود، الذى يدعو فيه شعب مصر إلى دخول بيت الرب.

وكانت الخطوة الأولى المؤكدة نحو ترجمة للهيروغليفية، قد ظهرت فى ورقة بحث نشرها رجل الكنيسة محب الآثار جان جاك بارتيلمى Barthèlemy عام ١٧٦١. لقد افترض الرجل أن العلامات الهيروغليفية التى وجدت محفوظة فى خواتم أو حلقات بيضية، ربما تكون أسماء ملكية. كما طرأت هذه الفكرة على ذهن شارل دى جنى Guines، وهو مستشرق فرنسى كان يسعى لإيجاد أدلة تؤيد نظريته، بأن الصين كانت فى وقت من الأوقات من بين مستعمرات مصر، وأنها استمدت كتابتها من الكتابة المصرية.

وثمة عالم آخر يشار إليه أحيانا باعتباره مؤسس هذه الفكرة الرئيسية، وهذا الرجل هو عالم اللغويات الدنماركى جورج زوجا Zoega، الذى نشر دراسة للمسلات عام ١٧٩٧، ظهرت فيها لأول مرة، نسخ دقيقة أصلية للنصوص مصورة بالفاكسيملى. ولم يظهر الكشف النهائى إلا حين صارت كتلة البازلت الأسود متاحة للفحص. كان طول هذه الكتلة يبلغ ثلاث أقدام وسمكها اثنتى عشرة بوصة، ولقد استخرجها من طين دلتا النيل فى حصن جوليان، كبتين بوشار، وطالب بها من أجل بريطانيا جنرال هاتشينسون.

كان مقدرا لحجر رشيد أن يقدم الإجابات النهائية، لكن هذا لم يتم قبل قيام نزاع علمى طويل استمر أثناءه الفرنسيون والإنجليز يقاتلون معركتهم فى وادى النيل. وكان الهجوم الأول فى هذا الصراع على هذا النص الإغريقى الموجود على الحجر، وقد انتهى هذا الهجوم بتسليمه مع القليل من الصعوبات للأستاذ بورسون فى لندن، وللدكتورهين فى ألمانيا. بل كان هناك تعاون بين هذين العالمين والمعهد الفرنسى، وملئت الفراغات الموجودة فى النص التى حدثت بسبب ما حاق بالحجر من تلف، وتمت ترجمة النص بأكمله.

وتبقى النص الديموطيقى والنص الهيروغليفى. وكان الجميع متفقين على أنهما ترجمة من النص الإغريقى. دفع الفرنسيون فى الميدان بسيلفستر دى ساسى، وقد كان هذا الرجل دارسا للغة العربية كما كان أبرز المستشرقين فى ذلك الزمان. وقد تمكن من أن يعلن فى عام١٨٠٢ أنه تعرف فى النص الديموطيقى على مجموعة الأحرف التى تتوافق مع أسماء بطليموس وأرسينى والإسكندر والإسكندرية.

وكان العالم السويدى يوهان ديفيد أكيربلاد قد درس مع دى ساسى فى باريس، ثم راح يعمل على دراسة الكتابة الرومانية والفينيقية، فى روما تحت رعاية دوقة ديفونشير. وكان أكيربلاد يحتفظ معه بنسخة من نصوص حجر رشيد، وتمكن من التعرف على جميع أسماء الأعلام بالكتابة الديموطيقية التى ظهرت فى النص الإغريقى، وكذلك الكلمات المكتوبة أبجديا لكلمة "إغريقى" وكلمة "معابد"، بل إنه حاول رسم أبجدية للكتابة الديموطيقية، غير أنه أخفق فى أن يدرك أن الأحرف المتحركة التى تظهر بين الأحرف الساكنه كانت مدغمة (محذوفة)، وهو أمر مألوف فى اللغات الشرقية، فلم يتمكن من قطع شوط أبعد من ذلك.

وقام أحد الدارسين الإنجليز بعمل تحسينات هامة على أبجدية أكيربلاد. لقد كانت إنجازاته مصدر ضيق، بالنسبة للمتخصصين فى هذا المجال، لأنه لم يصبح لغويا سوى فى مرحلة متأخرة من حياته، كما أن ذلك قد وقع بالصدفة.

كان توماس يانج ابنا لتاجر أقمشة ومصرفى ثرى يتبع مذهب الكويكر. وبعد أن قرر يانج وهو بعد تلميذ أن النجاح إن هو إلا مسألة جهد وتركيز، تابع اهتماماته فى حقول متميزة من حقول المعرفة، وتمكن من تحقيق التميز فيها

جميعا، فدرس الطب فى لندن وأدنبره، ومنح زمالة فى الجمعية الملكية وهو فى الحادية والعشرين من عمره، ومضى يعمل على الحصول على الدكتوراه فى الفيزياء فى جوتينجين. ويسجل كاتب سيرة حياته أن طاقاته اتجهت نحو الفروسية والتدريبات البدنية، وأعمال تدل على الخفة والنشاط، وقد تفوق فى ذلك تفوقا غير عادى، إذ كان قد تخلص مما يسقط فيه الشباب من تافه الأفعال. كما كان موسيقيا بارعا، وأسهم بكتابة المقالات فى مجلة الجنتلمان عن النقد اليونانى، والنظريات الكيميائية، وعلم النبات وعلم الحشرات. إلا أن يانج لم يكن مجرد هاو سطحى المعرفة. إذ إنه قام بأبحاث مهمة أصلية فى مجال البصريات، فهو أول من تعرف على الاستجماتيزم فى العين البشرية، واكتشف نظرية الموجة فى الضوء، متنبئا بما جاء به فريزنيل.

وفى الثامنة والعشرين من عمره، عين أستاذا للفلسفة الطبيعية فى المؤسسة الملكية عام ١٨٠١، كذلك كان يقوم بكتابة عروض الكتب بانتظام لمجلة فصلية، وفى ١٨١٣ أرسلت له نسخة من ميثريداتيس، وهى دراسة للغات الأسيوية قام بها فقيه اللغة الألمانى أديلونج. وكانت هذه الدراسة هى أول ما أثار اهتمام يانج بالهيروغليفية. وحين أحضر صديقه سير ويليام روز بوتون، فى العام التالى، بعض قطع البردى من مصر، انكب على ترجمتها، وأخذ أوراق البردى ونسخة من كتابات حجر رشيد معه إلى ويرذينج، حيث قضى فصل الصيف.

تنتهى الكتابة الإغريقية الموجودة على حجر رشيد بهذا الأمر: "وأن هذا المرسوم سوف يحفر على حجر صلب بأحرف مقدسة، وبأحرف شائعة، وباليونانية؛ ويوضع فى المعابد الأولى والمعابد الثانية، وفى المعابد الثالثة، حيثما توجد صورة الملك المقدسة، الذى تبقى حياته للأبد".

فأكدت هذه النقوش الثلاثة أنها ترجمات لنفس النص، فراح يانج يكتشف التقابلات بينها بما يتمتع به من قدرة الباحث العلمى من دقة منهجية. فلاحظ أن مجموعتى العلامات فى السطرين الثانى والعاشر من الكتابة الديموطيقية، تبدوان وكأنهما تتقابلان مع كلمتى "الإسكندر" و "الإسكندرية" فى الكتابة اليونانية، مما أتاح له سبعة أحرف أمكنه تحديدها.

ثم لاحظ أن مجموعة صغيرة من الأحرف يتكرر ظهورها فى كل سطر تقريبا، فبدا من المعقول معادلتها مع حرف العطف "و"، وظهرت مجموعة الأحرف الأشد تكرارا بنفس القدر من الترديد فى الكتابة اليونانية، فتم التحقق من ترجمة كلمة "ملك". وحين استخدم يانج نفس المنهج، اكتشف أن مجموعة من الأحرف ظهرت أربع عشرة مرة فى الكتابة الديموطيقية، وإحدى عشرة مرة فى الكتابة اليونانية؛ فتمكن من ترجمة "بطليموس"، وبعد ذلك ترجمة "مصر". وبعد أن توصل إلى نقاط اتفاق بين النصين، طابق النص الديموطيقى على اليونانى، مضاهيا الكلمات التى يعرفها، دون أن ينسى أن الكتابة الديموطيقية كانت مكتوبة من اليمين إلى اليسار. وباستخدام هذا المنهج، تمكن من الخروج بأبجدية للكتابة الديموطيقية، وبدت هذه الأبجدية متسقة.

لقد ساعدت يانج فى أبحاثه مراسلات كان يجريها مع دى ساسى وأكيربلاد، فأمكن القول بأنه إنما يساعد على تقدم الاكتشافات التى قاما بها. على أى حال، لم يعمل كل من دى ساسى وأكيربلاد سوى على النص الديموطيقى. ولم يكن أحد قد اقتحم الهيروغليفية؛ وكان يانج young عازما على ذلك، فافترض أولا أن الديموطيقية ربما تكون قد انحدرت عن مصدر مشترك بين المصرية والقبطية، وعلى هذا درس القبطية كى يتتبع الأبجدية الأصلية، غير أنه تخلى عن البحث حين لاحظ أن عددا من الأحرف الديموطيقية يبدو أنها محاكاة بأسلوب متعجل سطحى، للصور الشديدة الوضوح فى الهيروغليفية، إذ كانت هناك أشكال فى الديموطيقية لا يمكن أن تكون أبجدية، وبدا أنها مشتقة بوضوح من رسوم فى الكتابة الهيروغليفية، فأدى هذا بيانج إلى الافتراض بأن هناك صلة وثيقة بين شكلى الكتابة، وأنها قد تكون ببساطة هى الأشكال الصورية الخطية المتصلة (المشبك) لنفس العلامات.

كما أنه ثار على الرأى الشائع القائل بأن الهيروغليفية تتألف بصفة رئيسية من عناصر صوتية نطقية؛ فهى شكل من أشكال الكتابة، شأنها شأن الديموطيقية، تمثل أصواتا ولا تمثل أشياء، وعليه يمكن فهمها عن طريق اكتشاف أبجديتها. كذلك حقق مزيدا من التقدم عن طريق إدراكه أن الأحرف المختلفة يمكن استخدامها

لتمثيل نفس الأصوات(*). واقترح يانج فى مقالة كتبها لدائرة المعارف البريطانية لعام ١٨١٩ مفردات تزيد عن ١٠٠ حرف، ورغم أنه وقع فى أخطاء تتعلق بالتفاصيل، إلا أن المنهج الذى اتبعه والاستنتاجات التى توصل إليها أدت فيما بعد إلى النجاح فى فك رموز الكتابة الهيروغليفية. ولم يحدث تفجر فى الروح الوطنية عند نشر ما توصل إليه يانج، فهذه الاكتشافات فى نهاية الأمر كانت امتدادا لأعمال ساسى وأكيربلاد، فى منطقة بعيدة عن اهتمام الجمهور.

وتابع يانج عمله فى مجال الطب، والفيزياء والفلك والأدب اليونانى، والرياضيات. وكان مسافرا إلى روما فى خريف عام ١٨٢٢، حين وقع على مجموعة من الآثار كان دروفيتى قد أرسل بها إلى ليجورن، فطلب أن يسمح له بفحصها فحصا سريعا، ولاحظ بينها حجرا يحمل آثار كتابة باليونانية والديموطيقية، وحين أدرك أهمية ما بدا أنه حجر رشيد آخر طلب من وكلاء دروفيتى الإذن بنسخ الحجر، غير أنهم لم يكونوا قادرين على الموافقة دون تصريح من دروفيتى.

ثم كتب يانج للوكلاء يعرض أن يدفع أتعاب أحد الفنانين من فلورنسا كى يقوم بعمل نسختين من الحجر، وسوف تكون النسخ ملكا لدروفيتى وتظل مع الوكيل إلى أن يقرر دروفيتى إن كان يرغب فى بيعها أم لا، وله أن يحدد لمن يرغب فى بيعها وثمن البيع. بل إن يانج عرض أن تبقى النسخ بين مجموعة دروفيتى بشرط واحد وحيد، هو أنه إذا ما أرسل الحجر بحرا من ليجورن تبقى النسختان فى ليجورن إلى أن يصل الحجر بسلام إلى وجهته. وكان ذلك عرضا سخيا، ولكن حين سمع دروفيتى بأهمية الحجر، أبى أن يخفض من قيمته التجارية إذا ما سمح بنسخه.

وفى العام التالى ١٨٢٢، دعى يانج لحضور اجتماع فى باريس تعقده أكاديمية العلوم. فى هذا الاجتماع، قرأ عالم الطبيعة (الفيزياء) أوجيست جان فريزنيل ورقة عن قوانين تداخل الضوء، وفى هذه الورقة أثنى ثناء عظيما على عمل يانج فى هذا الموضوع، غير أن السرور الذى أحس به يانج لما رآه من

(*) أى مبدأ التجانس الصوتى، أى أن كلمات تشترك فى النطق مع اختلافها فى المعنى. (المترجم).

عدالة العلماء الفرنسيين قد ظللته غمامة خفيفة، بعد ذلك فى نفس الأسبوع حين حضر محاضرة فى أكاديمية الفنون الجميلة، إذ دعى كى يناقش بحثا لكاتب يتناول الكتابة المصرية، وبدا فى هذا البحث تردد لأصداء ما أنجزه دون الاعتراف به، واستقبل البحث باعتباره كشفا، واعتبر شامبليون معد هذا البحث، باحثا عبقريا.

كتب الكاتب الساخر الإغريقى أرخيولخوس: "يعرف الثعلب الكثير من الأشياء ـ أما القنفذ فيعرف شيئا واحدا عظيما". وكان يانج ثعلبا، فحين جاء الوقت الذى نشر فيه اكتشافاته عن الهيروغليفية، ظهرت أيضا فى صحف العالم مقالات مختلفة، تتنوع بين تصنيع الحديد وعادات العنكبوت، إلى حساب معدل اتساع الجو القمرى المفترض. بالإضافة إلى كتابات يانج فى الطب، وفيزياء الضوء، كما كتب ثلاثاً وستين مقالة لدائرة المعارف البريطانية تتراوح بين المعاشات السنوية annuities والأوزان والمقاييس، ولم ينكب على دراسة مصر حتى بلغ الحادية والأربعين من عمره، وهو العام الذى توفى فيه منافسه فى هذا المجال. ومن ناحية أخرى، كان جان فرانسوا شامبليون قنفذا.

ولد شامبليون عام ١٧٩٠، فى بلدة ريفية صغيرة اسمها فيجياك، لبائع كتب فرنسى، وكانت بدايته فى الحياة بداية متواضعة؛ لكن كان هناك من تذكروا أن قرنية عينيه صفراء منذ مولده، مثل عينى طفل مصرى، وبشرته تميل إلى الضعف والصفرة، وكذلك وجهه كان شرقيا بشكل ملحوظ. وتروى الحكايات أن جان فرانسوا منذ كان تلميذا أخذ إلى منزل فوريى، عالم الرياضيات الذى كان قد صحب بونابرت إلى مصر، وجعلوه يشاهد أوراق البردى والكتابات الهيروغليفية على ألواح الحجر هناك. فسأل هل يستطيع أحد قراءتها، وحين هز فوريى رأسه، أعلن الصبئ: "سوف أفعل ذلك، سوف أكون قادرا على ذلك بعد سنوات قليلة حين أكبر".

كذلك سجل كاتبو سيرة شامبليون قصة زيارة عالم القسمات أو الفراسة الشهير د. فرانز جوزيف جال، لبيت جان فرانسوا. تحسس د. جال النتوء الموجود فى رأسه، وأعلن أنه عبقرى فى اللغويات، إذ كانت هناك فى ذلك الوقت بعض الأدلة على موهبة شامبليون، حتى إن الطبيب الطيب ربما يكون قد أخبر بأن الطالب

البالغ السادسة عشرة من العمر، قد تعلم اللغة العربية بالفعل، وكــذلك الــسريانية والكلدانية والقبطية، بالإضافة إلى اللاتينية واليونانية. كما أنه أظهر تميزه وذلــك بأن كتب تاريخا للعالم تحت عنوان: "التاريخ من آدم إلى شامبليون الأصغر".

وحين بلغ شامبليون السابعة عشرة من عمره، كان قد كتب كتابــا عنوانـــه: "مصر تحت حكم الفراعنة"، وبدأ دراسات فى باريس مع ساسى. وهنا تعلم اللغــة السانسكريتية والعربية والفارسية قبل أن يتملك ناصية اللغة القبطيـــة؛ لقــد تعلــم القبطية بإتقان حتى إنه كان يكتب بها مذكراته.

وحين بلغ شامبليون التاسعة عشرة، عين أستاذا للتاريخ بجامعــة جرينوبــل، حيث كتب المسرحيات والأعمال الساخرة التى تتسم بالميل القوى للجمهورية، مما جعل نابليون يهتم به أثناء المائة يوم، ونتج عن هذا طرد شامبليون مــن الجامعــة حين انتصر الملكيون، بتهمة ممارسة أنشطة تتسم بالخيانة. وعاد إلى جرينوبل عام ١٨١٨، غير أنه هدد مرة أخرى بتوجيه اتهامات بالخيانة له فى يوليو عام ١٨٢١، حين فر من الجامعة. فى نفس العام، نشر مذكرات عن بعــض النــصوص مــن كتابات الموتى، بدا فيها أنه مقتنع بأن نظام الكتابة الهيروغليفيـــة يعمــل بطريقــة رمزية، ولا يمثل أصواتا نطقية.

وبعد ذلك بعام، ألقى شامبليون محاضرته للأكاديمية التى نشرت باسم: "خطاب إلى مسيو داسيى فيما يتعلق بالأبجدية الهيروغليفية النطقية"، ورحب بهـــا العلمـــاء الفرنسيون باعتبارها انفراجا فى درب الكفاح مـــن أجــل فــك رمــوز الكتابــة الهيروغليفية، ونالت شهرة دولية منذ ذلك الحين. ومن الصعب التحقق مما إذا كان شامبليون قد قرأ أو تأثر بمقالات يانج فى دائرة المعارف البريطانية؛ وكان دائما ما ينكر ذلك.

لقد دفع هذا الخطاب بدورية كارترلى ريفيــو Quarterly Review بالإســراع بنشر القوائم نيابة عن يانج لإثبات أسبقيته: "يمكننا القــول، دون أن نقلــل، علـــى الإطلاق، من ميزة جهود مسيو شامبليون التى لا تعرف الكلل، إننا سواء كنا نقدر قيمتها فى ميزان المنفعة أو الجدة، فإننا لا نجد فيها سوى القليل أو لا نكــاد نجــد شيئا يمكن أن يعوضه عن الحصار المثابر الذى قام به ضد كُلاّب قدر (على شكل

حرف S) مصر للعديد من السنين (المقصود ارتباطه بفك رموز مصر لعدة سنين) كما فعل الإغريق بالجلوس أمام طروادة.

وتستطرد الكارترلى ريفيو فتذكر قراءها بأن أكيربلاد وآخرين بدعوا بناء أبجدية وأن يانج واصل هذا العمل، وتوسع فيه فشمل الهيروغليفية، وكل ما يفعله شامبليون هو التوسع فى المبدأ الذى وضعه هؤلاء: "سوف يتضح من الصفحة التالية التى كتبها د. يانج عن مصر، والتى كتبت منذ سنوات، أن مسيو شامبليون ليس له الحق فى ادعاء الأصالة فيما يبدو أنه يظن أنه اكتشاف قام به، ومن المؤكد أن أبناء وطنه سوف يهللون له باعتباره كذلك، ويوجد أسفل الصفحة جزء من مقالة يانج فى دائرة المعارف البريطانية، التى يتعرف فيها على العلامات الهيروغليفية للأحرف التى تشكل اسم "بطليموس" على حجر رشيد".

وكان على شامبليون أن يعارض بأن يانج لم يتوصل إليها جميعا بشكل صحيح، غير أن النقطة التى أثارتها الريفيو من أن شامبليون كان يتوسع فى ما بدأه يانج أكثر من كونه يعلن كشفا جديدا؛ تبدو نقطة سليمة. وفى العام التالى، ١٨٢٣، نشر يانج وداعه لهذا الموضوع بعنوان مستفز، حيث ذكر بعض الاكتشافات الحديثة فى الأدب الهيروغليفى، والآثار المصرية، بما فى ذلك أبجدية الكتابة كما توسع فيها مسيو شامبليون، وزعم يانج أنه دائما ما كان ينشر نتائج أبحاثه ليس عن نفاد صبر فى أن يكون المالك الأوحد لكنز سرى؛ "وإنما لأنى كنت راغبا فى أن أضمن لبلادى، على الأقل، .... فضل توسيع حدود المعرفة الإنسانية والإسهام فى توسيع مدارك الإنسان عبر الزمان، والمكان، والإهمال، وزوايا النسيان".

لقد كان ليسر إذ يبقى مغمورا نسبيا، غير أن شهرة شامبليون قد جرته بحيث صار محط الأنظار، وأحس بأن لديه كل ما يبرر محاولة الحصول على "القدر من الاحترام الذى أظن أنه جدير بالاكتشافات التى شكلت تسلية القليل من ساعات فراغى، ما دامت أمامى بضع سنوات أحياها وأتعلم فيها".

وفى خطاب بتاريخ ١٣ سبتمبر ١٨٢٣، أكد يانج أنه لن ينشر المزيد من "النصوص المصرية، جزئيا بسبب النفقات، وجزئيا لأن المادة قد قتلت بحثا،

وجزئيا لأن شامبليون يفعل الكثير حتى إنه لن يسمح بأى شيء ذى بـال يـضيع منه".

وفى عام ١٨٢٤، أى العام التالى، نسب شامبليون الفضل لنفسه وحده فى فك رموز الكتابة الهيروغليفية، وذلك فى مجلد ضخم: "موجز النظام الهيروغليفى عند قدماء المصريين".... ويشتمل الكتاب على ٤٦٥ صفحة من النـصوص، وملحـق ضاف من اللوحات والرسوم التوضيحية.

وفى المقدمة يناقش شامبليون مزاعم منافسه قائلا إن اكتشافاته موثقة توثيقـا جيدا، حتى إنه إذ يعلنها لا يخشى أن تلقى المعارضة بقدر خشيته من أن يحـاول الآخرون مشاطرته شرف القيام بها. ولقد حدث هذا حقا؛ ليس فى فرنسا، بالطبع؛ وإنما فى الخارج. ورغم ميله إلى الصفح عن مثل هذه الادعاءات القائمـة علـى الروح الوطنية، إلا أن المؤلف كان عليه معارضة هذه المزاعم لـصالح الـصدق والعلم. ثم أخذ شامبليون يهاجم يانج بقوة، محاولا إثبات أنه لم يفهم قـط الأسـاس النطقى للهيروغليفية، وأن الترجمات القليلة التى قام بها يانج إن هى إلا تخمينـات صادفها حسن الحظ، وليست نتيجة البحث اللغوى.

وما من شك فى أن شامبليون قد تعلم من يانج قدرا أكبر مما كـان مـستعدا للاعتراف به، وأن الاكتشافات التى تم الإعلان عنها بكل هذا الزهو، والتى احتفى بها منذ ذلك الحين بين علماء المصريات، أقرب إلى التوسع الدءوب الماهر لمـا كان موجودا من أبحاث، منها إلى الفتح والكشف المفاجئ. ومع ذلك، فمن العبـث أن يحاول أحد الإقلال من منجزات شامبليون الكبيرة، وكذلك من العبـث تخليـد صورة العبقرى الذى يعمل بمعزل عن غيره، هذه الـصورة التـى سـعى هـو ومناصروه إلى الترويج لها بقوة الزلازل.

لقد قلب الفرنسى اللامع الأسس البسيطة التى شادها سابقوه؛ وابتداء من تلـك الساعة لم تعد تواريخ مصر، وسجلاتها التى كرمها الزمان، وأوراق البردى التى غمرها غبار العصور، سرا من الأسرار. سقط الحجـاب عـن إيـزيس، وأزاح شامبليون الشاب الستر عن ذلك الستار الذى لم تستطع يد بشر رفعه والذى خـذل محاولات الإغريق والرمان، وكذلك جهود علماء المصريات الأشد قوة، لما يزيـد

عن ألفى عام. بهذه الكلمات ألهب قنصل أمريكا فى القاهرة المتقاعد، حماس سامعيه فى بوستون عام ١٨٤٤، بعد أن برز شامبليون بقوة على مسرح الأحداث بعشرين عاما، وبعد خمسين عاما فقط من حفل الشاى فى بوستون، ذلك الحفل الذى أشعل شرارة نوبة من المنافسة الدولية.

كان جورج ر. جليدون Gliddon ــ الذى كان يصف نفسه بأنه "أحد تلاميذ شامبليون" ــ موجودا فى مصر حين قام شامبليون بالإعلان عن اكتشافاته، ولاحظ الصمت الذى سببه الذهول الذى تلا ذلك الإعلان: "إنه كالسكون الكونى الذى يلى الصاعقة، إذ شلت العبقرية من هول الحقيقة". لم يكن الصمت راجعا إلى ذهول العلماء بما كشف عنه شامبليون، بقدر ما كان راجعا إلى أن مواقعهم المتحصنة جعلتهم لا يولون الاحترام اللازم لما أتى به من أفكار. فأعضاء معهد مصر الذين صاحبوا بونابرت كانوا لا يزالون يحتلون مواقع رفيعة، فلم يكونوا راغبين فى أن تعلمهم نبتة جمهورية شابة، لم تطأ قدماه أبدا أرض مصر. كما كان المسيحيون قلقين من التقدم الذى أحرز فى البحث عن مصر دون أن يقدم هذا البحث أى دليل على إقامة "بنى إسرائيل" هناك، أو على سفر الخروج.

كذلك ازدرى الكلاسيكيون استخدام الفكر والمال فى سبيل همجى بربرى كهذا. أما شامبليون فقد كوفئ على ما حققه من نجاح فى فرنسا، وذلك بأن أرسل عام ١٨٢٤ فى بعثة كى يدرس المجموعات الأثرية المصرية فى متاحف تورينو وليجورن وروما ونابولى وفلورنسا. ولقد نسى له لويس الثامن عشر ومن بعده شارل العاشر، ميوله الجمهورية تماما، حتى إنه عين أمينا محافظا على مجموعات الآثار المصرية فى متحف اللوفر، كما استعانت به الحكومة الفرنسية للقيام بتقييم وشراء الآثار التى أرسل بها دروفيتى وسولت إلى ليجورن.

على أى حال، بدأت أنباء الأنشطة البريطانية فى مصر تتسلل إلى باريس، وأحس شامبليون بالقلق من أن تزاح فرنسا عن مواقعها "كأم للفنون وراعية لعلم المصريات"، فجهزت حملة بقيادة شامبليون، يصحبه أربعة فنانين لإعادة مصر كموقع للعلماء الفرنسيين. ونشأت صعوبة بسيطة حين علم أن دوق توسكانى الكبير كان يخطط لحملة مشابهة، غير أنه قد تم ترتيب الموقف بلباقة حين تم التخطيط

للحملة الإيطالية باعتبارها قوة معادلة تماما، يرأسها المستشرق الأستاذ إيبوليتو روزيلينى، وهو أحد أتباع شامبليون، وسوف يصحبه أربعة من الفنانين. وبما أن أهداف الحملتين هى نفس الأهداف، فقد تقرر أن تتحدا، بغرض الاقتصاد، فرحلتا إلى الإسكندرية فى نفس السفينة.

ولاحظ جورج جليدون وصول الحملة المشتركة، إذ كان فى القاهرة عام ١٨٢٨ "لقد صبت المزيد من الزيت على لهيب الغيرة المحمومة من أجل الآثار، وهى الغيرة التى كانت سمة الشغوفين بالآثار فى إنجلترا وفرنسا على مدى ثلاثين عاما".

كان شامبليون ينظر إلى جميع الدارسين الآخرين باعتبارهم دخلاء فى الميدان الذى بذل فيه جهده هو وحده، وأوضح أن أى شخص يُرَى وهو يسجل أو يشرح الهيروغليفية فى مصر، يعد متعديا. فكان الباحثون البريطانيون الذين ظلوا يحفرون فى الصخر قبل وصول شامبليون بسنوات يخشون لقاءه؛ حتى لا يزعم أن كل ما سوف ينشرونه لاحقا هو نتيجة لهذا اللقاء، فنشأ عن هذا الخوف الكثير من الأحداث الفكاهية، كان فيها الباحثون البريطانيون يهرعون فارين حين كانوا يسمعون باقترابه؛ لتجنب الاتهام بالاتصال به اتصالا شخصيا. وعاد النصب والاحتيال الذى ميز جيلا من المنافسة الوطنية فى وادى النيل يعمل عمله أثناء زيارة شامبليون أيضا.

لاحظ البريطانيون وجود قطعة من البازلت تشكل أسقوفة مسجد متهاو فى القاهرة، وبدا أن هذه القطعة مكتوب عليها ما بدا أنه كتابة من ثلاث لغات، تشبه تلك التى وجدت على حجر رشيد، فقدموا طلبا لمحمد على للإذن بإزاحة هذه القطعة لصالح علم المصريات. وجعلوا الطلب يتخذ السبيل المتبع من خلال القنصل البريطانى، وعرضوا ترميم المسجد كرد على هذه المكرمة. وعلى أى حال، فقد سمع دروفيتى بهذا الطلب، فأقنع الباشا برفضه على أساس أن إزاحة الأسقوفة سوف تكون تدنيسا للمقدسات.

وبعد أن رفض محمد طلب البريطانيين بذريعة تتسم بالورع، أدرك أنه لذلك لا يمكن أن يسمح للفرنسيين بأن يأخذوا قطعة البازلت هذه.

وكان من الممكن أن يتوقف الأمر عند هذا الحد، لولا أن شخصا ما أخذ شامبليون ليرى هذا الحجر. فكان الصخب الناتج عن هذا من الشدة حتى إنهم طلبوا من دروفيتى أن يستخدم مواهبه الخاصة فى هذا المجال. فكان أن تقدم بطلب لابن محمد على، إبراهيم باشا، للإذن بتحريك الحجر، دون أن يذكر، بالطبع، أن أباه قد رفض ذلك من قبل. ووافق إبراهيم على الطلب، مع النص بأن يبلغ الأهالى بأن الباشا يريد الحجر لنفسه، مما يتسبب فى قدر من الفضيحة أقل مما لو أخذه الأجانب.

لم تكن هناك أسرار فى القاهرة، فسرعان ما سمع البريطانيون بالخطة، فتوجهوا ليلا إلى المسجد القديم، ونزعوا الأسقوفة، وسحبوها ظافرين إلى القنصلية، فحدث شغب كبير، وأقنع إبراهيم أباه بأن يجبر البريطانيين على تسليم الحجر للحكومة المصرية. فتسبب هذا فى قدر أقل من الضيق مما يمكن تصوره.

أظهر فحص الحجر أنه قد شوه إلى درجة لا تجعله ذا قيمة حقيقية. وصُنعت منه نسخا طبق الأصل، وتم إرسالها إلى لندن، وأعاد البريطانيون الأصل دون وخز من ضمير نحو المسجد، وانتهى المطاف بالحجر فى باريس. كان الشىء الرئيسى الذى تعلمه شامبليون منه هو طريقة التغلب على المنافس فى المناوشات الدولية التى تنشب حول آثار مصر، وتعلم الدرس بسرعة.

حين عسكرت الحملة المشتركة فى وادى الملوك، مستولية على مقبرة رمسيس السادس واعتبرتها مقرا لها، قرر شامبليون أن النقوش البارزة الموجودة على مقبرة سيتحس الأول SethosI سوف تزين مجموعته فى اللوفر، وأخذ يقطعها، فسمع عن ذلك جوزيف بونومى النحات الإنجليزى ومصمم المبانى، فكتب محتجا إلى شامبليون: "إن صح أن هذا هو مقصدك، فإنى أشعر أنه من واجبى كرجل إنجليزى ومحب للآثار، أن أستخدم كل ما لدى من حجة كى أثنيك عن مثل هذا الغرض الفظيع، على الأقل إلى أن تحصل على تصريح من القنصل العام الحالى، أو من محمد على".

فرد شامبليون بتعال: "أنا أيضا أؤدى واجبى كفرنسى، إذ أخبرك بأنى إذ لا أعترف بسلطة فى مصر سوى سلطة الباشا، فليس على أن أطلب تصريحا من أى

شخص آخر، وعلى الأخص من القنصل البريطانى، الذى من المؤكد أنه لا يقـدم مزاعم سخيفة تقدمها أنت نيابة عنه. وإذا نجحت فى الحصول على عمال أفـضل، من أولئك الذين أرسلوا لى بهم من القاهرة، أثق فى أن أسند لهـم هـذه العمليـة الدقيقة، فلتطمئن، ياسيدى، من أنك سوف تبتهج يوما ما بأن تـرى بعـض هـذه الأشياء الجميلة من مقبرة أوزيرى فى المتحف الفرنسى، فهذه هى الطريقة الوحيدة لإنقاذها من الدمار الوشيك. وإنى إذ أنفذ هذا المشروع، أتصرف كمحـب حقيقـى للآثار، ما دمت سوف أحملها للحفظ وليس للبيع".

ودخلت أخلاقيات جديدة فى وادى النيل، فالصواب كل الصواب هـو سـرقة الآثار المصرية، طالما لم يكن دافع اللصوص هو الرغبة فى الكسب الشخـصى. وعلى الفور، صار هذا النهب الغيرى، أى غير الأنانى، شائعا، حتى إنه أثر فـى بونومى Bonomi الذى انضم إلى هذا النوع من التصرف، وأمر بقطع قسم مـن أجل المتحف البريطانى. فعل ذلك بعد تسلم رد شامبليون، وبعـد أن سـمع بـأن روزيلينى يفعل ما يفعل من أجل المتحف القائم فى فلورنسا. والتمس الرجال الثلاثة العذر لما يقومون به من نهب متجزئ، على أساس أنهم إنما يحفظون الآثار كـى يعجب بها العالم فى المستقبل، وأنها إذا ما تركت فى المعابد فإن ما بها من نقوش سوف يزول بفعل الأمطار. ومع ذلك، فإن شامبليون كان يرغب فـى ألا يطلـق الآخرون أياديهم فى آثار وادى النيل، فكتب خطاب احتجاج إلى محمد على معبرا عن أسفه على تجارة الآثار، مقترحا إدخال ضوابط حكومية علـى التنقيـب عـن الآثار وتصديرها.

وكان لهذا الخطاب أن يؤتى أكله، ولكن ليس قبل أن يقنع محمد علـى بـأن يرسل إحدى المسلتين الموجودتين فى واجهة المعبد القائم فى الأقصر إلى باريس؛ لإحياء ذكرى قوات بونابرت. ونقلت المسلة إلى باريس عام ١٨٣٠ علـى سـفينة خاصة تسمى الدرومادير (الجمل)، وفى ٢٥ أكتوبر ١٨٣٦تم نصبها فـى ميـدان الكونكورد فى احتفال عظيم، حضره الملك لوى فليب و ٢٠٠٠٠٠ من المشاهدين.

وفى ١٥ أغسطس ١٨٣٥، صدر مرسوم حكومى فـى مـصر كـان مـن المفروض أن يضع حدا لمثل هـذه الأعمـال. إذ قالـت الديباجـة إن المتـاحف

والجامعين والقوى الأجنبية جائعون لاختطاف الآثار المصرية، حتى إن هناك خطرا فى أن جميع آثارها القديمة سوف تذوى لإثراء غيرها من البلاد. ومع ذلك فمن المفهوم أن الأوربيين لا يمنعون نقل الأشياء المشابهة من بلادهم فحسب، وإنما هم يسارعون بإرسال الدارسين للاستحواذ على الآثار أينما وجدت، وهؤلاء الرجال غالبا ما يحصلون عليها فى مقابل مبالغ زهيدة تشبع جشع مالكى هذه الآثار الجهلة. ولما كانت هذه الكنوز تسهم فى مجد البلاد التى تملكها، ولما كانت مصر تمتلك ثروات وفيرة، ترى الحكومة أنه من الضرورى اتباع ما يلى :

١ ــ حظر تصدير الآثار من جميع الأنواع فى المستقبل حظرا تاما.

٢ــ جميع ما تمتلكه الحكومة من آثار أو تلك التى سوف تمتلكها عن طريق أعمال الحفر أو البحث، فى المستقبل، توضع فى القاهرة فى مكان خاص.

٣ــ لا يكتفى بالمنع التام فى المستقبل لتدمير الآثار القديمة الموجودة فى الصعيد، وإنما يجب على الحكومة اتخاذ الإجراءات لضمان الحفاظ عليها أينما وجدت.

لقد نص المرسوم على وقف جميع أعمال الحفر، وعلى حكام الأقاليم تنفيذ وقف العمل عن طريق مفتشين مسلحين. ويجب مراقبة جميع الموانى لمنع تصدير الآثار فى المستقبل؛ ويجب تعيين مفتش للإشراف على تنفيذ المرسوم فى جميع أنحاء مصر؛ ويجب إرسال إخطار رسمى لجميع ممثلى القوى الأوربية فى مصر لضمان تعاون بلادهم ... وتعيين مفتش لإعمال مواده عن طريق السفر إلى جميع المواقع المهمة. كان المرسوم عملا تشريعيا حسن النية، وكان من الممكن أن يضع حدا للصراع الدولى على نهب آثار وادى النيل.

ولكن فى ذلك الوقت، كانت سيادة مصر تتركز فى يد فرد سرعان ما تلاشى اهتمامه بآثار مصر، فاختار التعدى على القوانين التى كانت تمنعه من إرضاء نزوات أولئك الذين كان يرغب فى التأثير عليهم، فنسى الحفاظ على آثار مصر بهدوء لجيل بأكمله.

بعد فك رموز الكتابة الهيروغليفية بنجاح، ظل هناك سر واحد عظيم من أسرار مصر القديمة يؤرق عقول الناس، ويداعب خيالهم عبر القرون، هو أصل الأهرام والغرض منها. ولم يكن هناك نقص فى النظريات التى حاولت شرح هذه المسألة. إذ إن هيرودوت الذى كان يكتب عام ٤٤٥ ق .م .حدد بانى الهرم الأكبر بأنه الملك خوفو، وقال إن الكهنة كانوا قد وصفوا له طريقة إنشائه، حين أجبر العمال على العمل فى مجموعات من ١٠٠٠٠٠ لا يستريحون إلا كل ثلاثة أشهر، على مدى فترة امتدت لعشرين عاما.

وكان المبلغ الذى أنفق على الفجل والبصل والثوم من أجل القوة العاملة قد كتب بأحرف مصرية على الهرم، وترجم لهيرودوت بـ ١٦٠٠ طالن فضّة. كما يخبرنا هيرودوت بالقصة التى تروى أنه حين بدأت نقود الملك تنفد، أمر بأن تقوم ابنته بعمل العاهرة للإسهام فى تكاليف البناء، وأنها نجحت فى مهنتها نجاحا كبيرا، حتى إنها لم تمول إكمال الهرم الأكبر فحسب، وإنما أسهمت فى تكديس ما يكفى من مواد لبناء الهرم الخاص بها، وذلك بأن طلبت من كل واحد من زائريها الإسهام بحجر بالإضافة إلى النقود كذلك.

يحدد هيرودوت بانيى الهرم الثانى والثالث تحديدا صحيحا بأنهما خفرع ومنقرع، غير أنه يكتب أن المصريين كانوا يكرهون الملكين كراهية شديدة، جعلتهم يسمون الهرمين بهرمى الراعى فيليشن Philition الذى يرعى غنمه فى المنطقة .

لقد عقدت الدهشة المؤرخ الإغريقى ديودوروس سيكولوس الذى زار مصر فى عام ٦٠ ق .م، لأنه لم يجد أى علامة على وجود أعمال حول الهرم الأكبر "بحيث يبدو أن البناء بأكمله قد وضع على الرمال المحيطة ليس بشكل تدريجى، وليس من صنع البشر، وإنما بواسطة مباشرة من قوة إلهية".

وروى أن المصريين كانت لهم العديد من القصص العجيبة عن هذا، لكن سيكولوس سجل المعلومات الأكثر تعقلا، وهى أن العملية قد تم تنفيذها على مدى عشرين سنة، بواسطة ٣٦٠٠٠٠ رجل.

أما بلينى الذى كتب بعد ذلك بقرن، فقد كان يظن أن الأهـرام مـا هـى إلا "استعراض أحمق عديم الجدوى للثراء الملكى"، وقال شارحا إنها بنيـت لاسـتنفاد كنوز ملوك مصر؛ وذلك بغرض إحباط من سوف يخلفونهم أو مـن ينافـسونهم. ويستطرد بلينى قائلا إنه لا يجب لأحد أن يعجب بـالأهرام باعتبارهـا تـذكارات شامخة تشهد على عمل الملوك؛ لأن أصغرها وأجملها قد بنتـه عـاهرة (رودوب Rhodope) التى كانت جارية زميلة لايسوب Aesop، لذا فإن بلينى يعتقد أن قدرة عاهرة على جمع ما يكفى من المال لبناء أحد الأهرام، لهو أكثر إثارة للعجب من الأهرام نفسها.

لقد قبل الكتاب الكلاسيكيون، بصفة عامة، فكرة أن الأهرام قد بنيت كأنصاب تذكارية أو كمقابر. وكانت هناك نظرية بديلة تعزى للقديس جريجورى النازيانزى، وكانت هذه النظرية رائجة فى العصور الوسطى، وزعمت هذه النظرية أن الأهرام قد بناها اليهود المنفيون كمخازن ضخمة لتخزين الحبوب.

كان الرحالة يزورون الهرم الأكبر بانتظام عبر القرون، وكان من الـشائع أن به ممرا داخليا وبئرا. وكان مشهورا بأنه آخر العجائب السبع للعالم القـديم، مـن حيث هو غامض وغير قابل للدمار. وكانت الخطط الوحيدة التى سجلها التـاريخ لتحطيمه هى الخطط الطفولية التى حاول إبراهيم باشا القيام بها. كان إبراهيم نائب وإلى مصر، وفى ١٨٥٤ أقنعة ساحر أفريقى بأن الهرم يحتوى على كنوز كبيرة، فقرر الباشا أن يملأ البئر بالبارود ويفجر الهرم، غير أن قنصل البندقية نهاه عـن ذلك، وأخبره بأن الانفجار سوف يعرض القاهرة للخطر.

فى الوقت الذى دخل فيه فريدريك نوردين الهرم الأكبر عام ١٧٣٧، كان عدد الزوار كبيرا جدا "حتى إن الممرات على الجانب الشمالى والجنوبى قـد اسـودت بسبب دخان المصابيح التى كان الرحالة يدخلونها من آن لآخر". غير أن بئر الهرم بقيت دون أن يكتشفها أحد. وأخيرا، أزال كابتن كافيجليا وهو تاجر من جنوة، قـد عينه هنرى سولت، أزاح أخيرا القمامة وربط بين البئر والحجرة الكائنـة تحـت الأرض عام ١٨١٨. وفى ذلك العام، كان بيلزونى هو أول أوربى حـديث يـدخل هرم خفرع. ومع ذلك، بقى الكثير الذى ينبغى عمله، قبل أن يتم فض أسرار أكبر

مبانى الأرض، وكانت هذه المهمة تتطلب رجلا يتمتع برؤية واضحة وعقل يتسم بالحزم.

كان ريتشارد ويليام هوارد ــ فيز رجلا عسكريا، وهو ابن الجنرال ريتشارد فيز، وكان قد تزوج ابنه المشير أى الفيلد مارشال جورج هاوارد، فاتخذ لقب وسلاح عائلة زوجته. وكان عضو البرلمان عن ستوك بوجيز عام ١٨٠٧، ثم من ١٨١٢ إلى ١٨١٨، ومنح درجة الدكتوراه الفخرية فى القانون المدنى بجامعة أكسفورد عام ١٨٢٠. وفى عام ١٨٣٥، زار مصر لأول مرة، وهو فى الحادية والخمسين من عمره، وقد أوجدت هذه الخلفية ــ بالإضافة إلى إيمان مسيحى ثابت، وقدرة أكيدة على المنافسة ــ رجلا يتمتع بثقة لا تتزعزع فى آرائه.

وكانت آراء فيز متأثرة فى موضوع الأهرام، بكتابات جيكوب بريانت، وهو أحد محبى الآثار الإنجليز، كان قد طواه النسيان منذ وفاته عام ١٨٠٤. كان بريانت يعتقد أن الأهرام من عمل الملوك الرعاة من سلالة حام، الذين طردوا من بابل بسبب ردتهم، وتشتتوا فى أنحاء العالم، وذهبو إلى اليونان وقرطاج، بل وصلوا إلى أمريكا حيث ما زالت هناك آثار لما شيدوه من مبان. لقد كانوا شعبا غير عادى، من نفس جنس العماليق (وهم عمالقة ذوو عين واحدة فى الأساطير اليونانية)، كما أنهم محبون للتجوال حول الأرض، وتشييد مبان معمارية هائلة تصيب المرء بالشعور بالعجز. وقد ربط فيز بين هؤلاء الناس والفلسطينيين، وكان يعتقد أن تاريخهم دليل على عمل يد الله فى هذه الدنيا، ويبدو أن هذه القبائل كانت فيما مضى مثالا حيا على قصاص الرب، مثلهم مثل اليهود المشتتين فى الوقت الحاضر.

ويبدو فى النهاية أنهم قد دمروا تدميرا تاما. وتبقى الأهرام كشهود باقيات، وإن تكن صامتة على العظمة التى لا تضارع لهذا الشعب الذى لا مثيل له، كما أنها دليل على يقين العدل الإلهى، وصدق ما أنزله. وتبين هذه المعايير التى كان الكولونيل فيز يطبقها على الأبحاث التاريخية، أنه يرى أن نظريات بريانت مقنعة، قبل كل شىء بسبب اقتناع المؤلف العميق بصدق الوحى وعدالة العلى القدير، المنزهة عن الخطأ.

حين تقدم فيز بطلب للقنصلية البريطانية للحصول على تصريح كى يبدأ البحث فى الأهرام، قدم لكابتن كافيجليا، الذى قدم نفسه له باعتباره من رعايا بريطانيا وموطنه مالطة. كان كافيجليا يمتلك خبرة فى الحفر حول الأهرام، كما كان من عادته قراءة الكتاب المقدس والاقتباس منه. وقد جعله هذا محل ترحيب فيز، مما كان سببا فى أن يجعل فيز يوافق على أن يشرف على العمل. وكان على فيز والكولونيل كامبيل القنصل العام البريطانى، وتشارلز لوين نائب القنصل، تمويل المشروع. ومنح كافيجليا تفويضا تاما فى الفندق فيما يتعلق بنفقاته الشخصية، وبالنسبة لأى مخزونات قد يحتاج إليها لتنفيذ أعمال الحفر. وبعد أن حصل فيز على وعد من كافيجليا بإخباره إذا حدث ما يثير الاهتمام، رحل فيز فى جولة فى الصعيد بعدم مبالاة غريب بالأبحاث الهائلة التى كان على وشك البدء فيها.

وأقنعته الرحلة الطويلة البطيئة على طول وادى النيل، بأن هذه الأرض قد باركها الرب حقا، كما تنبأ بذلك النبى أشعياء. وعند جزيرة فيلة، حيث يزداد عرض النهر فى بحيرة واسعة، وجد أنه من المستحيل عليه التأمل بلا تأثر فى "…. ذلك المجرى المهيب الرهيب، ومنابع فيضانه للوادى بانتظام. تلك المنابع التى يغلفها الغموض الذى ينطوى عليه تاريخ تلك الأمم التى غطت بجهدها ضفافه بالخصب؛ والتى جعل إيمانها بالخرافة يشعل حماسها للعمل، فشيدت تلك الصروح التى لا يوجد ما يضارعها جمالا؛ حتى إن الحطام جعل العالم ينحنى إعجابا بها على تعاقب العصور".

وفى طيبة، حزن فيز حزنا شديدا، عندما لاحظ مخزنا للبارود يتم بناؤه على مدى ميل من المبانى القديمة، واعتقد أن الطريق المؤدى إلى الأقصر، الذى لابد أنه كان رائعا يوما ما، قد شوهته أكداس الرمال والقمامة، وبسبب "فقد المسلة التى أخذت إلى باريس، مما دمر أثر المسلة الباقية".

لقد غضب فيز لما لحق الآثار من دمار، وكثيرا ما كان يشكو من أن الناس يهدمونها للوصول إلى الحجارة، حتى فى المناطق التى يسهل فيها العثور على الكثير من مواد البناء. وكان ينعى بشدة تلك الأشياء الكثيرة الهامة التى وصفها من

سبقه من الرحالة، والتى دمرت. على أنه بنفس ازدواجية المشاعر الغريبة، التى يبدو أنها ألمت بغيره من ذوى المشاعر الوطنية الحارة فى مصر، أمكنه أن ينهى كلامه فى نفس الفقرة التى سجل فيها حزنه على فقد الآثار القديمة، فيقول: "من المؤسف أن مسلة طيبة لم تشيد فى هذه البلاد كنصب لنيلسون، إذن لكانت سجلا أكثر ملاءمة وتمجيدا لما حققه من شهرة عن أى عمل من أعمال النحت يمكن للأزمنة الحديثة أن تنتجه".

ومهما يكن من أمر، فقد أقنعت طيبة فيز بأن المصريين القدماء قد حفظوا شيئا من مجد الإنسان فيما قبل الفيضان، يقصد فيضان نوح، فتذكر أنه من الممكن الاستدلال من هوميروس والأساطير القديمة على أن البشر وهبوا ملكات عقلية وجسدية عظيمة إلى جانب طول العمر.... وأن الفنون بلغت قدرا كبيرا من الكمال قبل الفيضان؛ ويمكننا أن نستدل على نحو مقبول، بأن الكثير قد بقى بعد ذلك الحدث العظيم. لذا، فإن القوة والمهارة الباديتين فى الكثير من الأضرحة المختلفة المبهرة، وفى الأهرام، وغيرها من الآثار الضخمة القديمة، تبدو أقل إثارة للعجب.

وفى دندرة، حيث زار فيز أشهر المعابد فى الوادى، عام ١٨٣٦، شعر بالصدمة مرة أخرى بما شاهده من دمار، فكتب: "بالنسبة لامتداد حضارة هذه البلاد، فإن هذه الصروح تصبح مهدمة أكثر فأكثر، وأن ما تتسم به من كمال فنى، وما تتميز به من قدم، لا يوفران لها أى قدر من الحماية حين تكون هى مصدر المواد المطلوبة، سواء للمبانى العامة أو القصور الخاصة".

ورغم أن فيز قد أظهر تعاليا ثقافيا كان شائعا بين السادة الإنجليز الذين كانوا يعيشون فى الخارج، فى ذلك الوقت، إلا أنه كان حساسا لشىء مؤلم آخر شائع بين الإنجليز، كانوا يرفضون الاعتراف به، وهو العجز عن التحدث باللغة المحلية. فكثيرا ما يشير فيز إلى ما يصيبه من إحباط بسبب عدم قدرته على نقل دقائق الأمور الدبلوماسية حين يستضيفه أحد الوجهاء المحليين أو يقدم طلبا له؛ وكان يشكو من أن مترجميه يميلون إلى الإيماءات غير الجوهرية.

وتجشم فيز عناء تسجيل حادثه وقعت حين كان يزور حكمدار أسيوط، تبين عظم الأخطاء الحمقاء التى يمكن أن تحدث فى هذه البلاد بين شخصين لا يفهمان

بعضهما بعضا. كان يمر راكبا فى إحدى الأسواق فى صحبة انكشارى الحاكم وغيره من المرافقين، حين التقى بضابط عربى عند إحدى البوابات، "وصاح بكثير من الجدية وراح يشير لى بإشارات عنيفة كى أتوقف وأبتعد عن الطريق. وكان حصانه متعبا إلى حد ما، ولما كان الحصان الذى كنت أركبه فى نفس الحال، استنتجت أنه يخشى من أن يصطدما. وكنت أعلم تمام العلم، على أى حال، أننى قادر على منع أى حادث، وعلى ذلك مررت من خلال البوابة، رافعا اليد اليسرى، ومشيرا إليه بأن يلزم الجانب الآخر، وفى نفس الوقت، حييته بالتحية المعتادة، غير أنى اندهشت إذ وجدت أنه زادت ثورته وتحدث بصوت أكثر ارتفاعا عن ذى قبل، وأبلغت بعد ذلك أن ما قصدت أن يكون سلوكا مهذبا فهمه هو على أنه إساءة، وكان مصرا على أن أنتظر، حتى يمر هو أولا من البوابة، باعتباره محمديا مسلما".

وبالرغم من أن الانكشارى ألح على فيز بأن يبلغ الحاكم، بما حدث من الرجل، إلا أنه يسجل ببساطة وتواضع أنه رفض ذلك. وكان من الممكن أن يثور فيز، على أى حال، بسبب الإهانه التى لحقت بكبريائه الوطنى.

وحين أخبر فيز، فيما بعد، عند الإبحار فى النهر، أن قاربا يبحر عند الساحل الشرقى ويرفع العلم الإنجليزى، وأن هذا القارب يملكه أحد العرب، ولا يوجد على ظهره أى أوربى، أصر على صعود القارب، وأن ينزل العلم، فأوقفه عن ذلك رؤيته لرجل مالطى، زعم لنفسه الحق فى أن يبحر تحت العلم. فسجل فيز الحادث كى يبلغ القنصل العام، معلقا أنه غير مستعد لأن يتسامح مع عمل "يعرض العلم للعار الذى يلحقه به العرب الذين يبحرون فى ظله".

لقد خدم الكولونيل فيز تحت قيادة ويلينجتون، وكان حساسا لتزايد نفوذ الفرنسيين فى مصر. وكتب أنهم أمة "كانت مصالحها دائما وستظل بالضرورة معادية لمصالح بريطانيا العظمى"، كما كتب أن أى مراقب عابر لمصر على وعى بمدى النفوذ الفرنسى فى البلاد. ومن المحتمل أن كابتن كافيجليا كان على وعى بآراء مخدومه، وأنه أحس بالأمان وهو يبلغ فيز بأن التقدم البطىء الذى يحققه فى الأهرام، كان يرجع، جزئيا، إلى حسد الفرنسيين وتدخلهم.

عموما، حين عاد فيز اكتشف أن العمل الذى كان يموله للبحث فيما يتعلق بالأهرام، كان يستخدم بصفة رئيسية لحفر أماكن المومياء بين أبى الهول والهرم الثانى؛ إذ إن كافيجليا قد غير اتجاه العمل، وكما قال، إنه أحس أن الحفر من المحتمل أن يعطى أشياء ذات قيمة كبيرة لدنيا العلم. ومن المؤكد أنه كان من الوارد أن يعود بأشياء أكثر قيمة وأكثر قابلية للبيع من الأهرام، وبجهد يسير. غير أن فيز لم يكن معنيا بالربح، ووافق على أن جميع الأشياء التى تكتشف تحت الفرمان الذى يملكه، هى ملك للباشا.

وتلت ذلك فترة من الشجار تذكرنا بما حدث لسولت وبيلزونى، زعم أثناءها كافيجليا أنه شريك فى المشروع، وليس مجرد مستخدم، وأنه بالرغم من أن فيز قد يكون لديه المال، فهو الذى يمتلك المهارات اللازمة. فافترقا والضغينة تملأ قلبيها، وانطلق فيز فى الإشراف على العمل بنفسه.

لا بد أنه قد بدا لفيز، فى بداية الأمر أنه ربما توجد القليل من المشكلات فى تحمل هذا الجهد، فأكسبه العدل والاتزان والحزم والنزاهة احترام العالم؛ ذلك أن تربيتهَ كجندى محترف والنجاح فى حياته العملية أكسباه ثقة فى النفس فى قدراته كقائد للرجال. فوضع جدولا بأجور عادلة، وفى المقابل كان الرجال والنساء والأطفال يعملون من الشروق إلى الغروب، عدا ساعة لتناول الغداء. كان من يعملون داخل الأهرام يتقاضون أجورا أعلى، وكانت هناك مكافأة من الأجر المضاعف حين كان يتم الوصول إلى كشف له خطره.

لم تكن نتيجة هذا النظام أن كسب القرويون نقودا أكثر مما امتلكوه من قبل فى حياتهم فحسب وإنما كما كتب فيز، فى الوقت الذى كانوا يعملون معه كانوا يعفون من الأشغال العامة الإجبارية غير المدفوعة الأجر فى الترعة المجاورة. فكان له أن يتوقع أن يستقبل كمستبد محسن خير. ومع ذلك، كانت تنتظره خيبة الأمل، إذ كان العمل يتلكأ كل صباح، والكثيرون كانوا يصلون لموقع الحفر فى السابعة أو الثامنة صباحا، واستشرت السرقة، وكانت من عادة الريس (رئيس العمال) أن يكتب فى كشف الأجور أشخاصا لم يكونوا يأتون إلا لتقاضى أجورهم فقط. أما

مستخدمو فيز، فبدلا من أن يتعاملوا معه باحترام، بدا أنهم يستنفدون طاقاتهم فـــي الاحتيال عليه.

وتسجل يومياته حادثة وقعت ذات مساء: "في ذلك المـــساء، أحـــضر صـــبى محمولا على كتفى أحد الرجال، وعلى ما يبدو كان مشرفا على الموت. إذ كانـــت طاقيته البيضاء وجبهته تلطخهما الدماء والرمال، وقيل إنه سقط فى هاوية عميقـــة فى الهرم الثالث". وجده فيز راقدا على الطين مع رجل عجوز زعم أنـــه عمـــه، وكان يجلس بجانبه كى يبعد عنه الذباب. وعلى الفور، أرسل فيز إلى القاهرة طلبا لطبيب. ولكن حين استدار فجأة، رأى أن الصبى قد فتح عينيـــه، ثـــم أغمـــضهما بمجرد أن وجد أنه قد لاحظه. ومرة أخرى، لمح فيز الصبى يتحدث إلى الرجـــل الذى كان معه، ولكن ما إن رآه الصبى، حتى رقد مرة أخرى على الأرض فاقـــدا للوعى.

عندئذ، أخبر فيز الرجل أنه يمكنه الاستمرار فى العنايه بالصبى إذا شاء، غير أنه لن يدفع له أى نقود مقابل ذلك. فأجاب الرجل بأنه فى هذه الحالة يحسن به أن يأخذ مريضه إلى القرية، وانطلقا ذاهبين، حيث استقبلهما جمهور مـــن القـــرويين المنتحبين، فحملوا الصبى إلى بيته. واتضح أن الصبى كان قد خدش رأســـه فـــى حافة الحفرة، ولم تكن به أى إصابة عدا ذلك.

ويقول فيز معلقا: "هكذا كان مسلك هؤلاء التعساء"؛ وأخذت تظهر أمثلة مـــن هذا النوع من التصرفات دائما. حين جاء فيز إلى موقع العمل، كانت لديه توقعات كبيرة. إذ كان يرى أن الناس إذا ما عوملوا معاملة منصفة، حسب شروطه، فسوف يردون على ذلك بمشاعر الولاء والعرفان. غير أن هذه التوقعات كانـــت تتلاشـــى باطراد على مدى فترة الحفر. ويعد حكمه على القوة العاملة شهادة على انتـــصار الخبرة على الأمل: "مع كل ميزات الأجر المنتظم، والإعفاء من الأعمـــال الـــشاقة أثناء عملهم فى الأهرام، وعلى الرغم من العناية براحتهم والاهتمام بـــأى حـــادث صغير قد يقع لهم، ومع كل الرعاية الطبية والطعام الذى كان يقدم للمرضى ومـــا إلى ذلك، وكذلك الحظر التام للإجراءات القاسية والعقاب الجسدى، بالرغم من كل هذا فإن هؤلاء التعساء لم يكونوا مدركين مطلقا للعطف الذى كانوا يعاملون بـــه.

بل على العكس من ذلك، لم يكونوا يدعون أى وسيلة من وسائل الخداع والمكر يمكن أن تمكنهم من الحصول على المال، أو الطعام، أو الدواء وما إلى ذلك، إلا اتبعوها.

وفى النهاية، بلغت بهم الوقاحة والكسل حدا أصبح معه البديل الوحيد هو التخلى عن العمل.... إنى واثق من أن الأحوال كما هى، لا يمكن معها القيام بأى عمل دون الترهيب بالعقاب الجسدى". لقد كان فيز موفقا إذ استعان بخدمات جون شى بيرينج. كان ذلك الرجل مهندسا يشغل منصب مساعد الأشغال العامة لدى الباشا.

وقام فيز وبيرينج بعمل مسح لجميع الأهرام الموجودة فى الجيزة، ثم اتجها إلى سقارة ودهشور وميدوم. حين بدآ العمل، كان داخل الهرم الأكبر قد اكتشف، وتم فتح الهرم الثانى، ونجح فيز فى فتح الهرم الثالث ـ هرم منقرع ـ وذلك باستخدام التفجير المحكوم والمنضبط للبارود، وقد لقى بسبب ذلك النقد الكثير. ومما يدعو للسخرية أن التفجيرات لم يكن لها مبرر بالنسبة للهرم الثالث، إذ بعد أن شق فيز طريقه إلى المنتصف تقريبا، توصل بالصدفة إلى المدخل الحقيقى عن طريق إزالة بضع كتل حجرية كانت مخلخلة على الجانب الأيسر.

ثم اكتشف السبب الذى جعل الأنفاق التى بنيت من أعلى غير ناجحة، ذلك أن حجرة الدفن والممرات المؤدية إليها كانت جميعها تحت الهرم، ولم تكن بالداخل. وكان لصوص المقابر قد فتحوا الحجرة بالفعل، ولم يشتمل الوعاء الأزرق الطويل الذى عثروا عليه بالداخل إلا على بقايا متحللة لرجل.

وكان هناك تابوت حجرى بلا غطاء، فقرر فيز إرساله للمتحف البريطانى؛ لأنه كان مآله الدمار إذا ما ترك فى الحجرة. وتمكن الرجال من دحرجة التابوت على عربة إلى قاع ممر المدخل ثم رفعه، "وكان هذا عملا شاقا إذا ما أخذنا فى الاعتبار أن وزنه كان يقرب من ثلاثة أطنان". وأخيرا وضع فى صندوق من الأخشاب المتينة، وشحن فى سفينة تجارية، وفقدت هذه السفينة قبالة قرطاج فى أكتوبر عام ١٨٣٧، وما زال التابوت إلى اليوم باقيا فى قاع البحر ومعه البضائع القديمة .

لا يوجد فى التاريخ التفصيلى الذى نشره فيز عن عمله هنـاك (يعنـى فـى مصر) أى تسجيل يدل على الحصول على تصريح بتصدير التابوت. ومع ذلـك، فهو يوضح أن جميع الآثار التى عثر عليها فى الأهرام، هى ملك للباشا، وأن كـل شيء تم إرساله إلى الكولونيل كامبيل فى القنصلية البريطانية ومعه التعليمات بأن جميع الطلبات تقدم لبرجس بك سكرتير (كاتب) محمد على، فيما يتعلق بالأشـياء التى يرغب فيز فى أخذها إلى إنجلترا، ولا تشمل القائمة التابوت الحجرى، وإنمـا تحتوى على أشياء مثل: "إبريقين مكسورين من الفخار؛ وخمس زجاجات صـغيرة مصنوعة من الزجاج؛ وثلاثة طيور من الخشب؛ وتسع قطع مكسورة...".

أعاد فيز مجموعته إلى إنجلترا، وقدمها للمتحف البريطانى عام ١٨٨٨، وترك بيرينج كى يستمر فى عمل مسح للأهرام على نفقة فيـز، وأشـرف علـى نـشر سجلات أعماله فى لندن. وكانت هذه أدق وأشمل أعمال مسح للأهرام تنشر فـى القرن التاسع عشر، وظلت مرجعا فى هذا الموضوع حتى الأزمنة الحديثة.

ومع أن اسم فيز فى تاريخ المصريات مرتبط باستخدام البارود ووسائل الحفر العنيفة، إلا أن الضرر الذى ألحقه كان قليلا، أما النتائج التى حققها فتعـد إسـهاما كبيرا فى مجال المعرفة. لذا، فإن فيز جدير بأن يتذكره الناس ذكرا أفضل.

ولا يرجع ذلك فقط إلى أن طموحاته فى مصر لم تكن عادية، فهو لـم يكـن يسعى إلى اكتساب شهرة لشخصه أو تكديس ثروة كبيرة، كما لم يكن يرغب فـى تحقيق ذلك لبلاده، وإنما كان يهدف إلى توسيع مجال المعرفة الإنسانية.

الفصل الخامس

الاتصال الحضارى

جلب الأمن الداخلى الذى ساد عقب تسنم محمد على سدة الحكم، وكذلك تشجيعه للمشاريع الأجنبية، تدفقا كبيرا للرحالة من أوربا إلى مصر. فبعد عام ١٨٠٨، كان البريطانيون الأثرياء قادرين على التجول مرة أخرى فى ربوع وادى النيل، ولقد أقر سير أرشيبولد ادموندستون بحدوث تغيير فى الوضع السياسى، وسير ادموندستون هو بارونيت (لقب أدنى من البارون وأرفع من الفارس). فمنذ أن حل الاستبداد القوى النشط الذى مثله الباشوات الأتراك محل طغيان المماليك المتشرذم، تمتعت الحكومة بدرجة من القوة والأمن لم تكن تقريبا معهودة من قبل. ولم تقتصر نتيجة ذلك الوضع على هبوط وضع الفلاحين حتى بلغوا حالة من الخضوع التام فحسب، بل إن أهل النوبة الذين يتصلون بمصر من الجنوب، والعربان الرحل الذين طالما أغاروا على حدودها من الغرب، قد أصبحوا مجرد تابعين خاضعين لا يشكلون أى خطر .

قام سير أرشيبولد باستكشاف واحتين ما بين عامى ١٨١٩ و ١٨٢٠، وكان يرتدى زيا مملوكيا عبارة عن بنطلون (سروال كبير) من القماش، وخف أحمر، وعباءة من الموسلين. وهو لم يكن معنيا بالتطاحن التجارى من أجل الآثار، ذلك التطاحن الذى كان يدور من حوله، إذ كان ينفق الساعات على نهر النيل وهو يقوم بنسخ النقوش الموجودة باللغة اليونانية، ويكتب الملاحظات فى صحيفة يومياته حيث يسجل فيها العادات والتقاليد، من أجل التسرية عن جمهور القراء فى وطنه.

ولكن اهتمامات جان بابتيست ليورين كانت ذات طبيعة عملية، إذ كان مكلفا من قبل جامع الآثار والأثرى الفرنسى لويس ـ سيباستيان سولنيى بنقل علامات الأبراج الرائعة من سقف المعبد القائم فى دندرة وشحنه إلى باريس. ويبدو أن تبرير فرنسا لهذه المهمة هو أن ما بهذا النحت من جمال كان من القوة حتى إنه أثار الحاسة الفنية لدى الجنرال ديسى، وقد أعاد تقديمه فى كتاب وصف مصر، ذلك الكتاب البديع، بحيث إنه "بشكل ما قد صار نصبا قوميا".

وكان ليورين عند تقديمه لطلب لإصدار فرمان، يتمتع بقدر كاف من الدبلوماسية جعله يخفى الهدف من وراء زيارته عن محمد على، وأن يقدم نفسه باعتباره مجرد مسافر أجنبى كغيره من المسافرين لديه نهم للمعرفة.

وعندما وصل ليورين إلى دندرة، وجد مجموعة من الزائرين الإنجليز يقومون برسم دائرة البروج ، لذا ذهب إلى طيبة ، حيث اشترى بضع قطع أثرية كى يعطى انطباعا بأنه مجرد سائح عابر لديه اهتمام بالأشياء الغريبة الأقل أهمية. ثم بعد أن أشاع أنه معتل الصحة يخطط لقضاء بضعة أسابيع للنقاهة على البحر الأحمر، عاد إلى دندرة، وأخذ يعمل فى قطع دائرة البروج. وكان تمثال الأبراج منحوتا على كتل من الحجارة سمكها ثلاث أقدام، فاستخدم ليورين البارود لعمل ثقوب، ثم قام رئيس للعمال وأربعون عاملا بقطعه مستخدمين أزاميل ومناشير.

وبعد ثلاثة أسابيع من العمل ليل نهار، أزيلت الكتل الحجرية، وحملت وسحبت على دحروجات أو بكرات نحو أحد القوارب. وأعلن المراكبى أن المياه أكثر انخفاضا من أن يحاولوا الإبحار بمثل هذا الحمل الثقيل إلى الشمال فى ذلك الموسم. ومع كل ، فقد كان ليورين قد قضى فى مصر وقتا يكفى لكى يدرك أن الإنجليز قد قاموا برشوة هذا الرجل، فسأل المراكبى، ببساطة، عن المبلغ الذى عُرض عليه، ووفى بالثمن وهو ١٠٠٠ قرش، وتمكنوا من الإبحار.

وفى منتصف الطريق إلى القاهرة، أوقفهم عميل إنجليزى يحمل أمرا من رئيس نظار الباشا يمنعهم من حمل الحجارة. فرفع ليورين العلم الفرنسى، وتحدى معارضيه ومنعهم من الصعود إلى مركبه، وواصل الإبحار.

وفى الإسكندرية، حاول كل من القنصل الفرنسى والإنجليزى منع ليورين من شحن دائرة البروج، إدراكا منهما لمدى عظم الإضافة التى سوف تشكلها

لمجموعتيهما. ومع ذلك فان ليورين تمكن من الصمود، وتم شحن الكتل الحجرية بسلام إلى فرنسا، وبيعت للويس الثامن عشر بمبلغ ١٥٠٠٠٠ فرنك، وتم تجميعها فى متحف اللوفر.

أما رواية سولنيى للعملية التى نشرت عام ١٨٢٢، فشرحت للعالم أن دوافعه من وراء إسناد نقل دائرة البروج لفرنسا كانت من وحى شعوره بالغيرية الجمالية، إذ كتب أن الوهابيين، فى بلاد العرب، كانوا يهددون مصر، وإذا تم لهم غزوها بنجاح، فلسوف يدمرون آثارها القديمة: "وتوقيا لهذا الخطر، وهو ليس خيالا محضا، فإنه من حسن الحظ أن انتشلت دائرة البروج فى دندرة من قوى الدمار التى سبق وصفها؛ كى توضع تحت حماية الحضارة الأوربية".

فى عام ١٨٢٢، أى فى السنة التى وضعت فيها دائرة البروج فى اللوفر، عاد عالم المعادن الفرنسى فريدريك كليمو من مصر ومعه مجموعة تضم أكثر من ٥٠٠ قطعة. ونشر فى لندن روايته عن رحلاته على طول وادى النيل، ونعى الدمار الذى ألحقته البلاد الأخرى بكنوز مصر القديمة: "فى الحقيقة، لو لم يكن ما يخشى منه على الآثار سوى المياه وتقلب الفصول، لبقيت عبر العصور، لكن عليها أن تتلقى عنف الأتراك... وما هو أكثر من ذلك عبث أيادى بعض الأوربيين. لن أورد أية أسماء، غير أنى سوف أكتفى بالقول بأنهم ليسوا فرنسيين"... وأقل ما يقال إن هذا الاتجاه كان متواصلا، فمنذ السنوات الأولى من التنافس الأنجلوفرنسى على نهب الآثار المصرية، كانت كل أمة منهما تنحو باللائمة على الأخرى على ما تسببت فيه من الضرر.

فى السنوات التى أعقبت نشر كتاب كليمو، كان شامبليون يقوم بجولة فى المواقع الرئيسية محتجا على ما يلحق بها من انتهاك وتدنيس، فى حين كان يرتب من أجل شحن مسلة الأقصر إلى فرنسا. والتقى شامبليون خلال رحلاته بلورد أولجيرنون بيرسى، دوق نورثامبرلاند الرابع، الذى كان على ما يبدو هو ورفيقه ميجور أولاندو فيليكس منهمكين فى نسخ من النقوش على المقابر؛ فأخذا عطلة من مشاغلهما الأكاديمية، لجمع مجموعة من الآثار وصلت بمرور الوقت إلى ما يربو على ٢٠٠٠ قطعة.

وكان هناك رحالة فى مصر يسعون وراء التجربة الجمالية. فالرومانسية التى أثرت فى الفنون فى بداية القرن التاسع عشر استمدت إلهامها من الازدراء لإنسان المدينة، وتمجيدها بل تأليهها للهمجى النبيل، والافتتان بالتصوف الدينى، والانجذاب القلبى للحضارات البائدة أو البدائية، بما فى ذلك الحضارة المصرية. فجميع كبار الشعراء الرومانسيين فى ذلك الزمان أحبوا الغوص فى الإجبسيانا (التراث الفرعونى) .

إن الكلمات الختامية فى قصيدة أوزيمانديا لشيلى ١٨١٨، تستحضر بقوة صمت المشهد الصحراوى وما يوحى به من عزلة: "لكن لا شىء يبقى، فحول الخواء الهائل تمتد الرمال العارية، التى لا يحدها شىء بعيدا بعيدا". كما كان كيتس مدلها بمصر، وتشير سبع من قصائده التى ظهرت فى نفس العام إليها أو إلى كليوباترا، بما فى ذلك سوناتا أو أنشودة للنيل .

أما بالنسبة لبيرون، فإن خطته لزيارة مصر تعود إلى رحلة قام بها إلى أثينا عام ١٨١١، حين حصل على فرمان بدخول البلاد، غير أن اليونان صرفت انتباهه. وفى عام ١٨١٩، أقنع الناشر جون مارى بإضافة بضعة مقاطع إلى عمله الشعرى دون جوان:" ما هى آمال الإنسان؟ لقد شيد ملك مصر القديمة خوفو الهرم الأول وأكبر أهراماتها، معتقدا أنه هو الشىء الذى سوف يخلد ذكراه ومومياه مختبئة؛ لكن شخصا آخر يعبث؛ ويفتح متلصصا غطاء تابوته، فلا تدع أثرا يعطيك أو يعطينى أية آمال، طالما لم تتبقَّ من خوفو ذرة من تراب".

كذلك رسم بنجامين هيدون، وهو صديق حميم من أصدقاء كيتس، لوحات كبيرة على القماش مفصلة عن موضوعات ملحمية، خمس منها تناولت موضوعات مصرية. ولقد بحث عن هذه الموضوعات بزيارته للقاعات المصرية فى المتحف البريطانى، وتابوت سيتحس الأول الحجرى فى قاعة سلوين، ودرس "كل ما هو مصرى فى المتحف"، وكان ينفق معظم وقته بين عامى ١٨٢٣ و١٨٢٦ فى عمل "فرعون يطرد موسى فى الليل البهيم، حين ألفى وليده الأول ميتا فى عيد الفصح"، وهو موضوع كان ملهما له لأنه، كما سجل فى مذكراته "أبو الهول أو نموذجان من أبى الهول، أو هرم أو أكثر، مظلم ورهيب، مع إضاءة مع المجموعات الأولى

تضيئها المصابيح يمكنها أن تجعل هذا الموضوع رائعا ومؤثرا. ذلك أنه يدمج العاطفة والسمو".

إن ما جذب هيدون وغيره من رهبة وغموض وشجو وسمو إلى الموضوعات المصرية، كلها أمور استخدمها معماريو ذلك الزمان بأسلوب سمى بالمنظرانى التجارى، أى المنظر الذى يرغب فى التصوير البديع. وتعد القاعة المصرية فى بيكاديلى، التى وضع فيها معرض بيلزونى من أوائل الأمثلة على ذلك. كما كان هنال بيت مصرى فى بينزانس penzance قريب الشبه بهذا، بمشربيات وحليات معمارية محدبة فى قاعدة الأعمدة، وأطباق مجنحة بنيت كمتحف ومستودع جيولوجى. وكان الأسلوب المصرى Egyption style مفضلا كثيرا لمثل هذه الأماكن، لما به من عبق العراقة. كما كان الناس يعتقدون أنه يوحى بالقوة والصلابة والتحمل، مما يجعله ملائما للطواحين ومحطات السكك الحديدية والكبارى.

لذا فإن بريتون تشين بير فى ١٨٢٣، وجسر كليفتون المعلق فى بريستول الذى صمم عام ١٨٣١، كلاهما يتسمان بالسمات المصرية، فالمشروع الذى وضعه برونى من أجل كليفتون يشتمل على بوابات ضخمة، تشبه تلك الموجودة فى المعابد الفرعونية، وأشكال أبى الهول تعلوها كرات مجنحة كالأجرام السماوية، وكذلك زخارف من الكتابة الهيروغليفية، إذ إن هذا كان مزيجا يلقى الكثير من الإعجاب .

بل إن أصحاب المصانع فى الشمال الصناعى، كانوا يسعون إلى وضع مسحة روحية على طواحينهم الشيطانية، وذلك برسم أصداء مصرية. إذ بنيت طواحين المعابد بشارع مارشال فى ليدز بواجهة مأخوذة عن المعبد القائم فى إدفو، كما استمدت مبانى أحد المصانع شكلها من دندرة، فكانت الأعمدة الداخلية بها نخيل ورءوس من البردى، وكانت الأسقف بها طبقة من الطين زرع بها العشب كى يمكن للأغنام أن ترعى فى أعلى، وكان عليهم أن يوقفوا هذا حين سقطت إحدى الأغنام بين الماكينات.

كذلك كانت الموضوعات المصرية شائعة فى معمار المدافن منذ عصر النهضة، غير أنها اكتسبت زخما جديدا فى أوائل القرن التاسع عشر. فلقد أقيمت

مقبرة بير لاشيز، فى باريس، وتعد الكثير من النصب الكبرى البارزة بها ذات أسلوب مصرى. فكان المنزل المقبرة النموذجى يضم كهفا تحت الأرض تعلوه كنيسة صغيرة، غالبا ما كانت تزدان بموضوعات مصرية . فكانت مقبرة جاسبار مونج التى شيدها تلاميذ مدرسة الصنائع (اكول بوليتيكنيك) ثرية بالطابع المصرى، مما يليق بتخليد ذكرى أحد كبار علماء بونابرت. وسرعان ما صار بير لاشيز نموذجا للمقابر العامة، وقلد على نطاق واسع .

وجاء فى مقال عن "المقابر" نشر فى المجلة المعمارية عام ١٨٣٧: "أحيانا ما تم تبنى الأسلوب المصرى بما يتميز به من عرض كبير وضخامة فى النسب فى إقامة الأضرحة، وأظن أنه من آن لآخر، استخدم فى إقامة المبانى المتصلة بالمقابر المغلفة، وربما كان ذلك ناجما عن الاعتقاد فى تحمل هذا النوع من البناء والقوة التى ترتبط بالآثار المصرية". ومع ذلك فإن كاتب هذا المقال يستطرد فيذكر تحفظا عبر عنه من قبل بشأن هذه الطريقة.. "من الصواب أيضا تربية الحب والتفضيل للأسلوب القوطى، ذلك أن هناك حقيقة لا سبيل إلى تغييرها، وهى أنه معمار مسيحى، أما المعمار الكلاسيكى والمصرى فينتميان إلى الوثنية".

على أى حال، لم يتأثر دوق هاميلتون العاشر بتوجسات زملائه من المسيحيين، ففى عام ١٨٣٧ دفع مبلغ ٦٠٠ جنيه ثمنا لتابوت حجرى كان قد تم شحنه إلى فرنسا بواسطة شامبليون، ليس بغرض العرض وإنما كى يتسلم ما له من آثار. وأمر الدوق ببناء ضريح على أرض قصر هاميلتون وصفته صحيفة التايمز "بأنه يعتقد أنه أروع وأغلى معبد لاستقبال الموتى فى العالم، طبعا باستثناء الأهرام"، ودفن هو نفسه بداخله، بعد أن حنط جثمانه جوزيف بيتيجرو. وبيتيجرو هو مؤلف كتاب المومياوات المصرية.

ولم يكن الأمر مقصوراً فقط على نزوات الأفراد، بل إن السلطات البلدية التى تتمتع بصفاء الذهن، وكذلك بيوتات التجارة، قد مالت هى أيضا إلى الشعبية المتزايدة للموضة المصرية. ففى ١٨٣٩، بنت شركة المقابر بلندن "دائرة السراديب اللبنانية" فى مقابر سينت جيمز فى هيجيت. فى هذه الدائرة تحيط سلسلة من القبور المقامة بالأسلوب المصرى بشجرة أرز لبنانية كبيرة. كان المدخل عبارة

عن مشربية تحيطها أعمدة مصرية تحرسها المسلات، وهى تؤدى إلى "طريق مصرى تحيطه الأشجار".

وتشتمل مقابر جلاسجو التى أنشئت فى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، على العديد من القبور التى تتميز بالسمات المصرية، وكذلك على مسلة عليها نقوش وكهوف مصرية لتخزين الجثث التى تنتظر إنشاء مقابر دائمة. فى ذلك الوقت، أدمجت العديد من الأماكن الأخرى العناصر المعمارية المصرية فى مقابرها، منها كينسال جرين، ونوروود، وبرومبتون، وبرادفورد.

ومما لا شك فيه أن أكثر المشروعات غرابة هو مشروع توماس ويلسون الذى اقترح، عام ١٨٢٤، تشييد هرم كبير فى وسط لندن؛ لحفظ خمسة ملايين جثة. كان من المقرر أن يشيد من الطوب بواجهة من الجرانيت، ويقام على مساحة فى حجم ميدان رسل، وأن يعلو إلى ارتفاع يزيد على كاتدرائية سينت بول. وقدرت التكلفة بـ ٢٥٨٣٥٥٢ من الجنيهات. وبما أن جميع الكهوف فى هذا البناء كان من المقرر أن تباع ملكا مدى الحياة بل تورث بأسعار تتراوح بين ١٠٠ و ٥٠٠ جنيه، لكل منها، فإن الربح الذى تم تقديره ١٠٧٦٤٨٠٠ جنيه.

عموما، بالرغم من ادعاء ويلسون بأن "هذا الضريح العظيم سوف يقطع شوطا لإكمال مجد لندن". وبالرغم من ربحيته الواضحة، وأنه يزين المدينة، بالإضافة إلى عدم قابليته للحرق العمد، واستيفائه للشروط الصحية العامة، بالرغم من هذا كله، إلا أن الدعم المالى لم يكن متوقعا، فظل التصميم الفخم حبرا على ورق .

إن غالبية الشعراء والمعماريين والفنانين الذين استلهموا مصر، لم يقتربوا قط من زيارتها بالفعل، واكتفى بعض أكثر هؤلاء شهرة بأمور رمزية على سبيل الواجب، مثل الأهرامات التى كان ج .و . تيرنر يضعها من حين لآخر على آفاق لوحاته المستوحاة من الكتاب المقدس. ومع ذلك، فقد كان هناك بعض الفنانين ممن توفرات لديهم الإمكانيات والوقت للزيارة نشدانا للشىء الحقيقى، وربما لا يكون من المدهش أن حياتهم صارت متشابكة. ذلك أن فريدريك كاثيروود، الذى يعرف أكثر ما يعرف بلوحاته لآثار المايا، قام بزيارة مصر بين ١٨٢٣ـ ١٨٢٤، والتقى بروبيرت هى Hay، وهو رحالة وأثرى سكوتلاندى، فى مالطة فى طريق عودته إلى الوطن.

وبلغ من تأثر "هى" Hay بحكايات كاثيروود ولوحاته، أنه توجه إلى الإسكندرية ، وأنفق الاثنى عشر سنة التالية فى زيارة وادى النيل فى صحبة الفنانين والباحثين. وكان من بين هؤلاء جوزيف بونومى، وهو مثال ورسام هندسى. فبعد أن تعرف على مصر من خلال "هى" أنفق ثمانى سنوات هناك يساعد الدارسين فى أبحاثهم. وكان من بين هؤلاء الباحثين أول من أثار اهتمام الناس بالمصريات فى بريطانيا العظمى.

أما جون ويلكينسون، فقد اهتم بألغاز الهيروغليفية حين كان تلميذا فى مدرسة هارو، إذ إن ناظر المدرسة فى ذلك الوقت د. جورج باتلر، كان صديقا وتلميذا سابقا لتوماس يانج Young. وبعد أن ترك ويلكينسون كلية اكستر بجامعة أوكسفورد، دون الحصول على درجته العلمية، كان يقوم بزيارة لإيطاليا لأسباب صحية حسب موضة ذلك الزمان. وهناك التقى بسير ويليام جيل، الأثرى الذى كان يتراسل معه حول موضوع الكتابة الهيروغليفية، فاقتنع بأن يهب نفسه لعلم الآثار المصرية.

كان ويلكينسون يملك دخلا صغيرا، وتمكن وهو فى الرابعة والعشرين من عمره من زيارة مصر فى عام ١٨٢١، وبقى هناك اثنتى عشرة سنة. زار أثناء ذلك الوقت، كل موقع أثرى له أهمية، ورسم لوحات متقنة بارعة. ودرس اللغة العربية واللغة القبطية كى يساعده ذلك على ترجمة الهيروغليفية. وتوصل دون الاستعانة بأعمال شامبليون إلى الكثير من الاستنتاجات التى توصل إليها شامبليون.

ومع أنه اعتمد على الهيروغليفية فى الجزء الأكبر من عمله، وبدون مساعدة حكومية، إلا أنه تمكن من التعرف على الكثير من الأسماء الملكية، وأخرج أول ترتيب زمنى للملوك والأسر الملكية يمكن التعويل عليه. كما رسم أول خطة شاملة لطيبة القديمة ، وأخرج ثروة لا مثيل لها من الرسوم واللوحات من المقابر، فكتب كتابه الضخم الناجح الذى غطى جوانب عديدة بعنوان: "سلوك وعادات قدماء المصريين". واشتمل هذا الكتاب على حياتهم الخاصة، ونظام الحكم عندهم، وكذلك الفنون والصناعات، والديانة والزراعة والتاريخ السابق، وذلك عن طريق مقارنة اللوحات السابقة وأعمال النحت والآثار التى لا تزال باقية مع روايات مؤلفين

قدماء. وظهر هذا الكتاب فى ثلاثة مجلدات عام ١٨٣٧، أعد بونومى الرسوم التوضيحية الخاصة به.

فى السنة السابقة على ذلك، ظهر فى لندن كتاب إدوارد وليام لين: "سلوك وعادات المصريين المحدثين". وقد هدف هذا العمل إلى أن يفعل بالنسبة للمصرين المحدثين ما فعله ويلكينسون بالنسبة لأجدادهم. من بين جميع الإنجليز الذين كانوا يرتدون ملابس داخلية من الكتان(*) والقفطان، ويأكلون عيون الأغنام، ويتخذون لأنفسهم أسماء عربية ويطمسون معالم شخصيتهم الإنجليزية، يعتبر لين أكثرهم علما، ويعد كتابه أوسع كتب هؤلاء الإنجليز رواجا. ولما كان ابنا لأحد القساوسة، فكان من المقرر أن يكون مصيره إلى الكنيسة عن طريق الدراسة فى جامعة كيمبريدج، غير أنه تخلّى عن هذه الخطة بعد أن قام بزيارة قصيرة لتلك المدينة.

وبعد أن قضى بضع سنوات فى لندن، حيث تعلم الرسم وفن الحفر أو النقش واللغة العربية، اتجه إلى الإسكندرية فى يوليو من عام ١٨٢٥ وقد صار عمره أربعة وعشرين سنة. كانت رحلته فى سفينة شراعية ذات صاريين، كادت تغرق حين هب إعصار، فكادت المياه تغمرها قبالة تونس. ويسجل كاتب سيرة حياته أنه بعد أن أرسل بقائد السفينة غير الكفء إلى قمرته، اندفع إلى عجلة القيادة وأبحر بالسفينة بسلام إلى مالطة.

وما إن وصل لين إلى مصر، حتى أظهر نفس القدر من الشجاعة والاستقلال وذلك بأن حاول أن يعيش كإنسان عربى: "لقد اندمجت تماما تقريبا مع المسلمين من مختلف فئات المجتمع، عشت كما يعيشون، متوافقا مع عاداتهم العامة؛ ولكى أجعلهم يألفوننى ولا يشعرون بالتحفظ نحوى فى كل أمر، كنت دائما ما أشاركهم الرأى حين كان ضميرى يسمح بذلك، وفى معظم الحالات التى لا يتوافر لى فيها ذلك، كنت أحجم عن التعبير عن اختلافى معهم، كما كنت أحجم عن كل فعل يجعلهم ينفرون منى. فكنت أمتنع عن تناول أى طعام يحرمه دينهم، مثل شرب الخمر وما إلى ذلك؛ بل كنت أمتنع عن العادات التى قد لا يحبونها؛ مثل استخدام

(*) ربما يقصد السروال الطويل. (المترجم).

السكاكين والشوك فى تناول الوجبات.... وحين كنت أسير بين الناس، كانوا يظنون أنى تركى، بسبب الملبس الذى وجدته ملائما لى".

صار ويلكينسون شهيرا بسبب كشفه لأسرار حضارة كانت ميتة لزمن طويل. أما لين، فهو شأنه شأن علماء الأنثربولوجيا الاجتماعية فى أواخر القرن التاسع عشر، اكتسب مكانته بسبب معرفته الوثيقة بثقافة غريبة غير مألوفة، إذ لاحظ وسجل كل جانب من جوانب طريقة الحياة التى كان يحياها المصريون، وذلك بعمل سلسلة من الرسوم مستخدما كاميرا لوسيدا a camera Lucida، وهى نوع خاص من آلات التصوير تلقى صورة عن طريق منشور زجاجى فتنعكس على لوحة سوداء حيث يمكن رسم الصورة.

ولقد رفض الناشرون الذين عرض عليهم لين ملاحظاته عن مصر الكتاب، على أساس عدم وجود ما يكفى من الاهتمام بهذا الموضوع فى ذلك الوقت. ومن حسن الحظ أن لورد بروجام استطاع أن يرى ما بالكتاب من إمكانيات، فأوصى به جمعية بث المعارف النافعة. فحقق الكتاب نجاحا تجاريا وطبعت منه أربع طبعات فى خلال العشر سنوات الأولى. وقد لا يكون هذا راجعا كليا إلى اهتمام واسع النطاق بالعلوم الإنسانية؛ إذ يوجد تعليق فى المقدمة ربما يكون هو الذى لفت انتباه القارئ: "إن حرارة شهور الصيف من الشدة بحيث تحدث قدرا كبيرا من الخمول، فى حين أنها، فى نفس الوقت، تثير المصرى فيفرط فى المتع الحسية؛ كما أن شدة خصوبة التربة تؤدى إلى قدر من الكسل"... ولم يكن المجتمع الفكتورى فى بدايته يمتنع عن التسرية عن نفسه من حين لآخر بالتعرف واستكشاف "الإفراط فى المتع الحسية" التى تتمتع بها الشعوب الأجنبية.

لقد كان هناك اهتمام حاد حقا، بما غنمه أولئك الذين حطموا، تابوات (محرمات) المجتمع المهذب ثم أفلتوا من أى تبعة، ومن الواضح أن لين كان فى وضع مناسب يمكنه من الكشف عن هذه المغانم. فهو لا يصف المظهر الخارجى للثقافة المصرية فحسب – كالمسكن والملبس والعادات الاجتماعية والألعاب والأعياد العامة– وإنما يصف أيضا عالم الحريم الخفى والمخادع. وهناك معلومات عن إعداد الحشيش وتدخينه والأفيون، وطقوس الدراويش السرية، والختان، والأحجبة التى تقى من عين الحسود. ويكتب بحماس عما تتمتع به النساء

المصريات من قدرة على الإغراء: "عيونهن، بقليل من الاستثناء، سوداء واسعة، لوزية الشكل، ذات رموش طويلة جميلة، بها تعبير رائع ساحر، يصعب العثور على عيون أكثر جمالاً"... ويوجد وصف مفصل لأسرار زينتهن أى زينة الوجه، وكذلك ما يتلقين من تعليمات كى يصبحن مبعث سرور لأزواجهن. لا بد أن الزفرات كانت تصعد فى صدور الإنجليز فى العصر الفكتورى حين كتب لين: "إن ما تتسم به غالبية المصريات من طاقة جنسية والسلوك الشهوانى يمكن أن يُعزى إلى الكثير من الأسباب؛ فهو يرجع جزئيا إلى المناخ، كما يرجع جزئيا إلى افتقارهن إلى التعليم السليم والمتع البريئة وطرق قضاء الوقت".

وإلى جانب الافتتان باللذة الحسية، كان هناك الافتتان بعالم الأرواح. إذ استطاع لين أن يشهد بناء على تجربة شخصية أن القوة الروحية لقدماء المصريين انتقلت إلى أحفادهم. فقد زار، فى إحدى المرات، ساحرا فى القاهرة، وأخذ معه، كما قيل له مزيجا من بذور اللبان البخور والكزبرة. وأحرق هذا المزيج فى طبق يغلى، وجىء بصبى "لم يصل بعد إلى سن البلوغ" ليقف بجانبه. ورسم الساحر "مربّعا سحريا" فى كف الصبى. مشتملا على أعداد إذا ما جمعت صفوفا أفقية أو رأسية أو مائلة تصل إلى رقم خمسة عشر. وصب الساحر فى وسط المربع قليلا من الحبر، وطلب من الصبى أن يحملق فى هذه البقعة. ثم سئل لين إذا كان يريد استحضار أى شخص، سواء كان حيا أو ميتا. فاختار استحضار لورد نيلسون. وعلى الفور، رأى الصبى رجلا يرتدى ملابس أوربية سوداء، ويبدو أنه قد فقد ذراعه اليسرى. فكان هذا مثيرا وإن لم يكن دقيقا. ولكى يساعد لين الصبى سأل عما إذا كانت الصورة الموجودة فى البقعة ربما مثل صورة فى مرآة، بحيث تكون الذراع اليسرى هى الذراع اليمنى. فأكد الساحر أن هذا صحيح.

لم يكن هناك أى شك فى اتزان ذهن سير جون جاردنر ويلكينسون، ولقد حصل على رتبه فارس بعد نشر كتاب: "سلوك المصريين المحدثين". وفى كتاب: "مصر الحديثة"، الذى نشر عام ١٨٤٣، فإن نظرته بالقطع هى نظرة الرجل الإنجليزى فى الخارج، وهى تتناقض تناقضا واضحا مع نظرة لين. إذ كان لكتاب ويلكينسون، بالطبع، هدف مختلف، باعتباره مرشدا شاملا للرحالة. فهو لذلك، يسعى إلى تزويد السائح الأجنبى فى مصر بالمعلومات الضرورية للقيام بزيارة

ناجحة، أكثر من سعيه إلى تنوير محبى الاستطلاع. ويعد الكتاب رائعا من حيث تغطيته الواسعة لمختلف الجوانب. إذ يقيم ويلكينسون الطرق والفنادق المختلفة فى الطريق إلى مصر، أو داخلها، كما يقدم إشارات عن كيفية تحاشى جشع المراكبية والحوذية. وهناك قدر كبير من المعلومات التى درست وبحثت بعناية كبيرة، تتناول تاريخ كل موقع أثرى رئيسى وإطاره الخارجى على طول وادى النيل، إضافة إلى عملية بسيطة من أجل الرحالة. فهو يقترح أن أول شىء تفعله بعد استئجار مركب هو أن تغطسه كى تغرق الفئران.

إن كتاب ويلكينسون (مصر الحديثة) يتناقض أشد ما يكون التناقض مع كتاب لين (المصريون المحدثون) فى الاتجاه الذى يتناول به المصريين، فويلكينسون يعطى المسافر نصائح دقيقة سليمة عن الأجور المناسبة لمختلف طبقات الخدم، ويحذر باستمرار من إساءة تصرف من يعملون فى خدمة هذا المسافر: "بعد مرور أيام قليلة من الإبحار فى المركب الذى استأجرته وغطسته، مثلا، فمن حسن التدبير أن تطلب من خدمك من أهل البلاد ليلا أو بحجة الاستحمام، أن يتفحص عارضة قاع المركب بحثا عن الخشب، إذ إنها، أحيانا ما تربط عبر اللوح كى تبطئ من سرعة المركب، مما يطيل من الرحلة، ومن ثم أجر المركب". فطبقا لويلكينسون، قد يكون المصريون غادرين جشعين، غير أن الرحالة الإنجليزى يجب أن يعتاد على فكرة، أن المصريين، حتى الشحاذ منهم، يرى فى نفسه شخصا متفوقا.

لقد لاقت رسوم ويلكينسون الإعجاب لما بها من الأمانة الشديدة التى صور بها الآثار والنقوش والرسوم الموجودة على الجدران التى قام بدراستها؛ لقد كان بونومى الذى ساعد على إعدادها للنشر رساما هندسيا، أما لين فكان فنانا فى الحفر. ولقد كانت وظيفة الفنان حتى ذلك الوقت، فى البعثات أو الحملات هى العمل كآلة تصوير، وأن يسجل ما يراه دون أى تشويه.

وكان أول فنان زار مصر هو ديفد روبيرتس، إذ كان يرى نفسه رساما محترفا بمعنى أنه يكسب قوته من عمله كرسام. كان روبرتس هو الابن الموهوب البكر لصانع أحذية اسكتلندى شق طريقه إلى عالم الفن، من خلال العمل كرسام مشاهد فى السيرك والمسرح. وكانت لوحاته تحتفظ بالجودة المسرحية طوال حياته العملية، بل ويمكن أن تحتل مكانها فى مجموعة الأوبرا الرومانسية. كان روبيرتس

يبحث عن موضوعات فى المشاهد المسرحية تسمح له بملء لوحات كبيرة بالألوان المتلألئة. وكان من أوائل ما كلف به رسم رحيل بنى إسرائيل من مصر، وهو موضوع اختاره هو بنفسه كما كتب، "باعتباره وسيلة لتقديم ذلك الأسلوب أو المعمار الفخم على بساطته، أى الأسلوب المصرى"، أكثر من اختياره له لأى سبب آخر.

تظهر اللوحة عشرات الآلاف من الناس يرحلون من دار العبودية، والمصريون ينظرون إليهم من حدائق تحيط بقصورهم الفاخرة. هناك أوان ثرية وقاتمة، غير أن المعمار ليس مصريا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة. إذ كان رومانيا إغريقيا على غرار الأسلوب الذى كان يفضله دينون ومعظم الرحالة فى أوائل القرن التاسع عشر، إذ يحتل مبنى فسيحا يقوم على صفوف من الأعمدة على الجانب الأيسر من الصور، ويمتد إلى الغمامات البعيدة، التى تخترقها أهرام ذات زوايا منحدرة. وبالصورة خاصية تثير شعورا بجنون العظمة، التى كان يتسم بها الرسامون ذوو الرؤى فى ذلك العصور. ولقد لاقت استقبالا بلغ حدا من الحماس مكن روبيرتس من التخلى عن رسم المشاهد المسرحية للتمثيل الصامت، فى كوفينت جاردين فى عيد الميلاد فى السنة الأولى من عرضها، وأخذ يكرس نفسه للأشياء الأكثر سموا.

وفى عام ١٨٣٨، حج روبيرتس إلى منبع إلهامه. وبعد أن قدم نفسه للكولونيل كامبيل، انطلق فى رحلة فى أعالى النيل فى صحبة كابتن نيلى، من الكتيبة التاسعة والتسعين، ومزارع متقاعد لقصب السكر فى جزر الهند الغربية البريطانية ومستر فاندرهوست المصاب بالنقرس وقصر النظر، وكذلك رجل غامض يدعى مستر أ. كانوا قد التقطوه فى القاهرة. واستأجروا مركبا ليأخذهم إلى الشلال الثانى بخمسة عشر من الجنيهات فى الشهر، بطاقم يتكون من ثمانية أفراد، لمدة ثلاثة أشهر. وقاموا بالترتيبات اللازمة لإغطاس المركب من أجل إغراق الفئران، واشتروا علما بريطانيا كى يرفعوه على الصارى. لم تكن هذه الرحلة رحلة استكشافية. لذا كانت هناك القليل من المخاطر. كما أن العديد من السائحين الأجانب قد مروا بهذا الطريق. لذا فإن هذه الرحلة كانت مدخلا لهذا الرسام لحقيقة مصر، وهو الرسام الذى كان خياله يتغذى بالرؤى "بالنسبة لعين الفنان، ليس ثمة ما يفوق فى جماله

هذه السفن التى تتصفح النهر بأشرعتها البيضاء، وهى تنتشر وترفرف فى الريح، تذكرنى قمرتها الصغيرة على ظهر المركب بمؤخرات السفن المرتفعة والكنائل فى الشحن الهولندى، الذى كان موضع إعجابى منذ كنت صبيا حتى الآن فى الأعمال الفنية، التى عبرت عن البحر فيما أبدعه فانديرفيلد باكهانسين. من المؤكد أن ما رأيته يعد على نطاق صغير، غير أنهم بما لهم من سلال فاتنة تثير الذهن... والأكثر من ذلك، أزياؤهم الرائعة التى يرتديها الرجال، فهم أسمى وأرقى حتى من الرسم الهولندى".

لم ينس روبيرتس أبدا بداياته المتواضعة فوق حانوت الإسكافى، لذا كان يستمد بعض الفخر والسرور من لعب دور السيد الإنجليزى الذى يقوم بزيارة فى الخارج "... شعرت بالرضى والسرور إذ كنت، لأول مرة، قائد سفينة بها طاقم يتكون من ثمانية أو تسعة رجال، يأتمرون بأمرى. وانظر الآن، من حين لآخر إلى الراية البريطانية بقدر غير قليل من الزهو حين تمر سفينة ما من السفن رافعة علما باليا وما عليه من كتابة عربية، أو سفينة الباشا وعليها الهلال والنجمة. أمر يستحق النظر إذا ما عرفنا أنه كما أن الهلال رمز إسلامى فإن النجمة رمز يهودى، فأين الصليب؟".

ذات يوم، عند إدفو، بدا أن الاحساس بالزهو الوطنى يتبخر، إذ ظهرت راية الباشا على سفينته، فقرر روبيرتس ورفاقه أن تكون سفينة الباشا هى التى تصعد النهر أولا، فهتفوا لها ثلاثة هتافات قوية"، هيا، بالطريقة الإنجليزية حتى الصخور القديمة.." وكانت لديهم خطابات توصية كى تعرفهم للباشا، فانطلقوا فى نشاط محموم توقعا منهم لإمكان تقديمهم لأنفسهم للباشا. وتوقفت سفينة الباشا فى منتصف مجرى النهر قبالة المكان الذى كانت ترسو عنده مركب روبيرتس. فانطلقوا آملين فى المثول أمام الباشا، إذ فسروا ما حدث على أنه إيماءة ودية. فقابلهم مهندس اسكتلندى وأخبرهم بأنهم أمروا بالتوقف كى يعرف السبب من وراء صياحهم، ولما سمع المهندس الشرح الذى قدمه روبيرتس، هبط كى يبتعد عن البخار، وبقى محمد على باشا أسفل ظهر السفينة، وأجبر روبيرتس وجماعته على الخروج سريعا فى مهانة، فى حين تابعت السفينة البخارية طريقها.

لقد كتب روبيرتس فى يومياته أن الباشا رفض الظهور؛ لأنه ظن أنهم "مجموعة من الإنجليز المتعجرفين". على ما يبدو، فإن الشباب المصريين الذى بعثوا بهم إلى إنجلترا للدراسة عادوا ومعهم ما أسماه الباشا "تعجرف الاستقلال swagger of indepence" وهو ما لم يكن يوافق ذوقه.

واصل روبيرتس والطاقم الإبحار إلى الكرنك، حيث شعر روبيرتس أن الحماس التلقائى الذى كان يحس به الجيش الفرنسى الذى سجله دينون لا بد أنه كان متكلفا، إذ لم يكن هناك ما يثير من هذه المسافة التى كان ينظر منها "ولا يغمرك الإحساس بالرهبة والإعجاب إلا حين تكون أكثر قربا؛ إذ يلزمك أن تكون تحت هذه الآثار وتجول حولها". لقد أعد دراسة عن البهو الكبير، وهو منظور طويل من الأعمدة، حيث يقف الإله مين ثلاثى الجوانب بفخر ناحية اليد اليسرى بالقرب من أحد الأعمدة، لكنه محروم من عضوه المنتصب احتراما لحساسيات السن. وحزن روبيرتس على غياب المسلة، التى نقلت من مكانها الصحيح فى الشمس بعد ما يقرب من ثلاثة وثلاثين قرنا، كى تزين "بقعة فى باريس لطختها ألف جريمة".

واستمرت المجموعة فى رحلتها إلى جزيرة فيلة، التى وجد روبيرتس، شأنه فى ذلك شأن من سبقه من الرحالة، أنها تأخذ بالألباب: "فردوس فى خراب قاحل". فقام بدراسة مثيرة للجزيرة عند الغروب، حيث ينساب الضوء وسط الدمار، وكتب أنها جعلته يشعر بالحنين للوطن:" إن ما بها من دمار، حتى عن بعد، لهو أشد إثارة للخيال من أى شىء رأيته فى حياتى؛ ربما يكون سبب هذا تلك الصخور العالية المجدبة التى تحيط بها. لقد أعادت إلىّ ذكريات "أرض آبائى"، إذ ذكرتنى بأول من هبط على "قلعة روزلين".

وكانت أبعد نقطة بلغها روبيرتس نحو الجنوب هى أبو سمبل، حيث مكث ثلاثة أيام رسم فيها المعبد الكبير. ووجد التماثيل الأربعة، وإن كانت محطمة حتى إنها لا تثير أى شعور بالإلهام، وخشى أنها: "قد لا تكون قد حطمتها أيادى صائدى الآثار، وإنما غطتها أسماء مثل تومكينز، وسميث، وهوبكينز" وأناس لهم من القحة ما يجعلهم "يلطخون بأسمائهم جبهة الإله ذاتها".

وما إن عاد روبيرتس إلى القاهرة، حتى استطاع، بتدخل من الكولونيل كامبيل، الحصول على فرمان من الوالى أعطاه فيه تصريحا برسم مساجد المدينة من الداخل، وكان الشرط الوحيد لذلك أن يكون مرتديا للملابس المناسبة. فحلق لحيته التى كان لها شكل معين وربى شاربا كثا، وارتدى عمامة طويلة، وسروالا تركيا، وعباءة عبارة عن رداء دون أكمام، ونطاقا أو وشاحا غطى النصف السفلى من صدره. وقرر أن يبدو "تركيا حقيقيا". بالطبع، كان أهم شيء جعل روبيرتس يشعر بالإثارة أنه الفنان الأوربى الأول الذى يفوز بامتياز الرسم داخل المساجد. ولم يكن ذلك صحيحا بالمعنى الدقيق، لأن المساجد الكبرى كانت قد فتحت أمام الزائرين منذ بداية ذلك القرن، لكن روبيرتس أمكنه أن يقول إنه أول فنان محترف يمنح تصريحا رسميا كى يلتقط ما شاء من مناظر فى مساجد القاهرة، وكان دائما على وعى بأنه يتمتع بوضع خاص، فعمل بكل جد كى يبرر ذلك الوضع، فكتب يقول: "إننى الفنان الوحيد، على الأقل من إنجلترا، الذى كان هنا... وإنى أرى الآن أن أعمال الفرنسيين لا تنقل أية أفكار عن هذه الآثار الرائعة ".

ولقد عبر عن البهجة التى نعم بها فى مصر فى مجموعة الرسوم الضخمة التى جمعها فى القاهرة. وكتب عنها، بكل حماس لأحد أصدقائه قائلا: "لا أجد ما يمنعنى من أن أقول لك إنى أعتقد أنها (يقصد الرسوم) أهم ما خرج من هذه البلاد، أعنى من حيث الرسوم الفنية، وسوف تقول إن هذا القول أمر طبيعى وبما أننى أعرف كل عمل عن مصر القديمة قبل قدومى، معرفة وثيقة، فيجب أن أقول إن هذه مازالت باقية كى تُرسم؛ حتى يبدو ما بها من تشكيل جليل وجميل... ولدى ما يكفى من العجب مما يجعلنى أفترض أنها لم تلق ما تستحق، إذ لا توجد أى لوحة يمكنها أن توفيها حقها، غير أنى اقتربت من ذلك أكثر من أى شيء تم فعله حتى الآن، ذلك أن أى شيء يقارب الحقيقة سوف يستغرق سنوات وسنوات...".

إن ديفد روبيرتس يشمخ فوق جميع الفنانين الذين عملوا فى مصر أو عن مصر كموضوع للفن، فى ذلك الوقت، سواء كان ذلك من حيث جودة فنه بشكل بحت، أو ما به من براعة وقدرة على تقديم الموضوعات. وكان كتابه، مصر والنوبة، الذى يشتمل على مجموعة من أعمال الطباعة الحجرية الجميلة مستمدا من أعماله فى الرسم فى عام ١٨٤٦ـ ١٨٤٩، وحقق هذا الكتاب نجاحا كبيرا، وأحرز

قدرا من التميز لأن الملكة فيكتوريا وأسقفىْ كانتربرى ويورك كانوا من بين المساهمين فيه، وكانت تلك الرسوم التى اشتمل عليها هذا الكتاب تتسم بالجمال والدقة. غير أن مبعث الخيبة فى تلك الرسوم جاء من أن تذوق روبيرتس لرسم المشاهد المسرحية كانت له الغلبة . وكان الرسم الأصلى لهذه الطباعات الحجرية (المقصود الأعمال المطبوعة على الحجر) عملا أسماه ذكرى الصحراء عند اقتراب ريح السموم، وهو تأليف درامى يبين أبا الهول ومن ورائه هرم يستحم فى تلألؤ لامع من اللون القرمزى عند الغروب. فيبدى أبو الهول الجانب الأيسر من وجهه، والشمس تغرب فى وسط المسرح. وتعد هذه زاوية مستحيلة بما أن أبا الهول ـ تجسيد رع هيراختى، أى الشمس المشرقة ـ يواجه الشرق أو يشخص نحو الشرق، كما أن المجاورة مع الهرم أيضا ليست دقيقة.

لقد راع هولمان هانت ما منحه روبيرتس لنفسه من رخصة فنية، غير أن تشارلز ديكينز الذى أهداه روبيرتس اللوحة الأصلية سُرّ بها وقال عنها إنها "إدراك شاعرى". لقد كان روبيرتس، شأنه شأن لين وويلكينسون، شخصية شديدة الفردية، بحيث إنه كان يعمل بمفرده، وكان هذا هو السبب فى أن فهم هؤلاء الرجال كان فهما محدودا. لقد كان مدى فهم أولئك الرجال لمصر تحدّه الأفكار المسبقة، والقيود التى فرضها عليهم عامل الوقت والمال، ومع ذلك، فإن كلا منهم قد أنجز كما هائلا من العمل على الرغم من هذه القيود والحدود.

وفى مطلع الأربعينيات من القرن التاسع عشر، كانت هناك خطط لإعداد بعثة أو حملة لا تواجهها العقبات، لأنها جاءت كى تدعم سمعة قوة أوربية طموح. اعتلى فريدريك فيلهيلم الرابع عشر بروسيا، وكانت جزءا من ألمانيا قبل التوحيد عام ١٨٤٠. وكان من المعروف عنه تمتعه بميول ليبرالية(*) وبأنه يملك تذوقا لكل ما هو عريق مثير للخيال. وكان صديقا للبارون كريستيان فون هانسين مدى حياته. وهذا البارون كان عالما ودبلوماسيا، قضى سنوات الأربعينيات من القرن التاسع عشر فى بلاط سينت جيمز، فى لندن، وكتب كتابه المؤلف من خمسة مجلدات تحت عنوان:" مكان مصر فى التاريخ العالمى".

(*) تحررية بالمعنى الفكرى. (المترجم).

وكان الملك فريدريك يقيم مراسلات منتظمة مع برانسين، لذا فقد كان علـى وعى بالسمعة التى كانت إنجلترا وفرنسا تكتسبانها فى ميدان الاكتشافات المصرية التى كانت شائعة فى ذلك الوقت، وكذلك كان يعلم بالمجموعات التى كانت تلقـى إعجابا دوليا والتى كانت موجودة فى اللوفر والمتحف البريطانى. فقـرر الملـك فريدريك أنه قد آن الأوان لبروسيا بأن تقوم بدورها فى تقدم المعرفـة الإنـسانية، وكذلك إعلاء مكانتها بين الأمم الأوربية. وعلى ذلك أمر بتجهيز حملة علمية إلـى مصر. وكان المقرر أن تكون أكبر البعثات وأفضلها تنظيما فى تاريخ استكـشاف هذه البلاد.

وبناء على نصيحة برانسين وكذلك العالم الأكبر سنا، هامبولت، عين الملـك فريدريك، كارل تشارل ليبسيوس، وهو محاضر فى فقه اللغة وعلم اللغات المقارنة فى جامعة برلين، قائدا لهذه البعثة العلمية. وكان ليبسيوس قد قضى أربع سـنوات تجول أثناءها بين المجموعات الأثرية الموجودة فى إنجلتـرا وفرنـسا وهولنـدا وإيطاليا، وأخذ يتعلم كيفية عمل مستخلصات عن آثار أى علامات دالة للنقـوش، كما تعلم الحفر على النحاس والرسم من الحجر ـ وهى كلها فنـون تعينـه تمـام العون فى رحلته إلى مصر.

انطلقت الحملة من إنجلترا، حيث ضم ليبسيوس إليه جوزيف بونومى، وكذلك المعمارى الإنجليزى جيمز ويلد. ووصلوا إلى الإسكندرية فى سبتمبر عام ١٨٤٢، وكان القنصل العام السويدى فى مصر يقوم برعاية مصالح بروسيا، فتمكنوا بفضل مساعى القنصل الحميدة من أن يمنحوا إذنا بالمثول أمام محمد على. وأعلن الباشا عن سروره بالزهريات التى أحضرها ليبسيوس كهدايا من الملك فريـدريك، بـل وعبر عن أنه معتز بتسلم خطاب شخصى منه. وبدا أن الباشـا يتـدفق بالـشباب والنشاط فى حديثه، إذ لم تبد على محياه أية علامات على الوهن، بل إن ومـيض العينين كان مازال يشع من الرجل الذى كان فى الثالثة والسبعين من عمره. وسأل ليبسيوس عن حال متحف القاهرة، الذى نشأ بناء على القانون الذى صـدر عـام ١٨٣٥، فأجاب الباشا بأنه ليس مزدهرا بسبب كثرة الطلبات المجحفة التى تُطلـب منه فى أوربا؛ ثم وافق على فرمان يعطى ليبسيوس حقا غير محدود فـى القيـام بأعمال التنقيب وتكوين أية مجموعات يريدها.

وفى ١٥ أكتوبر، احتفلت الحملة بكاملها (المقصود البعثة الأثرية) بعيد ميلاد الملك فريدريك، وذلك بالقيام بأول زيارة لها إلى الهرم. فركبوا فى موكب طويل، وتناولوا إفطارا بسيطا فى إحدى المقابر المجاورة، فى حين أقام العمال خيمة كبيرة تم إحضارها من القاهرة، أقاموها على الجانب الأيسر من الهرم. وكان فنانو الحملة قد أعدوا فى الأيام القليلة الماضية العلم والشعار البروسى العظيم، وهو عبارة عن النسر الأسود بالصولجان الذهبى والتاج وسيف أزرق على أرضية بيضاء: "ورفعناه أمام باب الخيمة، تجمع نحو من ثلاثين من البدو عند سفح الهرم، وعند إطلاق إشارة البدء فى التسلق، أمسك البدو بكل عضو من أعضاء الحملة، ورفعوه إلى الدرجات المؤدية إلى القمة، وبعد ذلك ببضع دقائق رفرف نسرنا من قمة أعرق وأعلى ما شيده الإنسان فى كل ما عرفناه، فحيينا النسر البروسى بثلاثة هتافات لمليكنا. وبعد أن حلق النسر نحو الجنوب، أدار رأسه المتوجة تجاه الشمال إلى الوطن..".

بقيت الحملة ثلاث سنوات فى مصر، وهى تسجل ما وجدته بعناية ونظام منهجى. إذ قضوا ثلاثة أشهر فى منفيس، وسبعة أشهر فى طيبة، حيث عبر ليبسيوس عن عرفانه لويلكينسون و"هى" Hay لأنهما قاما بترميم بعض البيوت القديمة التى اتخذتها الحملة مقرا سكنيا لها "عند طرفى الفناء، لا يزال هناك برج للمراقبة، حيث يرفرف العلم البروسى، وبالقرب منه، هناك بيت صغير يتألف من طابقين، سكنت أنا فى الطابق السفلى، وهناك أيضا مساحة من أجل المطبخ والخدم والحمير".

أثناء فصل الشتاء الذى سماه ليبسيوس موسم الحياة الاجتماعية، كانوا يستقبلون زوارا من أوربا كل أسبوع. وكانت إنجلترا كما كتب هى الأكثر تمثيلا، أما الفرنسيون فكانوا أقل ترددا عليهم. ومع مقدم أوائل الأربعينيات، من القرن التاسع عشر، لم يعد وادى النيل هو ذلك الإقليم البعيد الخطر كما كان قبل ذلك بنصف قرن، بل أصبح الطريق الذى يكثر قدوم السائحين إليه كما نعرفه اليوم. وكانت الحملة (البعثة العلمية) فى موقع جيد يصلح لثانى احتفالاتهم السنوية: "أحيينا عيد ميلاد مليكنا المحبوب بالتحيات والأعلام وبالغناء الكورالى، وأنخاب قوية من نبيذ الراين الألمانى النقى، وتم ذلك فى جوهرة المبانى المصرية فى مصر:

رمسيس سيزوستريس، الذى بناه هؤلاء الفراعين العظام بأسلوب يلائمه ويليق بالإله... على تراس صمم بحيث يطل على السهل الواسع على هذا الجانب، وعلى الجانب الآخر من النهر الجليل".

ولا يوجد أى سجل لرأى العمال المصريين فى كل هذا الانتشاء حول المعابد القديمة؛ ولا شك فى أنهم كانوا قد اعتادوا على الطرق الغريبة التى يتبعها الزائرون الأوربيون. ولا يبدو أن ليبسيوس واجه مع مستخدميه تلك الصعوبات؛ التى كان يواجهها الآخرون. وربما أنه لم يهتم بتسجيلها، أو ربما كانت لمكانته الرمزية الأثر الذى عزاه إليها: "كنت أرتدى أيضا القبعة الرمادية ذات الحافة العريضة كرمز أوربى، الذى يوليه العرب الاحترام المناسب". وكانت الأبحاث مدققة والسجلات شاملة، فأدخلت ليبسيوس التاريخ باعتبارها غيرت طابع الاستكشاف فى مصر، وذلك عن طريق إحلال النظام محل الفوضى. غير أن هذا لم يكن هو هدفها الوحيد. ويسجل ليبسيوس أن هدفها الذى وضعه الملك "البحث التاريخى والأثرى للآثار المصرية القديمة، وجمعها فى وادى النيل وشبه جزيرة سيناء".

لم تهمل الحملة واجبها فى التملك، فأرسلت إلى الوطن ما يصل إلى ١٥٠٠٠ أثر هى التى شكلت مجموعة برلين، بما فى ذلك ثلاثة قبور كاملة من إقليم الهرم الأكبر، أخذت على هيئة قطع حملت مع خمسة عمال تم إرسالهم خصّيصا من برلين لهذا الغرض، مثلما حدث بالنسبة لشحن الآثار التى جمعها ليبسيوس من مديريات الجنوب، كذلك تم تزويده بقوارب حكومية من جبل برقال إلى الإسكندرية. وتسبب هذا عن حدوث احتكاك مع المنقبين من البلاد الأخرى، الذين مُنعوا بموجب القانون من تصدير ما وجدوه، أو حتى ادعاء ملكيتهم لهذه الأشياء. وكان التبرير الذى قدمه ليبسيوس لهذا النهب الواسع غير العادى للآثار القديمة، هو الخط الذى يتمشى مع الأخلاق الجديدة الذى يدعى الإسهام غير الأنانى النزيه من أجل تحقيق صالح أعم: "لأننا لسنا كغيرنا من المنافسين، لم نقم بالحفر ونقل الآثار التى كانت تقريبا مدفونة تحت السطح، فى سرعة وتحت جنح الظلام عن طريق رشوة من ساعدونا، وإنما فعلناه ما فعلناه بكل يسر وسماحة، وبتعاون صريح

مفتوح من السلطات... ولم نكن معرضين لخطر يتمثل فى أن تتبلد عقولنا بسبب المصلحة الذاتية، إذ إننا لم نختر الآثار لأنفسنا، وإنما كوكلاء لحكومتنا، ومن أجل المتحف الملكى، فى برلين. لذا كان ذلك لفائدة العلم والجمهور المحب للاستطلاع".

وعين ليبسيوس أستاذا فى جامعة برلين عام ١٨٤٦ ، حال عودته، ثم أمينا على المجموعة المصرية ونشر المقتبسات وغير ذلك من المواد المصورة عن الحملة عام ١٨٥٩، فى المجلدات الاثنى عشر الضخمة: "آثار من مصر وإثيوبيا"، وربما كان هذا العمل هو أضخم ما كتب عن مصر. فأصبحت السمعة أو الشهرة الدولية لبروسيا وإنجلترا فى مجال المصريات فى تصاعد مستمر، بفضل العمل الضخم الذى نشره ليبسيوس، وكذلك أعمال لين ويلكينسون.

وعلى أى حال، ففى الوقت الذى ظهر فيه كتاب الآثار لليبسيوس، كانت السيطرة فى علم الآثار المصرية قد انتقلت بشكل حاسم إلى أيدى الفرنسيين. وأخيرا، استيقظ ضمير قومى ما لبث أن صار عالمى النطاق، يهتم بموضوع تحطيم الآثار، وأخيرا أوجدت منظمة لحماية الآثار والحفاظ عليها؛ وُصف مؤسسها ومديرها بأنه الشخصية العملاقة فى تاريخ المصريات بأسره .

الفصل السادس

عين الغيور

كانت مصر حتى منتصف القرن التاسع عشر أرضا مباحة لجامعى الآثار والمتاحف المتنافسة، فكان الأفراد من رواد التنقيب عن الآثار يساومون الفلاحين والتجار فى تنافس مفتوح بينهم. لقد كتب هوارد كارتر، مكتشف مقبرة توت عنخ آمون، عن ذلك الوقت: كانت تلك الأيام هى أيام التنقيب العظيمة، إذ كان فى وسع الشخص أن يمتلك أى شىء يشعر برغبة فى امتلاكه، من الجعران إلى المسلة، وإذا وقع خلاف فى الرأى مع أخ من المنقبين، كان المرء يترصد له ومعه بندقية. ثم وقع التغيير بفضل جهود رجل واحد، ذلك أن القانون الذى يحظر تصدير الآثار، والذى بقى مدة عشرين سنة حبرا على ورق، قد وضع موضع التنفيذ، فتم التفتيش على المواقع، وحظر التنقيب بدون ترخيص، وقام هذا الرجل بمفرده بالإشراف على وادى النيل بأكمله، من الدلتا حتى الشلال الثانى، وصار علم المصريات همه الشخصى، الذى لم يكن للباشا ذاته، أن يزعم لنفسه فيه سوى المكان الثانى. إنه أوجست ماريت.

يبدو أن طفولة أوجست مارييت كانت تخلو من النذر والإشارات التنبئية. على العكس من طفولة مواطنه العظيم شامبليون. لقد كان ابنا لمحام بحرى فى بولونى ـ سير مير. وأظهر موهبة مبكرة فى الرسم ومقدرة على التحصيل الدراسى بشكل عام، غير أنه لم يكن يركز طموحه فى ميدان بعينه، وحين كان يحاول أن يقرر ماذا يريد أن يفعل بحياته، ذهب إلى إنجلترا وقام بتدريس اللغة الفرنسية فى إحدى

المدارس الخاصة، فى ستراتفورد أن إيفون، وبعد ذلك، وجه مارييت مواهبه الفنية نحو الاستفادة التجارية، عن طريق تصميم الأشرطة فى زهريات كوفينترى، لكنه سرعان ما عاد إلى فرنسا فى نهاية عام ١٨٤٠ ليقوم بالتدريس فى كليه بولونى التى كان قد تلقى فيها تعليمه.

تنقل مارييت بين أعمال مختلفة، فصمم ورسم المشاهد للمسرحيات التى كانت تقدم فى الكلية، وكتبت عنه الصحف المحلية بحماس، ثم بدأ فى كتابة المقالات عن التاريخ المحلى، وتشعّب اهتمامه إلى الفنون بكتابة المقالات عن موت جيوتو، وتاريخ الأغنية الفرنسية، ومرثية نثرية عن وفاة دوق أورليان، بل كتب قصيدة احتفالا بإقامة تمثال لنابليون، أسماها: "فى تأليه نابليون". وفى عام ١٨٤٢، نشر مارييت رواية رومانسية عنوانها: "حسن الأسود"، لم تش بما يدل على وجود أية موهبة أدبية، وفى نفس العام، عضته البطة المصرية، وهى العبارة التى استخدمها لتقديم قصة اتصاله الأول بمصر: "البطة المصرية حيوان خطر، فهى تحييك برقة، ولكن إذا ما انسقت وراء ما تبديه من براءة، وارتبطت بها شكل ودود، فأنت ضائع، ذلك أن ضربة واحدة بمنقارها، سوف تبث سمها بداخلك، فإذا بك عاشق لعلم المصريات بقية حياتك".

تصادف أن الرسام نيستور لامينت، الذى صحب شامبليون فى الحملة الفرنسية على مصر، كان ابن عم مارييت، ومات ذلك الرجل بعد أن أصيب بالدوسنتاريا هناك، فأعيدت أوراقه إلى العائلة. وكان الكثير من هذه الأوراق عبارة عن رسوم للآثار تحتوى على كتابات بالهيروغليفية. ولم يكن مارييت يعرف أى شىء عن هذا الموضوع، ولكن كان يعرف عنه أنه مفكر ناشئ، فطلب منه تصنيف هذه الأوراق، وسرعان ما افتتن بما رأى، فأخذ يعلم نفسه أوليات علم المصريات، وظل مارييت يعمل وحده لسبع سنوات فى أوقات فراغه، مستخدما الكتب القليلة المنشورة المتاحة، باذلا جهده كى يفهمْ ما بها من كتابات، فواجه عراقيل خطيرة بسبب الكتاب الكبير "وصف مصر" الذى اشتراه متحف بولونى، لأنه كان يفترض أن اللوحات الرائعة التى يحتوى عليها تعد نقلا دقيقا للهيروغليفية، ومن الطبيعى أنه وجد بها تناقضات واختلالات، فكاد أن يتخلّى عن محاولة التعلم. وبعد مرور

العديد من السنوات، أدرك مارييت أن فنانى حملة نابليون ثقة منهم أن أحدا لن يستطيع ترجمة هذه اللغة، كانوا يرتجلون، من آن لآخر، وألفوا أقساما من الكتابات الهيروغليفية بحيث تلائم تصميماتهم.

وفى عام ١٨٤٧، وصف مارييت ما يمتلكه المتحف فى بولونى من الآثار المصرية فى "الكتالوج التحليلى للآثار التى تكوّن القاعة المصرية فى المتحف فى بولونى"، فلفت هذا الانتباه إليه بحيث اتسعت دائرة قرائه فصارت أكبر ممن يقرءون الصحيفة المحلية، وكان أكثر هؤلاء القراء نفوذا شارل لينورمان، الذى كان قد زار مصر مع شامبليون، وكان أستاذا للآثار المصرية فى الكوليج دى فرانس، وبلغ من إعجاب لينورمان بمارييت حدا جعله يحصل له على عمل أدنى أهمية فى اللوفر، فانتقل مارييت إلى باريس عام ١٨٤٩.

كان فى ذلك الوقت، قد بلغ الثامنة والعشرين من عمره، وعلى الرغم من أن المنصب الذى أسند إليه كان خطوة إلى أسفل، إذ كان أدنى من عمله كمدرس بالكلية وأقل من الشهرة المحدودة فى بلده، إلا أنه كان يشعر بالسرور لأنه قد خرج من الأقاليم أخيرا، وأصبح فى خضم الدراسات المصرية. فأسندت إليه وظيفة تسجيل؛ أى عمل كتالوج المقتنيات المصرية الجديدة، وإلصاق أوراق البردى على اللوحة بحيث يمكن التعامل معها دون إتلافها، وتم تحذيره بأن عمله هذا عمل مؤقت، كما كان يتلقى راتبا ضئيلا. على أى حال، فإن خطاب تعيينه، مع التعبير عن الأسف لهذه المنغصات، ذكره بأنه سوف ينال بهجة فى حضرة الآثار المصرية، كما أنه سوف ينال الرضا من كونه فى خدمة مؤسسة عظيمة (يقصدون اللوفر)، وحاول زيادة راتبه ــ فى ذلك الوقت كان قد تزوج وصار لديه ثلاث بنات ــ وذلك بأن عرض وضع كتالوج مجموعة أوراق البردى والقيام بتنظيمها فى وقت فراغه، فرُفض هذا العرض، على أساس أنه لن يكون من الملائم للمتحف أن يدفع له المزيد من النقود بما أنه بالفعل يتلقى راتبا شهريا، كما أن الموظفين المدنيين ليس لديهم وقت فراغ.

كان مارييت قد أحضر أسرته كى تعيش معه فى باريس، وزاره أحد أصدقائه فوجده يقيم فى شقة غير كاملة التأثيث، أمام منضدة كبيرة تغطيها الكتب، وإحدى بناته تجلس على ركبته، وهناك ابنتان أخريان تلعبان حول قدميه، وأعلن مارييت

"هذا أفضل وضع أعمل فيه، ذلك أنى أحب أن أحس بأن عالمى الصغير لصيق بى". وكان، بقية حياته يحيط نفسه، فى خضم الأخطار، والمتاعب بـ "عالمه"، وأثناء عمل مارييت الشاق من أجل فهم أوراق البردى التى طلب منه وضع كتالوج لها، اكتسب الخبرة التى مكنته من الحصول على أول مهمة كلف بها فى مصر، وكان الدافع من وراء هذه المهمة ما قام به اثنان من جامعى الآثار الإنجليز من أعمال نهب بشعة.

كان روبيرت كيرزون بارون زوتش الرابع عشر، عالما رحالة. وقد قام بجولة فى مصر وسوريا وفلسطين عام ١٨٣٣ ـ ١٨٣٤ بحثا عن المخطوطات فى مكتبات الأديرة. وفى الإسكندرية، استضيف فى أحد الأديرة القبطية، فرد على كرم الضيافة بأن أمد الرهبان بكميات كبيرة من خمر الراكى، وبعد أن غيبت الخمر عقول مضيفيه، ترك المكان آخذا معه مجموعة طيبة من المخطوطات، وبعد ذلك بخمس سنوات، وجد صاحب النيافة هنرى باتام ما يكفى من الوقت بحيث يترك واجباته الرعوية كى يزور نفس الدير، وكان هذا الرجل من كبار المختصين فى الدراسات القبطية، كما أنه كان عميدا لسينت كثبرت Cuthbert وبيدفور، وولستون. وبعد أن استخدم نفس الوسيلة، وهى تخدير الرهبان بحيث يغفلون عن واجبهم فى حراسة ما لديهم، غادر المكان ومعه بقية المكتبة. وبالرغم من أن هذا تسبب فى نوع من الفضيحة فى الدوائر الأكاديمية، إلا أن سمعة صاحب النيافة باتام ظلت طيبة كما كانت حتى إنه عين قسا خاصا بالملكة فيكتوريا، كما أنه تلقى درجات دكتوراه فخرية من جامعات دبلن وجوتينجين وليدين.

كانت لدى مارييت تعليمات بالبحث عن المخطوطات فى نفس الأماكن، وإن لم يكن عليه بالضرورة استخدام نفس الطرق الفنية فى الاستحواذ على تلك المخطوطات. ولما كان صوت المال عاليا تماما كخمر الراكى، فقد تم التصويت على تخصيص مبلغ ٦٠٠٠ فرنك من أجل تمويل حملة لجمع المخطوطات. واقترح مارييت هدفا فرعيا، وهو أن يقوم بالقليل من التنقيب فى الموقع "من أجل إثراء متاحفنا". وتمت الموافقة على ذلك، لكن ما حدث هو أن الهدف الفرعى من الحملة أصبح هدفها الرئيسى، إذ سرعان مانزل مارييت إلى مصر فى سبتمبر من

عام ١٨٥٠، واكتشف أن جميع المخطوطات قد أرسلت من الأديرة القبطية إلى القاهرة بناء على أوامر من البطريرك (البابا)، وتم وضعها فى حجرة واحدة كبيرة بعيدا عن أيدى المغامرين الأجانب. وكإجراء احتياطى أشد، قيل إن الأبواب المؤدية إلى تلك الحجرة قد سورت.

استقبل البطريرك ماربيت استقبالا ساحرا، فهو فى نهاية الأمر ممثل رسمى لحكومة فرنسا، وقدم له وعودا غامضة بالمساعدة فى المستقبل، فأدرك ماربيت على الفور بأنه يبعد عن الحقيقة، فتخلّى عن أى أمل فى الحصول على المخطوطات القبطية. استضافته الجالية أو المستعمرة الفرنسية فى القاهرة، وكان من بين أفرادها أرنو ليموان، والقنصل العام لينان دى بيلفون، وهو مستكشف وفنان كان يبحث عن الذهب فى خدمة محمد على فأنعم عليه بلقب بيه (بيك)، وستيك أنطوان، وهو أيضا بيه (بيك)، كان محمد على قد عينه كبير جراحيه فى مصر. ولاحظ ماربيت أن فى حديقتهم تعرض مجموعة من تماثيل أبى الهول من نوع كان قد رآه فى الإسكندرية، وحين وجد تمثالا لأبى الهول مشابها فى منزل تاجر الآثار سولومون فيرنانديز وأدلى بملاحظة عنه، قيل له إن جميع تماثيل أبى الهول جاءت من نفس المكان: سقارة، فقرر ماربيت أن يبدأ أعمال التنقيب هناك، وسجل كيف أنه ذات يوم عثر على الرأس نصف المدفون لتمثال لأبى الهول يشبه تماما ذلك الذى رآه فى القاهرة والإسكندرية: "فى تلك اللحظة مرت بخاطرى فقرة من سترابو"(*): يجد المرء فى ممفيس أيضا معبدا لسيرابيس(**) فى بقعة مليئة بالرمال، حتى إن الرياح تكدس الرمال فى أكداس، رأينا تحتها تماثيل لأبى الهول مدفونة جزئيا، بعضها مدفونة حتى الرأس، أمكننا أن نخمن منها أن الطريق المؤدى إلى المعبد لا يمكن أن يخلو من خطر إذا ما فاجأتنا هبة شديدة من الرياح، ألا يبدو أن سترابو كتب هذه الفقرة كى يساعدنا على أن نجد مرة أخرى، بعد مرور ثمانية عشر قرنا، المعبد الشهير الذى شيد لتقدي س سيرابيس؟". لذا اعتقد

(*) سترابو (٦٤ق.م ــ ٢٣م؟) مؤرخ وجغرافى يونانى، يعتمد الباحثون فى التاريخ القديم على كتاباته. (المراجع).

(**) إله استعار له البطالسة بعض خصائص أوزوريس ليشترك المصريون والإغريق فى عبادته. (المراجع).

أن التماثيل التى كان قد رآها فى حدائق أصدقائه وتلك التى وجدها مدفونـــة فـــى سقارة، يمكن أن تكون جزءًا من طريق تماثيل أبى الهول المؤدية إلى الـــسيرابيوم فى ممفيس.

إذن كل ما كان عليه فعله هو تتبع صف التماثيل كى يكشف المعبد: "تـــسيت، فى هذه اللحظة، مهمتى. نسيت البطريرك، والأديـــرة، والمخطوطـــات القبطيـــة والسورية، بل ولبنان نفسه". وهكذا كان، فى الأول من نوفمبر، ١٨٥٠ "فى واحـــد من أجمل أوقات الشرق التى رأيتها فى مصر، وجد ثلاثون عاملا أنفسهم موحدين تحت قيادتى، بالقرب من أبى الهول الذى كان مقدرًا له أن يحـــدث تحـــولا تامـــا لإقامتى فى مصر".

لقد كان ماربيت يجازف بالكثير من أجل شعور حدسى بحت، إذ كان المـــال الذى أعطى له هو بالتحديد من أجل شراء أوراق البردى؛ ولم تكن أعمال التنقيب التى خطط لإنفاق ذلك المال عليها شيئا عارضا فحسب ــ وإنما كانت مكلفة وغير مشروعة. وكان الأمر الصادر عام ١٨٣٥ ما زال سارى المفعول فـــى مـــصر، وبموجبه تحظر جميع أعمال التنقيب بدون فرمان، وأن جميع الآثار التى تكتـــشف على تراب مصر هى ملك للحكومة. على أى حال، فقد كان هذا القـــانون يعامـــل باعتباره مجرد تزويق عديم الفاعلية. ففى سقارة وحدها كان هناك فى ذلك الوقـــت أعمال تنقيب متناثرة فى ذلك السهل يقوم بتمويلها قنصل النمسا العام، وتاجر الآثار فيرنانديز، والمبشر الألمانى صاحب النيافة رودولف ليدر، ونصف دستة ممن هم أقل شأنا. ولم يكن أى منهم لديه إذن رسمى. ولم يكن من المعقـــول أن يرحبـــوا بمنافس فى الموقع، ولم يكن هناك ما يجعلهم يتحملون ماربيت إلا إذا ظل يواجـــه الفشل.

وكان ماربيت، من ناحية أخرى فى حاجة إلى نجاح سريع يخطف الأنظـــار كى يقنع المسئولين فى فرنسا بأن أموالهم لم تتبدد وإن تغيرت وجهتها. وكـــشفت أعمال التنقيب، كما كان يأمل، صفا من التماثيل المدفونة يبعد كل منها عن الآخر بعشرين قدما. وظل العمال يكافحون الرمال المتحركة لمدة شهرين للكشف عن هذه التماثيل، ومع مقدم منتصف ديسمبر، كانوا قد وجدوا ١٣٤ منها فى طريق يتجـــه نحو الغرب، بدا أنه يقود حتما إلى المعبد الخفى، ثم فجأة حدثت فجـــوة، إذ حفـــر

العمال إلى عمق خمسين قدما، لكنهم لم يعثروا على شيء، وبدا أن الطريق انقطع، ولم يؤد إلى أى مكان، وخسر مارييت ما قامر عليه.

وفى ليلة عيد الميلاد، اكتشف مارييت أن صف التماثيل استدار فجأة إلى زوايا يُمنى (أى إلى اليمين)، واتجه إلى الجنوب. وكانت هناك مفاجأة أخرى، فبدلا من أن يظهر أبو الهول على المسافة المعتادة وهى خمسون قدما اكتشفوا التمثال الجالس للشاعر الإغريقى بيندار، وبالقرب منه كان هناك جماعة من الفلاسفة الإغريق المحطمين يتأملون وهم يجلسون على مقعد نصف دائرى. لقد كان مما يصيب المرء بخيبة الرجاء أن يصل إلى تماثيل إغريقية عندما بدا أنه ذروة الوصول إلى درب من تماثيل أبى الهول المصرية، غير أن مارييت واصل العمل بجد، وسرعان ما تمكن من اكتشاف معبدين، أحدهما إغريقى، والآخر مصرى. كان اسم المعبد الثانى هو نختنبو(*)، أحد آخر الحكام المصريين الأصليين القدماء، لكن معبد سيرابيس العظيم لم يكتشف.

وأخذت نقود مارييت فى النفاد، فأمل مارييت فى أن تقريرا عن الأشياء التى اكتشفها ربما يساعد المسئولين فى وزارة الداخلية على تقبل النبأ حين يعرفون أن المال الذى قدموه لشراء المخطوطات قد ابتلعته رمال سقارة، وأن يرسلوا المزيد. وبناء على ذلك، أعد رسوما متقنة بأعمال التنقيب وأرسل بها ومعها تفاصيل كاملة إلى باريس، فى رعاية القنصل الفرنسى فى الإسكندرية، إذ إنه كان ذاهبا فى إجازة. ولكى يظل العمل مستمرا، باع مارييت بعض قطع المجوهرات التى كان قد وجدها فى المعابد، وأخذ قروضا من تجار الإسكندرية، وقنصله أرنو لى موان.

وعندما انتشرت أخبار نجاحه بسرعة بين منافسيه، بدأت الدسائس تحاك. فقدم صاحب النيافة ليدر شكوى رسمية إلى الباشا بأن القانون قد اخترق، وكان من المعروف عنه أنه يعقد مساومة ملحّة من أجل مشترياته غير المشروعة من الآثار، وكان يقوم بذلك فى الفترات التى تتخلل محاولاته الفاشلة فى تحويل الأقباط إلى البروتستانتية، وأشيع أن الباشا على وشك التدخل. وكان مارييت قد بنى لنفسه منزلا صغيرا من حجرتين فى سقارة، وشرع فى رفع العلم الفرنسى عليه كى لا يمس. فى إحدى المرات، اقترب منه أربعة من راكبى الخيول يعملون لدى أحد

(*) (Nectanbo / الأسرة ٣٠) .

الزعماء المحليين، وطلبوا منه أن يسلم كل ما اكتشفه باسم الحكومة المصرية، لكنه دفعهم "بضربات من الكرباج".

فى باريس جلست لجنة المتاحف الوطنية بوزارة الداخلية كى تستمع إلى تقرير عن أنشطة مارييت تدعيما لمطالبته بالمزيد من المال. وعلى الرغم من الخلل فى تصرفاته إلا أنهم مالوا بقوة إلى ما به من منطق، وعلى الرغم من الحيطة والحكمة التى سادت عمليات هذا المستكشف الفرنسى، إلا أن أجراس الخطر بدأت تدق بين الأجانب، إذ قد يصعب منعهم من الاقتراب من المعبد، "إن تعليق أو وقف الأبحاث التى أجريت بكل هذا القدر من النجاح، يعنى تسليم المتاحف المنافسة ذلك الشىء الذى ينبغى علينا الحفاظ عليه لمجموعتنا الطونية من الآثار"، لذا فإن هذه الحوافز حسمت الأمر أمام لجنة التمويل، فاقترحت مبلغا ائتمانيا بـ ٣٠٠٠٠ فرنك. وتمت الموافقة على الائتمان وأخطر به القنصل الفرنسى فى القاهرة، كما أخطر بالغرض المحدد الذى ينفق عليه: "من أجل التنقيب عن معبد مكرس لسيرابيس، الذى اكتشف بين الحطام فى ممفيس، ولنقل الأشياء الفنية التى تأتى منه إلى فرنسا".

لقد كان مارييت يشعر بالحرية فى الإنفاق على أعماله، غير أنه كان يشعر بالضيق لأن الأشياء الفنية التى دُفع له المال كى يرسلها إلى فرنسا تخص الحكومة المصرية بحكم القانون المصرى. وكان عباس باشا، حفيد محمد على(*)، والذى أسند إليه حكم البشالك Pashalik كان أقل مرونة من عمه ويصعب التأثير عليه حين يتعلق الأمر بإصدار الفرمانات. وقرر القنصل الفرنسى أن النقل وكذلك العمل الواضح الذى يشتغل به مارييت فى سقارة، يجعل من الضرورى التقدم بطلب من أجل الحصول على تصريح رسمى، حتى وإن جاء ذلك الطلب متأخرا. ففعل ذلك بطريقة حسب فيها حسابا لاسترضاء الباشا "إن السيد مارييت لا يعمد بأى حال إلى منازعة حقوق ملكية نائب الباشا(**) فى جميع الآثار التى توجد على التراب المصرى، ويتعهد مقدما بألا ينقل أى شىء اكتشفه بالفعل أو سوف يكشفه فى

(*) النص: Nephew لكن عباس باشا هنا هو عباس حلمى الأول بن أحمد طوسون بن محمد على باشا.

(**) كان محمد على لا يزال على قيد الحياة لكن صحته كانت متدهورة.

المستقبل". فمنح عباس باشا الفرمان، وكان خاضعا لشرطين تم النص عليهما بالتحديد فى قانون(*) ١٨٣٥، ولكن لم يكن هناك إصرار عليهما فى السابق: تسلم جميع الأشياء التى يمكن حملها والتى يكشفها ماريين للمسئولين، وأن يوضع خمسة حراس فى مواقع التنقيب للإشراف على العمليات.

أصاب هذا الوضع ماريين بالإحباط التام، فهو واقع بين توجيهات حكومته والحكومة المضيفة، ذلك أن الفرمان معناه أنه يمكنه الاستمرار فيما يقوم به من تنقيب، لكن وزارة الداخلية الفرنسية لا يمكن أن تنظر بعين الرضا على إنفاقه لمبلغ الـ ٣٠٠٠٠ فرنك الذى قدمته من أجل الحصول على كنوز للباشا. فأوقف ماريين العمل كى يعطى انطباعا بالطاعة، وفى مقابل ذلك، تنازل الباشا بأن حكم بأن الفرنسيين يمكنهم أن يحتفظوا بكل ما اكتشفوه حتى تاريخ صدور الفرمان، طالما سلمت جميع المكتشفات اللاحقة لموظفيه، طبقا للقانون.

عند هذا الحد، كان الموقف أشد تعقيدا بسبب الاكتشاف الذى جرى فى سقارة، فى حين أن المفاوضات كانت لا تزال قائمة بشأن ضريح أبيس الضخم تحت الأرض، إذ إنها فاقت جميع التوقعات، ذلك أنه خلف باب رائع من الصخر الرملى كانت توجد جبانة جماعية تدفن فيها العجول التى كانت تجسيدا لأبيس، إذ وجد ماريين أربعة وعشرين من التوابيت فى قاعة طويلة بها دهاليز وحجرات تتفرع على كل جانب. وكانت التماثيل المكسورة والأحجار المنقوشة والكنوز من كل نوع تتناثر فى القاعة. ومن حسن الحظ أنه تصادف أن مفتشى الباشا كانوا بعيدين عن الموقع حين تم اكتشاف المدخل، فأمر ماريين بأن يتم دفن ذلك المدخل ويحتفظ به سرا لا يذاع.

ورأى ماريين أن يرتب أموره أيا كانت الاتفاقية الرسمية النهائية بين الدبلوماسيين والباشا. فأقام حجرة عمل فى معبد نختنبو، وبدأ أثناء النهار وتحت أعين المفتشين الرسميين ووجود القوائم التى وافقوا عليها، يحزم الأشياء التى ووفق على إرسالها إلى فرنسا. وكان هناك ممر ضيق مخطط بالخشب يوصل من هذه الحجرة إلى حجرة فى أعلى، وحين يحل الليل، كانت كنوز السيرابيوم يتم إنزالها عبر ذلك الممر كى تحزم وتنقل خلسة إلى الإسكندرية على ظهر الحمير.

(*) الصادر فى عهد محمد على أثناء توليه السلطة الفعلية.

ومع الانتهاء من رفع ما يوجد بكل مقبرة، كان ماربيت يعد تقريرا رسميا عن اكتشافها، ويقود الموظفين فى حجراتها الفارغة وقد علاهم الإحساس بخيبة الأمل. وظلت عملية الخداع هذه لعدة أشهر، تمكن أثناءها ماربيت من أن يرسل إلى اللوفر مجموعة رائعة، اشتملت على ذهب ومجوهرات خيمويز(*)، ابن رمسيس الثانى وشريكه فى الحكم. وكانت هذه الأشياء قد اكتشفت فى إحدى المقابر، وسجل ماربيت عنها قوله بأن الرمال ما زالت تحمل بصمات وآثار عمال الجنازة.

ولكن لأنه صار من المستحيل على ماربيت أن يحافظ على ادعائه بأن المقابر جميعا فارغة تماما، فقد عين زميلا، يسمى بونفوا Bonnefoy، اسما على غير مسمى، كى يعد نسخا بالأحجار المنقوشة والتماثيل الصغيرة التى وجدت فى السيرابيوم من أجل المجموعة الأثرية الخاصة بالباشا، بل إنه أعمل يده فى القليل من الكتابات الهيروغليفية. كذلك دعم ماربيت صناعة الآثار المقلدة الزائفة التى كانت صناعة مزدهرة، وذلك بالقيام بعمليات شراء حصيفة من أجل المتحف الوطنى فى القاهرة، مما أدخل الرضا على قلب طبقة الموظفين وضمن تعاون المفتشين. وأظهر الباشا رضاه الشخصى وذلك بأن أمر بتقديم المساعدة الرسمية للبحارة على ظهر سفينة لابرادور والألباتروس فى شحن صناديق وحاويات من الكنوز المحظورة المهربة إلى اللوفر.

وانقسم الأوربيون فى القاهرة فى الرأى حول ما يقوم به ماربيت من أنشطة. وكان من مؤيديه كلوت بيه ولينان بيه، والقنصل، والرسام الإيطالى فاسالى، الذى كان يحاول أن يكسب قوته عن طريق رسم الباشوات، وبرونر، وهو طبيب وعالم أنثروبولجيا وأحد مساعدى كلوت بيه. أما من وقفوا ضده فكان منهم التجار ــ صاحب النيافة ليدر وفيرنانديز ــ بالإضافة إلى القنصلين العامين لإنجلترا والنمسا، تشارلز أوجستس مارى، وبارون فون هوبر، الذى كرر على أسماع كل من استمع إليه أن الرجل الفرنسى الموجود فى سقارة ما هو إلا لص. وكانت هناك مشكلات فى الموقع، ففى إحدى المرات دس أحد الخدم السم لماربيت فى طعامه، وكاد أن يموت، كما كانت تجرى محاولات من آن لآخر لنصب كمين له. لقد كانت هذه،

(*) Khaemwese ولم نستدل على اسمه بين أسماء أولاد رمسيس الثانى كما أوردها سليم حسن فى موسوعة مصر القديمة، جـ٦ (المراجع).

على أى حال، هى المخاطر العادية التى يواجهها أى تنقيب ناجح. وقد كان يتمتع بمرتبة فارس ويحمل وسام الشرف الذى كان قد رقى إليه اعترافا بالكشف الذى قام به فى ١٦ أغسطس ١٨٥٢.

انضم العالم الألمانى، هينريش بروجش، الذى أرسلته الحكومة البروسية إلى مصر، انضم إلى مارييت فى سقارة كى يساعد على فك رموز الكتابات الموجودة فى السيرابيوم، وصار الرجلان صديقين حميمين، وعاش بروجش مع أسرة مارييت ووصف ظروف الحياة هناك: "كان هناك ما يقرب من ثلاثين قردا تعيش حول المنزل أو فوق السطح، وكانت الثعابين تزحف على الأرض، وكانت العناكب الكبيرة والعقارب تزحف من خلال شقوق فى الجدران، وتتدلّى من السقف أنسجة العنكبوت الكبيرة كالأعلام. وما إن يحل الليل، كانت الخفافيش التى يجذبها الضوء إلى داخل حجرتى الصغيرة من مصارع النافذة، تزعج راحتى وهى تطير كالأشباح، فكنت قبل النوم أحشر ناموسيتى تحت الحاشية وأسلم نفسى لرحمة الله والقديسين، فى حين كانت الذئاب والضباع وبنات آوى تعوى، حول البيت".

كان مارييت يضحك من تلك المنغضات التى يتسم بها وضعه، كما قال بروجش، وكان الشىء الوحيد الذى يكدر حياته هو أنه يوما قد يكون عليه أن يغادر كوخه الصغير ويعود إلى فرنسا. وجاء ذلك اليوم مع مرور الوقت، فبعد أن تمكن من شحن ما يزيد قليلا على ٧٠٠٠ قطعة أثرية إلى باريس، قرر أن يلحق بها، ويستمتع بالشهرة التى جلبتها اكتشافاته وعملياته الناجحة المحظورة. ومع ذلك، كان هناك التزام عليه القيام به قبل مغادرته، إذ إن دوق لوينز قد انخدع بنص فى كتابات بلينى يذكر فيه الشاعر أن المصريين كانوا يعتقدون أن أبا الهول مقبرة لملك قديم يدعى هارميز، معتقدين أنه مكون من المواد التى نقلت إلى الموقع. ولم يكن بلينى(*) يصدق هذه القصة لأنه كان يعلم أن أبا الهول قد نحت من صخر طبيعى. أما الدوق، فكان يتساءل عما إذا كان من الممكن أن تكون مقبرة الملك إما بداخل جسم أبى الهول أو بالقرب منه. إن مقبرة غير مكتشفة لملك مصرى تستحق

(*) بلينى (٦٢ ـ ١١٣م) عالم رومانى. صاحب موسوعة التاريخ الطبيعى. (المراجع).

القليل من الإنفاق، فأرسل الدوق ٦٠٠٠ فرنك لماريبيت وطلب منه العثور على هذه المقبرة.

واكتشف ماريبيت علامات تدل على وجود طريق حجرى يؤدى إلى الجنوب، بعيدا عن الخط الطبيعى لجسم أبى الهول. فقرر اتباع هذا الطريق، ووصل إلى موضع جرانيتى مغلق، بداخله جدران معبد. فرأى أنه قد يكون قد بناه الملوك الذين بنوا الأهرام، وأخذ ينظفه حتى الأساس، أملا فى العثور على كتابة. لكن أرض المعبد الممهدة كانت تهبط إلى سبعة وعشرين قدما، وكانت الرمال متحركة، كما كانت هناك كمية هائلة من الحطام يلزم إزالتها. ونفد المال مرة أخرى، فكتب ماريبيت لأكاديمية المخطوطات أو النقوش، طالبا مساعدة حكومية. فقدم السكرتير طلبا لوزير الدولة الذى تتبع الطلب على الأرجح، كى يحصل على النقود اللازمة. إنه الزهو الوطنى. لقد ذكر الوزير المسئولين بأن اكتشاف رأس السيرابيوم يعنى تجديدا لمجد فرنسا فى مصر، تماما فى الوقت الذى حمل فيه عضو بأكاديمية برلين اسم بروسيا إلى هناك بنجاح مدو. والآن ماريبيت على أعتاب اكتشاف آخر، "ومما يزعج الأكاديمية أن تعلم مدى عظم الكنز الأثرى الذى تتعرض فرنسا لخطر خسارته لحاجتها إلى القليل من المال. كم سيكون حزننا شديدا إذا أصبح منجم الذهب هذا، الذى اكتسبته فرنسا بالقانون عن طريق اكتشافه، ملكا لغيرها من الأمم التى لن تتردد فى امتلاكه واستغلاله كى تربح منه".

لم يكن الوزير سعيدا بتقديم المزيد من الأموال الحكومية للحملات العلمية، إذ بدا أنهم وجدوا أنه من المستحيل الحفاظ على حسابات سليمة، ومن المؤكد أن ماريبيت لم يكن استثناء من هذا الوضع. وحوّل الطلب إلى المدير العام للمتاحف الذى وافق على "آخر مبلغ بالتأكيد"، وهو ١٠٠٠٠ فرنك. وحين وصل هذا المال إلى مصر، كان ماريبيت قد أنفق بالفعل هذا المال من خلال مبالغ مقدمة رتبها القنصل، فكان عليه أن يوقف العمل، فى حين ظل المعبد نصف مكتشف. اكتشف ماريبيت فيما بعد، أنه تحت الرمال، وعلى بعد عشرة أيام من حيث توقف عن الحفر، كان يرقد التمثال الرائع للملك الذى بنى الهرم الثانى "كان الأمر يحتاج إلى بضع مئات من الفرنكات كى يكون تمثال خفرع اليوم فى فرنسا" كما كتب ماريبيت.

رحب اللوفر بعودة مارييت وعينه مساعد أمين فى قسم الآثار المصرية عام ١٨٥٥، ومنح الإذن بزيارة المتاحف الأوربية الأخرى، من أجل فهم وتصنيف مكتشفاته، وبدأ بزيارة ألمانيا حيث رد بروجش كرم الضيافة المتواضع الذى تمتع به فى سقارة. وكان الملك فريدريك ويليام الرابع قد أظهر اهتمامه بمصر ومول حملة ليبسيوس، كما أنه، دون علم من مارييت، أرسل مع بروجش إسهاما مجهول الشخصية من أجل العمل الذى كان يجرى فى سيرابيوم. فحين زار مارييت ألمانيا دعاه الملك على العشاء، وأنعم عليه بوسام النسر الأحمر من الطبقة الثالثة.

وحين عاد مارييت إلى باريس، كتب دراسة عن الديانة المصرية كما تكشف عنها الكتابات التى اكتشفها فى سيرابيوم. حاول فى هذا العمل أن يبين أن المصريين كانوا يؤمنون بإله واحد، وأن أبيس هو التجسيد، ولد من أم عذراء حملته حملا إعجازيا دون إله أرضى؛ كان أبيس هو الكلمة، فى حج لوقت معين إلى الأرض فى هيئة عجل. وكان تطبيق مفاهيم مثل الميلاد العذرى على الديانة المصرية يشتم منه رائحة الكتابات الصوفية التى كانت موجودة فى منتصف القرن التاسع عشر، أكثر من كونه نتاج فكر عالم مصريات جاد. فلم يسر هذا رئيس مارييت فى اللوفر، دى روجى، الكاثوليكى الورع. فنصح مارييت بأن يوجه اهتمامه إلى مناطق أقل إثارة للجدل فيما سيقوم به من أعمال فى المستقبل.

وفى مايو ١٨٥٧، قام بزيارة لتورينو لفحص المجموعات الأثرية هناك، واحتُفى به من جانب المتحف والملك، إذ خلع الملك عليه وسام القديسين موريس ولازاروس، وانتخبته أكاديمية العلوم فى تورينو مراسلا. وكان مارييت من قبل مراسلا لأكاديمية الفنون الجميلة فى ريو دى جانيرو، وانتخب فى جمعية الآثار فى لندن. لقد أصبح، فى الحقيقة، واحدا من أشهر علماء المصريات الفرنسيين وأكثرهم احتراما فى الخارج.

على أية حال، فإنه لم يجد فى باريس أية فرصة للتقدم المهنى، إذ كان المنصب الرئيسى هو أن يكون أمينا فى اللوفر، ولقد أوضح المتحف بجلاء أن مارييت لن يستطيع أن يرقى إلى هذا المنصب إلا فى حالة وفاة أو نقل الأمين الحالى، دى روجى الذى لم يُبد أى دليل على التحرك إذ لم يكن يكبر مارييت إلا بعشرة أعوام، كما كان يتمتع بصحة وعافية. ولم يكن مارييت يملك سوى راتبه،

كمساعد أمين للمتحف وهو ٤٠٠٠ فرنك. ولم يكن ذلك كافيا لإقامة أود أسرة بـدا أنها تتزايد مع كل عام، فكان أحد الحلول هو ترك الحياة المكلفة فى باريس والاتجاه إلى مصر. ومع مرور الشهور، كان مارييت يفكر فى المثل العربى القائل: من شرب مرة من ماء النيل فسوف يتعطش إليه دائما. وأخبر أصدقاءه أنه يجد أن من الصعب عليه التركيز فى عمله فى اللوفر، وسوف يقبع فى مكتبه كى يعكف على ترجمة كتابة وجدها على قطعة أثرية كان قد أحضرها. وبينما كان يتناول ذلك الشيء، انتقل بوجدانه إلى الموقع الذى وجده فيه، وشعر أنه يتنفس من جديد هواء الصحراء النقى ويسمع صيحات العمال. وفجأة شعر بالكره لعملية الترجمة تلك، وكذلك دى روجى، واللوفر، وكل ما حوله، وشعر أنه يتوق إلى العودة إلى مصر.

وبسبب كل تلك الاحباطات واتت مارييت فكرة، وهى ألا يعمل من أجل اللوفر، وإنما فى خدمة مصر، بل حلم بإنشاء مصلحة لحماية الآثار هناك، لفائدة العلوم ــ مصلحة سوف يكون هو بالطبع رئيسا لها. وسنحت له الفرصة فى أوائل عام ١٨٥٧، لقد كان الأمير نابليون ابن عم الإمبراطور يشكل نوعا من الحرج للإمبراطورية الثانية. إذ كان يعبر عن قلقه وبغضه وسخريته لتسنم نابليون الثالث سدة الحكم. ولحسن الحظ، كان الأمير محبا للسفر، وكان الإمبراطور دائما مستعدا لتشجيعه على أن يكون فى الخارج بأية ذريعة. فحين عبر الأمير عن اهتمامه بمصر تم عمل كل شيء لتحقيق نزوة يمكن أن تخرجه من فرنسا لخمسة أو ستة أشهر. ولقد اغتيل عباس باشا، عدو مارييت القديم، على يد قواته، وكان سعيد باشا، خلفه، راغبا رغبة حادة فى تحسين العلاقات مع القوى الأوربية، كما أنه كان واقعا تحت تأثير الدبلوماسى الفرنسى فيردينان دى ليسيبس، إذ كان يعرفه منذ شبابه، وعلى هذا عادت فرنسا إلى الحظوة، لذا كانت زيارة ابن عم الإمبراطور سوف تلقى كل ترحيب. لقد أخبر دى ليسيبس الباشا بأن الأمير محب للأشياء الجميلة والتاريخ القديم، لذا فسوف يتوقع أن يتجول فى أعمال التنقيب فى وادى النيل، وأن يقوم بذلك شخص قادر على شرح مغزاها، كما أن الأمير سوف يتوقع أن يغادر مصر ومعه مجموعة من الآثار تليق بمقامه.

كان كبير الدوقات فيرديناند ماكسيميليان النمساوى قد زار مصر قبل ذلك بعامين، وأصر على مغادرة مصر ومعه أفضل جزء من مجموعة القاهرة، إذن فهناك سابقة فى إغداق أروع آثار مصر على الزوار الملكيين. والأمير يعرف ذلك، وماريت هو الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يصحب الأمير نابليون فى جولة، ويمتلك الطاقة والقدرة التنظيمية لتكديس مجموعة مناسبة له كى يأخذها معه. فطلب سعيد من دى ليسيبس أن يعود ماريت إلى مصر. كان فى هذه الدعوة بعض القلق. إذ دعى ماريت للعودة إلى مصر، ليس مديرا لمصلحة للحفاظ على الآثار القديمة كما كان يتمنى، وإنما كرئيس بحرى لباخرة أمير يقوم بجولة فى مصر. فبدلا من تطبيق القانون الذى يحظر تصدير الآثار، اشتغل فى خرق هذا القانون. لقد كان دى ليسيبس يعلم طموحات ماريت، فكتب له شارحا مدى صعوبة أن يدخل فى رأس سعيد باشا أنه — أى الأمير — قد أتى إلى مصر من أجل الآثار. ومع ذلك، استطرد يقول، إنه إذا تمكن من أن يجعل زيارة الأمير ناجحة، فيمكنه أن يطلب ما يشاء من الوالى.

ومنح ماريت إجازة من المتحف لمدة أربعة أشهر، ووصل إلى مصر فى أكتوبر ١٨٥٧، واستقبله سعيد باشا استقبالا حارا، ووضع سفينة بخارية تحت إمرته، هى الباخرة سمنود، وبها طاقم مسلح. وأعطيت التعليمات لماريت بأن يبحر فى وادى النيل، ويخبر الحكام فى المديريات بأن الباشا يحظر عليهم مس أى حجر أثرى، وأن يسجنوا أى فلاح يجرؤ على أن يخطو بقدمه داخل أى معبد. فكانت واجبات ماريت ذات وجهين: منع أى شخص من نقل الآثار من المواقع القديمة، وجمع أفضل القطع من أجل الأمير الزائر. وباشر عمله بنشاط، إذ إنه ضمن وضعا لم يكن ينعم به أكثر سابقيه طموحا، أعنى الحق فى أخذ ما يشاء، بالإضافة إلى سلطة منع أى شخص آخر من أخذ أى شيء على الإطلاق.

وفجأة وُضع حد لسطوع نجم ماريت، وذلك بوصول نبأ فى يناير عام ١٨٥٨ بأن الأمير قد غير رأيه وألغى الزيارة. وصل هذا النبأ إلى القاهرة ومعه خطاب من اللوفر يخبر ماريت بأنه ما دام لم يعد مطلوبا منه الإعداد للزيارة الملكية، فإن إجازته قد ألغيت، وعليه العودة فورا إلى المتحف، حيث ينتظره عمله فى مكتبه. بدا هذا وضعا يائسا إذ كان اهتمام سعيد باشا بآثار بلاده ينبع من رغبته فى نيل

الحظوة عند الإمبراطور، فلم يعد لديه أى سبب فى إبقاء مارييت فى خدمته، بعد أن ضاعت منه هذه الفرصة.

إن شعور مارييت بما ينتظره من العودة إلى الحياة الباردة المضجرة غير المشمسة فى حياته العملية غير المبشرة فى باريس، ألهمه بأن يكتب اقتراحا يمكن أن يبقيه فى مصر: "بما أن طموح الأمير إلى زيارة مصر هو وليد حبه للأشياء الجميلة، واهتمامه العميق بفجر تاريخ الإنسان، ألا يحب الأمير أن تكون لديه مجموعة من أبدع آثار البلاد تذكارا لرحلة لم تكتمل، وإن تعلقت بها مثل تلك الآمال البراقة؟". ورد السكرتير الخاص معبرا عن سرور سموه باقتراح مارييت، وطلب قائمة من الحلى والتماثيل الصغيرة وعينات من الفن المصرى، التى يمكن أن تضاف إلى مجموعة الأمير نابليون الجميلة أصلا، دون أن يكون فى ذلك أى شىء غير ملائم. وتم إرسال القائمة ومعها اقتراح يتعلق بخدمة صغيرة قد يحس الأمير بالميل إلى إسدائها فى مقابل الوصاية المستقبلية على مثل هذه الكنوز فى مصر. وكان رد السكرتير الخاص هو كل ما كان يمكن أن يأمل فيه مارييت: "لن يتردد الأمير فى أن يعلم الوالى، أنه إذا كانت عظمته تطلب من فرنسا مساعدة أحد العلماء لإنشاء متحف لمصر، فمن المؤكد أن الحكومة الفرنسية لن تختار أى شخص سواك".

فى ١ يونيه ١٨٥٨، عين مارييت مديرا للآثار فى مصر، ومنح مخصصا شخصيا سنويا قيمته ١٨٠٠٠ فرنك، وكذلك سلطة تعيين زملاء وإمكانية استخدام الباخرة. وتم تصنيف الأعمال التى يقوم بها على أنها أشغال عامة، ويمكن قانونا جمع العمال له عن طريق التجنيد. وأصبح مسئولا مسئولية مباشرة أمام الوالى، ولم تخصص له ميزانية، ولكن لديه الحق فى تقديم الطلب من أجل الأموال عند الحاجة إليها. كان واجب مارييت الأول هو إعادة إعمار وتجديد متحف القاهرة، الذى جرده كبير الدوقات، ماكسيمليان، مما به، فكان طلبه الأول هو إنشاء أبنية لوضع مجموعات الآثار الحاضرة وما يجد من مجموعات فى المستقبل. فخصصت له المخازن الموجودة فى ميناء بولاق، التى كانت تخص شركة السفن البخارية العاملة بين القاهرة والإسكندرية، والتى كانت قد توقفت عن العمل حين افتتحت السكك الحديدية. وهنا عين مارييت صديقه بونفوا أمينا على ما سيأتى من آثار. وكان هناك منزل منخفض رطب فى الموقع، أحضر إليه أسرته. كان منزلا مظلما

مليئا بالحشرات، غير أن السعادة عادت إلى قلب مارييت، بعد أن ضم إليه عالمه الصغير.

وبينما كانت الجالية الفرنسية تشعر بالسرور، شعر آخرون بالحقد على ذلك الوصولى الذى أخذ على عاتقه منع جميع أعمال التنقيب ما عدا ما يقوم هو به، مهددا بذلك أرزاق التجار والمزيفين على حد سواء. ونشر مارييت مجال عمله فى كل ربوع الوادى، وفى وقت من الأوقات كان لديه سبعة وثلاثون موقع تنقيب تعمل من الدلتا حتى الشلال الأول. فتم إفراغ أكثر من ٣٠٠ مقبرة فى الجيزة، وسقارة. وفى إدفو، نقل مارييت قرية بأكملها من سطح المعبد المدفون، كاشفا عن البناء الرائع لأول مرة فى العصر الحديث. وفى طيبة، أزال جزءًا من الصرح الرائع لمعبد الملكة حتشبسوت فى الدير البحرى، مكتشفا الجدار الذى يصوّر "حتنتوت ڤينوس (Hottentot Venus) الشهير". لقد أعجب هذا الجدار مركيز دفرين وآفا and Ava الذى تصادف أنه كان يزور المكان إعجابا شديدا، حتى إنه أخذ قوة صغيرة من العمال ليلا وحطم الجدار، أملا فى شحن الكتل مع أعمال نحت أخرى امتلكها إلى مقر عائلته فى كلاندبوى بأيرلنده. لكنه اكتشف، وتمت مصادرة الكتل وأرسلت بدلا من ذلك إلى متحف القاهرة.

وعبر النهر، فى الكرنك، كشف مارييت عن معبد آمون العظيم، ونقل من هناك ١٥٠٠٠ قطعة آثار صغيرة. وفى أبيدوس، وبعد دراسة قصيرة للسطح، أذهل مارييت العمال حين أشار إليهم على الخط الذى ينبغى أن يحفروا نحوه للكشف عن جدار حدودى، وحين ظهر الجدار فى المكان الذى تنبأ به بدقة، تجمع القرويون كى يشهدوا المعجزة. تقدم أحد العرب وقال له: "لم أترك هذه القرية أبدا، ومع ذلك لم أسمع عن وجود جدار هناك، فكم عمرك حتى تتذكره؟"، فأجاب مارييت بكل هدوء وثبات: "ثلاثة آلاف سنة"، فرد الشيخ: "حسنا، لقد بلغت كل هذا العمر، وما زلت تبدو شابا، لا بد أنك ولى عظيم، دعنى أنظر إليك". وظل لمدة ثلاثة أيام، يحضر كى يحملق فى الولى، عمره ثلاثة آلاف من السنين، يسدد الضربات الكثيرة بعصاه للعمال الذين لا يعملون كما يريد.

أثناء تلك السنوات، كان مارييت يتمتع بسلطة مطلقة فى مجال التنقيب عن الآثار. وكتب أنه، يعتبر مصر القديمة ملكا خاصا له، إقطاعية يمكنه أن يورثها

لأحفاده. كان يسافر فى كل مكان مع زوجته وابنه الأكبر أوجيست، الذى كانت لعبه من التماثيل الصغيرة والتمائم المأخوذة من المقابر القديمة، وكان يطلق على التماثيل الكبيرة فى طيبة "عرائس بابا الكبيرة". ومع ذلك، كان هناك ما يهدد وضع ماربيت. فلم يكن سعيد باشا يهتم أقل اهتمام بالآثار أو التماثيل الحجرية القديمة. إذ إن دى ليسيبس والأمير نابليون كانا قد أقنعاه بإنشاء مصلحة للآثار غير أنه كان فى مقدوره، فى أى وقت، أن يغير رأيه. وكانت الأموال التى جعلت عمل ماربيت يسيرا، يمنحها الباشا عند الطلب، ويمكن سحبها بسهولة؛ ومجموعة الآثار التى كانت تتزايد ببطء كان من الممكن التخلص منها تلبية لنزوة من زائر بارز.

ولكن إذا كان الوالى يفتقر إلى الإحساس بما يحتاجه العلم، فيمكن إشعال جذوة الرغبة فى قلبه باكتشافات تشتمل على الذهب أو الحلى؛ فكان ماربيت واقعا تحت ضغط مستمر كى يخرج هذه الأشياء، فلم يتردد فى استخدام الديناميت للإسراع فى العمل. فى فبراير عام ١٨٥٩، سمع ماربيت من عميله فى الأقصر أن تابوتا حجريا ثمينا بشكل غير عادى قد اكتشف، وأنه يزدان بالذهب، وأن كتابة حددت أنه تابوت الملكة عوحتب A- Hotep. إلا أنه لسوء الحظ، فإن الحاكم المحلى قد نهب التابوت وأخذ كمية من الذهب والحلى يخطط لإرسالها هدية للوالى كى يحسن من وضعه. وحال سماع ماربيت بالنبأ، ركب الباخرة سمنود وانطلق عبر النيل كى يتصدّى لمركب ذلك الحاكم.

لقد وصف شاهد عيان اللقاء بين المركبين: رأينا السفينة التى تحمل الكنز تتقدم نحونا، وفى خلال نصف ساعة كانت الباخرتان متجاورتين. وتلت ذلك مناقشة حادة. وحين أدرك مسيو ماربيت أنه لا يصل إلى شيء، وأنه يفقد صبره بسبب عنادهم، استخدم الطرق الوحيدة الفعالة التى يعترف بها هنا؛ سدد بضع لكمات قوية، وقال إنه سوف يلقى بأحد الرجال فى النهر، ويكسر رأس آخر، ويرسل بثالث إلى مطبخ الباخرة، ويشنق رابعا، وسوف يعامل الباقين بنفس الطريقة. وبفضل هذا قرروا أن ينقلوا جميع الآثار إلى سفينتنا فى مقابل إيصال. واستطاع ماربيت أن ينال عرفان الوالى بإهدائه صندوقا من الحلى الرائعة كى يتزين هو وزوجاته بها؛ واتخذ ذلك العرفان هيئة صدور أمر ببناء متحف قومى جديد، إذ كانت المجموعات الموجودة تستحق مكانا أفضل.

كان جورج هوبكينز، الرحالة الإنجليزى، قد زار القاهرة عام ١٨٣٣، وزارها مرة أخرى عام ١٨٦٠، فكتب: "إن متحف الآثار المصرية الذى جمعه سينيور مارييت والمرتبة ترتيبا جيدا فى بولاق، جدير بالزيارة". ومع ذلك، فقد كان هناك القليل جدا فى مجال المصريات، سواء فى إنجلترا أو فرنسا هم الذين أحسوا بالفرح. إذ بدا أمرا بغيضا أن يشعر حاكم مصرى بالطموح فى التمسك بالكنوز التى أخرجتها الجهود الأوربية؛ فلم يعتقد المتحف البريطانى أو اللوفر أنه مما يمكن تحبيذه الاحتفاظ فى القاهرة البعيدة حتى ولو بشكل مناسب، بكنوز يعجب بها العالم بأسره.

فى ذلك الوقت، كانت كل من إنجلترا وفرنسا تتوددان لسعيد باشا، وكان هو حريصا على الموازنة بينهما فيما يقدمه من مجاملات. وكان قد منح صديقه القديم دى ليسيبس الامتياز لشق قناة السويس – على الرغم من أن لورد بالمرستون تمكن من تأخير التصديق عليه فى الباب العالى لمدة عامين. ومن ناحية أخرى، وافق على أن يدع البريطانيين ينشئون شركة التلغراف الشرقية وبنك مصر(*). كان كلا البلدين يقدم القروض لسعيد، وقدمت كل منهما الدعوة له كى يقوم بزيارة رسمية. وبدا أن فرنسا بزت إنجلترا فى الصراع الدبلوماسى حين بعث الإمبراطور بدعوة خطية للباشا، بيد مارييت. لقد بلغ من فرط سرور سعيد بالشرف الشخصى حدا جعله يقبل الرسول بحرارة ويعرض أن يحقق له أعز أمانيه. فأجاب مارييت بأن كل ما يريده هو أن يكمل بناء متحفه الجديد. وصدرت الأوامر.

وكان مارييت فى المعية حين زار الباشا باريس فى سنة ١٨٦٢، وأحس ببعض السرور حين استقبل فى الأماكن الراقية، وإن كان ذلك قد أفسد قليلا حين أجبر على مصاحبة سعيد للحفاظ على التوزان الدبلوماسى، فى امتداد لزيارته الرسمية إلى لندن. وعادت المجموعة عن طريق بولونيا، وهى مسقط رأس مارييت، حيث ابتهج الباشا من الاحتفالات حتى إنه أنعم بلقب البكوية على مارييت ومنحه معاشا، كما أعلن أنه سوف يكون مسئولا شخصيا عن تعليم أبناء مارييت، وأخيرا أصبح المستقبل آمنا.

(*) من المفهوم أنه ليس بنك مصر المعروف الذى أسسه طلعت حرب فى سنة ١٩٢٠. (المراجع).

على كل حال، مات سعيد فجأة بعد ذلك بستة أشهر، وتعرضت حياة ماريت العملية في مصر مرة أخرى للخطر. ولم يبد إسماعيل باشا، الذى حل محل سعيد، أى اهتمام بعمل مصلحة الآثار، واشتهر بأنه فى حاجة إلى كل النقود التى يمكنه الحصول عليها من أجل إنفاقه الباذخ. ومع كل، فقد كان إسماعيل أيضا حريصا على التحديث وإقامة علاقات طيبة مع القوى الأوربية، لذا أخبر ماريت بأن شيئا لن يتغير ــ سوف تقدم الأموال كى تستمر المصلحة فى العمل، وسوف يستمر العمل فى بناء المتحف الجديد. لقد استغرق الإشراف على العمل فى البناء، معظم وقت ماريت بقية ذلك العام. أما ما تبقى له من وقت قصير فقد كان يقضيه فى المرور بالزوار البارزين على مواقع التنقيب. وكان من بين هؤلاء الأمير نابليون الذى حقق طموحه فى رؤية الاكتشافات الكبرى التى قام بها أبناء بلاده فى وادى النيل. ولما كان الطقس شديد الحرارة بشكل غير مريح، فإن الأمير لم ير سوى القليل، إذ قضى كل وقته فى قمرته الفاخرة على ظهر المنشية ولم يظهر خارجها سوى عند فيلة، حين اشتد حنقه لدى سماعه بنبأ إتلاف أحد السائحين للكتابة الفرنسية التى وضعها هناك الجنرال ديزى، فأمر الأمير بأن تنحت الكلمات مرة أخرى، وأضاف تعليقه الشخصى: "لا ينبغى للمرء أن يلطخ صفحة من صفحات التاريخ".

حين اكتمل بناء المتحف أخيرا فى أكتوبر ١٨٦٣، كان واحدا من أبهى المبانى فى القاهرة. لقد كتب فريدريك دى سولسى، عضو الأكاديمية تقريرا عن زيارته هناك للريفيو أركيولوجيك، المجلة الأثرية: "... فناءان متصلان يحدان النيل، تفصلهما بوابة حديدية. الأول تزرع به أشجار جميلة، وهو يضم المقار السكنية، بما فى ذلك مقر ماريت بيه (بيك) نفسه، وهنا تتمشى بحرية غزالة لطيفة تسمَّى فينيت وهى تبحث بلهفة عن أعقاب السيجار، فهى من الملذات المبهجة بالنسبة لها. وهناك بعض القردة الصغيرة تلعب فى صحبتها. أما الفناء الثانى فهو جزء لا يتجزأ من المتحف لأنه يحتوى على اثنين من أبى الهول من الكرنك، وثلاثة توابيت رائعة من البازلت".

كانت هناك بعض الصعوبة فى إقناع إسماعيل بأن يعلن عن افتتاح المبانى. وشك ماريت فى الدسائس التى يحيكها أعداؤه فى القاهرة، غير أن حماس الباشا

كان دائم الفتور بالنسبة لهذا المكان، إذ إنه مهما كانت المومياوات ذوات أهمية تاريخية، إلا أنها تظل، فى نهاية الأمر جثثا، وهو لم يكن يشعر بالراحة فى حضرة الموت. وأخيرا افتتح الباشا المتحف فى ١٦ أكتوبر ١٨٦٣، لكنه كان حريصا على ألا يعبر العتبة. وكان من عادته اصطحاب كبار الزوار إلى البوابات ثم ينتظر فى الفناء، فى حين يتجول معهم ماربيت فى المبانى.

وفى عام ١٨٦٧، انعقد المعرض الدولى فى باريس، وكان ماربيت هو القائم على الجناح المصرى فيه. وكان انتصارا كبيرا. فازدحم المعبد المصرى (المقصود الجناح المصرى) بالزائرين، وكتب أحد النقاد أن الكثيرين منهم جاءوا من قبيل الفضول البحت، غير أنهم غادروه مفعمين بالشعور بالدهشة من تلك الحضارة التى أنتجت الآثار الرائعة التى كانت معروضة. وتلقى ماربيت تشجيعا له وسام نسر بروسيا الأحمر من الطبقة الثانية، ووسام قائد كتيبة الشرف.

على أية حال، فلقد شكلت روعة المعرض انعطافا فى أحوال ماربيت. إذ إن الإمبراطورة أوجينى قد بلغ اندهاشها من المعروضات من الحلى حدا جعلها توصل إلى علم إسماعيل أنها سوف تكون فى غاية الغبطة إذ ما تلقتها كهدية. وحين أخذ الباشا على حين غرة، لم يستطع إلا أن يجيب بأن هذا سيكون موضع بهجته إذ يلبى رغبتها، لكنه أضاف بأن "هناك رجلا أقوى منى فى بولاق، ويجب أن تتقدمى بطلبك إليه". وأوكلت لمدام كورنى، أخت الإمبراطورة فى الرضاع مهمة شراء موافقة ماربيت. وقدمت الطلب إليه بألفاظ غاية فى الدقة حتى إنه لم يستطع أن يدعى أنه لم يفهمها. ذلك أنها عرضت عليه، مقابل ذلك إدارة مكتب الطباعة الإمبراطورى، أو إدارة المكتبة الإمبراطورية، وهو مقعد يشبه مقعد عضو مجلس الشيوخ(*). لكن ماربيت رفض العرض، شارحا السبب لمدام كورنى بأنه رغم كل اعتزازه بأن يرى أبدع ما فى الآثار المصرية فى أمان فى فرنسا، إلا أنه مكلف بالحفاظ عليها فى التراب المصرى، وأن يحميها فى مواجهة كل المطالبات الأجنبية، حتى لو جاءت من أبناء وطنه. فلو أنه أذعن لمطالبات فرنسا اليوم،

(*) وردت بعد ذلك فقرة غير واضحة كالتالى:

A place among scholars credited with supplying materials for the Emperor's Life Caesar.

وهو منصب يحظى شاغله ـ بين الباحثين ـ بمكانة لأنه يجعل حياة الإمبراطور كحياة القيصر.

فكيف له أن يعارض مطالبات إنجلترا غدا، ومطالبات ألمانيا والنمسا. لقد كان هذا قرارا شجاعا، لأن ماريبت كان يعلم تمام العلم أن هذا سوف يجلب عليه العداوات فى فرنسا، دون أن يكسب احترام إسماعيل. فإسماعيل كسابقيه، كان يظن أن أهم فضل لكنوز مصر، يكمن فى قدرتها على شراء صداقة الأجانب.

والخدمة التى تؤديها الآثار، والتى كانت تعمل عملها فى مناح مختلفة، ها هى أخذت تنزلق بعيدا عن الحظوة. ووجد ماريبت أن العمال الذين جندهم أمروا بالسفر بعيدا عن مواقع التنقيب للعمل فى حفر قناة السويس. بل إنه فقد إمكانية استخدام السفينة البخارية، التى نقلت لأداء واجبات أخرى ولم تعد إليه إلا حين هدد بالاستقالة. ولقد أشاع أعداء ماريبت فى القاهرة، أنه فى حلف مع الإمبراطور كى يخضع مصر للتحكم والسيطرة الفرنسية، وأن تودده لإسماعيل باشا له دافع سياسى خبيث. وانتهز من كانت الغيرة تأكل قلوبهم بسبب النفوذ الذى كان ماريبت يتمتع به أو أولئك الذين فقدوا دخلا بسبب تطبيقه الحظر على التجارة فى الآثار، انتهز هؤلاء جميعا كل فرصة لإثارة الشك فيه. كما أن عجزه عن تدبير المال جعل من السهل الإيحاء بأنه يسيىء استخدام أموال الحكومة، وكان هو دائما عاجزا عن الدفاع عن نفسه أمام المحاسبين الذين يقومون بالمراجعة. فى ذلك الوقت، كتب لأحد أصدقائه: "مع تقدمى فى العمر، أحول نفسى إلى فيلسوف مع تحول لحيتى إلى اللون الأبيض. فقبل ذلك، كنت أمر بفترات من اليأس المظلم يعقبه الغضب الأسود. أما اليوم فإنى أفكر فى الحياة على أنها رحلة فى قارب تتخللها فترات من دوار البحر. وحين يكون الجو جميلا، أصعد إلى سطح السفينة، وأتنسم نسيم البحر. وحين يكون الجو سيئا أستسلم وأذهب إلى فراشى وأتقيأ".

بالرغم من أن حفر قناة السويس جعل ماريبت يفقد إمداده من العمال مؤقتا، إلا أن القناة اتضح أنها هى المناسبة التى تعيد لماريبت مكانته فى نظر إسماعيل باشا، إذ كان من المقرر أن يكون افتتاح القناة مهرجانا دوليا، دعى إليه ملوك وسادة العالم المتحضر وعلماؤه. وكان الباب العالى قد رقى إسماعيل إلى مرتبة الخديوى، فعزم على استخدام أمجاد مصر القديمة كى يلفت أنظار علية القوم فى أوربا إلى مصر، مما يقوى من مكانته لدى السلطان. فاحتاج إسماعيل إلى ماريبت لإمضاء هذه الخطة، لذا قدمت الأموال فجأة من أجل أعمال التنقيب عن الآثار

وكذلك لنشر الكتب. وكلف ماربيت وحده بمسئولية وضع برنامج لقيام الضيوف بجولة فى الصعيد، بل قدمت الأموال لنشر كتاب إرشاد سياحى كى يرشد هؤلاء الضيوف.

كانت المناسبة متلألئة براقه. افتتحت الإمبراطورة أوجينى القناة على اليخت الملكى النسر فى ١٦ نوفمبر ١٨٦٩، ثم أبحرت من بور سعيد إلى السويس فى أربعة أيام، تتبعها ثمان وستون سفينة من جنسيات مختلفة. لمدة شهرين، استضاف الخديوى كبار الضيوف استضافة تتسم بالإسراف، ثم أوكل لماربيت أن يصحبهم فى جولات فى المعابد. كتب ماربيت لابنه: "لقد عدت توا من جولة فى الصعيد، وفى السويس، وفى سقارة، فى صحبة العديد من الإمبراطورات والأباطرة والأمراء والوزراء، ولم أعد أعرف أين أنا. فى حقيقة الأمر لقد اضطرب عقلى وخارت قدماى"... لكنه نال مكافأته، إذ كانت الإمبراطورة أوجينى فاتنة ومتنبهة متيقظة، فهى قد غفرت له رفضه إعطاءها الحلى. وقد عينه الخديوى قائدا على ميدجدية the Order of Medjidieh، وصرح علنا أنه سوف يدفع له ٤٥٠٠ فرنك سنويا للإنفاق على أبنائه، ومبلغا ضخما ١٠٠٠٠٠ كى تقسم بين بنتيه الكبريين. كان هذا وقتا للجو الصافى إن لم نقل المشرق فى حياة ماربيت.

ثم كلف الخديوى ماربيت بتقديم قصة لأوبرا من المقرر أن تفتتح فى مسرح القاهرة، الذى بنى احتفالا بافتتاح قناة السويس، وأنه سوف يتم الاتصال بأحسن مؤلف موسيقى وأعلاهم أجرا، فسيتم الاتصال بفيردى أولا، وإذا ما فشلت الاتصالات فسيتم الاتصال بجونو، ثم فاجنر. عاد هذا التكليف بماربيت مرة أخرى إلى أيام التلهى المسلى العابث حين كان يصمم المشاهد المسرحية، وأعاده إلى أيام الرواية الرومانسية. وخرج بالفكرة الأساسية (عايدة)، وقبل فيردى الملخص. وظل ماربيت لمدة عام تقريبا منشغلا بالأوبرا. سافر إلى فيلة كى يعد الرسوم للمبانى التى يبنى على أساسها تصميماته الثابتة، ونسخ تفاصيل الأزياء والأسلحة من جدران المعابد والمقابر والتماثيل. وسافر برسوماته إلى باريس كى يستوثق من أن الديكور والأزياء حين تجمع مع بعضها البعض تكون حقيقية، فوجد أن المحترفين قد تولوا الأمر. وقام كامبى دى لوكل بمراجعة القصة الأصلية التى كتبها. وتمت ترجمتها إلى الإيطالية بناء على إصرار فيردى. وكانت تجرى عليها تغييرات فى

كل مرحلة. وكانت الديكورات والأزياء فى أيدى مصممين مسرحيين لـم يكونـوا يرحبون بتدخلات مارييت، كما كانت لفيردى أفكار ثابتة عن الموسيقى لا يجب أن تفسدها أية خواطر تتعلق بالصدق. ترك مارييت الديكورات والأزياء فى باريس، التى طالتها الحرب الفرنسية البروسية التى بدأت فى يوليو ١٨٧٠ حين أصـبحت المدينة واقعة تحت الحصار.

إن افتتاح عايدة فى القاهرة، الذى حدث فى ليلة عيد الميلاد عام ١٨٧١، كان مناسبة رائعة. وشارك مارييت فى هذا المجد. بدأ هذا المجد فى آخر عقـد مـن حياته عند نقطة سامقة، أخذ ينحدر منها ببطء بسبب اعتلال صحته، وفقده لأولاده، وكذلك معاركه كى يحمى مصلحة الآثار من الوقوع ضحية لإسراف الخديوى. لقد حقق مارييت مكانة كشخصية شهيرة فى الخـارج، وكـان الرحالـة البـارزون المهتمون بالمصريات يزورونه فى متحف بولاق. عندما زاره فيكونت دى فـوج، الدبلوماسى والمؤلف عام ١٨٧٢ كتب عنه قائلا: "إنه رجل قوى البنيان، عـريض المنكبين، يمكن القول إنه طاعن فى السن، أكثر من كونه مـسنا. يتمتـع بجـسم رياضى، كأنه قد من كتلة كتلك الأشياء الضخمة التى كان يشاهدها. وكان وجهـه الذى ينطق بالصحة به تعبير حالم حزين.. يمكن أن يعتبـره مـن يـشاهده أحـد الباشوات الأتراك. حين كان أحد الزائرين يعبر الحديقة، كان هذا المالـك يقطـب جبينه بغضب وعجرفة، واعتاد أن يتتبع ذلك الشخص المتطفل وكأنه عاشق يـرى شخصا غريبا يدخل بيت محبوبته، أو كأنه كاهن يرى شخصا غير مؤمن يـدخل المعبد".

لقد كان مارييت شديد الغيرة على المصلحة التى أنشأها والمتحف الذى أوجده، حتى إنه حينما مات دى روجى فجأة فى ديسمبر ١٨٧٢، وعرض عليه، أخيـرا، منصب أمين اللوفر، رفض هذا العرض. وجاءت مع هذا العرض عروض أخرى بمقاعد شاغرة فى أكاديمية المخطوطات والكوليج دى فـرانس، بالإضـافة إلـى عرض بإجازة مفتوحة تسمح له بإجراء الترتيبات الضرورية فـى بـولاق قبـل الالتحاق بهذه الوظائف. على أى حال، كان مارييت يعتقد أن الترتيبات الضرورية فى بولاق تتطلب أن يكون موجودا بصفة مستمرة. ولم يكن ذلـك للحفـاظ علـى المصلحة التى أسسها، ولكن كى يحميها من السقوط تحت سيطرة أمـة أو دولـة

أخرى، وكان ذلك الهدف على نفس الدرجة من الأهمية بالنسبة لـه. فـرد علـى العرض الذى جاءه من باريس قائلا: "هل تسمحون الآن، لعلم المـصريات الـذى يمثله حتى الآن رجل فرنسى، بأن يمثله فى مصر فى المستقبل رجل ألمانى؟ نحن الآن نكافح بقوة فى مصر ضد نفوذ ألمانيا، ذلك النفوذ الذى يفـرض نفـسه فـى اتجاهات عدة، فهل تعتقدون أنى أكون الوسيلة التى يستطيع بها الألمان أن يمتلكوا أحد المناصب التى يتشوقون لامتلاكها فى مصر؟".

لقد بقى ماربيت كى يحتفظ بآثار مصر فى البلاد وتحت السيطرة الفرنسية. بل إنه أقنع الخديوى بألا يرسل كنوز متحف بولاق إلى فيينا، للمعرض الذى أقيم عام ١٨٧٣، محتجا بأنه إذا ما لفتت إحداها نظر إمبراطور النمسا، فإن إسماعيل سوف يجد أنه من العسير عليه أن يرفض طلبا إمبراطوريا. وحين قدم القنـصل العـام الأمريكى طلبا رسميا بأن يسمح له بتصدير مسلة، وحول الطلب لماربيت لدراسته، بين رده أن عزمه لم يلن منذ رفضه لطلب الإمبراطورة أوجينى: "هناك متحفـان فى مصر أحدهما متحف بولاق، أما المتحف الآخر فهو مصر كلها، فهى تـشكل بآثارها المنتشرة على ضفتى النيل من الدلتا حتى الشلال الثانى أجمل متحف وجد فى العالم بأسره... فلِمَ نحطم أهمية هذا المتحف الثانى حيث يحضر العالم كله، كل شتاء هنا كى يعجبوا به! هناك مبدأ عالمى معمول به فى جميع المتاحف، وهو أن المتحف يمكن أن يتلقى لكنه لا يعطى أبدا، فلتطلب مصر فينوس دى ميلـو مـن اللوفر، أو حجر رشيد من لندن، أو أى أثر من مجموعة الآثـار الموجـودة فـى نيويورك. لن يسلم أحد مثل هذه الهبة. فلِمَ يجب أن تعامل مصر معاملة مختلفة عن تلك التى تعامل بها المتاحف الأخرى؟!".

ومع تردى مصر فى الفوضى المالية، ناضل ماربيت نضالا مريرا من أجـل بقاء متحف بولاق، ومصلحة الآثار. انعقدت أولى لجان التحقيق فى أحوال الـبلاد المالية بشكل مشترك بين بريطانيا وفرنسا عام ١٨٧٥، وبعد ذلك بعامين، أصـبح نظام الرقابة الثنائية سارى المفعول، وبموجبه كان موظف إنجليزى يقوم بالتفتيش على دخل البلاد، ويقوم موظف فرنسى بالتفتيش علـى المنـصرف. فلـم يطـق إسماعيل التدخل المباشر. فأدى هذا به إلى تنظيم شغب عـسكرى فـى القـاهرة،

فناشدت القوى الأوربية سادته الأتراك من أجل تقديم المساعدة. وفى ٢٦ يونيــه، تلقى إسماعيل برقية من السلطان يسميه فيها "خديوى مصر السابق"، وعين ابنــه توفيق محله.

وفجأة طولب مارييت بإعداد ميزانية للمتحف والاحتفاظ بحــسابات. وبينمــا خفضت الأموال المتاحة، إلا أنها، على الأقل، كانت تدفع بانتظام، جنيهات حقيقية، وليس كمبيالات أو سندات، فاستطاع مارييت أن يسير مركبة المنشية. وقل العمل فى التنقيب، كما أن صحة مارييت المتدهورة جعلت من الــصعب عليــه القيــام بالإشراف. لقد قضى أشهره الأخيرة فى إعادة تنظيم المتحف، ومحاولته أن يضمن أن نفوذ فرنسا على علم المصريات لن يضعف بعد وفاته، وبدا مــن المؤكــد أن هنرى بريجش صديقه الحميم وزميله سوف يحل محله، لذا وافق مارييــت بتــردد على إنشاء بعثة أثرية فرنسية فى القاهرة، تضم علماء المصريات والمــستعربين للإبقاء على النفوذ الفرنسى فى هذا الميدان، إذا مافقدت فرنسا منصب المدير.

وصلت البعثة إلى القاهرة فى أوائل يناير ١٨٨١. وتوفى مارييــت فــى ١٨ يناير ١٨٨١. أقيمت له جنازة رسمية، ودفن فى حديقة متحف بولاق، تماما بجانب الباب الأمامى. ويرجع الفضل كل الفضل فى أن المتحف أصــبح أكبــر وأشــمل مجموعة أثرية من الكنوز المصرية فى العالم إلى مارييت؛ وحرصــت الحكومــة على أنه إذا ما أقيم المتحف فى مكان آخر، فإن رفات مارييت سوف تنتقل معــه. وهى اليوم ترقد فى مقبرة من الجرانيت والرخام الأبيض، وبجانب هذه المقبــرة، يوجد تمثال من البرونز مكتوب عليه: "مارييت باشا، عرفانا من مصر".

الفصل السابع

علم الآثار لا يعرف العواطف

أثناء السنوات التى تمتعت فيها فرنسا بالسيادة فى ميدان التنقيب على طول وادى النيل، كان أوجيست مارييت، مدير مصلحة الآثار يتأمل مجموعة آثاره المتنامية، ويقود الشخصيات الملكية ويرشدها لمشاهدة مواقع التنقيب. فى ذلك الوقت، كان مؤسس علم المصريات البريطانى يقضى يوم عمله فى حجرة صغيرة فى الزاوية الجنوبية الغربية فى قاعة نينوى فى المتحف البريطانى. لم يكن مزاج د. صامويل بيرش مزاجا عصبيا، لكن كان يستحوذ عليه الاقتناع بأنه يعمل فى وضع يتسم بالمخاطرة الدائمة، شأنه فى ذلك شأن الرواد من الأثريين الذين عملوا فى مواجهة المناخ القاسى فى مصر وتربتها المستعصية. وبالرغم من هذا الشعور بعدم اليقين، فقد اكتشف مجموعة كبيرة من الآثار، مسجلا كل أثر منها بيده، فنشر ٣٠٠ عمل، وحاضر على نطاق واسع عن المصريات، وتراسل بنشاط مع العلماء فى جميع أنحاء العالم.

فى ميدان دراسته، لم يتلق صامويل بيرش أى تعليم رسمى أكثر من خمس سنوات قضاها فى مدرسة تيلر التجارية، التى غادرها عام ١٨٣١ وهو فى الثامنة عشرة من عمره. ويعد هذا أمرا مثيرا للدهشة إذا ما علمنا أن أباه كان عالما فى الرياضيات والدراسات الكلاسيكية، وأنه انتخب زميلا فى كلية سينت جونز، بأوكسفورد، قبل أن يلتحق بالوظائف الكنسية. ومن الممكن أن يكون صامويل قد تحول ذهنه عن متابعة دراسته بسبب اهتمامه باللغة الصينية، التى اهتم بها فى

وقت مبكر من حياته. وقد يكون أمله فى تولى منصب فى الصين هو الذى جعله ينحرف عن الطريق الذى يوصله إلى الجامعة.

استخدم صامويل مهاراته أول ما استخدمها فى وظيفته فى المتحف البريطانى، واضعا فهرسا لما يملكه المتحف من عملات صينية. إذ تولى ما كان يسمى حينئذ وظيفة مساعد، فى إدارة الآثار التى كانت تحت رئاسة أو أمانة إدوارد هوكينز، وكانت تحتوى تقريبا على تشكيلة المجموعات التى يتألف منها المتحف البريطانى بأكملها الآن، فهى مخزن شاسع من المواد المنوعة، وكانت المجموعات الإغريقية والرومانية تعتبر أقيم ما فيها. أما الآثار التى جاءت من مصر فلم تكن تعد من الفنون الجميلة، كما أنها ليست من البدائية بحيث تعد مجرد دراسة أثنية أو عرقية. وكانت المشكلة تكمن فى أنه لا يوجد من يملك المهارة للتعرف عليها وتصنيفها على نحو جيد؛ فقرر هوكينز أن يوجه طاقات بيرش الشاب فى هذا الاتجاه بالتحديد، ووجد فيه تلميذا نجيبا.

وفى عام ١٨٣٨، كان بيرش لديه علم بالهيروغليفية يكفى لكتابة مقال عن قطعة من تابوت قدمها فيز وبيرينج للمتحف، بل قدم تصورا لإعداد قاموس للهيروغليفية. وظل لبعض الوقت يشك فى أن المنهج الذى اتبعه شامبليون هو المنهج الصحيح، غير أنه أصبح، بالتدريج، مقتنعا بصحته وذلك بمواجهة خطأ المعارضين. ومن أقيم الأعمال التى انشغل بها بيرش فى ذلك الوقت هو نشر البرديات. لقد كان أوصياء المتحف يصرون فى الأصل على أن البرديات تخص قسم المخطوطات لأنها وثائق مكتوبة باليد، مع أنه لا يوجد من يفهمها فى ذلك القسم. ولما كان بيرش الذى يعمل فى قسم الآثار يتوق إلى أن يضع يديه عليها، فقد انتقلت البرديات، الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية، إلى قسم الآثار فى مايو ١٨٤٠، وظهر الجزء الأول من "المختارات من البرديات بالأحرف الهراطيقية" عام ١٨٤١ مطبوعا، حيث قام بيرش بجمع هذه المختارات وتحريرها. وهذا الكتاب يمثل بداية نضاله على مدى حياته كى يجعل النصوص الموجودة لدى المتحف متاحة لعالم الدارسين.

وصارت شهرة بيرش فى ذلك العام شهرة دولية لا ينازعه فيها أحد. وعلى الرغم من أن قدميه لم تطآ أرض مصر، إلا أن محررى الصحف والمجلات

العلمية كانوا يستشيرونه فى الأبحاث التى تتعلق بعلم الآثار المصرية، وكان مطلوبا دائما للمساعدة فى الترجمة وإعداد المحاضرات وتصحيح المخطوطات. وفوق هذا كله، كان تجار الآثار ينغصون على بيرش حياته دائما سعيا إلى شهادة منه على قيمة بضائعهم. فى السابق، كانت أفضل طريقة لضمان أصالة وصحة قطعة أثرية مصرية هى التنقيب عنها واستخراجها من الأرض، فكانت المتاحف والملوك والحكومات والأفراد على حد سواء يقومون بتمويل الحملات بهدف وحيد، هو اقتناء الكنوز التى لا يرقى الشك فى أصلها لأنها استخرجت من الأرض.

وفى منتصف القرن التاسع، انتشرت أعمال التنقيب، فوجدت الكثير من الكنوز طريقها إلى السوق، حتى إن أيسر السبل للحصول عليها كانت عن طريق شرائها من التجار، ويتطلب هذا خبرة من نوع يختلف عن تلك التى كانت تتوافر لدى المنقب الميدانى، إذ إن الحاجة لم تكن للاكتشاف وإنما للتمييز، وأصبح المزيفون المقلدون فى ذلك الوقت، يتمتعون بمهارة فائقة وحذق يبلغ حدا كبيرا من الدقة. فكانت "الجعارين" على سبيل المثال تنتج بالمئات فى حجرات خلفية فى محال الأقصر، وكان يتم إخفاؤها بحذق بطلاء رقيق مصنوع من الخرز المهشم الذى يوجد بين أربطة المومياوات، وكانوا يضيفون إليها مسحة الزمن والقدم عن طريق إطعامها للديوك الرومية، إذ يبدو أن جهازها الهضمى يؤثر فى لون هذه الجعارين أو الآثار فتبدو وكأنها قد دفنت تحت الأرض لمدة ألفى عام.

ويبدو أن بيرش كانت لديه غريزة فى التعرف على الأشياء المزيفة (الفالصو) ربما جاءته من عشرته الطويلة مع الأشياء الأصلية، قبل أن تغرق الأشياء المزيفة الأسواق. فكان من الصعب معارضة آرائه، لذا فإن التجار والعملاء على نطاق واسع كانوا يتقبلونها باعتبارها أمورا مسلّما بها، وأصبحت الحجرة الصغيرة خلف قاعة نينوى مصدر التحقق الذى لا غنى عنه فى سوق آخذة فى الازدهار، وكثيرا ما كان بيرش محاصرا من الناس الذين يزدحمون لمعرفة رأيه.

كذلك كانت آراؤه تُلْتمس فى أمر كان النقاش العام يشتد حوله. إذ إن الدعاية التى أعطيت للاكتشافات التى حدثت فى مصر كان يواكبها اهتمام شديد من جانب أولئك الذين يعنون بإلقاء الضوء أو إظهار صدق الكتاب المقدس الذى لا يرقى إليه الشك، فأثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر، تسلل النقد الذى كتبه الدارسون

الألمان إلى إنجلترا. وكان هؤلاء يتساءلون عن (أو يشككون فى) الدقة التاريخية للعهد القديم. ولم يكن لذلك أثر كبير فى البداية. وكان هذا يرجع، جزئيا، إلى أن جمهور المترددين على الكنيسة لم ينشغلوا أو يهتموا بالحذلقة التعليمية لدى المفكرين الأجانب، كما كان يرجع فى جزء منه أيضا، إلى الاقتناع الثابت المستقر بأن الكتاب المقدس أسمى من النقد.

وفى ١٨٣٠، وعظ د. توماس أرنولد قائلا بأن "العقيدة المسيحية التى هى مرشد وملاذ حياتنا، لا ينبغى أن تُرْهبها جميع مسائل العلم والتاريخ والنقد". وأضاف أنه لايمكن فهم الكتاب المقدس فهما صحيحا إذا ما نظر إليه فى جميع أجزائه بوصفه متساويا من حيث قوة الحجة.... والنظر إليه باعتباره كقرآن المسلمين.

أحدث هذا الكثير من القلق لدى إيرل بريدجووتر، مما حدا به إلى أن يوصى بمبلغ كبير من المال فى عام ١٨٣٩ للجمعية الملكية. وكان هذا المبلغ مخصصا لكتابة سلسلة من المقالات أو الرسائل، يكتبها خبراء فى اللاهوت والعلوم، تبين أن الديانة المسيحية تتماشى مع المكتشفات الجديدة التى حققها العلم. ومن بين الدارسين الذين كتبوا إحدى رسائل بريدجووتر، كان هناك عالم الجيولوجيا ويليام بكلاند، الذى أعلن أن الكتاب المقدس لم يشتمل على "معلومات تاريخية تتعلق بجميع أعمال الخالق، فعمر الأرض، كما أقره علم الجيولوجيا، وكذلك التطورات التى حدثت فوقها، تبين أن قصة الخليقة كما جاءت فى سفر التكوين لا يمكن التوفيق بينها وبين مكتشفات العلم".

وانضمت دور النشر التى تنشر كتبا دينية إلى ذلك الجدال المستعر، وذلك بإنتاج رسائل أو مقالات كبيرة تطالب بإيجاد أدلة أثرية تدعم سلطة العهد القديم المتداعية.

فى الأربعينيات من القرن التاسع عشر، نشر ويليام أوزبيرن وهو عضو بمعهد الآثار، ثلاثة كتب. فى هذه الكتب ضرب مثلا بالصور الموجودة على جدران المقابر فى مصر القديمة، معتبرا أنها دليل على أن بنى إسرائيل قد عاشوا بالفعل هناك. كذلك كان هناك كانون جورج رولينسون الذى أصبح، فيما بعد، أستاذاً للتاريخ القديم بجامعة أوكسفورد. كتب هذا الرجل كتابا عن تاريخ مصر

القديمة من ثلاثة مجلدات. فى هذا الكتاب أشار إلى أن علم التاريخ الحديث جعل من المستحيل معاملة حملات قيصر على نفس المستوى الذى نعامل به أعمال رومولوس. وأضاف أن هذا لا ينطبق على سفر التكوين، إذ يتضح من الترتيب الزمنى أنه لم تمر خمسة أجيال بين آدم وموسى، لذا "فإن موسى ربما، عرف عن طريق التراث الشفهى تاريخ إبراهيم، بل إنه ربما قد علم عن الطوفان معرفة من الدرجة الثالثة، أى من مصدر فى الدرجة الثالثة من حيث الترتيب؛ كما عرف عن قصة التغرير (يقصد إغراء آدم وحواء) والسقوط (يقصد الخروج) من الجنة معرفة من الدرجة الخامسة"، وختم كلامه قائلا: "نحن لا نملك فى الأسفار الخمسة الأولى (التوراة) أصدق سجل وصل إلينا عن الأزمنة القديمة فحسب، وإنما نملك أيضا تاريخا صادقا صدقا مطلقا فى جميع جوانبه".

فى نفس العام، ظهر فى إنجلترا الجزء الأخير من عمل يتكون من خمسة مجلدات، وكان هذا العمل تحديا لما جاء فى كتاب رولينسون من أحكام تتسم بالثقة، وهذا العمل هو: "مكان مصر فى تاريخ العالم"، ألفه بارون كريستيان بانسين. لقد كان لهذا الرجل تأثير كبير على ملك بروسيا فريدريك حتى إنه أرسل بليسبيون إلى مصر. فى هذا الكتاب شرع فى إعادة وضع "الترتيب الزمنى الصحيح لمصر"، وهدف إلى أن "يعيد لتاريخ العالم القديم الطاقة الحيوية التى حرم منها لزمن طويل". كانت هذه المجلدات ثقيلة الوزن ومطوية وكان من الجائز أن تغرق وألا يكون لها أى ذكر، لو لم تكن تتحدى صدق ما جاء فى الكتاب المقدس من معلومات تاريخية وما به من ترتيب زمنى.

ولقد لقيت أفكار بانسين قدرا هائلا من السخرية من جانب رجال الكنيسة، مثلما لقيت من إعجاب غير المؤمنين. ونالت تلك الأفكار مصداقية إضافية فى إنجلترا بسبب الدعم الذى قدمه بيرش، إذ كان سخيا بنصحه للمؤلف، بل إنه كان قد كتب له "نحو ومعجم اللغة المصرية" الذى ظهر فى المجلد الخامس. وعلى الفور، اهتزت أركان الكنيسة المستقرة، من الخارج عن طريق الهجمات التى شنت على مذاهبها باسم الداروينية، ومن الداخل باسم التقدم.

وفى ١٨٦٠، ظهرت نشرة أو مطبوعة من المقالات والمراجعات، وهى عبارة عن مجموعة من سبع مقالات تنادى بالحاجة إلى البحث الحر حتى فى

الثوابت الدينية المسلم بها، مما جعل المسيحيين ينقسمون إلى معسكرين متعارضين تعارضا عنيفا. لقد عبرت تلك المقالات عن الاعتقاد بأن كنيسة إنجلترا يجب أن تتصالح مع المناهج النقدية التى استقرت منذ وقت طويل فى ألمانيا، إذ كانت هذه المناهج تفحص نص الكتاب المقدس مستخدمة أحدث طرق التحليل الأدبى على ضوء الاكتشافات الأثرية.

لا غرو إذن، مع إثارة مثل هذه المسائل، أن تتجه جماعة المؤمنين وجهة أخرى نشدانا للطمأنينة. وكان الدليل التاريخى القاطع الملموس يقف أصم فى الحجرات المضرية فى المتحف البريطانى، وأخذ طوفان الزوار يطالب بأن يهدئ بيرش شكوكهم، وذلك بأن يعرض عليهم العشرين فضة التى بيع بها يوسف وصار عبدا، أو المكتبة المليئة بالكتب، التى أشيع، أنه تم الحفاظ عليها من سفينة نوح. ومع تزايد التهديد الذى شكلته تواريخ الأشياء التى اكتشفت فى مصر، للتواريخ الموجودة فى النسخة المعتمدة للكتاب المقدس، أصبح الترتيب الزمنى فى الكتاب المقدس هوسا يشغل الناس، وأصبح غرباء الأطوار يزدحمون حول بيرش يطلبون منه شرحا لكل حادثة سجلت فى الكتاب المقدس.

فى ١٨٦٠، رقى بيرش إلى منصب أمين الآثار الشرقية، كما كان هذا العام هو العام الذى ظهرت فيه المقالات والمراجعات ومناقشة أوكسفورد حول نظريات داروين، وبداية عقد من الزمان استعر فيه الصراع بين العلم والدين فى إنجلترا بشراسة غير مسبوقة، فلا غرو إذن فى أن يطلب الجانبان من بيرش أن يدعم حججهما. ولأن الكتاب المقدس أشار إشارات محددة إلى مصر والتاريخ المصرى، كان أولئك الذين يدافعون عن القضية القائلة بأن الكتاب المقدس منزه عن الخطأ يتطلعون إلى أعمال التنقيب عن الآثار كى تؤكد ما كتب فى الكتاب المقدس، فى حين أن معارضيهم كانوا يسعون إلى ما يدحض ذلك. كما كان هناك ميل لدى علماء المصريات لتسجيل هذه الكلمة أول ما سجلت عام ١٨٥٩ للدعوة إلى ثقافة مصر القديمة، باعتبارها سمتا سامقا فى الرقى الإنسانى، سقطت البشرية من عليائه.

وكان هناك رأى عن المصريين القدماء أكثر استساغة بالنسبة لدارسى الكتاب المقدس. قدم هذا الرأى زميل بيرش الأصغر ريجينالد ستيوارد بول، فى إسهامه

فى معجم سميث الشهير عن الكتاب المقدس، والذى نشر عام ١٨٦٣ أن قدماء المصريين يتسمون بأنهم شديدو التدين، ويميلون إلى التأمل، غير أنهم يميلون إلى الخرافات الوضيعة، والنزعة الوطنية، واحترام المرأة، ويتصفون بكرم الضيافة، والاقتصاد فى العيش، لكنهم أحيانا ما يميلون إلى الترف. وهم حسيون، كذابون ولصوص، غادرون وهيابون. كما أنهم شديدو التحامل أى يؤمنون بالأفكار المسبقة، وذلك من خلال زهوهم بجنسهم وعرقهم، فى مواجهة الأغراب، وإن كانوا يعطفون عليهم. كانت ديانتهم نوعا من العبادة غير السوية (الفيتيشية) التى تقدس الأشياء كرموز جنسية، وهى أحط أنواع عبادة الطبيعة.

ويستطرد بول فيقول، لم يكن فى نظامهم الاجتماعى أى شىء يتعلم منه بنو إسرائيل، "والفكرة القائلة بأن القانون هو ابتكار مصرى تعد إحدى أسوأ الأمثلة على النقد الحديث الطائش غير المسئول".

يبدو أن بيرش كان مقتصدا متحفظا فى إسهاماته فى هذا النزاع . فبالرغم من كونه ابنا لأحد القساوسة، إلا أنه ظل حصيفا بالنسبة لما يعتقد به. إذ كان هناك الكثير مما يخسره بمعارضة الكنيسة معارضة صريحة، على الرغم من أن آراء أعضائها الأشد رجعية لا بد أنها قد أصابته بالكآبة. وفى نوفمبر من عام ١٨٧٠، اتخذ خطوة لا بد أنها أدخلت الطمأنينة فى قلوب أولئك الذين كان يداخلهم أى شك فى ولائه، وذلك بأن دعا إلى اجتماع مع بونومى، الذى كان فى ذلك الوقت، أمين متحف سلوين، ويقوم بتأسيس علم آثار الكتاب المقدس. وكانت أهداف هذا الاجتماع البحث فى الآثار والترتيب الزمنى أو الكرونولوجيا والجغرافيا والتاريخ القديم والحديث لآشور وبلاد العرب ومصر وفلسطين وغير ذلك من الأراضى التى ذكرت فى الكتاب المقدس. وكذلك تطوير دراسة آثار هذه البلاد، والحفاظ على سجل مستمر للاكتشافات، الآن وفى المستقبل. وأصبح بيرش أول رئيس للجمعية. وضم مجلس الجمعية ستة ممن يرتدون المسوح الكنسية. وقدر له فيما بعد، أن يضم الرئيس جلادستون، ولورد هالسبورى، ودين ستانلى. وحين كانوا يلحون على بيرش للإفصاح عن معتقداته الدينية، كان يكتفى بالقول: "أومن بكل ما فى العلم، وكل ما فى الدين".

وفى الخطاب الذى ألقاه فى ٢١ مارس ١٨٧١، كرئيس للجمعية، استعرض التقدم الذى أحرز فى ميدان الآثار، مشيرا إلى أن مجاله هو نشر معارف العلماء فى ميدان الآثار السامية: "ليس بالنسبة للموضوعات الخاصة بالكتاب المقدس فحسب، وإنما أيضا بالنسبة للتاريخ الأعم لتلك الأمم العظيمة فى آسيا الوسطى التى لعبت دورا فى غاية الأهمية فى بداية تاريخ الحضارة، والتى ترتبط ارتباطا وثيقا بتراث أوربا الغربية وتاريخها. لقد جاءت كل المعلومات السابقة عن هذه الأمم من الكتب المقدسة أو نقلت عن الكتاب الإغريق الأقدمين، لكن اكتشافات علم الآثار، وعلى الأخص فقه اللغة، مكنتنا من التوغل فى أبعد الآماد وفحص الآثار المتزامنة لهذه الأمم العظيمة".

ويبدو أن بيرش يميل إلى جانب الكتب المقدسة، وإن كان ذلك ببعض الحذر، وهو أمر إلى حد ما مثير للدهشة بالنسبة لأمين الآثار الشرقية. بعد فحص الآثار، كما يقول، من الممكن أن "نقارن المعلومات التى تقدمها الآثار بما نعرفه من صفحات المجلد المقدس والتواريخ الإغريقية والرومانية". ولا يوجد ثمة شىء هنا يقلق الأساقفة المحافظين، حتى حين استمر كلامه زاعما أن تقدم التنقيب فى مصر كان من العظم حتى إنه "سيكون من المستحيل من الآن فصاعدا أن نصور تاريخ العهد القديم تصويرا كافيا دون الإشارة إلى الآثار المعاصرة له فى مصر"، ربما شعروا بقدر قليل من القلق لاستخدامه لما يشير إلى أهمية الآثار مع أهمية الكتاب المقدس. وربما استشعر النقاد التفسيريون (أى الذين يشرحون النص) والذين تزايدت قوتهم فى البلاد، ربما يكونون قد استشعروا بعض الراحة فى تلخيص بيرش لنوايا أو مقاصد جمعية علم الآثار فى الكتاب المقدس: "إن مجالها هو علم الآثار، وليس علم اللاهوت، غير أنها ستكون عونا مهما لعلم اللاهوت". فالجمعية لم تسع إلى إثبات صحة أو خطأ الكتاب المقدس؛ إذ إن إجراءاتها وموادها المنشورة كانت تتناول مباحث جغرافية ولغوية وأثرية، وكانت موغلة فى التفاصيل الدقيقة إلى حد جعلها لا تقدم أى شىء يصلح للدفاع أو الهجوم لأى من الجانبين. وبينما كانت الأبحاث المهمة عن مصر القديمة تتم فى إنجلترا، كان الرحالة والمقيمون إقامة مؤقتة من غريبى الأطوار يحافظون على الوجود الإنجليزى فى وادى النيل، ولم يكن ذلك يتم عن طريق مخيمات يقيم فيها الأثريون.

وفى ١٨٦١، سافرت ليدى داف جوردون إلى مصر. قامت برحلة فى النيل، حتى طيبة، وقالت إنها صارت "بحيرة إنجليزية إذ توجد الآن تسعة قوارب، والهدف الكبير هو السفر فى النيل بأسرع ما يمكن". ودأبت ليدى لوسى داف جوردون على قضاء الشتاء فى كل عام فى الأقصر، حيث كانت تستأجر الميزون دى فرانس (المنزل أو الدار الفرنسى). كان هنرى سولت قد بنى ذلك المكان عام ١٨١٥، وكان بيلزونى يستخدمه أثناء أعمال التنقيب التى كان يقوم بها فى طيبة. بنى المنزل جزئيا على قمة أحد المعابد ثم بيع للفرنسيين عام ١٨٢٠، كى يستخدمه فيما بعد شامبليون وروسيلينى فى حملتهما المشتركة. كان ذلك المبنى يؤمه كبار الشخصيات، غير أنه لم يكن مبنى فاخرا بأى حال؛ إذ ذكرت لوسى فى خطاب كتبته عام ١٨٦٧ أن نصف المنزل قد انهار على المعبد الموجود تحته. على أية حال، فقد صار هذا المنزل مكانا للسياح البريطانيين، خاصة بعد أن نشرت خطابات لوسى التى كانت ترسلها إلى الوطن عام ١٨٦٥. وفى هذا المنزل زارها ضيوف بارزون، فحضر إدوارد لين الذى كان يضع رسما تخطيطيا للمنزل الفرنسى من أجل زوج لوسى، وفى ١٨٦٩ زارها هناك أمير وأميرة ويلز.

كانت مواهب ليدى لوسى تكمن فى ملاحظة ووصف المشاهد المعاصرة، أكثر من الاهتمام بدراسة مصر القديمة. لكنها لعبت دورها الصغير فى توزيع الآثار، إذ كانت تشتريها كهدايا وترسل بها إلى عائلتها. ومع مقدم عام ١٨٧٠، كانت هناك خدمة منتظمة تقوم بها سفينة بخارية بين إيطاليا والإسكندرية، ولم تكن الرحلة تستغرق أكثر من ثلاثة أيام ونصف، فى حين كانت الغليونات الرومانية تستغرق ستة أيام.

فى ذلك العام، سجل ٣٠٠ سائح أمريكى أسماءهم فى القنصلية بالقاهرة، لا شك فى أنهم انجذبوا إلى هناك حين قرءوا كتاب مارك توين "الأبرياء فى الخارج" الذى كان قد ظهر توا، فكان فندق شبرد يزدهر فى القاهرة وينظم رحلات منتظمة إلى الأهرام. كانت هناك سائحة عابرة فى السبعينيات من القرن التاسع عشر، كان مقيضا لها أن تكون الأم المؤسسة لعلم المصريات البريطانى، إنها إميليا آن بلاندفورد إدواردس. هى ابنه ضابط فى الجيش البريطانى كان قد خدم تحت قيادة ويلينجتون فى حرب شبه الجزيرة. منذ طفولتها كانت تتمتع بموهبة فى الكتابة؛ إذ

نشرت أول قصائدها حين كانت فى الثامنة من عمرها، وكانت تسهم بالمقالات والقصص القصيرة فى الستردى ريفيو، وتشيمبرز جيرنال، وهاوسهولد ويردس، والمورنينج بوست، والأكاديمى. فكانت غزيرة الإنتاج حتى إنها كانت قادرة على السفر بارتياح كى تجد مادة لقلمها، إذ إن عائد ما كتبته ــ من كتب ذائعة فى التاريخ والفن وحفنة من الروايات التى كتبتها فى وقت مبكر ــ مكنها فى ذلك.

وفى عام ١٨٧٣، شرعت إميليا فى رحلة فى أوربا، لكن المطر كان غزيرا، فقررت أن تتجه جنوبا بحثا عن الشمس، ووصلت إلى مصر بالصدفة، وسجلت فى كتابها "ألف ميل فى أعالى النيل": "الحقيقة البسيطة هى أننا وجدنا أنفسنا هناك بالصدفة، لم يكن لدينا، حتى الآن، أى عذر من صحة أو عمل أو أى هدف جاد من أى نوع؛ ولذنا بمصر مثلما ينتحى المرء فى ظل بيرلينتون، أو بساج دى بانوراما (أى ممر البانوراما) كى نبتعد عن المطر". وصار الملجأ هوسا وإدمانا، فى البداية انشغلت إميليا بالجرى وراء الآثار. فى سقارة، وجدت الأرض مبذورة بنتف الفخار المكسورة، والرخام والمرمر والحجر الجيرى، وأخذت تنبش الرمال بحثا عن الكنوز، ولم تجد سوى رأس مجدوع الأنف بين ركام من العظام التى حال لونها، ثم بصدمة، لن تنساها إميليا بسرعة بأى حال "اكتشفنا أن هذه العظام هى عظام بشر، وأن هذه النتف من الكتان هى نتف من قماش الأكفان، وأن تلك الكتل الغريبة بنية اللون هى ما كان، فى وقت ما، لحم بشر".

لقد اندهشت من تلك السرعة التى تغلبت بها على مشاعر الاشمئزاز، وسرعان ما وجدت نفسها تنبش بين الحطام دون أن تحس بأى وخز من ضمير، وكأنها خاطف جثث محترف. ذلك أن الرغبة العارمة فى اصطياد الآثار لم يكن يعدلها شىء فى عدواها سوى القسوة التى صاحبت تلك الرغبة، فهى تسجل أن الخلق السائد بين الرحالة فى مصر فى ذلك الوقت هو تصيد الآثار دون مراعاة لأية مبادئ، وإذا ما سئل معظم الرحالة فى مصر لاعترفوا اعترافات متشابهة، فهم فى البداية يشعرون بالصدمة، ويستنكرون فى ذعر نظام التنقيب فى الأضرحة بأكمله، القانونى منه والوحشى. عموما، هم يكتسبون تذوقا فى جمع التماثيل الصغيرة التى تمثل الجنازات، ثم يشغفون بشراء غنائم الموتى، وينتهى بهم الأمر

بنسيان جميع ما كانوا يؤمنون به من مبادئ فى السابق، ولا يطلبون شيئا أعز من اكتشاف ومصادرة المقابر بأنفسهم لأنفسهم.

فى طيبة، لم تكن إميليا فى حاجة إلى النبش، إذ كان التجار يحضرون الكنوز إلى قاربها، وكذلك حفارو القبور الذين يرتدون أثوابا طويلة سوداء. كانوا يخرجون من جيوب خفية أكياسا مليئة بالجعارين أو كميات من التماثيل الصغيرة التى تدفن مع الموتى. وكانت معظم النذور من الأعمال المزيفة، لكن حفارى القبور والتجار، والمزيفين كانوا يعملون معا. إن التجار والحفارين فقط هم الذين كانوا يعملون بشكل غير قانونى، ومادام أن الحظر القانونى على التنقيب والتجارة كان ينطبق فقط على الآثار الحقيقية، فلم يكن ثمة ما يخيف المزيفين سوى غضب السائحين، إذا ما اكتشفوا ما يفعله هؤلاء المزيفون.

وفى الوقت الذى زارت فيه إميليا مصر، كان الاكتشاف أو معرفة الأشياء المزيفة أمرا مقصورا على الخبراء. كانت الحياة فى طيبة مليئة بالتناقضات، إذ كان السائحون يقضون الصباح فى دراسة المعابد دراسة جادة، أما المساء فكان ينفق فى تصيد الكنوز الممنوعة "يمكننى أن أقول بحق إن الحياة هنا كانت لذة متصلة من ملاحقة الآثار. صحيح أن اللعبة كانت محظورة؛ إلا أننا استمتعنا بها على الرغم من ذلك لأنها كانت غير قانونية، وربما زاد هذا من استمتاعنا بها".

كانت أعمال التنقيب التى يقوم بها مارييت تتم فى الوقت الذى زارت فيه إميليا مصر. وصدر أمر بأن جميع صناديق المومياوات التى تكشف يجب أن ترسل، دون أن تفتح، إلى المتحف فى بولاق. وذات صباح، سمعت إميليا بأن مقبرة جديدة على وشك أن تفتح عبر النهر، فقفزت داخل أحد القوارب كى تشهد الاكتشاف. وكانت المقبرة بالقرب من الرمسيوم. وحين وصلت كان الحكمدار يراقب الحفارين فى الحفرة وهم يزيلون الرمال عن صندوق مومياء مدفونة جزئيا. ورأت إميليا التابوت الحجرى وهو ينكشف ببطء قديما. امتدت أياد إلى الصندوق وكتبت بالهيروغليفية. وسقط الغطاء.

بالداخل، كان هناك صندوق خشبى صغير يقع عند قدم المومياء، فسلم هذا إلى الحكمدار الذى نحاه جانبا، دون أن يفتحه. ورفع صندوق المومياء إلى السطح "بعث ذلك فى المرء شعورا بالصدمة، إذ يرى التابوت لأول مرة وقد وضع كما

تركه المشيعون الذين شيعوا جنازة صاحب المومياء؛ ثم ترفعه أياد قاسية، فيفتش ويكشف وربما يتم كسره باعتباره شيئا غير جدير بإشغال ركن في مجموعة بولاق. وما إن تستقر تلك الأشياء وتصنف فى أحد المتاحف حتى يأتى المرء للنظر إليها باعتبارها "عينات"، وينسى أنها كانت فى وقت من الأوقات بشرية تثير الشفقة وهى ترقد فى أعماق قبرها ذات صبح مشمس".

وبينما لم تكن إميليا تطمح إلى الحصول على إحدى المومياوات، كانت هناك رغبة طاغية فى تلك المومياوات بين الرحالة فى وادى النيل فى ذلك الوقت. ففى ذلك الشتاء، هُرِّبَتْ خمس عشرة مومياء بنجاح من الجمارك فى الإسكندرية. وعلى الرغم من أن إميليا قد اكتوت بحمى الآثار بعد وقت قصير من وصولها، إلا أنها أنهت جولتها فى مصر وقد أحست بالتزام بالحفاظ على تلك الآثار، وإعجاب بمتحف بولاق ومؤسسيه. إذ أعجبت بمارييت، وأسفت على إهمال الباشوات الذين سمحوا بأن تنقل كنوز مصر إلى متاحف أوربا وأمريكا.

كانت الثروة المتبقية فى بولاق، فى معظمها، صورا شخصية لأفراد، ولوحات جنائزية، وتمائم وآثارا شخصية، لذا فإن متحف بولاق أقل ثراء من حيث التماثيل الضخمة التى تملأ القاعات الكبرى فى المتحف البريطانى أو متحف تورينو، أو اللوفر. ذلك أن تلك التماثيل الضخمة تم الاستيلاء على معظمها منذ وقت طويل وتم نقلها إلى أوربا، لأنها كانت مقامة فوق سطح الأرض وأقل عددا إذا ما قورنت بغيرها. أما التماثيل الموجودة فى بولاق فهى نتاج المقابر.

لقد كتب مارييت فى كتابه الإرشادى الذى نشر للزّوار الذين جاءوا من أجل افتتاح قناة السويس، أن مقبرة تى فى سقارة أصابها قدر من التلف الذى تسبب فيه السائحون فى السنوات العشر منذ اكتشافها، يفوق ما لحق بها فى الستة آلاف عام السابقة. وطلب من قرائه أن يحجموا عن ذلك السلوك الطفولى المتمثل فى كتابة أسمائهم على الآثار. وتعترف إميليا بأنها جعلتهم يرسمون اسمها فى مدخل أبو سمبل؛ لكنها شعرت بالخجل من هذه الهفوة، وندمت على الضرر الذى تسببت فيه. هذا هو حال الآثار المصرية كبيرها وصغيرها، يحفر فيها السائح الأسماء والتواريخ بل وأحيانا الرسوم الكاريكاتيرية. فطالب المصريات يأخذ ورقة مبتلة "يعتصرها" فيمتص أى أثر للون الأصلى، و"جامع الآثار" يشترى وينقل كل شىء

ذى قيمة تقع عليه يداه، والعربى يسرق من أجل ذلك الجامع. وأثناء ذلك، تجـرى عملية التدمير على قدم وساق. ولا يوجد من يمنع ذلك؛ ولا يوجد من يردع ذلـك. ففى كل يوم يكون هناك المزيد من تشويه النقوش ومهاجمة القبور بقصد سرقتها. وتتلف المزيد من اللوحات وأعمال النحت.

لقد كانت مصر مهيأة لعمل إحدى البعثات العلمية، وكانـت إميليـا إدواردس لديها الجذوة والعناد والتوجه القوى للقيام بهذا الدور. وعند عودتها إلى لندن عـام ١٨٧٥، بدأت فى التراسل مع كبار الشخصيات فى المصريات، كـى تزيـد مـن معلوماتها فى هذا الموضوع، وكذلك كى تزيد من نفوذها على مستقبل ذلك العلم.

وتشمل الملفات الموجودة فى المتحف البريطانى التى ترجع إلى ذلك التاريخ، رسائل منتظمة من إميليا إلى صامويل بيرش. أما ردود بيرش عليها، فليس هناك ما يدل على أنها حفظت، ولكن لا بد أنها كانت فورية وبها ما يكفى مـن العـون للتشجيع على مراسلات ممتدة. ولم تكن جميع تساؤلات إميليا ذات طابع أكاديمى. إذ إنها أيضا كانت تلح على بيرش للحصول على البردى كى تضيفه إلى المجموعة الصغيرة من المصنوعات والمنحوتات التى قامت بتهريبها من مصر. وسرعان ما اتضح أن إميليا كانت تريد إنقاذ الآثار المصرية من يدى مصطفى على (غـادرت إميليا مصر سنة ١٨٧٥، أى فى عهد محمد سعيد باشا، الذى خلفه إسـماعيل بـن إبراهيم ابن محمد على)، وريث العرش، وكذلك من المتحف البريطانى. وممـا لا يدعو للدهشة أنها لم تجد حماسا من صامويل بيرش، ونقل عنه قوله إنه لا يوجـد لديه وقت لما أسماه بـ "علم الآثار العاطفى" بمعنى أى شىء لا يكون هدفه الأول الحصول على الأشياء من أجل المتحف البريطانى. وحين كتبت إليه إميليا طالبـة دعمه فى إنشاء صندوق استكشاف مصر، الذى قصد منه الحفاظ على آثار مصر فى وطنها مصر، رفض تقديم ذلك العون: "لقد أخرت ردى بسبب الصعوبة الكبيرة التى أشعر بها دائما فيما يتعلق بأن أوصى الجمهور بالإسهام فى القيـام بأعمـال تنقيب ستئول نتيجتها إلى أن تصبح تلك الآثار ملكا للحكومة المـصرية وتثـرى متحف بولاق، لذا فإنى لا أستطيع توقيع الورقة التى أرسلت بها إلى".

غير أن هذا لم يفت فى عضد إميليا، وواصلت طريقها، وجعلت من ريجينالد ستيوارت بول حليفا وثيقا لها، ويقول البعض إنه أبو المشروع. وكان هذا الرجـل

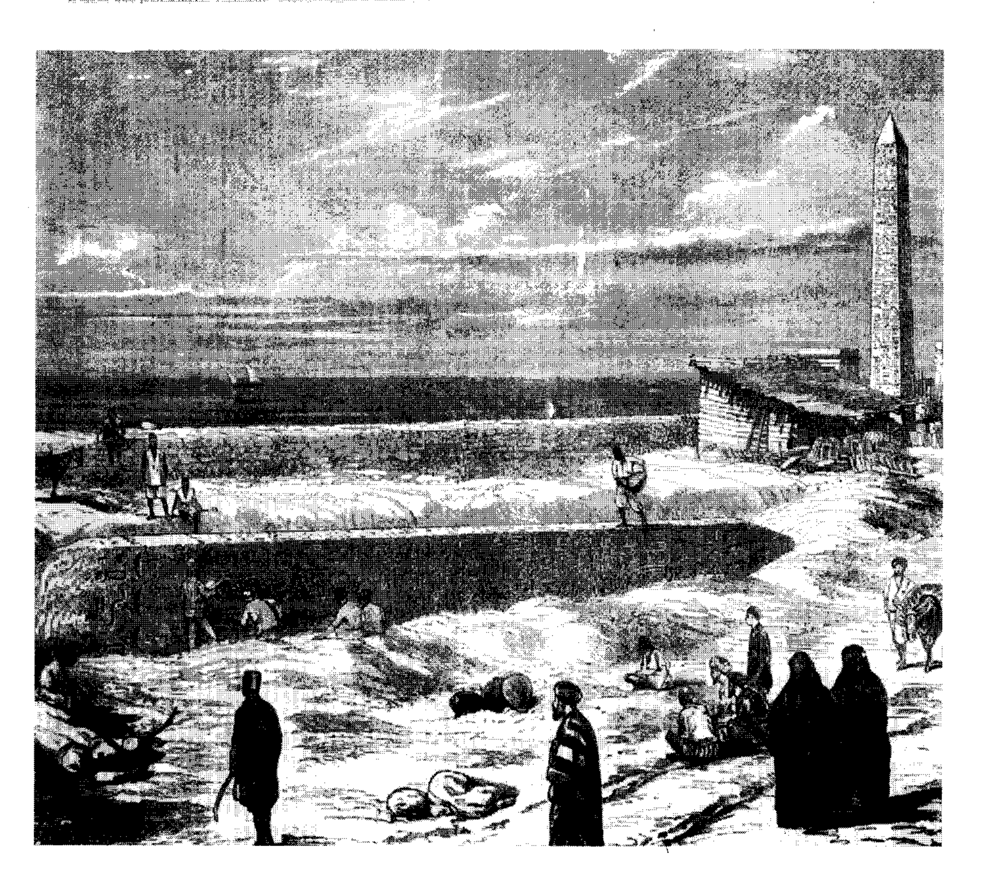
قد أسهم فى إعداد معجم الكتاب المقدس لسميث، وبول هو ابن أخى إدوارد لـين، مؤلف كتاب "سلوك وعادات المصريين المحدثين". وكان لين مسئولا جزئيا عن تعليم بول، وقد أثار فيه منذ وقت مبكر اهتماما بالآثار المصرية والعملات الشرقية. وبعد أن أخرج بول كتابا عن الترتيب الزمنى لمصر القديمة، عين فى إدارة الآثار فى المتحف البريطانى عام ١٨٥٢ حين كان فى العشرين من عمره. وحين انقسمت الإدارة عام ١٨٦٦ وأصبح بيرش مسئولا عن الآثار الشرقية، انتقل بول إلى الإدارة المنشأة حديثا وهى إدارة العملات والقلائد، مع أنه واصل إلقاء المحاضرات والكتابة عن جوانب أكثر اتساعا فى التاريخ المصرى، بما فى ذلك علاقته، أى التاريخ المصرى، بالأبحاث الخاصة بالكتاب المقدس.

كان بول يدرك أن ما لعلم الآثار المصرية من جاذبية فى ذلك الوقت يكاد يكون كله راجعا إلى قدرته على إلقاء الضوء على مناطق الجدل فى نقد الكتاب المقدس. ذلك أن التاريخ المصرى لم يكن بعد قد استحوذ على خيال الجمهور، ولم يكن قد استقر فى الدوائر الأكاديمية كميدان للدراسة فى حد ذاته. وكتب بول وإميليا للكثيرين من ذوى النفوذ من الناس العاديين أو رجال الدين. ومن أهم من استطاعا كسب دعمهم سير أرازموس ويلسون، الجراح المرموق الثرى. وكان سير أرازموس قد أنفق حديثا ما يربو على عشرة آلاف جنيه فى تمويل نقل مسلة من الإسكندرية إلى لندن، كى يتم نصبها على الجسر. وتصادف أن قرأ كتاب "ألف ميل فى النيل"، فانجذب إلى هذا الموضوع، وعلى الفور عبر عن حماسه لاقتراح إميليا إذا كان هذا سوف يساعد إنجلترا على استعادة موقعها الذى خسرته أمام منافسيها الأوربيين. وكتب لإميليا يقول: إن فرنسا وألمانيا دائما ما كانا عاملين نشطين غيورين فى هذا الميدان، والطابع العلمى لإنجلترا يتطلب أن تكون هى أيضا ممثلة عن جدارة، وربما يكون من العبث أن يأمل المرء فى أن لجنة أثرية مثل لجنة فرنسا المصرية، ولجنة ألمانيا وإيطاليا، سوف ترسل بها حكومات هذه البلاد لاستكشاف كنوز وادى النيل والكتابة عنها فقط؛ غير أنه يجب أن تكون هناك رغبة جادة أن تقوم المبادرة الخاصة بعمل شىء فى سبيل تحقيق هدفنا القومى فى احتلال مكان بين علماء أوربا وأثرييها.

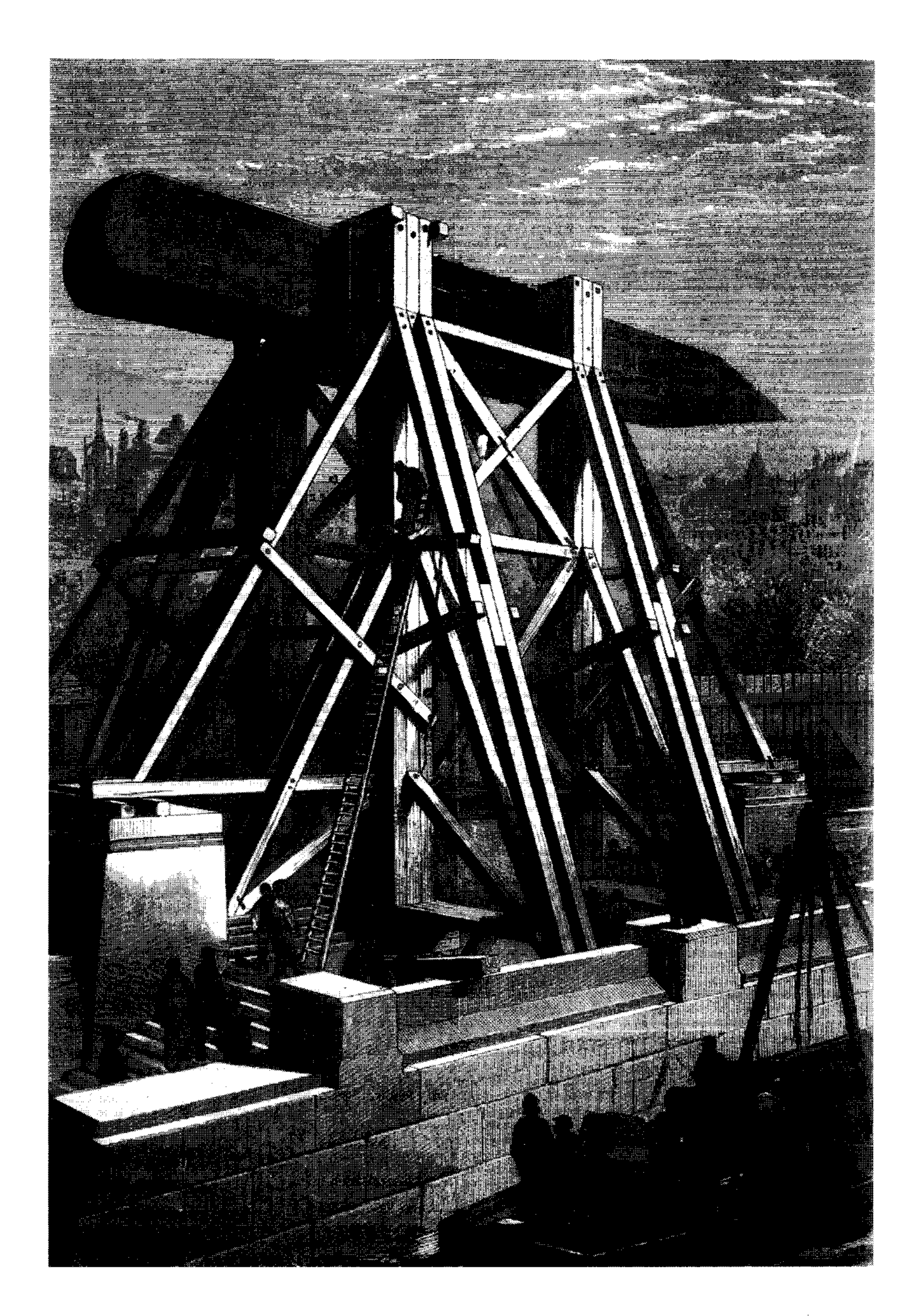
فى أول أبريل، ١٨٨٢، ظهر إعلان فى كبريات الصحف بأن إنجلتـــرا قـــد خطت خطوة مهمة نحو احتلال مكانة لنفسها كأمة رائدة فى استكشاف مصر فـــى المستقبل: "يسرنا عظيم السرور، أن نعلن أن الجمعية التى طالما رغبنا فى إنشائها من أجل النهوض بالتنقيب فى دلتا النيل قد تشكلت أخيرا كأفضل ما يكون". كـــان الغرض من الجمعية هو القيام بأعمال التنقيب فى دلتا النيل، حيث "لا شك أنه ترقد أو توجد وثائق مختفية عن الفترة المفقودة فى تاريخ الكتاب المقدس، إنها وثـــائق نأمل فى أنها سوف تقدم مفتاحا لسلسلة كاملة من المشكلات المحيرة". وقام رعـــاة الجمعية بتشكيل فريق يثير الإعجاب والانبهار والاحترام، وكان منهم كبير أساقفة كانتربرى، بالإضافة إلى العديد من الأساقفة؛ والحاخام الأكبر؛ ولورد كارنارفون، ورئيس جمعية الآثار؛ بالإضافة إلى روبيرت براونينج؛ وسير هنرى ليارد، الـــذى قام بالتنقيب عن نينوى؛ والأستاذ توماس هاكسلى. لقد انعقد عزم إنجلتـــرا واشـــتد حماسها ونظم التمويل، وتبقى معرفة مدى استعداد مصر لاستقبال هؤلاء.



أوجست ماريت، رسم منقول عن صورة فوتوغرافية التقطت له فى سنة ١٨٧٤، قبل ست سنوات من وصوله إلى مصر لأول مرة.



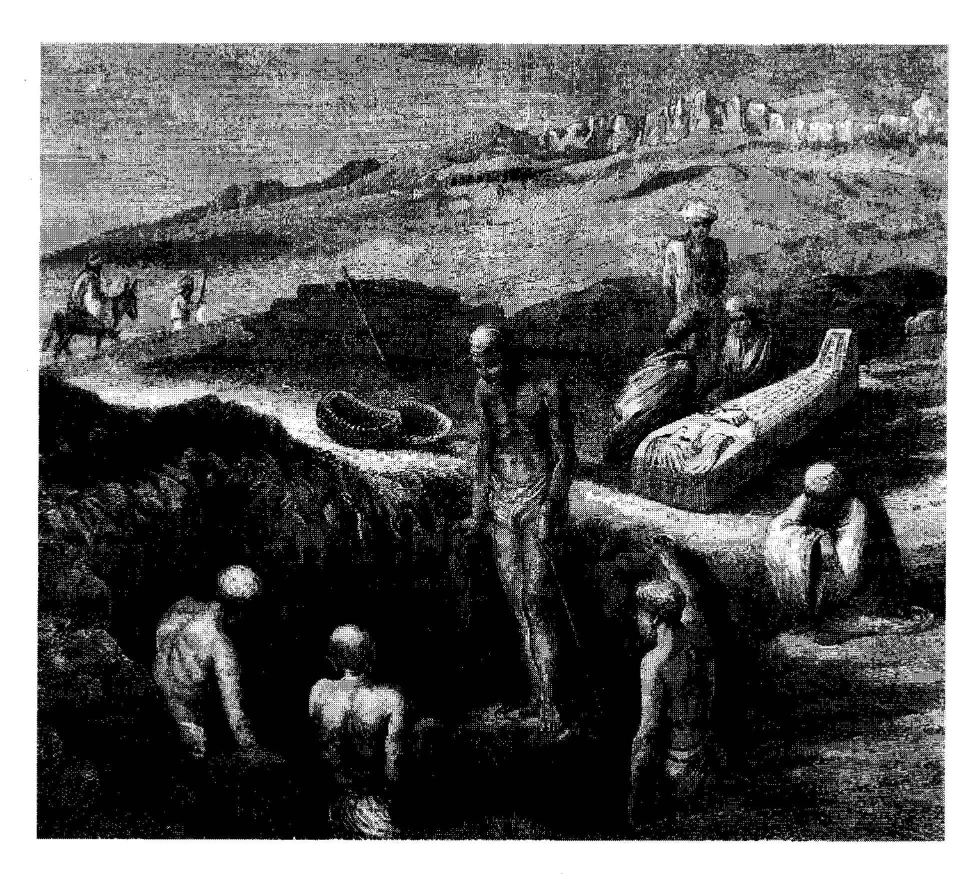
السير جيمس اسكندر يتفحص مسلة كليوباترا ــ هدية محمد على.



الأعمدة الخشبية المستخدمة فى محاولة وضع مسلة كليوباترا فى موضعها على جسر فى لندن



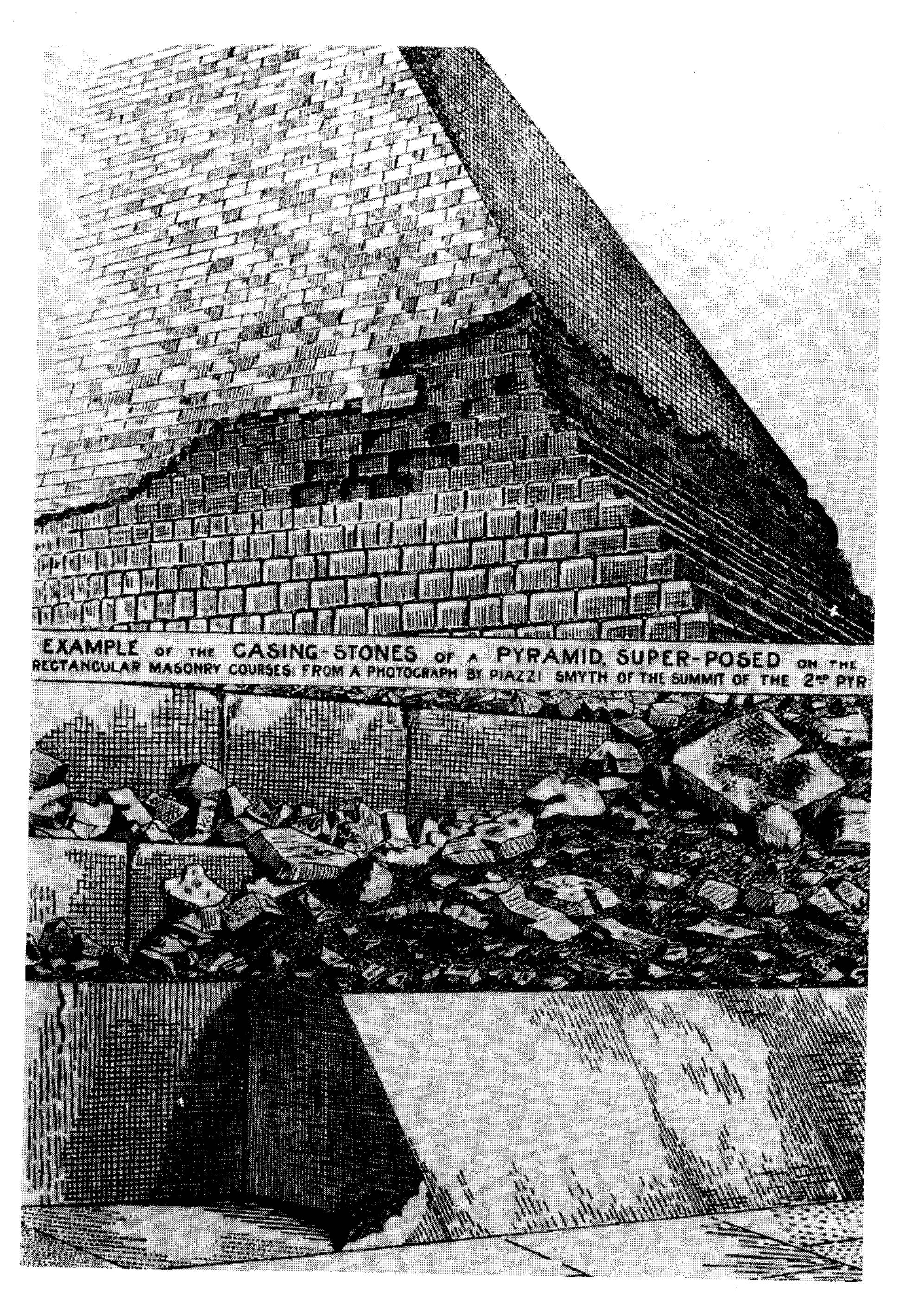
إميليا إدواردز التى أصبح كتابها (ألف ميل صُعُدا فى النيل) من الأعمال الكلاسيكية.



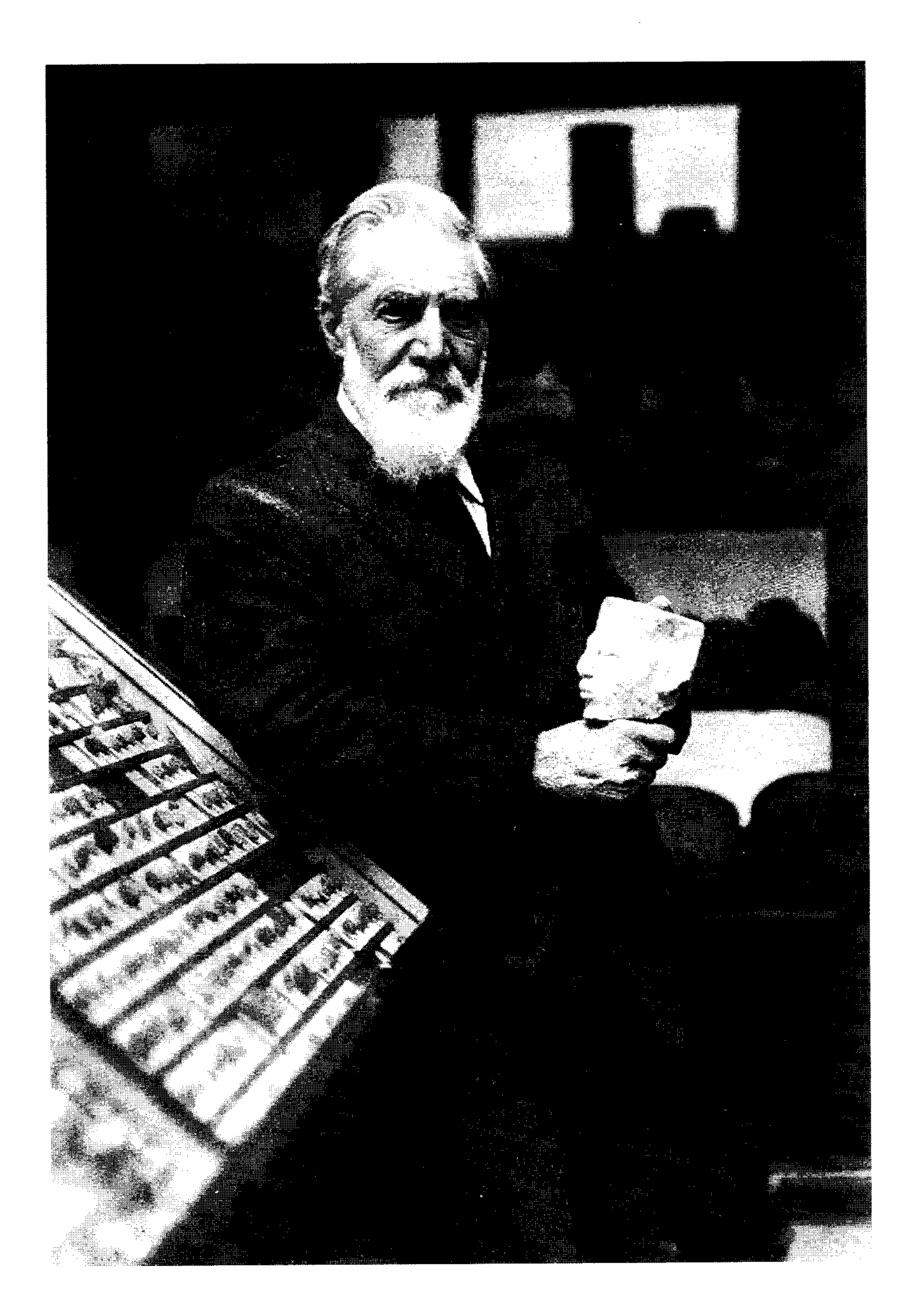
رسم رسمته إميليا إدواردز يظهر الحفائر فى طيبة.



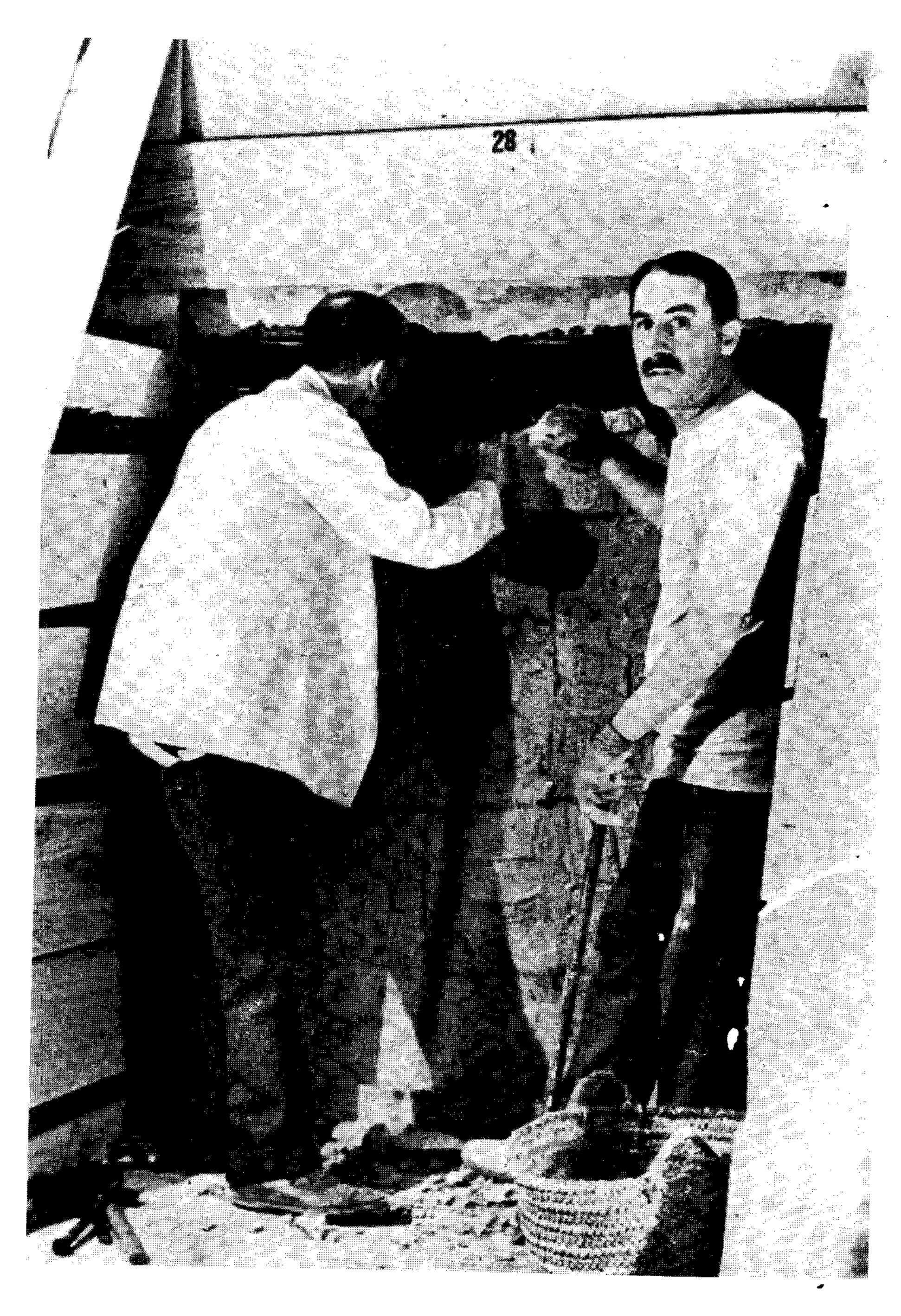
السير إڤلين بارنج، الوزير البريطانى فى مصر.



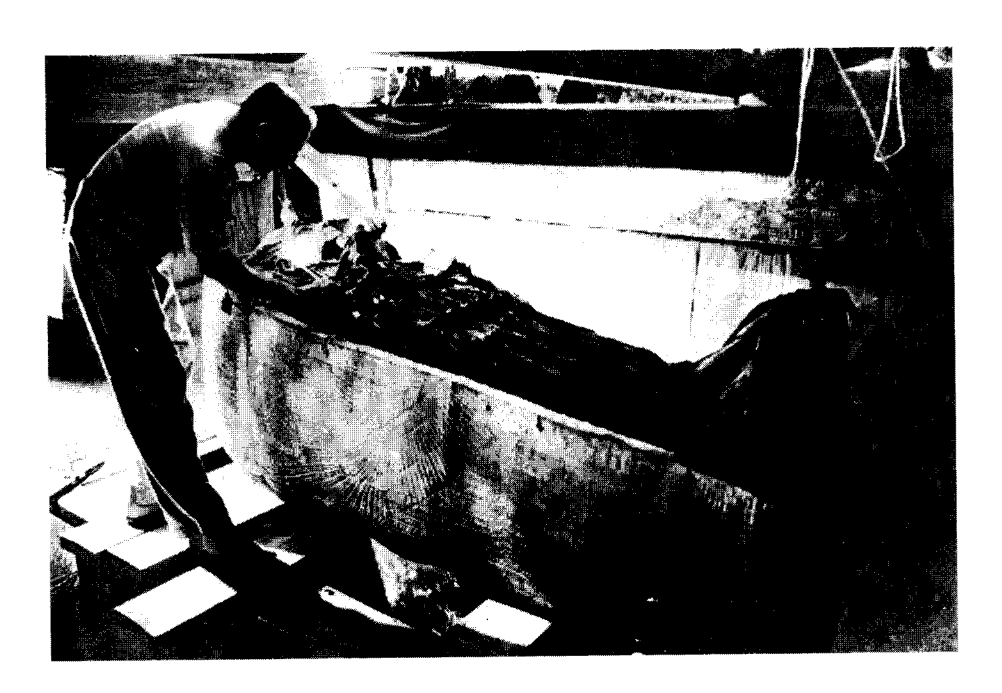
الصورة المواجهة لصفحة العنوان فى كتاب شارلز بيازى سميث (ميراثنا فى الهرم الأكبر).



السير وليم فلندرز بترى، ١٩٢٣.



هوارد كارتر (إلى اليمين) ولورد كارنارفون يزيحان فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٢٢ الأحجار الأولى من الباب الثانى المختوم إلى قبر توت عنخ آمون.



هوارد كارتر يبدأ فى إعادة الكفن الذى يغطى الكفن الثانى بعد فتح التابوت.



هوارد كارتر ينفض التراب عن لفافة المومياء التى لا زالت فى تابوتها.

الفصل الثامن

سياسات الآثار

كان عام ١٨٨٢ عام أزمة أثرت على علاقات الأوربيين بمصر، فأثناء السنوات الأولى لاستقرار الأوربيين فى مصر كانوا يعيشون بوصفهم أغرابا فى بلاد أجنبية، متلاصقين معا فى مناطق مغلقة فى القاهرة والإسكندرية. وكانوا دائما معرضين لخطر الاضطرار إلى دفع ضرائب خاصة، ومن حين لآخر كانوا يتعرضون لأعمال النهب.

وعلى أى حال، فإن إصلاحات محمد على، التى تبعتها سياسات سعيد باشا وإسماعيل باشا، التى كانت تستهدف جعل مصر جزءا من أوربا، غيرت من وضع الأوربيين فى مصر، فتحولوا من طبقة مقهورة إلى طبقة ممتازة. أصبح الأوربيون ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم فوق قوانين البلاد العامة، فمثلا كانوا يدعون لأنفسهم الحق فى ألا يُحاكموا إلا أمام محاكم قنصلية، وعُينوا فى مناصب عليا فى الحكومة، وأخذوا يزهون برقى ملابسهم وعاداتهم. وبينما كان الرحالة الأوربيون يتسلون بمحاولة العيش كالمصريين، كان المصريون الذين ارتقوا إلى الدوائر الحكومية فى القاهرة يتباهون بالملابس الأوربية.

ومنذ وقت مبكر يرجع إلى عام ١٨٤٦، كتب إدوارد لين: "إن الموظفين المصريين يرتدون الفراك (المعطف) الذى يصل حتى الركبة، والصديرى

والبنطلون (السروال) الضيق، مثل تلك التى نرتديها". إنه صدام الحضارات الذى ظهر فى أواخر القرن التاسع عشر، حينما تم استيراد المصنوعات والتكنولوجيا الأوربية إلى البلاد الأقل نموا.

وتسبب هذا الصدام فى مصر، كما حدث فى كل مكان آخر فى العالم، فى الضغينة التى تحولت مع مرور الوقت إلى المعارضة الصريحة. وتحت قيادة ضابط من الجيش هو أحمد عرابى أسمى نفسه "المصرى"، نشبت حركة احتجاج كانت فى البداية تعارض محاباة الضباط الأتراك، لكنها امتدت فصارت تمردا على الوضع المتميز الذى يلقاه جميع الأجانب فى مصر، بما فى ذلك الأوربيون. وكانت حكومة الخديوى أضعف من أن تقمع هذا التمرد، بل إنها بدلا من ذلك، حاولت التزلف إلى الناس عن طريق ترقية عرابى، ثم جعلته وكيل نظارة الحربية، وأخيرا جعلته عضوا فى مجلس النظارة. وكانت هناك مفاوضات عاجلة بين بريطانيا وفرنسا وتركيا، غير أن كلا منها كانت تتبع اتجاها مختلفا بالنسبة للموقف، كما كانت شديدة الشك بالنسبة لغيرها، مما جعل هذه الدول تعجز عن التوصل إلى اتفاق للقيام بعمل منسق.

وعلى الرغم من أن توفيق ظل يسيطر سيطرة اسمية فى مصر، فقد ازداد غضب الجيش، ونودى بعرابى بطلا وطنيا، ولم تكن لديه فى ذلك الوقت أية أهداف واضحة أو محددة، بل إن كل ما كان لديه هو موقف عام معاد للأوربيين، سرعان ما فسرته الصحافة على أنه صيحة من أجل بعث الإسلام والدعوة إلى مبدأ مصر للمصريين. لقد كان جلادستون يبغض فكرة التدخل، إذ إن مصر لم تقدم نفسها فى أعين الجمهور باعتبارها جديرة بالنفقات والمجازفة بالتدخل العسكرى، كما كانت هناك مسألة حتمية ــ إذا ما احتل الإنجليز مصر ــ هى إغضاب الفرنسيين. فأعلن جلادستون: "إن اعتقادى هو أن اليوم الذى يشهد احتلالنا لمصر سوف يكون يوم وداع طويل لأى علاقات سياسية ودية بين فرنسا وإنجلترا". وكان محقا فى ذلك.

على أى حال، كان هناك رأسمال بريطانى مستثمر فى مصر، ولم يكن الرأسماليون راغبين فى خسارته؛ ذلك أن ديزرائيلى كان قد أقحم الحكومة

البريطانية بشكل مباشر فى الشئون المصرية بشرائه لعدد من أسهم شركة قناة السويس، فلما تسربت إلى لندن أنباء التهديد الذى يتعرض له المواطنون البريطانيون فى القاهرة والإسكندرية، خرج الأمر من يد جلادستون. فأرسل فى ٢٢ مايو أسطول البحر المتوسط بقيادة سير بوشامب سيمور، للرسو قبالة الإسكندرية، وانضم إليه عدد قليل من السفن الفرنسية. لم يكن هذا الوضع غريبا أو جديدا بالنسبة للمصريين، ذلك أنه منذ غزو بونابرت، كانت البوارج ترسل من جانب القوى الأوربية كى ترسو قبالة الإسكندرية فى كل مرة تقع فيها قلاقل أهلية، وكان وجود تلك البوارج يساعد على تهدئة الأحوال، ومع ذلك، فإنه فى هذه المرة بدا أنها تشكل تهديدا أجنبيا واضحا، بدا أنه يوحد ما أصبح يرى باطراد على أنه انتفاضة وطنية.

كان الناس فى شوارع القاهرة والإسكندرية يدفعون الأوربيين ويبصقون عليهم. وفى ١ يونيه عام ١٨٨٢، نشبت الاضطرابات فى ثلاثة أماكن فى نفس الوقت، وقتل خمسون أوربيا، كما جرح الكثيرون جروحا خطيرة، من بينهم القنصل البريطانى سير تشارلز كوكسون. وحدث خروج كبير من أرض مصر وهلع عظيم. فمع حلول ١٧ يونيه، كان ١٤٠٠٠ مسيحى (أوربى) قد فروا من البلاد،(*) وكان ٦٠٠٠ غيرهم ينتظرون السفن كى تأخذهم بعيدا.

واستنجدت الحكومتان الفرنسية والإنجليزية بالسلطان للتدخل، فانعقد مؤتمر فى القسطنطينية على عجل؛ ولم يرسل السلطان ممثلا عنه، وبدا أنه غير راغب فى تأييد التدخل المسلح. ثم سحب الفرنسيون دعمهم، ورفض الإيطاليون تقديم المساعدة. وأخيرا صدر الأمر بضرب الإسكندرية بالمدافع وإنزال قوة غزو دون حلفاء. انسحب عرابى إلى كفر الدوار على بعد بضعة أميال عن الإسكندرية. ونزلت قوة تتكون من ٢٠٠٠٠ رجل، وانهزم المتمردون فى معركة التل الكبير فى ١٣ سبتمبر عام ١٨٨٢(**)، وتقدمت قوة صغيرة من الفرسان نحو القاهرة، التى تم

(*) يلاحظ أن الكاتب يشير إلى المسيحيين باعتبارهم غير المصريين. (المترجم).

(**) من المفهوم طبعا أن معركة التل الكبير كانت فى مديرية الشرقية قرب الزقازيق، ولا علاقة لها بما حول كفر الدوّار. (المراجع).

الاستيلاء عليها دون مقاومة. فوجد البريطانيون أنفسهم، دون أن تكون لديهم مطامح استعمارية فى المنطقة، يسيطرون على مصر.

لقد أصبح من الواضح أن موقع مصر المفصلى (المحورى) لن يكون من الممكن تأمينه تأمينا جيدا إلا إذا وضع تحت إدارة شخص مؤهل يتمتع بالكفاءة. لذا، فإنه إزاء معارضة الفرنسيين، الذين طلبوا انسحاب بريطانيا من البلاد، أو على الاقل، تحديد موعد لذلك الانسحاب، وضعت مصر تحت الرقابة غير الرسمية لموظف يتمتع بقدرة غير عادية على الانضباط النفسى، وهو سير إفلين بيرينج.

ولد بيرينج لعائلة من كبار رجال المال، وتعلم تعليما يليق بطفل من علية القوم، وكانت النية منعقدة على أن ينخرط فى الحياة العسكرية، وأرسل الى كورفو حين كان ضابطا شابا. وفى ١٨٧٢، قبل بيرينج تعيينه سكرتيرا خاصا لابن عمه لورد نورثبروك، الذى كان قد عين نائبا للملك فى الهند، وهناك أكسبه نشاطه الذى لا يكل واستعداده لإعطاء الأوامر اسم الشهرة وهو نائب الملك. وفى ١٨٧٧، تم إرساله إلى مصر كمراقب للدين العام أثناء عملية الانتداب الثنائى، فأكسبته مهاراته المالية فى ذلك المنصب سمعة محلية فى الإدارة السليمة، وكذلك العضو المالى لحكومة الهند.

وحين وجد الإنجليز أنفسهم يتحكمون فى مصر بعد معركة التل الكبير، كان بيرينج الاختيار الذى طرح نفسه. وفى أغسطس ١٨٨٣، وبعد أن نال لقب فارس، أبحر إلى مصر. كان منصب بيرينج الرسمى هو الوكيل البريطانى والقنصل العام فى مصر. وكان التفويض العام الموكل به هو استعادة سلطة الخديوى، وبعد أن وجه لبعض الوقت فى الاتجاه الصحيح، ورمم أوضاع البلاد المالية، للترتيب لانسحاب القوات البريطانية من مصر، أثناء ذلك، كان من اللازم حماية قناة السويس، والإبقاء على الطريق المؤدى إلى الشرق الأقصى مفتوحا.

تمثلت منجزات بيرينج الرئيسية فى مصر فى سيطرته على الشئون المالية، فخفضت الضرائب وألغيت الجمارك الفادحة. مع ذلك ظل العجز السنوى مرتفعا، وقل رأسمال الدين العام، وتم إلغاء نظام السخرة، ومع ذلك تم تنفيذ مشاريع الرى مما فتح مناطق واسعة من وادى النيل للاستزراع. ولم يكن بيرينج مدفوعا فى كل

ما فعل، بالرغبة فى حماية مصالح حَمَلَة السندات البريطانيين فى مصر بقدر رغبته فى تعزيز مصالح المصريين. وكان مما يشقيه أن هذا الاتجاه بدا بعيدا كل البعد عن فهم المصريين. كما كان يشعر بالمرارة، بصفة خاصة، حين يكتشف أن الفرنسيين الذين كانوا موجودين فى مصر - كما كان يرى - لا يهمهم إلا تدعيم مصالحهم القومية، وكانوا مع ذلك، دائما يلقون شعبية أكثر من تلك التى يلقاها البريطانيون، ذلك أن المصريين لم يكونوا قد تبينوا بعد "التفوق" القومى للبريطانيين، إذ كانوا منبهرين بالفرنسيين. فكتب بيرينج، فى مذكراته، بشىء من الإطالة تحليلا عن النفسية والثقافة المتناقضة بين الإنجليز والفرنسيين، وكان دائما ما يؤكد قيمة الإنجليز الواضحة فى مقابل ما للفرنسيين من عوامل جذب سطحية.

وتستفيض المذكرات فى التحدث عن الوكيل البريطانى والقنصل العام العاقل الذى استطاع أن يدير ظهره للمتحف البريطانى ويمنح دعمه لمدير الآثار فى القاهرة، إيمانا منه بهذه الآراء، رغم أن ذلك المدير كان فرنسيا. لقد كان واليس بادج، هو أشد وكلاء المتحف البريطانى عدوانية، إذ كلفه المتحف بالقيام بإضافة المزيد إلى المجموعة المصرية بالمتحف (البريطانى). وحين زار بيرينج ومعه خطابات توصية، استقبله بيرينج، كما يتذكر، بعداء وفتور، وإن كان قد عامله معاملة مهذبة، ذلك أن سير إفلين أوضح بجلاء أنه لن يدعم أى مشروع للتنقيب يقوم به أى وكيل عن أوصياء(أمناء) المتحف البريطانى، سواء كان ذلك الوكيل يعمل بالنيابة عن نفسه أو نيابة عن أى شخص آخر: "لا يجب أن يكون الاحتلال البريطانى لمصر مبررا لسرقة الآثار من البلاد، سواء من أجل إنجلترا أو غيرها". ثم أوصل بادج إلى الباب بأدب ولكن أيضا بحزم .

تلقى جاستون ماسبيرو Gaston Maspero المدير الفرنسى للآثار فى مصر، تعليمه فى باريس. وهناك، شأنه شأن أى عالم قُدِّر له فى المستقبل أن يكون عالم مصريات، أصبح مفتونا بالكتابة الهيروغليفية منذ كان تلميذا، وأحرز فى ذلك تقدما كبيرا، حتى إنه عند وفاة دى روجى عام ١٨٧٤ تسلم وهو فى الثامنة والعشرين من عمره منصب أستاذ فقه اللغة المصرية والآثار فى الكوليج دى فرانس، ذلك المنصب الذى كان ماربيت قد رفضه.

وكان ماسبيرو ينظر إلى الآثار باعتبارها منهاجا رومانسيا وليس نهجا علميا يسعى إلى بعث الشعوب الغابرة؛ ذلك أنه كتب فى إحدى المرات، أن الروائى الألمانى الشهير وعالم المصريات جورج ابيرز قدم لعلم المصريات أكثر مما قدمته المذكرات العلمية التى كتبها ليسبيوس، وذلك عن طريق روايته غريبة الأسلوب، وهى (الأميرة المصرية)، وهذه الرواية قد حققت نجاحا مدويا فى كل أنحاء أوربا. لقد كان ماسبيرو يطمح إلى كتابة تاريخ جامع مانع لمصر، غير أن هذا المسعى قد انقطع حين قررت الحكومة الفرنسية إنشاء البعثة الأثرية فى القاهرة عام ١٨٨٨، وتعيينه رئيسا لها. وبعد أن ضمن الموافقة على هذا المشروع، وصل ماسبيرو إلى القاهرة مع مجموعه من العاملين معه، استعدادا لإنشاء المدرسة الجديدة. غير أنه، على أية حال، اضطر إلى التخلى عن ذلك لدى وفاة مارييت، لأنه فوجئ بتعيينه مديرا بدلا منه. كانت النقود المتاحة قليلة، وكذلك كان هناك عدد قليل من العاملين. ويبدو أن ماسبيرو تعامل مع هذا الأمر بهدوء واسترخاء، وأخذ السفينة الشراعية ذات الصاريين، وكان بها محرك من القدم حتى إن ماسبيرو قال عنه إنه "يستحق مكانا فى متحف الفنون والصنائع".

وكان من عادة ماسبيرو أن يسحب القارب إلى أعلى النهر حتى أسوان فى ديسمبر من كل عام، ثم يترك نفسه للمجرى ويتجه إلى منزله. وكان هذا يمنحه ميزة زيارة المواقع الأقل أهمية والتفتيش عليها، إذ لم يكن ليتوقف عندها لولا تقلبات الرياح والتيار. وكان يلتقط الآثار التى كان من الممكن ــ لولا ذلك ــ ألا تلفت الأنظار. ففى كل ربيع، كان يصل ومعه كم من الآثار من أجل المتحف المصرى، ثم يسافر لقضاء أشهر الصيف فى باريس، ويعود للقيام بواجباته فى الخريف.

فى صيف ١٨٨١، تم العثور على أكثر الاكتشافات إثارة فى حياة ماسبيرو العلمية كمدير للآثار، إذ كان قد تلقى أنباء بأن عددا من الشارات الملكية ظهرت للبيع فى الأقصر، وكانت تظهر بشكل غير منتظم وعلى فترات طويلة، مما بدا أنه يشير إلى أن شخصا ما لديه مكان يخبئها فيه، وأنه يقوم بعرض قطع معينة منها فى السوق حتى لا يثير الشكوك، وحتى يبقى على السعر مرتفعا. فأرسل بمساعده،

إميل بروجش Emile Brugsch متنكرا فى هيئة أحد السائحين الأثرياء للتحقيق فى الأمر.

وقبل أن يمر وقت طويل، عُرض على بروجش تمثال صغير تمكن من معرفة أنه تمثال حقيقى من مقبرة ملكية تنتمى إلى الأسرة الحادية والعشرين، فدفع بروجش ثمنه وطلب المزيد، فأخذ إلى منزل عبد الرسول، وشاهد مجموعة من أشياء تخص المومياوات تنتمى إلى مقابر الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين، فأمر بروجش بالقبض على عبد الرسول، ومثل أمام المدير المحلى للتحقيق معه. وهنا تدفق فيض من الشهادات شهد بها أهل قريته وأسرته، بل حتى من موظفين صغار، كلها تفيد بأنه رجل صالح لا تشوبه شائبة.

وعذب عبد الرسول وإخوته، غير أنهم تمسكوا برواياتهم، وأغلقت القضية. وبعد وقت قصير، أفشى أحد الإخوة أن أسرة عبد الرسول متواطئة مع المندوب القنصلى لبريطانيا وبلجيكا وروسيا. وكان هذا المندوب يدعى مصطفى أغا عيات Ayat (ربما كان عياد)، وكانوا يبيعون ما يجدونه تحت حمايته. وعرض مصطفى أن يرشد بروجش إلى المقبرة فى مقابل عدم المحاكمة وكذلك مبلغ ٥٠٠ جنيه. وذهبوا إلى الدير البحرى، وتسلقوا شعبا منحدرا يرتفع عن السهل بمائة وخمسين قدما، ثم وصلوا إلى فتحة فى الصخرة تؤدى إلى فوهة عمقها خمس وثلاثون قدما، فأنزل بروجش بواسطة حبل إلى القاع، حيث وجد دهليزا يمتد مسافة ١٥٠ قدما داخل الجبل، وفى نهايته، كانت هناك حجرة للدفن، وعجائب تفوق تصوره.

ويقول التقرير الرسمى الذى كتبه ماسبيرو: كشف العرب سردابا كبيرا يضم قبورا فرعونية، من حيث لم أكن أتوقع أن أجد سوى ملك أو ملكين صغيرين غامضين (قليلى الشأن). ويالهم من فراعنة، ربما كانوا أشهر الفراعنة فى تاريخ مصر، منهم تحتمس الثالث، وسيتى الأول، وأحمس المحرر، ورمسيس الثانى المنتصر الغازى، فاعتقد مسيو إميل بروجش إذ أتى هكذا فجأة إلى هذه المجموعة، أنه لا بد أنه يحلم، وكذلك أنا، مثله، ما زلت أتعجب هل أنا لست بحالم، حين أرى وألمس تلك الأشياء التى كانت أجسادا لشخصيات كثيرة شهيرة كهذه. لم نتوقع أن نعرف أى شىء عنها أكثر من مجرد أسمائها.

استطاع ماسبيرو أن يرى ويلمس الفراعنة، لأن بروجش ومساعديه استخدموا ٣٠٠ من العرب لشحن أربعين من ملوك الفراعنة وكبار الشخصيات فوق ظهر القارب البخارى المتهالك، ثم اتجهوا أسفل النهر، تودعهم جماعة كبيرة من النساء النائحات، والرجال الذين كانوا يطلقون الرصاص على سبيل التحية، من شدة العظمة والجلال، إنه الماضى، أو إنهم ربما كانوا ينعون من فقدوهم. لقد عاون ماسبيرو إميليا إدواردس فى إنشاء صندوق استكشاف مصر؛ إذ إنه كان دائما على استعداد لمصادقة أى منظمة يمكن أن تساعد فى أعمال التنقيب دون أن تحمل معها ما تستكشفه. وفى أبريل عام ١٨٨٢، كان قد علم بحقيقة وضعه السياسى حين رفض التعاون مع شليمان Schliemann الذى عرف عنه السلوك العدوانى، وأنه قد اختلف مع الباب العالى بسبب أعمال التنقيب التى قام بها فى طروادة. فأدرك ماسبيرو أن الموقف الحساس فى مصر يتطلب رجلا له شخصية أميل إلى التراخى، لا يسىء إلى المصريين. فكتب إلى بول فى المتحف البريطانى، مطالبا بشاب إنجليزى يمكنه أن يقوم بتدريبه، وذلك فى ظروف كان فيها "الغرور القومى" مستثارًا بعنف بسبب الأحداث الأخيرة.

من المسلم به أن مصر هى أولى بلاد الدنيا، وأم الحضارة القديمة والحديثة، وأن الأجانب حين ينفقون المال لفائدة الحكم المصرى هم بذلك فقط يقدمون الاحترام اللائق لوضع مصر الرفيع، ويتم قبول المال باعتباره عملا من أعمال الفضل ليس إلا. من المفهوم أن اعتناق هذه الآراء، يثير حساسية الوزير الموجود فى الحكم أو من سوف يأتون بعده. لقد أصر ماسبيرو على أنه غير راغب فى إنفاق المال الإنجليزى فى ملء قاعات المتحف الموجودة فى بولاق، وأنه سوف يعمل دائما على ضمان أن يظل أكبر عدد ممكن من الآثار فى الموقع نفسه دون نقله إلى متحف بولاق. لقد طبق هذه القواعد، فى الواقع، بمرونة كبيرة، وعرف عنه أنه كان يسمح للحفارين والتجار بالاحتفاظ بجزء من الأشياء التى يكتشفونها، طالما أقروا بأحقية المتحف (فى بولاق)، أما إذا كان أحد المنقبين من سوء الحظ بحيث إنه لم يخرج شيئا ذا قيمة، فقد كان ماسبيرو يسمح له بأن يأخذ شيئا من المخازن المصرية كعطية.

ربما كانت البراجماتية المتراخية أو الطريقة العملية غير المتشددة التى كان ماسبيرو يؤدى بها واجباته، بالإضافة إلى اهتماماته الأكثر اتساعا وإعجابه بالأدب الإنجليزى، قد أكسبته رضى سير إفلين بيرينج، فنشأت بين الاثنين علاقة ودية وإن لم تكن شخصية. فاستطاع ماسبيرو، بمساعدة الوكيل البريطانى، أن يطور مصلحة الآثار إلى أن تم تقسيم وادى النيل إلى خمس مناطق إدارية. وقام عدد صغير من المفتشين بجعل الناس يعلمون أن عهد المشروعات غير المقيدة قد انتهى.

انقطع تفتيش ماسبيرو على الآثار فى مصر فجأة فى صيف عام ١٨٨٦، إذ مرضت زوجته لبعض الوقت، ومنعت لأسباب طبية صحية من العودة إلى مصر، فاستقال ماسبيرو من منصبه كمدير للآثار وعاد إلى باريس، وفاته أن يشهد وصول أكثر الشخصيات تنوعا وإسرافا فى تاريخ علم المصريات فى مصر، ألا وهو إيرنيست ألفريد تومسون واليس بادج.

كان إيرنيست واليس بادج هو القرصان بين علماء المصريات. وكان يعمل بتمويل وتشجيع من المتحف البريطانى نفسه. ومن حيث المظهر الخارجى، كان رمز الاحترام، فاستطاع أن يضايق ويخدع موظفى مصلحة الآثار، وأن يشحن إلى بلاده غنائم ثمينة على الطريقة التى سلب بها دريك الغلايين الإسبانية. أثناء عمل بادج مساعدا لبيرش فى المتحف البريطانى، كان يلاحظ تدافع التجار والعملاء بحثا عن الأصالة، ويعلم أن للآثار قيمة تجارية إلى جانب قيمتها الأثرية. وكان من المهم بالنسبة له، كخادم للمتحف البريطانى أن يعلم السعر الحالى للأثر بالإضافة إلى مكانته فى التاريخ. وبعد أن اكتسب الخبرة اللازمة، أصبح من الأيسر والأرخص له أن يضيف المزيد إلى مجموعة المتحف خلال التمييز بين المشتريات عن أن يقوم بذلك عن طريق التنقيب. ومن أجل هذا الهدف، كرس بادج مواهبه القوية وطاقاته الجبارة.

كانت زيارة بادج الأولى لمصر نتيجة للأنشطة التى يقوم بها جنرال بريطانى بارز أثناء أوقات فراغه. ذلك أن سير فرانسيس جرينفيل قائد القوات البريطانية فى أسوان قد دأب على كسر ملل الحياة فى الحامية وذلك عن طريق الحفر فى المنطقة. وكان سير فرانسيس قد قام ببضعة اكتشافات صغيرة، وكان راغبا فى معرفة قيمتها، وعرض أن يتبرع بها للمتحف البريطانى إذا ما قاموا بإرسال

شخص يقوم بتقييمها، فجذب ذلك الاقتراح أمناء المتحف غير أنهم لم يكونوا راغبين فى تمويله، لذا قدموا طلبا للخزانة طلبا للمال لإرسال ممثل فى زيارة رسمية لأسوان. فاستشارت الخزانة وزارة الخارجية، واستشارت وزارة الخارجية رجلها فى الموقع أى فى مصر، وهو سير إفلين بيرينج. وإذا ما أخذنا فى الحسبان معارضته لتصدير الآثار لكان من الممكن أن يتوقف الأمر عند هذا الحد، لكنه كموظف جيد أحال اقتراح الزيارة الرسمية لأسوان إلى ممثله هناك سير فرانسيس جرينفيلد، فألح جرينفيلد فى رده بأن متاحف روسيا وفرنسا وألمانيا كلها لها رجالها فى مصر والذين يخدمون بلادهم كأفضل ما تكون الخدمة، ومن غير المتصور أن يسمح للمتحف البريطانى بأن يبقى متخلفا.

إضافة إلى هذا، فإن أعمال التنقيب لم تكلف الحكومة المصرية أى شيء، بما أنه هو نفسه قام بتمويلها، كما أنه على استعداد للاستمرار فى ذلك. ووافق بيرينج على البعثة، ومنح بادج أربعة أشهر كإجازة، و١٥٠ جنيها. كذلك أعطيت تعليمات بالاتصال بالتجار من أهالى البلاد بغرض القيام بمشتريات من أجل المتحف البريطانى. وحين سمع نائب مستشار جامعة كيمبريدج بالمشروعات، أمر بمائة جنيه أخرى تقدم لبادج، من أجل القيام بمشتريات من الآثار لمتحف فيتزويليام.

كانت مقابلة بادج الرسمية الأولى فى القاهرة مع سير إفلين بيرينج مقابلة غير مبشرة، إذ أوضحت تلك المقابلة له منذ البداية أن الأمل الوحيد أمامه هو خداع النظام. ومن حسن الحظ أن بادج غادر إنجلترا فى صحبة رجل دين واسع الحيلة، فهو جامع آثار وأثرى هاو، كان على استعداد لأن يريه من أين يبدأ. ذلك أن صحة ويليام لوفتى المبجل المعتلة أجبرته على قضاء الأشهر الأكثر برودة من كل عام فى مصر، حيث نما لديه تذوق للجعارين، وأصبحت له عينان تميزان الأشياء المقلدة. عُرف بأنه أجنبى غريب الأطوار، وكان نادرا ما يتعرض للغش. وفى مساء اليوم الذى رأى فيه قنصلا بريطانيا حاد الطبع، أخذه صاحب النيافة لوفتى إلى ملحق بهوتيل دى نيل (فندق النيل) كثيرا ما يتردد عليه أفراد الطبقة الراقية من الرحالة من أبناء بلاده . وتم تقديمه إلى كبار تجار الآثار، وتلقى أول دروسه فى "السياسة الأثرية".

وإذا كانت لدى بادج أية وخزات من ضمير أو خلق تتعلق بخداع العالم السفلى السرى الذى التقى به فى ذلك المساء، فلقد تبددت فى النهار التالى، حين زار متحف بولاق. ذلك أنه وجد المومياوات الملكية راقدة عارية فى صناديق هزيلة مغلفة بأرخص أنواع الزجاج البنى، وثمة شبورة بيضاء ترتفع من سطح مياه النيل، فتتكثف على الزجاج وتسقط على السطح الداخلى للصناديق. أما أرضية المتحف فتنشع منها المياه، ولايبدو أن أحدا يعرف أو يهتم بما تحتويه من كنوز.

وحين طلب بادج رؤية المخازن التى تحتوى على الأشياء التى لا تصلح للعرض، جعلوه يرى عددا من الحظائر تسمى المخزن، كدست فيها التوابيت والمومياوات والصناديق الجنائزية وأثاثات المقابر، والعديد من الآثار الصغيرة من جميع أرجاء مصر. هذه الأشياء لم يتم تسجيلها، وبما أن أحدا لم يكن يعرف تماما بما كان موجودا، فكان فى إمكان أى شخص أن يسرق ما يشاء دون خوف من أن يكتشف أمره. كان المخزن يوجد فى الحى الصناعى وتحيط به الورش، وكانت هناك مخاطر وقوع أى حريق، ولم تكن هناك أية أنابيب لضخ الماء فى أى من المبانى، فاتضح لبادج، على الفور، أن الآثار المصرية سوف تكون أفضل حالا فى المتحف البريطانى.

وبدأ بادج بالقيام بجولة مع مرشد فى المنازل الخاصة التى تخزن بها الآثار. وكان مرشده رجل دين أجبرته صحته المعتلة على قضاء الشتاء فى وادى النيل.

وبعد جولته الأولى فى مصر، اكتشف صاحب النيافة جريفيل تشيستر أن أمين الآثار المصرية فى المتحف البريطانى كان يريد شراء معظم التذكارات الصغيرة التى كان صاحب النيافة قد أحضرها معه إلى لندن، وكان على استعداد أن يعطيه ربحا، لذا فإن تشيستر المبجل زاد حمولته منها فى زيارته التالية. وأصبح بعد عدد من السنوات مصدرا منتظما لبيرش والمجموعة المصرية فى المتحف البريطانى. وكان المتحف البريطانى قد شجع رغبته فى الامتلاك، فرد هو هذا الجميل بأن قدم بادج لدائرته من التجار، وجال به بين مجموعاتهم حتى إن بادج قبل أن يبحر فى النيل كانت لديه فكرة عما هو متاح له فى القاهرة.

فى أسوان، طالب بادج نيابة عن المتحف البريطانى بنصيب سير فرانسيس جرينفيل من نتائج أعمال التنقيب، فقيل له إنه لم يتبقّ سوى بضعة أشياء صغيرة

ذات أهمية، أما البقية فقد اختفت نتيجة انعدام المسئولية، وما بقى من أشياء صغيرة أخذها ممثل مدير متحف بولاق المقيم فى أسوان، وتم إرسالها إلى مدير مصلحة الآثار فى القاهرة، ولم تصل هناك أبدا، فعول بادج على ذكائه الشديد. وبعد أن عرف أن المجموعة الموعودة قد تلاشت، قرر الحفر من أجل العثور على مجموعته بنفسه.

وعلى مدار الأسابيع التالية قام رجال بادج بإفراغ خمس عشرة مقبرة فى منطقة أسوان. ولما لم يكن لديه المال الذى يدفعه من أجل هذا العمل، استطاع إقناع الجنرال صاحب السعادة ر.هـ . دى مونتمورينسى قائد القوات البريطانية فى أسوان، بأنه من حسن عمل وظيفة الجيش البريطانى فى الخارج أن يعين المتحف البريطانى، فقام الجنرال بالترتيب من أجل المعدات، والسكك الحديدية، والجنود الذين يمكن أن يستخدموا من آن لآخر كى يجعلوا أهل البلاد لا يتوقفون عن العمل. ومرت بهم التجربة المؤسفة وإن كانت شائعة لجميع المنقبين فى ذلك الإقليم فى ذلك الزمان، إذ إن كل مقبرة قاموا بالكشف عنها كانت قد انتهبت بالفعل، فلم يجدوا أى شيء ذى قيمة سوى النصف السفلى لتمثال لابد أنه كان جميلا.

من حسن الحظ، أن طرقا أقل مدعاة للشدة فى جمع الآثار كانت مفتوحة أمام بادج. ففى رحلته فى أعلى النهر، كان يتبعه ممثل عن متحف بولاق لديه معلومات تفصيلية بتتبع تحركاته ومنعه من الشراء من التجار. فأشاع الموظف أن بادج وكيل منعدم المبادئ يمثل مؤسسة أجنبية لا تتوقف عند حد، ويمكن أن تفعل أى شيء، وأنّ لديه أموالاً غير محدودة بغرض تجريد مصر من كنوزها. وما إن عرف الناس أن بادج شخص نذل ومدلس ولا يعبأ بالقانون ولدية مال ينفقه، لم تعد لديه حاجة للبحث عن الآثار، فهذا هو بالتحديد الرجل الذى يحب التجار التعامل معه، فجاءوا إلى النهر فى القوارب ليلا، يلحون عليه فى الشراء.

كانت الأقصر، للعديد من السنوات، هى مركز تجارة الآثار. فقرر بادج القيام برحلة إلى هناك كى يجرب مهاراته فى المساومة، وكان ذلك ينطوى على مجازفات، حتى لو تمكن من مراوغة موظفى مصلحة الآثار. كتب ماريت فى كتابه الإرشادى عن الأقصر يقول: "إن الأقصر تعد تقريبا مركزا للتداول المشروع

فى الآثار. تمتلك الأقصر مصانع معينة تصنع بها التماثيل الصغيرة والجعارين والأعمدة الحجرية المنقوشة بحذق ومهارة كثيرا ما تخدع أكثر الأثريين خبرة، وقد تربصت جماعات من التجار لإميليا إدواردس أثناء زيارتها هناك، كان بعضهم من العرب، وكان البعض من الأقباط، جميعهم مهذبون طيبون مريحون من حيث المظهر ومخادعون... الجميع يبيعون أشياء مقلدة أكثر مما يبيعون من الأشياء الأصلية. ومهما كان طلبك، فهم مستعدون للوفاء به، فتحتمس ليس شديد الثقل! لا، ولا كليوباترا بخفيفة بالنسبة لهم! أما عن الجعارين الأصلية من أعرق طراز، فهى متوافرة فى كل موسم، ذلك أنها تنقش وتصقل بالزجاج على هيئة مضغ أو أقراص صغيرة تبتلعها الديكة الرومية، فإذا بها تكتسب عن طريق عملية الهضم البسيطة درجة من الجلال والقدم فتصبح ساحرة حقا".

وهكذا يصبح بادج فى حاجة إلى كل ما لديه من قدرة على التمييز التى أكسبتها إياه تلك الخبرة التى تشربها عبر السنين من صامويل بيرش، لكى يخرج من الأقصر ومعه كنوز أصلية. كان التجار فى الأقصر يقدمون له تقديرهم عن الموقف فى سوق الأشياء الأثرية فى مصر، ورغم أن كل الآثار سواء كانت فوق سطح الأرض أو تحته تخص الحكومة المصرية بحكم القانون، ومن غير المسموح به قانونا لأى مصرى أن يمتلك أو يتجر فى الآثار، فلم تحاول أية حكومة أن تطبق هذا القانون، بل إن كلا من مارييت وماسبيرو كانا يشتريان من التجار بشكل صريح، بل هما استخدما نقود الحكومة ليفعلا ذلك. وكان المقيمون المحليون الحاذقون الذين تمكنوا من أن يصبحوا قناصل أو وكلاء للقوى الأوربية يشعرون أنهم فوق القانون، وكانوا كثيرا ما ينخرطون فى أعمال التنقيب أو يتاجرون على المكشوف، حتى إن بعضهم بلغ بهم الأمر أنهم كانوا يلقون بموظفى مصلحة الآثار بعيدا إذا ما حاولوا التدخل.

كان مصطفى أغا الوكيل القنصلى البريطانى فى الأقصر يمتلك مجموعة جميلة فى داره؛ ولما كان يكن أعمق العواطف للشعب البريطانى ويطمح إلى أن يجعل المتحف البريطانى "خير متاحف العالم"، فقد منح خير ما لديه فى هذه المجموعة لبادج. كما قدم بادج مالاً لأعضاء عائلة عبد الرسول التى كانت قد اكتشفت ما كان مخبأ فى الدير البحرى، والذين تمكنوا من سرقة وإخفاء برديات

وأوان من المرمر، وزهريات زرقاء مطلية بطبقة من الزجاج، وأشياء مصنوعة من العاج، وكانوا على استعداد لبيع تلك الأشياء للمتحف البريطانى، ويبدو أن هذه الرغبة كانت ترجع جزئيا إلى رغبتهم فى أن يبذوا مصلحة الآثار، ذلك أن عائلة عبد الرسول كانت تقول إنه حين كانت تسلم القطع الأثرية طبقا للقانون لمتحف بولاق، كان الموظفون هناك يرفضون دفع نفقات التنقيب أو أية نفقات كما ينص القانون. وبدلا من ذلك، كانوا يزعمون أن تلك الآثار أعمال مقلدة، ثم يقومون بتسلم كمية ضئيلة ثم يبيعونها للسياح الأجانب. فقدم بادج نفسه باعتباره الرجل العادل النزيه الذى أنقذ التجار، وذلك بأن كان يعرض عليهم أسعارا منصفة، كما كان يظهر أنه حريص على الآثار وذلك بنقلها إلى ملاذ آمن. لذا فقد غادر الأقصر وفى حوزته مجموعة رائعة.

فى ذلك الوقت بالذات، كلف بروفسور أليجزاندر مكليستر، من جامعة كيمبريدج، بادج بمهمة غير عادية. ذلك أن مكليستر كان يستخدم الأنثروبولجية الفيزيقية للبحث فى تاريخ الجنس البشرى. لذا كان البروفسور فى حاجة إلى بعض الجماجم المصرية القديمة، وكان يتساءل إذا ما كان فى مقدور بادج أن يمده بالبعض منها. وحدث فى ذلك الحين أن اكتشفت حفرة عميقة تحتوى على مومياوات لكهنة من الطبقة الثالثة والرابعة. وبما أن هؤلاء الكهنة كانوا من طبقة أدنى من المسئولين، فلم يتم تحنيطهم تحنيطا جيدا، ولم تكن رؤوسهم متصلة اتصالا جيدا بأجسادهم. فأمر بادج بأن توضع مجموعة من المومياوات فى حاوية وتشحن إلى الإسكندرية للتصدير، وهنا واجهتهم مشكلة. ذلك أن تصدير مومياوات البشر ضد القانون المصرى، وبما أن بادج كان قد أعلن عن محتويات الحاويات فقد احتجزت فى الجمارك فى الإسكندرية. ورفض مسئول الجمارك فى الإسكندرية ادعاء بادج بأن الجماجم لها قيمة علمية؛ وقال إن القيمة الوحيدة التى يمكن أن تكون لها هى أن تكون سباخا عظميا، وأصدر توجيهاته بأن يتم تصنيفها على هذا الأساس. وأخيرا غادرت العينات التى طلبها بروفسور مكليستر مصر بالتوصيف الرسمى: "سباخ عظمى".

وبعد أن دفع بادج الرسوم الجمركية السليمة للسباخ وهى واحد فى المائة، واجهته المزيد من المصاعب فى نقل كنوزه، إذ إن إحدى الطرائق الفنية التى كانت

مصلحة الآثار تستخدمها لإحباط الاتجار غير المشروع هى احتجاز المراكب التى يشك فى أنها تحمل الآثار، وهى طريقة كان يستخدمها مارييت وماسبيرو كى يضيفا المزيد إلى المجموعة الموجودة فى بولاق. ومن حسن طالع بادج أن صديقه الجنرال دى مونتمورينسى كان لايزال على حرصه على أن يبذ المتحف البريطانى مصلحة الآثار المصرية، فقام بأخذ جميع حاويات بادج ببساطة وأمر بأن يأخذها مركب رسمى مع الأمتعة العسكرية إلى الإسكندرية. فاستشاط سير إفلين بيرينج غضبا، ذلك أن واجبه لم يكن مقصوراً على وضع القانون المصرى فحسب، بل يضمن أن أبناء وطنه يذعنون له، فأرسل إلى بادج، وذكره بشدة بأن تصدير الآثار المصرية محظور قانونا، وأمره بأن يعيد إلى التجار جميع الأشياء التى قام بشرائها، فأجاب بادج بأنه قد أرسل إلى مصر على نفقة المال العام، وأن المجموعة التى كان عليه أن يحوذ عليها من سير فرانسيس جرانفيل قد تلاشت دون معرفة مصيرها، لذا فإنه شعر أن من واجبه أن يقدم بدلا منها أشياء أخرى من مصادر أخرى، فنشأ عن ذلك موقف متجمد، ذلك أن بيرينج أمر بادج مرة أخرى بأن يمتنع عن القيام بالشراء وأن يعيد كل ما قام بشرائه؛ وأصر بادج على أنه ليس موظفا من موظفى بيرينج، وعلى ذلك فهو لا يخضع لأوامره. وأضاف بأنه سوف يستمر فى بذل كل ما فى وسعه لزيادة المجموعة الموجودة فى المتحف البريطانى، الذى يواجه منافسة من القوى الكبرى الأخرى، والكثير من "القوى الصغرى فى أوربا" كما قال، فهذه القوى لديها وكلاؤها فى مصر، وهم يقومون بالشراء من أجل مجموعاتهم الوطنية. وكتب بادج أن المقابلة انتهت فجأة. ثم كتب القنصل العام، رسميا، لبادج بأن يضع فى السجلات أن تصدير مشترياته أمر محظور بحكم القانون، وأوعز إلى مصلحة الآثار فى الإسكندرية بأن تكون على أهبة الاستعداد لمنع شحن تلك المشتريات.

على أى حال، فقد صادف بادج حسن الحظ مرة أخرى؛ ذلك أن صديقه دى مونتمورينسى كان قد نقل من أسوان إلى الإسكندرية وتمكن من التغلب على أى معارضة. ويتذكر بادج هذا الموضوع قائلا: "لقد رفض دى مونتمورينسى أن يحركه سواء الترغيب أو الترهيب، ووقفنا، ذات يوم أنا وهو على الرصيف، وشاهدنا الأربعة والعشرين صندوقا التى تخصنى وهى تغادر الميناء تحت رعاية

ضابط صديق من أسوان". وبعد ذلك بثلاثة أيام، لحق بادج بها إلى إنجلترا ونعم بتلقى التهانى الرسمية من أوصياء المتحف البريطانى على ما قام به. وفى ٢ أبريل ١٨٨٧، كتب السكرتير: "أعد الأمناء، هذا الصباح، محضرا يعبرون فيه عن إعجابهم الحار بذكائك وما تتمتع به من طاقة فى تنفيذ المهمة التى أوكلت إليك، وكذلك قيامك بها فى مثل هذا الوقت القصير".

لقد كانت موافقة الأمناء على ما قام به بادج من نشاط موافقة شديدة حتى إنه عاد إلى مصر فى ديسمبر. وكان قد سمع عن وجود كمية كبيرة من البرديات قد اكتشفت فى غرب طيبة، فنبه رؤساءه إلى أهمية شرائها قبل أن تكتشف ذلك المتاحف الأخرى. وفى الإسكندرية، التقى بادج بالقنصل العام البريطانى، تشارلز كوكسون الذى قال إنه علم من رسالة من القاهرة أنه قد تم اكتشاف عدد مهم من البرديات فى الصعيد، وأن المتحف البريطانى قام بإرسال موظف للحصول عليها. فإذا كان بادج هو ذلك الموظف نفسه، إذن، كما قال كوكسون، فهو لا يمكنه أن يعول على أى مساعدة رسمية فى مشروعه غير القانونى بتصدير الآثار، وأن الأفضل له أن يشغل وقته فى الاستمتاع بالشمس، وكرم ضيافة صديقه الطيب جنرال دى مونتمورينسى. وقال كوكسون محذرا بأنه إذا ما قام بادج بأى محاولة للقيام بمهمته فى الحصول على البرديات، فإن القنصل سوف يعارض بكل ما أوتى من وسائل تصدير الآثار التى ينبغى أن تحفظ فى مصر "كى تعلن للمصريين المحدثين مجد بلادهم القديم". فأخبر جنرال دى مونتمورينسى بادج بأن يواصل العمل الذى أرسل للقيام به، وإذا ما واجهته أية مشكلة فهو يعرف إلى أين يتجه.

وكانت أعقد المشكلات التى لا مفر منها والتى واجهت بادج تتمثل فى شخص يوجين جريبوت. إنه ذلك الشخص الدقيق المتمسك بالقواعد الجامدة، وكان هو مدير مصلحة الآثار الذى تولّى هذا المنصب بعد رحيل ماسبيرو. فبعد النظام اليسير الذى اتبعه ماسبيرو، عزم جريبوت على إصلاح مصلحة الآثار وأن يجعل منها مؤسسة تلتزم بالقانون الذى تشكلت على أساسه التزاما حرفيا. وقام بزيارة بادج فى الرويال هوتل فى القاهرة. وبدا فى اللقاء الأول أن رغبة جريبوت فى اكتساب الشهرة تغلبت على غيرته فى أداء مهام وظيفته، إذ أكد على طموحه فى أن يراه الناس باعتباره خلفا صالحا لماسبيرو، وذكر بادج أن المتحف البريطانى

كان قد أهدى أستاذه مجموعة كاملة من منشورات المصريات كاعتراف علنى بتميزه فى مجال العلم، فهل يستطيع بادج أن يرتب الأمر بحيث يمكن للأوصياء أن يكرموه بنفس الطريقة؟ "فألمح بادج بأن هذا ربما يتوقف على ما يبديه جريبوت من تساهل مع ممثلهم فى مصر، وكان فى ذلك يتلمس لحظة تكون له فيها اليد العليا، ولكن فى تلك الليلة وضع جريبوت الشرطة لمراقبة الفندق الذى يقيم به بادج.

لاشك فى أن رواية بادج الغريبة الهزلية عما حدث بعد ذلك رواية يلونها خياله النشط وكذلك رغبته فى تصوير نفسه كوغد واسع الحيلة، ينقذ كنوز النيل من تخريب جريبوت ذلك الموظف البيروقراطى. وتمكن بادج من مراوغة الحرس الذى نصبه جريبوت واتجه إلى الأقصر، حيث استطاع أن يؤثر فى السكان المحليين تأثيرا قويا حتى إنهم دلوه على مجموعة كبيرة ومهمة من البرديات. وفى اليوم التالى قبض عليه رئيس الشرطة المحلى، بناء على أوامر صادرة من جريبوت، الذى كان يبحر وراءه فى مركب بخارى. واتفق أن قبطان المركب البخارى كانت له ابنة كانت ستتزوج فى ذلك اليوم ذاته فى إحدى القرى على ضفة النيل، وحدث أن رست المركب عند الشاطئ فى الليلة السابقة، وصار من المستحيل تحريكها إلى أن انتهى العرس. فأمر جريبوت بإحضار حمار كى يتمكن من الاستمرار فى ملاحقته لبادج، ولكن حين سمع القرويون بأن الركوبة من أجل رئيس مصلحة الآثار الذى يكرهونه، ساقوا جميع الحمير إلى الحقول، وادعوا بإصرار أنهم لا يمكنهم الإمساك بأى من الحمير.

وبينما كان بادج يشعر بالابتهاج لسماع هذا النبأ الذى أبلغه به شخص ذهب إليه عدوا، كانت تواجهه مشاكل أخرى. إذ كان تأخر جريبوت معناه أن بادج لديه يوم بأكمله كى يخفى فيه ما وجد. على أى حال، كانت هذه الأشياء مخزنة فى منزل تحت الحراسة، إذ يوجد رجال شرطة فوق السطح وكان هناك شرطى عند كل ركن. فى البداية، لم يظهر أن هذه مشكلة لا يمكن التغلب عليها، فالتجار الذين كانوا متحالفين مع بادج استخدموا طريقة فنية بسيطة لها تاريخ طويل من النجاح. وهى أن يغرقوا الحرس فى الخمر ويقدموا لهم المال. على أى حال رفض الحرس

الكونياك. وبعد أن امتدح التجار الحرس على ما يتمتعون به من أمانـــة ونزاهـــة، غادروا المكان مظهرين قدرا كبيرا من خيبة الأمل.

والذى حدث فى واقع الأمر، أن التجار ذهبوا إلى المبنى المجـــاور، أى إلـــى مدير فندق الأقصر، الذى كان جدار حديقته ملاصقا لجدار الدور السفلى (البدروم) الخاص بالمنزل. وفهم المدير المشكلة على الفور، وجعل بستانييه يحفـــرون نفقـــا خلال الجدار. وبما أن الجدار كان مبنيا من الطوب الطينى الذى يمكن إزالته دون إحداث الكثير من الجلبة، لم يبد من الضرورى إلهاء الحرس إلا حـــين جـــاء دور وضع ألواح خشبية للنفق. وكمكافأة لهم على روحهم الـــصافية فـــى أداء الخدمـــة العامة، أرسل لهم المدير صينية نحاسية كبيرة يعلوها الأرز والزبيب وفوقها نصف خروف، كل هذا مغمور بشحم الضأن. وبينما كان الحرس يتناولون الوليمة وهـــم يقومون بعملهم فى الحراسة فى مواقعهم، أخرج البستانيون جميع الآثار بهدوء، من النفق إلى الفندق، لكنهم لم يتمكنوا من إخراج مومياء وكفن، فما كان من بـــادج إلا أنه خلف تلك الأشياء وراءه كى يجد جريبوت شيئا يصادره حين يصل أخيرا.

إذا اشتم المرء من وراء هذه القصة رائحة العمل الأوبرالى، فإن خاتمتها تتسم بما يحدث فى النهايات الهزلية طبقا لرواية بادج، فقد اتجه إلـــى القـــاهرة ومعـــه الصناديق التى تحتوى على آثاره التى حصل عليها بشكل غير قانونى. تصحبه عن بعد جماعة من رجال الشرطة بأوامر من جريبوت. وقطع الجـــزء الأخيـــر مـــن الرحلة بالسكة الحديدية، فوصل إلى محطة القاهرة فى منتصف الليل. فلما لم يجد حمالين يساعدونه على حمل الصناديق جلس بجانبها فى المحطة، فى انتظار طلوع النهار حين يحضر الحمالون للقيام بعملهم. وجلست جماعة الشرطة على مـــسافة قصيرة ووضعوه تحت المراقبة. وعند بزوغ أول خيط من خيـــوط الـــصبح، رأى بادج ضابطين بريطانيين كانا قد خرجا من أجل القيام بجولتهما الراكبة الصباحية، فحياهما وكأنهما بعض معارفة. فلما رأى الضابطان سيدا إنجليزيا يواجـــه بعـــض الصعوبات، أمرا رجال الشرطة الذين كانوا يحرســـونه بـــأن يرفعـــوا صـــناديق الممنوعات ويحملوها إلى المدينة. وحين رأى ضباط الجمارك الموجودون فـــوق كوبرى قصر النيل صفا من رجال الشرطة تحت قيادة ضابطين بريطانيين راكبين، ما كان من رجال الجمارك إلا أن أدوا التحية وأشاروا لهم بالمرور.

أما المعضلة الأخيرة، فقد تم التغلب عليها عن طريق ميجر هيبر من سلاح المهندسين الملكى، إذ إنه قد سمع أن محتويات تلك الصناديق تم شراؤها بأموال المتحف البريطانى، وأنها جاءت من الخزانة البريطانية. لذا فقد أعلن أن هذه الأشياء تعد ملكية عامة من واجبه حمايتها، فشحنها إلى خارج مصر مع أمتعته الشخصية. وشعر بادج بالرضى من أن مصلحة الآثار كانت تفتقر إلى الذكاء والكفاءة، وأن موظفيها يتسمون بالفساد.

وربما يكون مما يبعث على الدهشة تلك السهولة التى استطاع بها أن يفوز بدعم الضباط البريطانيين فى مواجهة نفوذ سير إفلين بيرينج، فقد أهان القنصل العام بطريقته الطاغية المتعالية أبناء وطنه، فكان هناك دائما شعور بالتعاطف بين أفراد جيش الاحتلال مع الرأى القائل بأن القوانين التى تسبب ضيقا لمواطنى القوة المحتلة لا يجب أن توضع موضع التنفيذ، كما أن بادج كان مؤيدا للرأى القائل بأنه إنما كان يقوم بتهريب كنوز مصر لصالح تلك الكنوز. وبما أن مصر هى مهد الحضارة، إذن فإن آثارها هى آثار العالم المتحضر، ولا يمكن تركها نهبا لنزوات التجار المحليين وعوامل تعرية الرياح وأثر الرمال، كما لا يمكن أن تترك تحت وصاية مصلحة الآثار الهدامة عديمة الكفاءة، لذا فإن المكان المناسب لتذكارات مصر هو المتحف البريطانى، لأنها تكون هناك فى مأمن حتى من المصريين، ذلك أنه من قديم الزمان، كان المصريون ينهبون قبور موتاهم، فمصريو العصر الحجرى المتأخر كانوا يسرقون الصوان والحجارة والأباريق الفخارية، وفى عصر الأسرات حين كانت الحلى وأدوات الزينة والخواتم والتمائم تدفن مع الموتى، كان اللصوص يهاجمون المقابر ويسرقونها... وسواء بنى أحد الملوك هرما كى يغطى جسده، أو حفر قبرا فى بطن الجبل، فإن النتيجة واحدة. إذ كان اللص يجد طريقه إلى حجرة التابوت الحجرى ويسرق الموتى.

أما فى الأزمنة الحديثة فإن الكنوز تؤخذ كى تتعفن فى متحف بولاق، حيث تنحر مياه النيل الجدار، كما كتب بادج، وتتكثف الشبورة المتصاعدة فوق الصناديق الزجاجية التى تحمى المومياوات، فكيف يمكن للأرواح الملكية من موتى مصر أن تستريح حين تعامل رفاتهم بهذه الطريقة المزرية؟! "كان الكثيرون من أولئك الذين يعملون بالروحانيات يزورون المومياوات فى المتحف البريطانى، ويؤكدون أنهم

فى كل ليلة تزورهم أرواح الراحلين. إن الظروف فى المتحف من الملاءمة بحيث تسمح بقيام التزاوج الحر بين أجسادهم وأرواحهم الحرة". ولم يكن التواصل مع المومياوات الملكية فى القاهرة ممكنا، لأن أجسادهم قد عوملت بإهمال وعدم احترام من جانب مصلحة الآثار.

وبهذه الطريقة، استطاع بادج ضمان تأييد قدماء المصريين أنفسهم. ومهما كان، فإنه لا يمكن أن يوجه من لوم للأثريين كأفراد على نقل المومياوات من مصر، إذ إن أى شخص غير متحامل لديه أية فكرة عن هذا الموضوع، يقر بأنه ما إن تنتقل المومياء إلى رعاية الأمناء وتوضع فى المتحف البريطانى، فإن لديها بذلك فرصة أفضل للحفظ من تلك الفرصة التى قد تكون لها فى أية مقبرة، أو فى أى مكان فى مصر.

الفصل التاسع

علم آثار التوافه المهملة

أعلنت أول نشرة يقوم بتوزيعها صندوق استكشاف مصر التزامه "بعلم الآثار العاطفى"(*)، فجعله هذا الإعلان على الفور متوافقا مع سياسات سير إفلين بيــرينج Evelyn Baring أكثر من توافقه مع ممارسات واليس بادج Wallis Budge. تشكلت جمعية استكشاف مصر بهدف التعاون مع الأستاذ ماسبيرو، مدير المتاحف وأعمال التنقيب فى مصر فيما يقوم به أعمال الاستكشاف. وتتعهد الجمعية بإجراء أعمــال التنقيب خاصة فى المواقع ذات الأهمية الكلاسيكية وتلك التــى تتــصل بالكتــاب المقدس، دون التعدى على القانون المصرى، الذى تؤول بموجبه الأشياء التى يــتم العثور عليها لمتحف بولاق. ويوافق ميسيو ماسبيرو، من جانبه، على نشر النتائج عن طريق الجمعية. ربما يبدو من غير الحكمة لجمعية تسعى إلى جذب المساهمين أو المشتركين بأن تعلن عن نيتها بالإحجام أو الامتناع عن أن تحضر إلى الــبلاد نتائج ما تنقب عنه؛ على أى حال، فقد ارتأى مؤسسو الصندوق، عن حــق، أنهــم يستطيعون أن يعوّلوا على المساندة طالما كانوا يسهمون فى النقاش العــام الــدائر حول الكتاب المقدس. ومع مقدم الثمانينيات من القرن التاسع عشر، كــان علمــاء

(*) بالمفهوم الوارد ذكره فى الفصل السابق. (المراجع).

الكتاب المقدس من المحافظين لا يزالون قادرين على التطلع والأمل فى انتصار الآراء التقليدية.

وحين نشر الأستاذ ويليام روبيرتسون سميث بعض الأفكار الأكثر تحررا فى محاضراته الشهيرة الرائجة وكتبه، قدم للمحاكمة أمام كنيسة بريسبترى الحرة فى أبردين، وتم فصله من منصبه عام ١٨٨١، وتسببت المحاكمة فى فضيحة عامة. ذلك أن موضع النقاش هو مدى الاعتماد على العهد القديم كسجل لأحداث التاريخ، لقد مر ما يقرب من قرن منذ أن فتح معهد مصر أبواب البلاد للبحث فى ماضيها؛ وتم التنقيب عن المواقع من الدلتا حتى الشلال الثانى؛ وتم نشر مجلدات ضخمة تسجل ما تم العثور عليه بالتفصيل، وتفسر التاريخ القديم لوادى النيل. لكن كانت هناك فجوات، ذلك أن جمعية بيرش لعلم آثار الكتاب المقدس، نفسها، أخفقت فى أن تضع أمام الجمهور أى برهان أثرى على الأحداث المسجلة فى العهد القديم. لذا فقد احتاج صندوق استكشاف مصر إلى أن ينطلق ببحث تكون له جاذبية وأن يستحوذ على اهتمام الجمهور بحيث يهتم بهذا الجدل. كما أن الصندوق كان فى حاجة إلى أن يستخدم رجلا مؤهلا للإسهام فى هذا باعتباره أول منقبى الصندوق .

كان إدوارد نافيل Naville عالم مصريات سويسرى وأحد دارسى الكتاب المقدس. وتوافر له تعليم شامل رسمى غير معهود فى مجال بحثه، إذ إنه درس فى جامعة جنيف، والكلية الملكية فى لندن، وجامعات بون وباريس وبرلين. كما كان تلميذا لليسبيوس Lepsius وساعد فى نشر كتابه العظيم دينكاميلر Denkmaeler. كانت اهتمامات نافيل Naville اهتمامات فلسفية بشكل رئيسى، وكان محافظا من حيث توجهاته الدينية. جاء إلى الصندوق ومعه اقتراح بإجراء بحث يتناسب تناسبا تاما مع المعهد، ففى الإصحاح الأول من سفر الخروج، نقرأ أن بنى إسرائيل تكاثروا فى مصر وصاروا أقوياء لهم كثرة عددية، حتى إنه حين تولى ملك جديد لم يكن يعلم أى شىء عن يوسف، رأى أنهم يشكلون تهديدا. فعين هذا الملك سادة على هذا الشعب، فجعلوا منهم (أى من بنى إسرائيل) عبيدا، وأجبروهم على تشييد

مدينتين كمراكز تموين سُمِّيتا بيتحوم(*) Pithom ورمسيس Rameses. لقـد تمكـن ليسبيوس من التعرف على مدينة رمسيس، ولكن ريجينالد ستوارد سميث جادل فى صحة هذا التعرف فى معجم سميث للكتاب المقدس.

وحين تقدم نافيل للصندوق باقتراح بالتنقيب عن موقع بديل، بدا ذلك مشروعا مثاليا يثير خيال الجمهور. إذ لو أن المدن المخازن كانت قد بنيت حقا، لكانت من الكبر بحيث تبقى آثار تدل على ما بقى منها. وإذا أمكن الكشف عنهما وتم التعرف على الملك المسئول عنهما، لكان هناك، أخيرا، دليل علمى مستقل يشهد على صحة سفر الخروج. وقدم الكُتّاب الكلاسيكيون إشارات ساعدت علـى تحديـد مكـان المدينتين، إذ وصف هيرودوت القناة الموصلة بين البحر الأحمر والنيل، بأنها تعبر (باتوموس Patumos) وهى مدينة مذكورة فى التراث العربى. وتم تحديد باتوموس على أنها مدينة با ــ توم أو بيتورن ومعناها دار تورن؛ وتورن هو إلـه الـشمس المصرى القديم بعين شمس (هليوبوليس). وقد أشار العالم الفرنسى شـاباس فـى ١٨٦٤ أن بيتوم Pi-Tum عند المصريين لا بد أنها بيتحوم فى العهد القديم، وأوحى بأنها ربما تقع إما فى أبو قيشد Abu- Keshed، أو فى تل المسخوطة على بعد مـا يقرب من عشرة أميال جنوب غرب الإسماعيلية، لكنه تراجع عن هذا الرأى فيمـا بعد. على أى حال، فقد رجع نافيـل للنـصوص الجغرافيـة ولاحـظ أن آثـار الإسماعيلية خصصها رمسيس الثانى لتورن. لذا رأى إعادة إحياء تلك الفكرة، وأن يبحث فى موقع تل المسخوطة. وكان عليه، أولا، أن ينتظر إلى أن تضع حـرب ١٨٨٢ أوزارها، كما كان عليه أيضا أن ينتظر إلى ينحسر فيضان النيـل بـشكل كاف، بحيث يكون من الممكن القيام بالتنقيب فى الدلتا.

وفى يناير من عام ١٨٨٣، بدأ فى التنقيب مـزودا بتبـرع مـن أرازمـوس ويلسون قدره ١٥٠ جنيها، وقد وعد بالتبرع بمبلغ آخر قدره ١٠٠ جنيه إذا دعـت الحاجة. وكان هدف نافيل الرئيسى هو ومسانديه، اكتشاف صلة أثريـة ملموسـة بالكتاب المقدس، وقد نجح فى هذا نجاحا تاما، إذ أماط اللثام عـن بقايـا مدينـة،

(*) أو بيت أتوم (إله الشمس العظيم الآتى من هليوبوليس) عن معجم الحضارة المصرية القديمة، بوزنر وآخرون. (المراجع).

ومعسكر بتحصيناته، وعدد من الهياكل الأخرى من الممكن أن تكـون مخـازن. وكان هناك ما يدل على أن رمسيس الثانى هو الذى أنشأ هذه المدينة، غير أنه لـم توجد أية علامات تقيم صلة بينها وبين بنى إسرائيل. ومع ذلك وضعت مجلة لندن المصورة عنوانا رئيسيا للخبر الذى ذكرته عن الاكتشاف، يقول: "مدينـة مدفونـة تشير إلى الخروج"، وأنهت الموضوع قائلة: "لقد تحققت الحقيقة الجغرافية الأولـى فى الإقامة فى أرض مصر فى الاكتشاف الذى تم فى بيتحوم. إن التطابق التاريخى لرمسيس الثانى مع الفرعون الظالم هو أيضا نتيجة للدليل القوى. إن اكتشافا بسيطا لم يستغرق وقتا طويلا أفسد مئات النظريات، وقدم تصويرا مدهشا للطابع التاريخى لسفر الخروج".

ولم يقنع "التصوير المدهش" جميع الأطراف المهتمة بهذا الموضـوع: إذ لـم تكن هذه هى المرة الأولى التى يعتمد فيها تفسير الأدلـة علـى الـولاء الـدينى للمفسرين، فالذين كانوا شديدى الحرص على إثبات تاريخية العهد القـديم كـانوا راغبين أشد الرغبة فى أن يجدوا ذلك فى أعمال التنقيب التى قام بها نافيل، فى تل المسخوطة. غير أن هناك آخرين ممن كان يداخلهم الشك. فنجم عن ذلك الجـدال دعاية ممتازة للصندوق، مما زاد من عضويته.

وكان هناك انتصار آخر أقل أهمية فى تل المسخوطة، ذلك أن ماسبيرو قـد أقنع الخديوى بأن يهدى اثنين من أفضل التماثيل التى عثر عليها هناك إلى سـير أرازموس ويلسون، الذى قام بدوره بإعطائهما للمتحف البريطانى. هذان التمثالان هما نسر من الجرانيت، وآخر يمثل كاتبا يجلس القرفصاء. لقد نجح انطلاق عمـل الصندوق فى مصر نجاحا عظيما، إذ إن نفس الجدران التى بناها بنو إسرائيل فى أسر العبودية تم اكتشافها. كذلك تم أخيرا تحديد الفرعـون المـذكور فـى سـفر الخروج؛ وتحقق قدر كبير من الدعاية لنقاش حامى الوطيس؛ كما حمل الـصندوق أثمن ما اكتشف من كنوز معه مكافأة له على قراره الجرىء غير المـسبوق فـى الالتزام بالقانون الذى كان يمنع تصدير الآثار.

وكان هدف نافيل التالى هو المقر الملكى القديم للفراعنةـ مدينة زوعان Zoan التى يوحى الكتاب المقدس بأنها كانت عاصمة مصر القديمة، والتى وقعـت فيهـا

الأعاجيب فى زمن موسى. لقد كان هناك اتفاق عام حول موقع المدينة، وهى بقعة من الأرض الجرداء تعمها الحمى فى شرق الدلتا أسماها الإغريق تـانيس Tanis، وأسماها العرب صان. وبدأت إميليا إدواردس فى العمل ودق الطبول من أجل جمع المال، بحماسها المعهود، فأخذت تتراسل مع أحد رجال الدين فـى أمريكـا، هـو صاحب النيافة ويليام كوبلى وينسلو، الذى شن حملة فى الصحافة للحصول علـى "جواريف (جمع جاروف) من أجل زوعان Zoan ".

كذلك انضم الشاعر وكاتب الترانيم جرينليف هويتير Whitter وإن فعل ذلـك بتردد، فكتب إلى مسئول الخزانة: "يسرنى أنك لفت نظرى إلى مـا يجـرى فـى زوعان Zoan. إن المشروع يزكى نفسه بالنسبة لكل من يقرأ الكتاب المقدس، وكل طالب يدرس التاريخ وعجائب مصر الكبرى. وأود أن أشارك فيه. وأحس بقليـل من التردد فى إزعاج مومياء ربما كانت تتبادل الكؤوس مع فرعون، أو ربما ألقى صاحبها نصف بنى half penny (عملة نقدية صغيرة) فى قبعة هوميروس، أو رفع قبعته احتراما حين كانت تمر الملكة ديدو ملكة قرطاج، غير أن الفضول يـستولى على نفسى وأنا فى ذلك أقتدى بمثال د. هولمز أوليفر ويندل هولمز وذلـك بـأن أرفق أمر الليفتنانت الحاكم إيمز Ames من أجل أحد أفضل جواريفه". وعد سـير أرازموس ويلسون، الذى انتخب رئيسا للصندوق، بمبلغ ١٠٠٠ جنيه، ومـستر و. هاولر أحد الأعضاء، قدم ٥٠ جنيها، من أجل تانيس إذا ما أمكن العثور على تسعة عشر شخصا آخرين يقدمون نفس المبلغ.

كان نافيل قد زار المكان، وكان على ثقة من أنه سوف يكرر نجاحـه الـذى حققه فى تل المسخوطة من حيث التحقق من الكتاب المقدس، إلى جانـب تـدعيم المجموعة الأثرية فى المتحف البريطانى. على أى حال، فقد انسحب نافيل Naville فجأة، زاعما أن ضغط العمل منعه من الذهاب إلى مصر فى ذلك الوقـت. وقـال أعداؤه إنه شديد الشغف بوسائل الراحة فى بيته؛ ومن المؤكد أن وصف ويلكينسون لتانيس باعتبارها "موطنا للصيادين، وملجأ للوحوش الـضارية، وكونهـا مليئـة بالزواحف وأنواع الحمى الخبيثة" لم تكن كل هذه الأشياء لتروق للعالم الذى بلـغ منتصف العمر. مهما يكن من أمر، فقد عاد نافيل إلى الطبعة التى كان يمتلكها من "كتاب الموتى" مخلفا فراغا فى مؤسسة صندوق استكشاف مصر. وأصبح الرجـل

الذى وقع عليه الاختيار لملء هذا الفراغ أشهر عالم آثار مصرى وأكثرهم نفــوذا فى الزمن الحديث، فهو رائد المنهج الأثــرى الحــديث، وأول أســتاذ فــى علــم المصريات فى إنجلترا، إذ كتب كاتب سيرة حياته أنه "وجد الآثار فى مصر مجرد عملية تصيد للكنوز، فلم يتركها إلا بعد أن صارت علما".

لم يتمكن ويليام فليندرز بيترى من الحصول على تعليم رسمى، لأن أبويه كانا يلتزمان بمبادئ حركة الأخوة للمسيحية الأصولية، الذى يؤمنون بفصل أنفسهم عن "مفسدات" المجتمع العلمانى. كان أبوه سبتيا أى يتشدد فى عدم العمل فى يوم الأحد كمسيحى، لذا فقد كتب لأحد جيرانه ذات مرة عن "جعل ببغائهم يلتزم الهدوء يــوم الأحد". لقد قدم هذا الرجل لابنه دروسا فى التفسير الحرفى للكتاب المقدس، لكنــه تركه وشأنه فى أمور التعليم العلمانى. كان وهو صــبى، يكــن شــغفا بالكيميــاء والجيولوجيا وجمع العملات. وكان هذا الحب لجمع العملات هو الذى أقام صــلة بينه وبين المتحف البريطانى، حيث أصبحت لديه عين مدربة على كشف الأشــياء الزائفة.

وفى عام ١٨٨٦، قرأ الأب والابن كتاب "تراثنا فــى الهــرم الأكبــر" Our inheritance in the Great pyramid فأشعل فى قلبيهما حماسا جديدا. مؤلــف هــذا الكتاب هو تشارلز بياتزى سميذ Charles Piazzi Smythe الذى يعد من أبرز علماء الفلك وزميلا بالجمعية الملكية. وقد تصادف أنه صديق للعائلة. وربما كــان هــذا السبب بالإضافة إلى ورعه الشديد هو الذى جعل آل بيترى يهتمون اهتماما خاصا بما فى هذا الكتاب من نظريات شاذة غريبة. قامت هذه النظريات على أساس كتاب جون تيلر المسمى "الهرم الأكبر ــ لماذا بنى، ومن بناه"؟، الذى نشر عام ١٨٥٩. فى هذا الكتاب أصر تيلر على أن الهرم لا يمكن أن يكون قد بناه بشر. فهو مكتمل الأبعاد، كما أنه غاية فى الدقة من حيث التوجيه نحو نقطة فى البوصلة إذ يكاد يقع على خط العرض ٣٠، ولم يكن من الممكن أن تصل البشرية إلى تلك المرحلة من التقدم التكنولوجى اللازمة لتشييد الهرم دون عون، فى تلك الفترة الوجيزة منذ خلق الدنيا عام ٤٠٠٤ ق.م. لذا لا بد أن يستنتج من ذلك أنه قد تم بناؤه تحــت إرشــاد إلهى. فما إن يتم تفسيره تفسيرا صحيحا، فإن توجهه وأبعــاده تنقــل رســالة الله للبشرية. وحين استخدم تيلر مقاييس فيز وبيرينج لاحظ أن ارتفاع الهرم يحمل نفس

العلاقة مع محيطه كما يفعل قطر دائرة مع محيطها. لذا، فإن المصريين القدماء، بإرشاد من الرب، ربعوا الدائرة. وتأسيسا على هذه النظرية افترض تيلر أن "بوصة من الهرم" مؤلفة من ١٠٠١ من بوصة كبرى، كل خمس وعشرين منها تكون "ذراعا مقدسة". لقد بنى بياتزى سميث على مقاييس تيلر، فأكد سميث أن أبعاد الهرم الأكبر قائمة على هذا المقياس. وعلى هذا فإن تقدم الحضارة بأكمله منذ أوائل زمان الكتاب المقدس ترمز إليه الممرات والدرجات وتغير الانحدارات المؤدية إلى قاعة الهرم العظمى.

اشتعل حماس آل بيترى، الأب والابن بهذه الأفكار، التى بدا أنها تقيم زواجا بين المنهج العلمى وما سجله الكتاب المقدس. وكتب ويليام إلى سميث معبرا له عن حماسه ومشيرا إلى أن المسافة بين الشمس والأرض هى بالضبط "١٠ إلى ٩ مرات الارتفاع الرأسى للهرم الأكبر". ويعد هذا مزيدا من التأكيد على أصله الإلهى. فى ١٨٧٠ حين كان ويليام فى السابعة عشرة من عمره، كتب إلى صحيفة الميكانيكى الإنجليزى وعالم العلم مدافعا عن نظرية الهرم فى وجه نقادها. وبعد ذلك بأربع سنوات ظهر كتابه الأول: "أبحاث عن الهرم الأكبر"، عام ١٨٧٤. وكان الكتاب يرمى إلى التأكيد "على تلك المبادئ المميزة فى تصميمه وتشييدة التى أعلن عنها لأول مرة ذلك الرجل الحكيم جون تيلر والأستاذ بياتزى سميث".

حصل ويليام بيترى على فرصته الأولى لزيارة مصر عام ١٨٨٠، وكان ينتوى القيام بتنفيذ مسح للهرم الأكبر بحثا عن المزيد من الأدلة التى تؤيد نظرياته. وبالرغم من أن عمله كان مقتصرا على الهرم، إلا أنه لاحظ بتقزز، النتائج المدمرة لأعمال التنقيب التى تقوم بها مصلحة الآثار فى المقابر المجاورة: "ليس ثمة ما يفوق الوحشية وعدم المبالاة التى يتسم بها العرب الذين أقدموا حتى على تجريد معبد الجرانيت من المرمر منذ اكتشفه مارييت، والذين لا يجدون من يراقبهم هنا. ليس أبشع من هذا، سوى ذلك النوع من الهمجية فى التعامل مع الآثار من جانب من بيدهم السلطة، إذ لا يبدو أن هناك ما يتم عمله بأى قدر من التنسيق؛ أو الخطة المنظمة. فالعمل يبدأ ويترك دون إكمال.... ما يبعث على السقم أن يرى المعدل الذى يتم به تدمير كل شىء، والقدر القليل من الاهتمام الذى يولى للحفاظ عليه. لو أن جميع ما يوجد هنا فى التل قسم على جميع المتاحف الحكومية الأوربية وأطلقت

لتلك المتاحف كل الحرية فى أن تأخذ ما تشاء، وأعطيت السلطة للاحتفـاظ بمـا تستولى عليه هنا، لربما أمكن عمل شىء أكثر بعثا على الرضى. ذلك أن أى شىء يعد أفضل من ترك الأشياء تدمر بالجملة؛ فمن الأفضل إفساد نصف الموجود من أجل الاحتفاظ بالنصف الآخر من ترك كل شىء يتحطم".

قام بيترى بجمع عدد من الأشياء الأصغر حجما. ومع اقتراب الموسم السياحى من نهايته، كان التجار الذين كانوا يتجرون حول الأهرام على استعداد أن يبيعوا ما لديهم بأسعار رخيصة. وكانت لدى بيترى معرفة كافية بالأعمال المزيفة تمكنه من شراء ما يوثق به. فاشترى أعمالا من البرونز والعمـلات والجعـارين، وكـذلك اشترى قطعًا صغيرة من الفخار لا يلتفت إليها أحد، كان د. بيرش قد طلـب منـه جمعها حين كان فى المتحف البريطانى. ويبدو أنه شعر بالدهشة وقدر من الصدمة من أن ماسبيرو مدير الآثار نصحه بألا يعلن عما معه فى الجمرك، وإنما يحمـل تلك الأشياء فى جيبه.

كانت العروض التى تكتب عن كتاب بيترى تلقى القبول بوجه عـام، وعلـى الأخص من جانب التايمز والساتردى ريفيو اللتين كانتا أشد تحمسا. وكتبت إميليـا إدواردس بإسهاب عن الكتاب وانتهت إلى القول: "لا يمكن أن يكون هناك جـدال حول الأهمية الخاصة سواء فى العمل الذى قام به مستر فليندرز بيترى، أو الكتاب الذى قام بتأليفه؛ غير أن الكتاب يخلو تماما من أى نزعة إلى المظهرية، حتـى إن القراء ربما يعجزون عن إدراك أهمية الخدمات التى أداهـا للتـاريخ والعلـوم". وعرض بيترى الكتاب على بول فى المتحف البريطانى، فلم يتردد بول فى أن يثنى على الرجل عند صندوق استكشاف مصر حتى يحل محل نافيل، ومنحت إميليا تلك التوصية تأييدها الحار، فتم تعيين بيترى براتب مقداره ٢٥٠ جنيها شهريا، لتغطية تكلفة أعمال التنقيب بالإضافة إلى نفقاته الخاصة. وأصر بيترى علـى أن تكـون شروط تعيينه مختلفة عن شروط نافيل فى جزئية معينة، إذ أصر على أن يسمح له بشراء الآثار الصغيرة التى يمكن أن يعثر عليها عماله أو يحضرها التجـار إلـى مكان الحفر، والتى يرى بيترى أنها مواد أساسية يمكن استنباط التاريخ القديم منها.

وصحيح أنه كانت هناك تلك المشكلة المتعلقة بالقانون، الذى ينص على أن أية قطعة أثرية مهما كانت صغيرة إنما هى ملك لمتحف بولاق، ولكـن بيتـرى قـد

توصل إلى حل: فلسوف يقدم نفسه لماسبيرو ويطلب أن يعمل فى مصر كوكيل للمتحف، ولديه تفويض بأن يشترى الآثار نيابة عنه، وفى النهاية سوف يقدم المجموعة بكاملها لماسبيرو، ولا يطلب إلا أن يسمح له بأن يأخذ معه إلى بلاده تلك الأشياء التى لا يريدها ماسبيرو، وعندها تكون تلك الأشياء متاحة للصندوق كى يقوم بتوزيعها على المتاحف البريطانية والأمريكية، مع إشارة إلى "أن التبرعات تلقى كل الترحيب". وبدا هذا مشروعا ممتازا، مادام وافق ماسبيروعليه. وقيل لبيترى أن يسافر إلى مصر عن طريق باريس، حيث زار مدير الآثار كى يطلب موافقته، وأعطى ماسبيرو موافقته فى الحال، بشرط أن تظل الاتفاقية سرا إلى أن يعود هو إلى القاهرة. وانتقل بيترى من باريس كى يستقر فى تانيس.

وحين زار نافيل المكان من قبل كان قد وصفه بأنه مكان بشع، وتأكد بيترى من هذا بناء على تجربة شخصية: "يمكن عبور الخلاء الفسيح المسطح من الأرض، على مستوى البحر، والذى تغطيه برك من الملح تجف ببطء، يمكن عبوره لمسافة أميال، دون أن يرى المرء سوى تغيرات موحشة من التراب والطين الأسود والماء، ثم الطين الأسود مرة أخرى... ولا يكسر تسطح الأفق المجدب سوى تلك الروابى الخفيضة من مدن الموتى. فهذه وحدها هى الباقية التى تبين أن هذا الإقليم كان فى وقت ما أرضا حية عاش شعبها حياة مرفهة على وجه الأرض... وأول ما تراه العين فى صان أكواخ العرب البائسة... على أحد الجانبين، هناك جدول يغطيه الطين يلقون فيه جواميسهم الميتة، ومنه يشربون. وإلى الجانب الآخر، يوجد مستنقع مليء بالقبور المتعفنة والقذارة، ولكن الروابى العالية التى ترتفع خلف هذه الكتلة من السمك الميت التى تصيب المرء بالغثيان والأطفال الأحياء والذباب، هى بقايا تانيس الإغريقية والرومانية، وهى مدينة منظمة جيدة البناء".

بنى بيترى لنفسه كوخا خشبيا صغيرا، واستخدم ما يقرب من أربعين من الرجال والنساء والصبية كى ينظفوا المنطقة، وأصر على أن يدفع لهم أجورهم بنفسه ليتأكد من أن النقود وصلت إلى أياد رآها تعمل. واعتاد أن يبدأ العمل بنفسه فيرى من يقومون بالحفر فى موقعهم فى الساعة الخامسة والنصف صباحا، بأن ينفخ فى صفارة حتى ينطلقوا فى العمل. وكان يعود إلى كوخه بين الثامنة والتاسعة

لتناول الإفطار، ولكنه كان ينظر إلى العمال من خلال تليسكوب من بابه الأمامى. وكان يعمل بجد كما كان يقظا دائما لأى تراخ ولا يتسامح إذا ما وجد ذلك. وكان يجلب النعاس إلى عينيه عن طريق تناول الكينين والستريكينين كى يدرأ حمى المستنقعات، ويعيش على الأطعمة المعلبة التى كان يأتى بها من القاهرة.

وكان يكتب يوميات يرسل بها إلى بلاده لأسرته وأصدقائه المقربين. وحين سمعت إميليا عن هذه اليوميات، رأت فيها فرصة يجب أن تغتنم فاستخدمتها كأساس لسلسلة من المقالات فى التايمز. وكانت تخص بيترى بنصف المصروفات(*)، وكتبت له فى نهاية موسمه الأول بلهجة الشخص الذى يلتهب حماسا.

فى تانيس، عام ١٨٨٤، كشف بيترى عن اثنين من أكبر الهياكل أو الأبنية التى صنعها المصريون القدماء: معبد رمسيس الثانى، وتمثاله العملاق، الذى اعتقد أنه أكبر تمثال تم نحته. كان مصنوعا من الجرانيت الأحمر من أسوان، وربما كان طوله الأصلى ١٠٠ قدم. كان يتخذ وضعا هيراطيقيا، أى يشبه كتابة مصرية قديمة أبسط من الهيروغليفية، أو كهنوتيا حيث الذراعان عند الجنبين، والقدم اليسرى تمتد إلى الأمام. شكل جليل وحيد يمكن رؤيته على بعد العديد من الأميال عبر المستنقعات المنخفضة المظلمة. ولم تتبق منه سوى قطع متناثرة. عموما، لم تكن الأشياء الضخمة هى التى تجذب انتباه بيترى وإنما كان اهتمامه ينحصر فى أصغر الآثار. إذ كانت تتناثر على أرض موقع المعبد المئات من الخرز والتمائم المغلفة بالزجاج، وقطع من الفخار، وأعمال زينة مصنوعة من الطين المحروق، وقطع أثاث من الزجاج والبرونز والعاج من المنازل التى ترجع إلى الحقبة البطلمية، بالإضافة إلى عملات من منازل الرومان الأثرياء.

لم يكن أحد ممن سبقوا بيترى ليهتم بأى من هذه الأشياء، ذلك أنها لم تكن مثيرة أو مؤثرة أو تحدث لذة جمالية، كما لم تكن مصنوعة من المعادن الثمينة — لكن بيترى كان يشرع فى الوصول إلى طريقة لتفسير المفاتيح (الدلالات) التى تقدمها هذه الأشياء عن التاريخ المصرى. فصنع صناديق من الخشب كى يحفظ

(*) ربما يقصد ما تتقاضاه عن المقالات. (المترجم).

فيها تلك الأشياء التافهة التى لا يهتم بها أحد، أولا، كان يجب أن تؤخذ هذه الأشياء إلى متحف بولاق، وهناك حزن بيترى لأن ماسبيرو احتفظ بالكثير منها للمتحف. لقد كان هذا جزءًا من الاتفاقية، لكن بيترى كان يداخله شك فى أنها إنما قصد بأن تكون من أجل حانوت المتحف حيث تباع للسائحين. وحتى تلك التى وجدت طريقها إلى المجموعات الدائمة سوف تغرقها جميع محتويات صناديق العرض غير المحددة أو التى لا يكتب ما يدل عليها. على كل حال، فقد سُمح لبيترى بأن يأخذ معه إلى وطنه مجموعة تكفى لأن تعرض فى المعهد الأثرى الملكى فى لندن قبل أن يتم توزيعها بين المتحف البريطانى ومتحف الفنون الجميلة فى بوستون.

كان بيترى متلهفا للعودة إلى مصر فى الشتاء التالى لمتابعة اكتشاف قام به فى الجزء الغربى من الدلتا. ففى أحد الأيام، اشترى، بالصدفة، من التجار فى الجيزة تمثالا صغيرا من المرمر جيد النحت لأحد المحاربين، وحدده هو على أنه إغريقى وليس مصريا، فسأل أين وجد، فقيل له عن مكان يدعى نيريب Nerib بالقرب من كفر الدوار فى الدلتا. ووجد بيترى أنه لا وجود لمثل هذا المكان، ولكنه لحسن حظه، التقى باثنين من تجار الجيزة، فأخذاه إلى نبيرة Nebeira حيث قالا إن التمثال جاء من هناك. وكتب فى يومياته: "آه، يا لها من وليمة من الفخار. إن الأرض تمتلئ بالفخار الإغريقى من الزمن القديم... ويبدو لى أن من أعمال تدنيس المقدسات أن يسير المرء فوق هذه الأكداس حيث المصنوعات السوداء اللامعة تتكسر تحت حذائه... بدا وكأنى أتجول فى حطام حجرات الزهريات بالمتحف. لم تمر بحياتى نصف ساعة مثل تلك".

من الواضح أنه كان موقعا لمستوطنة إغريقية ثرية، فاحتفظ بيترى باكتشافه لها سرا حتى تتاح له الفرصة للتنقيب. فأتاح له الصندوق هذه الفرصة فى شتاء عام ١٨٨٤. وفى نوفمبر، عاد إلى القاهرة وأخذ يشترى خزانات ويضع الخطط. واستأجر بيترى منزلا ريفيا قديما حجريا بالقرب من الموقع وبدأ العمل فى تصنيف الفخار وتسجيله. ثم لاحظ وجود قطعة مكسورة من الحجر تستخدم كجزء من عمود البوابة فى مدخل بيته. وكانت عليها كتابة باليونانية. فى بداية الكتابة: "مدينة نوقراطيس Naucratis هذه"... بهذا كان بيترى قد اكتشف أهم مركز تجارى إغريقى فى الزمن القديم. ويذكر هيرودوت أن نوقراطيس كانت المؤسسة

الإغريقية القديمة الوحيدة فى مصر، ولقد منحت حق احتكار التجارة فى القرن السادس ق.م. وازدهرت حتى صارت أهم مركز إغريقى فى مصر قبل تأسيس الإسكندرية. وكان موقعها موضع جدال بين علماء المصريات على مدى جيل كامل. وعلى الفور أرسل بيترى ببرقية لبول يخبره فيها بالنبأ، وأخذ يبحث عن أيدٍ عاملة. وكان عليه الانتصار حتى انتهاء موسم حصاد الذرة، حين يأتى القرويون من أهل المنطقة إلى الموقع بحثا عن عمل، ومرة أخرى أصبح بيترى صرافا ورئيس عمال، يبدأ اليوم بصفارته، ويراقب سير العمل من خلال تليسكوبه. كان هناك شيء واحد يثير القلق فى الموقع تمثل فى الجيزاوية، أى التجار من الجيزة الذين كان لديهم فضول بالنسبة للاكتشاف الجديد، وكانوا يتسكعون على أطراف المكان يحاولون شراء الآثار. وكان بيترى من آن لآخر، يخف فى يوم من أيام الحفر لمطاردتهم عبر الحقول ويقفز فوق الترع ويختفى بين الشجيرات.

وكانت المضايقات الآتية من لندن أقل بعثا على الانشغال، ذلك أن كلا من بول وإميليا إدواردس كانا يكتبان بانتظام إلى بيترى يستفسران عما أحرز من تقدم، وكانا كثيرا ما ينقلان تعليمات متناقضة عن الصندوق. فحين تسلم بول النبأ البرقى عن الاكتشاف رفض أن يعطيه أى قدر من الدعاية أو الإعلان، انتظارا للمزيد من التأكيد. لكن إميليا كانت دائما حريصة على تجميع المزيد للصندوق، ففكرت فى خدعة دعائية تتحدث عن بيع قطع من الطوب المصنوع بدون قش "مثل تلك التى أجبر فرعون القاسى أبناء إسرائيل العبيد على صنعها". فهل فى وسع بيترى أن يرسل لها ١٠٠٠ من هذه القطع من بيتحوم، فأشار بيترى بأن التجارة فى بقايا المبانى مسألة مشكوك فيها أخلاقيا؛ وأن التكلفة سوف تكون جسيمة؛ ولن يكون من الأمانة ادعاء أن هذه القطع من الطوب قد صنعها بنو إسرائيل من العبيد، طالما كانت قطع الطوب المصرية القديمة غالبا ما تصنع بدون قش، فتم التخلى عن المشروع.

كان اكتشاف نوقراطيس نبأ مثيرا، خاصة فى فرع الصندوق الأمريكى لاستكشاف مصر، الآخذ فى النمو. كانت مراسلات إميليا النشطة هى التى أخرجت هذا الفرع إلى حيز الوجود. وقالت إن الصندوق يضُم هناك ١٧١ مشتركا "من بينهم ثلاثة من رؤساء الكليات، وسبعة وعشرون من كبار رجال الكنيسة، وتسعة

عشر من أبرز أساتذة الجامعة، واثنان وثلاثون من أعضاء الكونجرس". ومع ذلك فإن عالم العلم كثيرا ما ينبت الجدال؛ وقد قيل إن دراسة الآثار ليست بعلم؛ وإنما هى ثأر. فكان أعداء الصندوق فى إنجلترا يشحذون سكاكينهم. ذلك أن التقارير عن اكتشاف نافيل فى تل المسخوطة كانت قد حركت العداوات بالفعل، كما أن ما نشره عن بيتحوم (بيت أتوم) أصبح فرصة لمهاجمة الصندوق، الذى دعمه. فكل من بول ونافيل اشتبهوا فيما أسمته إميليا إدواردس نفوذ بيرش وآريد وبادج، فى المتحف البريطانى الذين ظلوا معادين للصندوق رغم أنهم كانوا المستفيدين الرئيسيين من الآثار التى أحضرها منّقبوه بالطرق القانونية. إذ إن بيرش قد أعلن معارضته للصندوق الأمريكى منذ ولادته على الرغم من أنه طلب من بيترى أن يحضر بعض عينات من الفخار؛ فالأولويات التى بدأ واليس بادج يقبلها كمعيار لتقويم الآثار، هى أولويات مشتركة على نحو أكثر مع معايير دلاّلى الآثار فى القاهرة وبلومزبرى Bloomsbury أكثر من اتفاقها مع معايير فلندر بترى .

كان بادج هو الذى حرر خطابا للصندوق صادرا عن المتحف يشكو فيه من أن الآثار التى تم التبرع بها عديمة القيمة. وقال إنه لا يمكن توصية الأمناء بقبول "كمية كبيرة من الفخار، وأشياء صغيرة هى من وجهة نظرنا عديمة النفع". ومع أن هذا التأكيد تم سحبه فيما بعد، إلا أن بيترى قد استشاط غضبا، وكتب لإميليا يقول: "إن الأقوال الكاذبة فى هذا الخطاب وكذلك الجهل الصارخ الذى يبينه فيما يتعلق بعلم الآثار العلمى الحقيقى يمنعانى من أن تكون لى أية علاقة بهذا المكان". وظلت هذه القطعية بقية حياته.

لقد وقعت هذه الحادثة فى وقت سيئ . فقبل ذلك بشهر، كان بيترى قد استقال من صندوق استكشاف مصر، إذ أغضبه التبديد وانعدام الكفاءة اللذان وجدهما فى الإدارة، كما أن أمله قد خاب حين تم اختيار نافيل لتنفيذ أعمال التنقيب التى يقوم بها الصندوق فى العام التالى. وترك بيترى كى يعول مؤقتا، على موارده الخاصة. ثم كتبت له إميليا إدواردس، التى كانت له بها علاقة طيبة، كى تخبره بأن مبلغا كبيرا من المال قد وضع تحت تصرفه بواسطة "رجل شديد الثراء والذكاء من طبقة التجار، سافر إلى مصر وهو شديد الشغف والحماس للآثار المصرية". لم تلتق بالرجل سوى حديثا، لكنها تشعر بالفعل بأنه ربما يصبح "شيئا أشبه بسير

أرازموس ويلسون" وأنها سوف تعجل بالتصرف فقط إذا ما أعطى بيترى موافقته، فإذا كان هذا الأمر يروق لك، فلسوف أبدا فى استخدام وسائلى وأعمل قوة نيرانى". وقامت إميليا بمحاصرة جيسى هاويرث (رجل أعمال ثرى من مانتشيستر). وعلى الفور وضع هاويرث مبالغ من المال تحت تصرف بيترى، دون شروط مسبقة، وكتبت إميليا تقول إنه "رجل متدين، فإذا استطعت أن تلقى أى ضوء على الكتاب المقدس... فلسوف يسره هذا ويرضيه. لكنه لا يريد أى نهب ويرغب فى ألا يكون ظاهرا، وألا يذكر اسمه بأى شكل".

وانطلق بيترى فى حياته العملية التى لا يكون فيها موظفا عند أحد أو هيئة فى صحبة أكثر رجال الدعاية تأثيرا وتوفيرا للرعاية فى تاريخ علم الآثار. فلما استراح بيترى من القلق المالى، كانت العقبة الرئيسية أمامه هى مصلحة الآثار. واصطدم مع جريبوت، كما فعل بادج، ولكن لأسباب مختلفة، إذ إن بيترى كان يتطلع إلى التنقيب والتسجيل وليس للنهب؛ فكان قلقا من أن موظفى المتحف يزيدون من الانهيار الذى كلفوا بمنعه، فكتب: "إن أفعال متحف بولاق فى مصر تذكّرنى بذلك الشحرور فى حديقتنا الذى اعتاد التقاط كل عناقيد العنب البناتى الجميلة ويأكل واحدا منها ويدع بقيتها تتعفن على الأرض".

كان على بيترى أن يتواصل مع أو يتعامل مع جريبوت للحصول على تصريح بأن يقوم بالحفر كوكيل مستقل. فأشار جريبوت إلى أن الإنجليز قد منحوا تصريحا بالحفر فى الدلتا وفى أسوان؛ وهو يريد أن يحتفظ ببقية مصر للفرنسيين. وكتب بيترى شاكيا: "إن النقود موجودة، والعامل موجود، لكن الكلب فى الحظيرة ولديه فراش لطيف دافئ فى القش، ولا يريد من أحد أن يزعجه".

ومما يدعو إلى السخرية أن الإشاعات انتشرت بأن بيترى كان يقوم بتهريب صناديق من الآثار. لقد كان حريصا على أن يجعل كل شيء واضحا مع ماسبيرو، وجاء خطاب من المدير المتقاعد أوضح فيه الأمور، لكن بيترى كان يمتعض من أن يربط الناس بينه وبين ما كان بادج يتبعه من وسائل، إذ كان يرى أن ذلك مسيء. فكتب إلى إميليا إدواردس: "حين يعلم جرُيبو كيف تصرف البعبع ــ وهى الكنية التى كانا يكنيان بها بادج ــ فلسوف يجن جنونه، لأخذ ذلك الشخص المهذّب ستة صناديق والمرور بها فى بولاق، لكنه ترك ١٧ صندوقا أخرى كى يتم

التعامل معها باعتبارها متاعا عسكريا مما أذهل أصدقاءه من العسكريين. وبعد أن رحل، سافرت هذه الصناديق السبعة عشر فى النيل، وتم إخراجها من البلاد؛ كان أحدها عبارة عن كتلة تبلغ ثلاثة أرباع طن، ولما تعذر وجـــود طريقـــة لتغليفهـــا ونقلها، وضعوها فى أسوان، فى دواوين النوم فى القطار، وربطـــت معـــا بـــستة مسامير طول الواحد منها ست بوصات، وكانت هذه لقمة أكبر من أن تعد متاعـــا عسكريا؛ لكن ميجر باجنولد، وهو الذى قال لى، وضعها فى الخيش الذى دهن كله، ونقش عليها توجيها رسميا جميلا، وهكذا ذهبت".

بلغت معارضة بيترى لنقل الكنوز من مصر حدا جعله يساعد فى تنظيم لجنة فى لندن ازدهرت إلى أن صارت جمعية من أجل الحفاظ على آثار مصر القديمة. وكان أعضاؤها الأُول يتكونون من الدوائر الفنية والفكرية فى العاصمة، من بينهم، بالطبع، إميليا إدواردس، والرسام هولمان هانت، وبيرن جونز، وج. وف. واتس، أستاذ الدراسات الآشورية بجامعة أوكسفورد، والأستاذ أرشيبولد ســـيس، وســـير هنرى ليارد، الذى صار السفير البريطانى إلى القسطنطينية (إستانبول). وأقنعـــت الجماعة سلطات مصلحة الآثار بجباية ضريبة قدرها مائة قرش على كل ســـائح. وهذه الضريبة مع تذكرة دخول متحف بولاق وبيع الآثار فى حـــانوت المتحـــف، تستخدم فى إصلاح بعض معابد طيبة وصيانتها، وكذلك الأبواب المؤدية إلى مقابر الملوك. ومارسوا ضغطا من أجل تعيين مفتش إنجليزى للاطلاع على الأضـــرار وتقديم التوصيات. وتم إقناع لورد ساليسبورى وزير الدولـــة للـــشئون الخارجيـــة بالكتابة لسير إفلين بيرينج طالبا منه وضع هذه الاقتراحات أمام حكومة مصر.

وعلى الرغم من تعاطف بيرينج مع أهداف الجمعية، إلا أنه كان مـــا يـــزال يشعر بالحساسية إزاء الازدراء الذى يبديه الفرنسيون، فقد تخلى عن آماله السابقة فى الترتيب من أجل انسحاب مبكر للكتيبة البريطانية فى مصر، وفى الثمانينيـــات من القرن التاسع عشر قرر أنه ليس من الحكمة تحديد تاريخ لرحيل البريطانيين،إذا كان لا يراد للبلاد أن "تنزلق عائدة إلى الهمجية الشرقية المسترخية، التى سادت فى غابر الأيام". وكانت هناك إمكانية ماثلة دائما وهى أن يدخل الفرنسيون فى حـــين يخرج البريطانيون. لقد كان مدى وطبيعة التدخل البريطانى فى الشئون المـــصرية هو الشغل الشاغل لبيرينج فى كل يوم ــ ولم يتم الإفصاح عن ذلك فى الاتصالات

الرسمية ــ غير أنه كان على وعى بأن أى قرار يتخذه كان موضع تفحص ونقـد من جانب الفرنسيين الذين صنفهم باعتبارهم مصابين بمرض الخوف من الإنجليز، حتى لو كان الإنجليز ممثلين فى رجل واحد.

وفى فبراير ١٨٨٨، كتب إلى لورد ساليسبورى "إنهم غير معقـولين تمامـا، ولديهم كره مزمن لإنجلترا يجعلنى أخشى من أى استعراض براق لـسيادتكم فـى مصر فى هذه اللحظة". كما كان بيرينج يعى بقلق أن الفرنسيين هم أول من اهـتم بآثار مصر القديمة؛ فهم وحدهم الذين أوجدوا المتحف ومصلحة الآثار فى وقـت كانت فيه بريطانيا تفضل ترك هذه الأمور لعمل الأفراد. كانت المصلحة هى تقريبا المعقل الأخير للنفوذ الفرنسى فى مصر، فكان بيرينج مترددا فى التدخل فيها، على الأصح لأنها كانت تسعى إلى الحد من رغبة مواطنيه فى الاستحواذ، فـأدت بـه رغبته فى الإقلال من الضرورة الملحة لاقتراحات الجمعية إلى ألا يكون مـصرا فى تأييد مطالبها، فانتهى المشروع الذى يعارضه جريبو إلى لاشىء.

تمكن بيرينج من تشكيل لجنة لتقديم التوصيات بشأن تحديد تصاريح التنقيـب، ولكن فى معظم الحالات يبدو أنه سمح لجريبو بأن يتبع طريقته الخاصة أو يكـون مطلق اليد فى المنافسات. وفى إحدى المرات، زار بيترى بيرينج كى يشكو مـن المماطلات وقصور مصلحة الآثار، فوجد أنه متعاطف ولكنـه عـاجز. فقـال إن بيرينج "كان منفتحا تماما ومسرورا بالنسبة لهذا الموضوع ولكن، من الواضح، أنه ليس حرا فى اتخاذ موقف قوى، إذ قال: "الصعوبة كلها تتجسد فى ذلـك الرجـل الوحيد، جريبو"، قال ذلك مرة ومرة واضعا قبضة يده على المنضدة".

وفى ١٨٩٢، أعيد جريبو إلى فرنسا، وانتعشت الآمال فـى مـستقبل أكثـر سهولة. ومع كل، فقد تمكن جريبو، قبل رحيله، من تمرير نظم جديدة عن طريـق مجلس النظام. صدرت هذه القواعد فى ١٧ نوفمبر ١٨٩١ بمرسوم خديوى، وهى تنص على ألا يسمح بأى أعمال تنقيب فى مصر دون تفويض صـريح بواسـطة "مدير المتاحف والتنقيب، وبعد قيام اللجنة الدائمة للمصريات بالفحص ، وأن جميع الأشياء التى يتم العثور عليها تخص الدولة بحكم القانون، ويجب أن تـودع فـى المتحف".

وبالنظر إلى النفقات التى ينفقها المنقب، اقترحت الحكومة طريقة مبتكرة للتعويض تقسم الأشياء إلى قسمين متساويين فى القيمة ، يجرى من أجلها المنقب والإدارة قرعات عليها، وتحتفظ الإدارة بالحق فى أن تشترى من المنقب أى قطعة مشمولة فى الجزء الذى يقع تحت طائلته. تقدم الإدارة عرضا، ومن حق المنقب أن يرفضه، ويقترح ثمنا أعلى .عندئذ يكون للإدارة حرية الاختيار إما أن تشترى القطعة بذلك الثمن أو أن تبيعها للمنقب بثمن عرضها الأصلى. وبينما تبدو هذه القواعد معقولة، أدرك بيترى أنها أكثر انطباقا على الأثريين متصيدى الكنوز من انطباقها عليه، مادام سيكون مجبرا على تسجيل كل شىء عن الموقع، إذ إنه لن يكون على علم بما سيسمح له بالاحتفاظ به، ثم يفقد نصف ما وجده لصالح المتحف. رأى أن فرض القواعد يعبر عن عجز الدبلوماسية البريطانية عن حماية المصالح البريطانية. وأخبر أصدقاءه بأنه يفكر فى التقدم بطلب من أجل الحصول على المواطنة الفرنسية أو الألمانية حتى يمكنه الحصول على الدعم الذى يحتاج إليه، غير أن أصدقاءه نهوه عن هذه الفكرة. كان من حسن طالع علم المصريات البريطانى أنه بقى ، فلم يوسع بيترى من مجال هذا الموضوع فحسب، بل إنه أحدث ثورة فى منهجيته، بعد ثلاثة أيام من فرض القواعد الجديدة.

وفى ٢٠ نوفمبر ١٨٩١، بدأ بيترى الحفر فى تل العمارنة، التى بناها الملك الهرطيق أخناتون حين هجر طيبة ونقل عصامة مصر إلى هذا الموقع، حيث عبد هو وزوجته نفرتيتى إله الشمس آتون. وكانا محاطين بموظفين منتقين من بين المخلصين. وتل العمارنة هى أشبه بالمسرح الإغريقى القديم (الأمفيثيتر المفتوح)، يقع فى الشعاب على مسافة متساوية تقريبا بين المدينتين المرفوضتين، طيبة وممفيس. وجد بيترى أن هذا الموقع شىء يثبط الهمة: "إنه موقع مهيب كبير يصعب التعامل معه" حسب ما كتب . واستمر يقول: "تخيل أنك تبدأ فى استكشاف آثار بريتون (مدينة بريطانية) ذلك أن هذا الموقع هو فى حجم هذه المدينة". وسرعان ما وجد بيترى فى منطقة القصر ما وصفه بقوله: "أهم اكتشاف وجد من الناحية الفنية منذ تماثيل المدينة التى اكتشفها مارييت"، كان هناك الرصيف المرسوم، فهو ٢٥٠ قدما مربعا، حيث توجد به حدود رسمية من باقات زهر اللوتس بالتبادل مع أطباق الفاكهة. وهناك ممر يعبر الرصيف به بحيرة مرسومة

على كل جانب تحتوى على السمك والنباتات، وحول كل بحيرة هناك مشهد ريفى، صور العجول وهى تلعب بين الشجيرات، وبطة من نوع البلبول تنهض من بين أكداس من البوص والبردى.

قام بيترى بتصميم وبناء ممشى يرتفع عن الرصيف بتسع بوصات، حتى يمكن للزائرين أن يمروا دون إتلافه، وغطى السطح بكامله بالتابيوكا Tapioca وهى مستحضر نشوى لصنع الحلوى إذ وضعها برفق بإصبعه الوسطى إلى أن جفت فصارت طبقة رقيقة واقية. وأصبح ذلك الرصيف مكانا رئيسيا لجذب السياح، وظل لبعض السنوات على جدول الرحلات النيلية التى تنظمها سفن كوك البخارية(*)، وللأسف، مع أن جمعية الحفاظ على آثار مصر قدمت مظلة لحماية الرصيف إلا أنه لم يجر تمهيد ممر للوصول إليه، فكان السائحون يتعثرون فى الحقول المنزرعة وهم فى طريقهم إلى الموقع، وفى إحدى الليالى، حطم القروى الذى يملك الحقول الرصيف تحطيما إذ إن هذه كانت الطريقة الوحيدة لإنقاذ محاصيله.

ماتت إميليا إدواردس بعد عام من قيام بيترى باكتشافه أى عام ١٨٩٢، وتركت هبة فى وصيتها لتأسيس كرسى أستاذية للآثار المصرية فى يونيفرستى كوليدج، بلندن. ونصت الوصية على أن أى شخص يحتل منصبا فى المتحف البريطانى لا يسمح له أو يباح له احتلال هذا الكرسى، مما استبعد بادج. كما نصت على ألا يزيد عمر الشخص المعين عن أربعين سنة مما محا إمكانية تعيين معظم المرشحين الآخرين الذين يظن أن لديهم تميزا كافيا يجعلهم لائقين. وفى واقع الأمر، كان هناك مرشح محدد فى ذهن إميليا، وأطلعت منفذى الوصية على ما ترغب فيه. فتم تعيين بيترى عن استحقاق. وأقرت شروط تعيينه بحاجته المستمرة لأن يكون منشغلا "بأعمال البحث والاستكشاف الفعلى"، فسمحت له هذه الشروط بأن يكون حرا فى أشهر الشتاء للاستمرار فى عمله فى مصر. فاتخذ هذا العمل اتجاه عمل الأبحاث فى ثقافات النيل فى عهد ما قبل الأسرات. ذلك أنه لم تكن هناك الكثير من الأدلة على أصول الحضارة المصرية، لأن أعمال التنقيب السابقة

(*) يبدو أن هذه نوع من شركات السياحة. (المترجم).

كانت تركز على الأعمال الفنية القيمة التى يمكن بيعها. لذا شاعت النظريات بين علماء المصريات، وأكثرها شيوعا هى أن حكام مصر أحضروا ثقافتهم معهم من بلاد النهرين وفرضوها على الشعب المغلوب.

وفى قفط Quft وهى بلدة صغيرة شمال الأقصر، اكتشفت بيترى تماثيل من الحجر الجيرى غير جيدة تمثل الإله الأبوى مين Min. ومن الواضح أن هذه التماثيل كانت أكثر بدائية من أية تماثيل سبق اكتشافها. ثم استخرج، فى نقاده إلى الجنوب قليلا، مقبرة كبيرة تحتوى على الآلاف من القطع البدائية، كسكاكين من حجر الصوان، وبالّتات حجرية Palettes أى أداة الرسم، ورؤوس صولجانات، بالإضافة إلى فخار لم يكن مصنوعا بواسطة الطاحونة، ولم يكن هناك أى أثر يدل على وجود الكتابة فى أى مكان. فعرف بيترى أنه على اتصال بثقافة أقدم من أى ثقافة سبق التعرف عليها. وظن فى البداية أن هذا لا بد أن يكون جنسا جديدا من الغزاة قد يكونون من ليبيا. على أى حال، أظهر التصنيف الدقيق لأساليب الفخار أن هذه الثقافة تطورت بالتدريج عبر فترة طويلة من الزمان. واتضح أن فترة ما قبل التاريخ فى مصر يمكن دراستها فى وادى النيل دون حاجة إلى اللجوء إلى نظرية "الهجرة".

مع بداية القرن (يقصد العشرين) حدث تغير فى فرص علم المصريات الإنجليزى. إذ إنه فى ١٨٩٩، تم إقناع ماسبيرو بالعودة إلى القاهرة مديرا للآثار. فأحكم الإجراءات فى وجه التنقيب غير القانونى، وأجرى الترتيبات بحيث تقوم إدارة الأشغال العامة بتعيين مفتشين، كلاهما إنجليزى، واحد لمصر الوسطى حتى أبيدوس، والآخر للجنوب. كما دفع ماسبيرو بتقدم علم المصريات وذلك بأن منح امتياز التنقيب فى أبيدوس لبيترى. تشتهر أبيدوس باعتبارها مدفن ثينيس Thinis أقدم عاصمة أسر فى مصر، كما تعرف بأنها موقع مقبرة أوزيريس، حيث كانت تمثل الطقوس السرية السنوية لموت الإله وبعثه. وفى الأزمنة القديمة، كانت مكانا للحج، وكان معظم المصريين يتمنون إما أن يدفنوا هناك أو أن تؤخذ مومياواتهم إلى هناك لبعض الوقت كى تقدم الاحترام للإله قبل أن تدفن نهائيا.

قام كل من ماريت وماسبيرو بالحفر فى هذا الموقع، وحملا تماثيل من أجل متحف بولاق . وكان بيترى قد حاول عدة مرات الحصول على تصريح بالحفر، لكن طلبه دائما كان يقابل بالرفض لصالح الفرنسيين. ذلك أن إميل إميلينو قد منح الامتياز عام ١٨٩٥، واستخدم قوة عاملة كبيرة للبحث عن تحف يمكن تسويقها، وزعم أنهما قد حملا كل شيء ذا قيمة، وفتتا كل ما لم يأخذاه. أما بيترى فقد وجد أن الفتات ذا قيمة، ذلك أنه عن طريق التعرف على أسماء الملوك من كسارة الأوعية الحجرية وأختام الجرار، وعن طريق المقارنة بينها بواسطة التشابه الأسلوبى وكذلك أوجه الاختلاف، تمكن من وضع تتابع تاريخى. وحين عرضت مكتشفات بيترى فى لندن، لاحظ أن التوافه التى لم ينتبه إليها أحد كانت تربى الذوق العام "ظهر شعور عام جديد، فبدلا من مجرد الاهتمام بالأشياء الجميلة أو الأشياء ذات المظهر اللافت للنظر، كان الناس يتعلقون بالمناضد مفتونين بكسارة من آثار الأسرة الأولى. وكان بعض النساء يقضين كل الساعة المخصصة لتناول غذائهن فى الحجرة".

استمر بيترى فى القيام بأعمال التنقيب السنوى فى مصر لمدة أربعين عاما. ولا يوجد من عمل فى كل هذا العدد من المواقع، أو قام بكل هذا العدد من المكتشفات الهامة. كما أسس مدرسة جديدة من الأثريين أكثر مسئولية. استطاعت هذه المدرسة الكشف عن فترة طويلة من التطور فيما قبل التاريخ، وذلك بتركيزها على الأشياء الدقيقة الغامضة أو الغُفْل. فعن طريق استخدام منهج التأريخ التتابعى، أمكن إذن للثقافات التى تتزايد تعقيدا أن يتعرف الأثريون عليها بقدرٍ ما من الدقة. فالتاريخ التتابعى يعمل بمبدأ يرى أنه حين يتم استبعاد الأشياء، فإن ما يلقى به بعيدا اليوم سوف يسقط ويغطى على ذلك الشيء الذى ألقى به بعيدا بالأمس. لذا، فمن المعقول أن نفترض أن الأشياء التى تم العثور عليها بالقرب من سطح الأرض هى أحدث تاريخيا من تلك الأشياء التى توجد أسفلها. وحين طبق بيترى هذا المبدأ على أساليب مختلفة من الفخار الذى تم العثور عليه عند مستويات مختلفة، تمكن من تحديد سبع مراحل متتابعة من فخار ما قبل الأسرات، كل منها متصلة بالمرحلة التى تأتى قبلها، والتى تأتى بعدها على الأقل بملمح واحد مشترك.

فالأشياء التى تم العثور عليها والتى هى متصلة بهذا الأسلوب من الفخار يمكن أن نفترض أنها تشترك معها فى عصر واحد.

قام بيترى بشرح طريقته للمساهمين فى صندوق استكشاف مصر عن طريق استخدام تشبيه بسيط: إذا ما افترضنا منزلا ريفيا كبيرا، وأننا أغلقنا كل حجرة منه واحدة تلو الأخرى دون أن تمس عند وفاة كل مالك لتلك الحجرات بالتتــالى، إذن عند مقارنة جميع المحتويات، سوف نرى بيسر أيا من الحجــرات لهــا تــواريخ متتالية، ولا يمكن لأحد أن يفترض أن حجرة تنتمى لفترة الوصاية على العرش تقع بين مارى Mary، وآن Ann، أو يفترض أن حجرة تنتمى إلى عهد إليزابيث تــأتى بين حجرات تنتمى لجورج الثالث. ذلك أن ترتيب الحجرات يمكن الوصول إليــه بدرجة من اليقين بإجراء مقارنة بين جميع قطع الأثاث والأشياء. وكل منها يمكــن أن يكون له بعض صلات أسلوبية مشتركة مع تلك التى تليها، ونقاط تشابه أقل مع القطع الأخرى التى تبعد عن فترتها... هذا مبدأ ينطبق على المقابر كمــا ينطبــق على الحجرات، وينطبق على الفخار تماما كما ينطبق على الأثاث.

لقد كانت مناهج بيترى تستهلك الوقت، كما أنها كانت تبعث على السأم، بمــا أنه كان من الضرورى تسجيل الموقع الحقيقى لكل شىء بكل عناية. وهناك مــن يفضلون الحفر بسرعة، ويخلصون بأثمن الجوائز. فنافيل لم يكن ليقبل أيا من هذا الطرق، بما يتسم به من اندفاع المدرسة القديمة ونفاد صبرها. لذا كتــب: "ربمــا أيضا تضع خريطة لمواقع حبات الزبيب فى قطعة من بودينج القراصية". ومهمــا يكن من أمر، فان منهج بيترى هو المنهج الذى بقى وأصبح سائدا فى ممارسة علم الآثار الميدانى. ذلك أن إصراره على ملاحظة وتسجيل كل شىء يتم العثور عليه، مهما كان متواضعا، حل محل اصطياد الكنوز المندفع السريع المتعجل الذى كــان يتبعه أسلافه. كما قام بيترى باكتشافات لها مغزاها، إذ تلت مدينة نــقراطيس مدينة كاحون Kqhun، وهى مدينة صغيرة تحوطها الأسوار تنتمى للدولــة الوســيطة؛ والمقابر الكبيرة فى نقاده التى تنتمى لعصر ما قبل الأسرات، وكنــوز مــن تــل العمارنة، ومواد جميلة قديمة للغاية من المقابر الملكية فى أبيدوس.

فى هذا المكان، ومن خلال ما اكتشفه بيترى، تمكن من ترتيب ملوك مصر الأوائل بالتتابع. فلا يوجد شخص واحد فى تاريخ المصريات برمته تمكن من القيام بكشوف أثرية كبرى مثل ما فعل بيترى. وحين أصبحت طرقه الفنية التقنية أكثر انتشارا وبدأت الدوائر الأثرية تتبعها، تم إقناع بيترى بكتابة كتيب للعمل. ففى كتاب (مناهج وأهداف فى علم الآثار Methods aims in Archqeology) الصادر عام ١٩٠٤، هناك مؤشرات عن السبب، الذى ربما لم يجعل بيترى من العلماء المشهورين. ذلك أنه حين كان يعدد الصفات اللازمة كى يكون الشخص عالم آثار جيدا، وضع بينها الحس التاريخى القوى؛ والتعليم الجيد فى الفنون والعلوم؛ وقوة الملاحظة الحادة والذاكرة البصرية الدقيقة؛ والقدرة على الرسم الدقيق؛ وفهم لغات الحضارة القديمة التى يقوم الشخص بالبحث فيها؛ والقدرة على التحدث بلغة السكان المحدثين فى البلاد التى يقوم الشخص بالحفر فيها؛ وأضاف أيضا: "إن الأثرى يجب أن يكون متمتعا بقوة بدنية قادرا على العمل لساعات طويلة بالمعدات كالجاروف والمعول، والحالة البدنية يدل عليها قصر أظافره وصلابة جلده... إذ لا يوجد ما يعوض العمل بالأصابع فى استخراج الأشياء، وتنظيف الأرض أى مسحها برقة ورفق؛ وربما يحاول المرء أن يعزف على الكمان بقفازين تأكيدا على الاحتفاظ بأصابع نظيفة وجلد جميل، إلا أنه على الأثرى الذى يكرس نفسه لهذا العمل أن يرتدى ما يمليه الموقف، إن الرجل الذى لا يستطيع أن يستمتع بعمله دون النظر للمظهر، ذلك الذى ليس على استعداد لأن يتجرد من ملبسه وينزل إلى الماء، أو يغوص فى الطين اللزج خلال ممرات مجهولة، أولى به ألا يقوم بالتنقيب".

لقد أعطى بيترى فى كتيبه نصائح تفصيلية فى اختيار العمال، فالسن الأفضل يكون بين الخامسة عشرة والعشرين، إذ بعد هذه السن "يستحيل الكثيرون إلى حمقى"؛ وكذلك يقدم نصيحة عن الطريقة الصحيحة للتعامل معهم: "إن أفضل طبقة من هؤلاء العمال هم أصدقاء المرء الشخصيين، وينظر إليهم كنظرتنا للخدم القدامى فى البيت الطيب". ويستحسن إلى حد كبير الاستغناء عن رئيس للعمال، إذ يجب على الأثرى أن يعول على إشرافه هو، ومن حسن الفطن اتباع نظام "التفتيش المفاجئ الفعال"، والوضع المثالى هو الاقتراب من العمل فى الأراضى الغائرة.

ويعد التليسكوب آلة لا تقدر بثمن كما تشهد على ذلك تلك الطرفة التى يستذكرها بيترى. ففى تانيس شاهد صفا من النساء يخرجن من حفرة عميقة وهن منشغلات، ويملن سلالهن من أعلى ، إلا أن التليسكوب أظهر أن السلال جميعا خالية.

وأصبح أسلوب بيترى فى الحياة مضرب الأمثال، "فكانت أى نقود يتلقاها تنقسم بين احتياجاته الخاصة واحتياجات الحفر، لذا خفض احتياجاته إلى الحد الأدنى. كانت لديه منضدة واحدة يعمل أمامها ويأكل... تضاء بواسطة قليل من الفتحات الصغيرة فى الحائط تحت السقف، وداخل حوض ضيق فى منتصف المنضدة، هناك صفان من علب الصفيح، تحتوى على أنواع الطعام المختلفة، وبالقرب من ذلك الوعاء فتاحة علب. ففكرته عن إشباع آلام الجوع حين تصبح حادة، هى الأكل من العلب المتعددة بشكل عشوائى حتى تصبح تلك العلب فارغة. وكان يعتبر أن من المسلم به أن العاملين معه سوف يفعلون نفس الشيء". هذا ما كتبه أحد الأمريكيين الذين كانوا يراقبون مخيم بيترى، وأضاف أن اثنين من زملاء بيترى تم إلحاقهما بالعمل حين كان يقوم كل منهما بتمريض الآخر من التسمم بالبتومين Ptomin وهى مادة سامة تتكون من تعفن البروتين. وكتب زائر أمريكى آخر: "لا بد أنه (يقصد بيترى) فقد الكثير من دقائق الشعور بسبب هذا الشظف المستمر... كنت جالسا أتحدث إليه حين انخلع حذاؤه أمامى فى حين كان يخرج الحجارة. لم يكن يرتدى جوربا وتعرت قدمه المتربة".

إن أفضل تلخيص لبيترى وهو يعمل نجده فى السيرة التى كتبها جيمز بريستيد. إن بريستيد هو أول عالم أمريكى فى المصريات حقق تميزا فى هذا الموضوع. كان بريستيد يقضى شهر العسل وكان يقوم بزيارته الأولى لمصر حين التقى ببيترى لأول مرة، واستقبل استقبالا ودودا فى مخيم بيترى "أكدت ملابسه سمعته العالمية بأنه ليس قليل الاهتمام بهندامه فحسب، وإنما هو قذر متسخ عن عمد. وكان أشعث الشعر يرتدى قميصا وبنطلون رثين وصندلا بلا جورب. وكان من بين مميزاته الفطرية العديدة أنه كان يفضل أن يحاكى مساعدوه ما هو عليه من إهمال، .... كان يقدم مائدة طعام غاية فى السوء لا يكاد يتحملها سوى من يتمتعون ببنية حديدية، وحتى هؤلاء كانوا يخففون من جوعهم بتناول الفول الذى يعد نسبيا باذخا، والخبز غير المخمر الذى يتناوله الفلاحون من أهل المنطقة.... ولكن يبقى

أنه تحمل بشكل إعجازى، ممارسة ما كان يعظ به بإصرار، و مع كل ما به من غرابة فى الأطوار.... حقق فى النهاية سجلا من الحد الأقصى من النتائج بالحد الأدنى من المصروفات لا يمكن أن يفوقه فيه أحد" .

الفصل العاشر

فاصل مسرحى قصير وختام فخم

لوحات الفنان الأمريكى جوزيف ليندون سميث Joseph Lindon Smith شديدة الواقعية حتى لتكاد تخدع الأبصار. لقد كانت لوحاته وكأنها صور فوتوغرافية، إنه يمسك بالفرشاة فى يده وهو يقف، مثلا، فى معبد مصرى أمام ما كان يبدو وكأنه صورتان متطابقتان، وكان تصوير سميث من الواقعية حتى إنه كان لا بد من إخبار الناظر أيهما الحقيقة وأيهما اللوحة. قضى جوزيف سميث (١٨٦٣ـ ١٩٥٠) سنوات كثيرة فى مصر وهو يصنع تلك النسخ طبق الأصل. أثناء ذلك الوقت انشغل خياله بحكاية لعنة آتون. حين تخلى الملك أخناتون ١٣٥٣ ــ ٣٥ ق.م. عن ديانة أجداده، محا جميع صور إلههم آمون رع من مدينة طيبة العاصمة، وقام باضطهاد كهنة آمون. وبعد موت الملك، تمت استعادة الديانة القديمة. وكان جوزيف سميث قد استمع إلى الحكاية التى تروى أن الكهنة دعوا باللعنة على أخناتون. وكان مفعول اللعنة هو أن روح أخناتون وجسده محتّم عليهما أن يجولا منفصلين فى الفضاء ولا يتحدا إلى الأبد.

وقرر جوزيف سميث أن يرتب تمثيل أو أداء طقس تتوسل فيه الملكه تى (أم أخناتون) لإله العالم السفلى ــ الذى يمثله حورس ذو الرأس التى تشبه رأس الصقرـ من أجل العفو عن ابنها. وأن يؤدى الطقس فى حضرة جمهور فى وادى الملكات. ستلعب زوجة سميث دور الملكة تى؛ وأورتانز فيجال Hortense Weigall، التى كانت متزوجة من مفتش الآثار فى الأقصر، تلعب دور أخناتون،

ويقوم سميث نفسه بدور حورس إله الشمس ذى الرأس التى تشبه رأس الصقر، رغم أن هيئة سميث لم تكن مهيبة، إذ كان صغير الحجم متوسط الطول، بشعر منحسر يكاد يكون أصلع، ويرتدى نظارات، وله شارب غريب يشبه فيل البحر. وكان من المقدر لهذا أن يزيد عن كونه مجرد نوبة درامية انتابت بعض الهواة، ذلك أن هذا الثلاثى كان يريد، بمحاولته التمثيلية القصيرة هذه، إحداث إعادة توحيد روح أخناتون وجسده التائهين. وتم إعداد النص بعناية بمساعدة المفتش فى الأقصر، ويسجل جوزيف سميث أنه كان قائما "على الحقائق الأثرية"؛ فسعوا إلى الحصول على موافقة مدير الآثار، ماسبيرو، وتم لهم ذلك.

كان من المقرر أن يكون الحضور بناء على الدعوات فقط. واتخذت هذه الدعوة شكل وثيقة طويلة زاخرة بالمعلومات، كما يسجل جوزيف سميث، إذ تبدأ باقتباس من كتابة ديموطيقية تروى القصة السماوية للعنة. وقبلت الشخصيات البارزة فى مجال المصريات الدعوة: آل ماسبيرو، وآل بيترى، ولورد وليدى كارنارفون Carnarvon، وآل نافيل، وليجران Legrain، وج. إليوت سميث، وجون جارستانج Garstang، وإدوارد كارتر، وإرنيستو شياباريلى Schiaparelly وآخرون. وكان الممثل والمخرج الشهير، هيربرت بيربوهم ترى Beerbohm Tree فى الأقصر، فى ذلك الوقت. فلما أعجب بالنص، طلب دعوة لنفسه.

كان فريق التمثيل فى حالة من النشوة والترقب أثناء التدريبات الأولى والوحيدة التى أجريت قبل موعد الحفل بثلاثة أيام. وبدأت الأمور بداية موفقة، مع ظهور سميث على المسرح لأول مرة فى دور إله حورس، ثم دخلت أورتانز، وبدا أنها أقل اندماجا فى الدور، وتذكر سميث أن "عدم إتقانها لدورها التمثيلى جعلنى، كمخرج أن أتدخل لتدريبها". إذ انسل إلى خشبة المسرح، ملقيا سطور دورها بحماس. وبلا سابق إنذار، غطت على صوته ضربة رعدية ووميض وبرق وعاصفة مفاجئة. وحين توقف عن الكلام، توقفت العاصفة فجأة كما بدأت فجأة. واستمر سميث. ولما عاد إلى دوره، ترنم بكلمات مقدسة وظهرت كورين Corinne فى تفجر من نار حمراء. وحين بدأت تغنى ترنيمة أختاتون، للشمس المشرقة، هبت حبات حادة من المطر وهطلت قطع كبيرة من الجليد، فاندفع زملاؤها

الممثلون بحثا عن مأوى. وتشجع جوزيف سميث، من القول المسرحى الشهير بأن تدريبا سيئا بالملابس يعنى ليلة أولى جيدة من التمثيل.

فى تلك الليلة، حلمت السيدتان البطلتان بحلم متطابق: كانت كل منهما على حدة تقف وحدها فى الرمسيوم حين دبت الحياة ببطء فى التمثال الحجرى لآمون رع، ونشر ذراعيه وضربهما بآلة يدوية لدرس الحبوب — ضرب أورتانز على البطن، وضرب كورين بين العينين. وفى اليوم التالى مباشرة حُملت كورين إلى مستشفى القاهرة وهى مصابة بالمياة الزرقاء (التراكوما)، وأصبح بصرها ميؤوسا منه. أما أورتانز، فكان فى الحجرة الملاصقة بعد عملية فى المعدة اتضح أنها تكاد تكون مميتة. وسجل سميث أنه "بعد التدريبات بثمان وأربعين ساعة، تم نقل كل ممثل وعضو من جمهور التدريبات من الأقصر مصابا بحالة مرضية شديدة".

تعد رواية أرثر فيجال، مدير الآثار فى الأقصر، المنشورة عن هذه الواقعة، إلى حد كبير هى نفس رواية سميث. لقد ظل فيجال غير مقتنع بأنها تشير إلى شر القدماء الموتى (المقصود لعنة الفراعنة). "لا أظن أن إمكانيات هذا العامل — ذى الأهمية القليلة فى أحداث الحياة، التى تحدث بالمصادفة — قد استهلكت فى البحث عن تفسير لمأساتنا... ولكنى فى نفس الوقت، أحاول أن أجعل عقلى مفتوحا بالنسبة لهذا الموضوع".

يُعد الختام الفخم لاكتشاف مصر هو دراما أثرية على صعيد ملحمى "فهى تبدأ مثل مصباح علاء الدين المعجز السحرى، وتنتهى كقصة إغريقية طويلة بطولية تتسم بالنصر والانتقام"، هكذا كتبت أخت الممثل الرئيسى جورج إدوارد ستانهوب مولينيوكس هيربرت الرجل الرياضى وجامع التحف الفنية، وإيرل كارنارفون الخامس. إذ بعد أن وقع حادث سيارة خطر أصبح لورد كارنارفون يعانى من صعوبة فى التنفس، فنصحة الأطباء أن يقضى كل شتاء فى الخارج. وكتب ابنه أنه "قرر فى عام ١٩٠٢، الذهاب إلى مصر فى حوالى منتصف يناير حين يكون صيد طائر التدرج (pheasant وهو طائر شبيه بالحجل) قد انتهى". والتقى هناك بلورد كرومر، الذى رشح له الريف، لكنه قال إنه سوف يمل حتى ذرف الدموع إن لم تكن له هواية، واقترح عليه الآثار.

واكتشف لورد كارنارفون أنه يستطيع إشباع تذوقة للمقامرة ولجمع الآثار، وذلك باستثمار ماله وطاقاته فى التنقيب. ويصعب التنبؤ بما يأتى به مجال التنقيب هذا، ففى رمال وادى النيل يمكن للهاوى المتحمس أن تتعثر قدماه فى كنز مدفون تماما مثلما يمكن أن يحدث للخبير. ويمكن اختصار المصادفات عن طريق انتقاء المناطق الأكثر احتمالا فى الإتيان بالنتائج. وأدرك لورد كارنارفون أنه فى حاجة إلى وكيل، على علم بالظروف المحلية. فوقع اختياره على رجل كان يكسب قوته فى ذلك الوقت فى مصر من الرسم: إدوارد كارتر.

وصل كارتر إلى مصر عام ١٨٩١، وهو فى السابعة عشرة من عمره بعد أن ألحق للعمل فى المساعدة فى وضع رسوم مسح أثرى. وعمل مع بيترى فى العمارنة، لكن الرجل العظيم لم يعجب به وكتب: "إن السيد كارتر ولد طيب تتركز اهتماماته كليا فى الرسم والتاريخ الطبيعى.. وليس من فائدة لى فى أن أجهده كمنقب عن الآثار". عموما، اتجه كارتر للعمل مع نافيل، وجريفيث وماسبيرو قبل أن يعين فى ١٨٩٩ فى مصلحة الآثار كمفتش عام لآثار الصعيد. وأدى نزاع وقع بينه وبين بعض السياح الفرنسيين إلى استقالته من المصلحة عام ١٩٠٥. لذا، ففى الوقت الذى التقى فيه بكارنارفون، عاد إلى كسب قوته من الرسم. وفى السنوات الخمس التالية، قام كارتر وكارنارفون بالتنقيب فى خمسة عشر موقعا مختلفا فى منطقة طيبة. وجمعا بالتدريج مجموعة من الآثار، وكانا يسجلان بعناية الموقع الذى يجدان فيه أثرا. وفى ١٩١٢، نشر كارنارفون بالتعاون مع كارتر "استكشافات خمس سنوات فى طيبة" وهو سجل باذخ لعملهما معا.

كانت طموحات كارتر تتركز عبر النهر، فى وادى الملوك. إذ إنه فى هذا المكان، حيث اكتشفت مدافن أعظم ملوك مصر، يكمن أعظم أمل فى تحقيق حلم جميع المنقبين، وهو أن يجدوا مقبرة ملكية لم يمسسها أحد. فمنذ أن قام بيلزونى بأفضل اكتشافاته، قام عشرات المستكشفين النشطين بالبحث فى الوادى أثناء القرن التاسع عشر. وقد ترك بيلزونى المكان وهو على ثقة بأنه لم يدع شيئا لأحد كى يكتشفه. وأكد على رأيه هنرى سولت، الذى "أقام هناك لمدة أربعة أشهر وكدح بنفس الطريقة كى يجد مقبرة أخرى، ولكن دون جدوى". وقام ليبسيوس بمسح المنطقة بكاملها بما له من دقة بروسية ألمانية وأعلن أن كل شىء قد تم الكشف

عنه. ومع ذلك، اكتشف الأثرى الفرنسى فيكتور لورى، الذى كان حينئــذ، مــدير الآثار، مجموعة من تسع مومياوات للفراعنة فــى مقبــرة أمينــوفيس الثــانى II Amenophis فى بداية القرن. وابتداء من ١٩٠٣، كان امتياز الحفــر فــى وادى الملوك فى يد رجل الأعمال الأمريكى الثرى ثيودور. م. ديفيــز، الــذى أشــرف كارتر على أعمال التنقيب الأولى التى قام بها. وكان ديفيز قد نجح فى الكشف عن المزيد من المقابر، ونشر ما كشفه فى ستة مجلدات ضخمة. ولما كان يحفر لصالح مصلحة الآثار، فإن أجمل الأشياء التى اكتشفها ذهبت إلى متحف القاهرة.

ومع مقدم ١٩١٢، بدا أن الوادى وديفيز قد استنفد كل منهما الآخر، لكنه كان مترددا فى تسليم الامتياز الذى يملكه. وكان على كارتر وكارنــارفون أن ينتظــرا حتى ١٩١٤ للاستيلاء على المنطقة منه. وكان التصريح لهما بالتنقيب ينص على: "أن عمل التنقيب سوف ينفذ على نفقة إيرل كارنارفون ومسئوليته بواسطة إدوارد كارتر"، وينص على أن يكون كارتر موجودا دائما عند موقع الحفر، وأن التصريح قابل للتجديد سنويا حتى ١٦ نوفمبر ١٩٢٣. وتأخر البدء فى العمل بسبب الحرب العالمية الأولى، إذ عاد كارنارفون، على عجل، إلى إنجلترا، وكلف كارتر بالعمل لتنظيم كتائب العمال، وغزا الأتراك مصر فــى عــام ١٩١٦ بعــد غــاليوبولى Gallipoli، لكنهم سرعان ما دحروا وانحسرت الحرب.

وفى ١٩١٧، كان فى استطاعة كارتر أن يبدأ حملته فى الوادى، وكتــب: "إن الصعوبة كانت تكمن فى معرفة من أين أبدأ، لأن جبال القمامة التى كان يلقى بها المنقبون السابقون عرقلت البحث فى الأرض فى كل اتجاه"، وكان معظم هــؤلاء المنقبين يعملون برأى منفرد فى بحثهم عن الكنوز الدفينة، ولم يتركــوا ســجلات بالمناطق التى قتلوها فحصا. وكانت الطريقة الوحيدة المتاحة أمام كارتر للبحــث هى حفر خطوط إلى أسفل عبر الوادى بأكمله، ولم يسفر موســم ١٩١٧ عــن أى شيء. وفى السنة التالية، خرج كارنارفون إلى مصر، وأخذ الرجلان يحفران لمدة سبعة أشهر دون أن يعثرا على شيء، وفى ١٩١٩، أتيا على مجموعة مخبأة مــن ثلاث عشرة جرة من المرمر تحمل علامة رمسيس الثانى. فكتب كارتر: "بمــا أن هذه كانت الطريقة الأقرب التى وصلنا إليها للعثور على أى شيء فى الوادى، كنا إلى حد ما فى حالة من الإثارة". سحبتهم هذه الإثارة عبر اثنين آخرين من المواسم

المجدبة فى ١٩٢٠ و ١٩٢١، إذ لم يسفر الحفر فى الوادى ذى الحرارة الرهيبة عن أى شيء على الإطلاق.

وفى صيف عام ١٩٢٢، حين كان إدوارد كارتر يزور لورد كارنارفون فى هاى كلير، أبلغ بإلغاء البحث فى الوادى. وكان كارنارفون قد أنفق ما يقرب من ٥٠٠٠٠ جنيه فى أعمال التنقيب؛ وكان عمره ستا وخمسين سنة وفى صحة معتلة؛ وكانت أحواله المالية متأثرة بالتضخم الذى حدث بعد الحرب؛ كما فقد الثقة فى أن هناك مقابر يمكن العثور عليها فى الوادى، وحتى إذا ما أمكن الكشف عن ضريح ملكى آخر فمن المحتمل أن يكون قد سرق كغيره من الأضرحة، أما كارتر فرفض أن يستسلم، ولم يكن يريد سوى موسم واحد للبحث فى البقعة الوحيدة فى كل الوادى التى لم يتم الحفر فيها بعد، وكان على استعداد للإنفاق على العمل بنفسه، كما قال، لو أن كارنارفون يعطيه الإذن بالحفر فى المنطقة التى حصل على امتياز الحفر فيها. فلو نجح، فلسوف يعود الفضل إلى كارنارفون. أمام هذه الروح التى تتسم بالكرم، وافق لورد كارنارفون على تمويل موسم واحد أخير قبل أن ينسحب من مصر.

كانت المنطقة الصغيرة من الأرض التى عقد عليها كارتر آماله تقع تحت (وإلى) جانب المدخل المؤدى إلى مقبرة رمسيس السادس، وهى منطقة جذب سياحى. لقد اكتشف هنا مجموعة من أكواخ العمال تنتمى للأسرة العشرين، لكنه لم يحاول التنقيب فيما وراء تلك الأكواخ لأن العمل سوف يعوق السائحين الذين يزورون المقبرة. وعلى كل حال، فإن جميع المواقع الأخرى الممكنة قد قُتلت بحثا وتنقيبا، وسيكون على السائحين أن يحتلوا المكانة الثانية.

فجمع كارتر العمال فى ٣ نوفمبر ١٩٢٢، وطلب منهم أن يحفروا خندقا مستقيما تماما فى وسط الأكواخ. وفى الصباح التالى، وصل كارتر إلى الموقع بعد الفجر بوقت قصير. وكان العمال يقفون صامتين، وهم ينظرون فى عمق الخندق. وحملق كارتر إلى أسفل فإذا به يرى هناك فى الأساس الحجرى الجيرى درجة بيضاء ناصعة منحوتة مباشرة فى صخرة الأساس، وأدت إلى أخرى ثم أخرى وهكذا حتى تربة الأرض. حين وصل إلى الدرجة الثانية عشرة، انكشف الجزء العلوى من باب مغلق ومختوم، فصنع كارتر ثقبا أعلى الباب ونظر من خلاله

ليرى ممرا مليئا بالحطام من الممكن أن يكون قاعة المدخل إلى مقبرة ملكية، أو مجرد أشياء مخبأة. فقام العمال بتنظيف المدخل أو العتبة، مما كشف عن أربع درجات أخرى. على الباب نفسه كان هناك خاتم كبار كهنة نيكروبوليس(*) ابن آوى مائلا على مجموعة من الأسرى ساجدين. كان هذا مدخلا إلى مقبرة؛ وقد جعل وجود خاتم نيكروبوليس أنه من المحتمل أن تكون هذه المقبرة مقبرة ملكية، ولم يدخلها أحد منذ تاريخ عمل أكواخ العمال. فبما أن الأكوخ قد تم بناؤها من أجل تشييد مقبرة رمسيس السادس فى الأسرة العشرين، فإن أى شىء يقع خلف الباب لم يمسسه أحد لما يزيد عن ٣٠٠٠ سنة. فأمر كارتر بأن يُملأ بير السلم بالركام ووضع حراسة، وأرسل ببرقية إلى كارنارفون: "أخيرا قمت باكتشاف مدهش فى الوادى. مقبرة رائعة بأختام لم تمس. تم تغطيتها حتى تصل. تهانئى".

وبقى كارتر ينتظر لمدة ثمانية عشر يوما حتى يصل السيد الذى ينفق على عمله. أثناء ذلك الوقت أخذ يفكر ويتأمل فيما يمكن أن يوجد وراء الست عشرة درجة. كان ذهنه منشغلا بمقبرة توت عنخ آمون التى لم تكن قد اكتشفت بعد، وذلك بسبب عراوٍ معدنية Clues معينة التقطت فى المنطقة. ففى ١٩٠٧، كان ثيودور م. ديفيز قد اكتشف غرفة صغيرة تحت الأرض. وكان بها تمثال صغير من المرمر ليست عليه كتابة، وكذلك صندوق خشبى مكسور يحتوى على قطع من الأوراق الذهبية مكتوب عليها اسم توت عنخ آمون ومليكته. وبالقرب من هذا وجد ديفيز وعاء طينيا أو فخاريا مزخرفا بالزجاج، عليه أيضا اسم توت عنخ آمون. فظن أن الغرفة الموجودة تحت الأرض لا بد أن تكون مقبرة الملك الفارغة المنهوبة. لكنه وجد أيضا بالقرب من ذلك ما يقرب من دستة من الأباريق الفخارية البيضاء تحتوى على الكتان عليها علامة اسم توت عنخ آمون، وبعض حقائب تبن أو دريس ونطرون وعظام طيور وحيوانات. فأرسل ديفيز بهذه الأشياء إلى متحف المتروبوليتان فى نيويورك، وهناك تعرف أمين القسم المصرى عليها بأنها المواد التى كان يستخدمها المحنطون حين كانوا يحافظون على جثة توت عنخ آمون، وبقايا الوليمة التى تناولوها بعد أن أكملوا العمل. وبدا أنه من الواضح أن توت

(*) مدينة الموتى. (المترجم).

عنخ آمون تم دفنه بالفعل فى الوادى، والمحتمل أنه لم يدفن بعيدا عن المكان الذى قام فيه ديفيز باكتشافه.

بدا من غير المحتمل أن تقام مقبرة ملكية فى مكان عديم الأهمية كهذا وقريب جدا من عتبة مقبرة أخرى. لكن الإمكانيات الأكثر وضوحا قد بحثت بحثا دقيقا، وكان كارتر يشعر بالتفاؤل. لقد نصب لوحة حجرية على موقع اكتشافه، رسم عليها معطف وذراعى لورد كارنارفون. فى ٢٣ نوفمبر بالضبط تمكن كارتر من تنظيف بير السلم، ترقبا لوصول لورد كارنارفون، وظهرت أختام توت عنخ آمون بلا لبس على الجزء السفلى من الباب. وفى المساء التالى، نزل لورد كارنارفون الدرجات الست عشرة، وانتظر حتى يفض كارتر الأختام. عندئذ داهمتهما الخيبة الأولى: كانت أختام توت عنخ آمون على الجص الأصلى، ولكن أختام سلطات نيكروبوليس كانت على السد المرمم. ذلك أن المقبرة قد تم السطو عليها فى الأزمنة القديمة، مما فسر الأشياء التى وجدها ديفيز والتى لا بد أن اللصوص قد نقلوها. لقد كانت تلك نكسة، لكن كون المقبرة قد أعيد ختمها أو إغلاقها يشير إلى أن السلطات كانت ما تزال تظن أنها تحتوى على شىء ذى قيمة، فواصل كارتر وكارنارفون العمل بتفاؤل حذر.

وفى ٢٥ نوفمبر، وأثناء إزالة الحطام من على الدهليز المائل خلف الباب، وجدا قطع فخار صغيرة مكسورة، وأباريق من المرمر وشقفات من أشياء مكسورة، وكلها تشير إلى أن المقبرة قد نهبت. وفى مساء اليوم التالى، وعلى بعد ثلاثين قدما من المدخل، اكتشفا بابا آخر مختوما أو مغلقا، يكاد يكون نسخة طبق الأصل من الباب الأول، وكان يحمل خاتم توت عنخ آمون ونيكروبوليس الملكية. ومرة أخرى، كانت هناك علامات تدل على أن الباب قد تم فتحه وأعيد ختمه أو إغلاقه. انتظرت المجموعة حتى يقوم كارتر بالحركة التالية: "وجاءت اللحظة الحاسمة بيدين مرتعشتين، صنعتُ ثقبا صغيرا جدا فى الزاوية العليا اليمنى. فى الظلام الدامس، والمساحة الفارغة، بقدر ما أمكن للقضيب الحديد الذى أختبر به أن يصل. أمكن معرفة أن كل ما وراء ذلك فارغ، وليس مليئا مثل الممر الذى نظفناه توا، واستخدمنا الشموع للاختبار كإجراء احتياطى فى وجه الغازات الخبيثة، ثم بعد أن وسعت الثقب قليلا، أدخلت الشمعة وحلقت فى الداخل. وكان لورد كارنارفون

وليدى إفلين وكاليندر يقفون فى لهفة بجانبى كى يستمعوا للحكم. فى البداية، لم أستطع أن أرى أى شىء. وكان الهواء الساخن المتسلل من الغرفة يجعل لهب الشمعة يهتز. ولكن، على الفور، ومع اعتياد عينىّ على الضوء بدت تفاصيل الحجرة وبرزت من الغمام، فرأيت حيوانات غريبة وتماثيل وطهب، بريق الذهب فى كل مكان، وللحظة ـ لا بد أنها بدت كالأبدية للواقفين بجانبى ـ عقدت الدهشة لسانى، ولم يطق لورد كارنارفون ما كان فيه من إثارة، فسأل: " أتستطيع أن ترى شيئا؟"، كل ما استطعته هو أن أنطق بالكلمات: "نعم، أشياء مدهشة".

كانت بالداخل عربات ذهبية، وتمثالان للملك بالحجم الطبيعى فى خشب مدهون بالقار الأسود، بتنورات ذهبية وغطاء رأس يواجهان بعضهما البعض؛ وهناك ثلاث أرائك مذهبة ذات جوانب منحوتة، وأسرة ومقاعد وخزائن مرصعة، وأوعية من المرمر؛ وكان هناك عرش ذهبى مرصع بأحجار شبه كريمة، تحيطه أوعية من الخزف المزخرف والتماثيل الصغيرة، وأقواس وعصى المشى، وكومة من الأشياء القيمة، أى منها يمكن أن يجعل التنقيب جدير بالمحاولة".

ثم قام كارتر بتوسيع الثقب، وأخذ رفقاؤه واحدا بعد الآخر يحملق فى تلك العجائب فيما وراء الباب. وكتب كارتر: "من المؤكد أنه لم ير أحد قط فى تاريخ التنقيب كله مثل هذا المنظر المذهل الذى كشفه لنا مصباحنا. إن يوم ٢٦ نوفمبر هو يوم من أيام العمر، إنه أروع الأيام التى عشتها، ومن المؤكد أن مثلى لا يمكن أن يأمل فى أن يرى هذا مرة أخرى".

وعادوا فى اليوم التالى، وتمكنوا بفضل الأضواء الكهربية من فحص الحجرة بعناية. وكان من الواضح أن شخصا قد اقتحم الباب، وأن الأشياء الموجودة فى الحجرة صارت فى حالة من الفوضى، رغم أنه لم يكن من المتصور أن يترك اللصوص مثل تلك الأشياء الثمينة الكثيرة خلفهم؛ إذن ربما أقلقهم شىء ما. ولم تكن وظيفة الغرفة واضحة. إذ بدا أنها مخزن للكنوز، ولكن ليس مقبرة؛ فلم يكن هناك ضريح حجرى أو مومياء.

فى الجدار الشمالى بين تمثالى الملك، وجدوا بابا مختوما به ثقب صغير فى أسفل، تم إصلاحه. وكان يتسع لمرور صبى أو رجل صغير الحجم. كما وجدوا،

تحت إحدى الأرائك، ثقبا صغيرا غير منتظم فى الجدار الغربى لم يتم إصـــلاحه. لقد تغلغل اللصوص منه، وحين حملق كارتر، وجد أشياء جنائزية فى حالـــة مـــن الفوضى والاضطراب التام، وكأنما شخص ما قد انتهبها وهو فى حالة من التعجل. فكتب كارتر: "لقد فعل اللص فعلته فى دقة الزلزال". أدركوا أنهم فى حجرة داخل حجرة، وأنه ربما توجد سلسلة من الحجرات فيما وراء ذلك، فكتب كارتر: "رأينـــا حجرة بعد تلك الحجرة، وكانت مزدحمة بأشياء مثل تلك التى رأيناها، فخلبت ألبابنا وجعلتنا نلهث ونحاول التقاط أنفاسنا".

حين اكتشفوا الغرفة الثانية أسماها كارتر بـــالملحق. وكانـــت أيـــضا مليئـــة بالأشياء. لذا أصبح من الواضح أنهم فى حاجة إلى المساعدة لتسجيل تلك الأشـــياء وتصنيفها، ذلك أن الكثير من تلك الأشياء ستكون فى حاجة إلى مهارات شـــخص متخصص حتى يحفظها من الدمار حين تتعرض للجو. فطلـــب كـــارتر مـــساعدة متحف الميتروبوليتان للفن فى نيويورك، فقدم المتحف له رســـامين همـــا جـــارى بيرتون مصور فوتوغرافى، و أ.س. ميس، أثرى.

كان ألفريد لوكاس هو مدير مصلحة الكيمياء فى الحكومة المـــصرية. وكـــان على وشك القيام بعطلة مدتها ثلاثة أشهر، فأجل عطلته حتى يكـــون موجـــودا إذا كانت هناك حاجة إليه. وعرض د. ألان جاردينر والأستاذ جيمـــز بريـــستيد مـــن جامعة شيكاغو خدماتهما لترجمة الكتابات. لقد نجح أروع ما وجـــد فـــى تـــاريخ المصريات فى جمع شخصيتين دوليتين فى مشروع تعاونى. وقام كـــارتر بعمـــل الترتيبات للافتتاح الرسمى للمقبرة فى ٢٩ نوفمبر. سيحضر الاحتفـــال مجموعـــة صغيرة من كبار الضيوف، منهم ليدى ألينبى، زوجة المندوب السامى البريطانى، ومدير المديرية أو المحافظ، وعدد من كبار الشخصيات المصرية، ومحـــرر مـــن اللندن تايمز. فى اليوم التالى، وصل بيير لاكو، المدير العام لمصلحة الآثار، وأخذ فى جولة فى الغرفة الخارجية. وفى ٣ ديسمبر، تم إغلاقها مرة أخـــرى بأخـــشاب ثقيلة عبر الباب، وملئ السلم حتى مستوى السطح.

فى لندن، أعلن عدد التايمز الصادر فى ٣٠ نوفمبر ١٩٢٢ عن اكتشاف "مـــا يبشر بأن يكون أكثر الاكتشافات فى المصريات إثارة فى هذا القرن". وفى اليـــوم التالى، ظهرت مقالة كتبها واليس بادج تقيم أهميته (أى هذا الاكتشاف) لعلم الآثار.

بالنظر لما سوف يأتى من اكتشافات، نجد فى كلماته سخرية معينة، تلك التى قالها على سبيل العزاء: "مما يبعث على الإحساس بخيبة الأمل، بالطبع، أن اللصوص فى الأزمنة القديمة قد نجحوا فى أخذ جميع المجوهرات التى كانت، ولا شك، مدفونة مع الملك؛ ولكن فى نهاية الأمر، هناك الكثير من المجوهرات فى متحف القاهرة. وسوف يسر الكثير من الطلاب باكتشاف الأشياء الجنائزية أكثر مما سوف يسرون بالزينات الذهبية والأحجار الكريمة".

ذهب كارتر إلى القاهرة ليطلب بوابة من الصلب كى تؤمن المقبرة دون الحاجة إلى دفنها مرة أخرى كلما توقفوا عن العمل. كما اشترى مواد كيميائية ومواد للتصوير الفوتوغرافى وسيارة، وعلب تغليف من كل الأحجام ومواد تعبئة للأشياء الرقيقة، بما فى ذلك اثنان وثلاثون بالة من الكاليكو وأكثر من ميل من الضمادات الجراحية والقطن الطبى. وفى ١٧ ديسمبر، تم تركيب بوابة الصلب، وفى الثامن عشر بدأ العمل فى تنظيف الغرفة الخارجية والملحق. تم تنفيذ العمل بدقة بالغة، إذ إن كارتر قد استوعب مثال بيترى استيعابا جيدا منذ أيامه الأولى فى التنقيب، وأصر على أن يؤخذ كل شىء باليد حتى يمكن تسجيل علاقته بالأشياء الموجودة بالقرب منه. وكتب: "كان العمل بطيئا، حتى الألم، وهو لهذا كان مرهقا للأعصاب، لأن المرء كان يحس طوال الوقت بعبء المسئولية الثقيل. ولا بد أن يشعر بذلك كل منقب، إن كان لديه أصلا أى ضمير أثرى، فالأشياء التى يجدها ليست ملكا له، حتى يتعامل معها كما يشاء.. إنها تراث مباشر من الماضى للعصر الحاضر، وهو الوسيط المميز الذى تخرج على يديه هذه الأشياء...".

لقد تم تصوير كل شىء وتحديده بعناية وتسجيله قبل نقله وحمايته بالضمادات والقطن. كان هناك واحد من أجمل الأشياء التى طُليت برقّة، إنه خزانة خشبية قال عنها كارتر: "إنها تفوق أى شىء من نوعها أخرجته مصر حتى الآن". وكانت هذه الخزانة تحتوى على عدد من الأشياء، ولقد بلغ من شدة حرص كارتر على أداء مهمة الحفاظ وتسجيل التفاصيل أن الأمر استغرق منه ثلاثة أسابيع لإفراغ هذه الخزانة. ذلك أن كل شىء سجل بعناية، وعولج بمواد كيميائية حافظة قبل رفعه من الغرفة الداخلية إلى مقبرة سيتحوس الثانى المجاورة التى كانت تستخدم كورشة. هنا كانت تلك الأشياء تحفظ خلف بوابة ثقيلة من الصلب تزن طنا ونصف طن. وكان أرثر فيجال، مفتش الآثار، يحضر بصفة رسمية فى كل يوم، كان حجم

الجمهور الذى يتجمع لمشاهدة نقل الأشياء المختلفة يتزايد. الآن ينقلون عربة متلألئة إلى الورشة؛ والآن درجا أو خزانة مطلية بالذهب، أو صينية تحمل باقات من الزهور أو مجموعة من أشياء مختلفة. وبينما كانت كل من هذه الأحمال تحمل على طول الوادى كان الجنود بالمسدسات يسيرون بالخطوة العسكرية خلفها، والصحفيون والزائرون يجرون بجانبها، وهم يضغطون على آلات التصوير ويدونون ملاحظاتهم.

إن وضع علم الآثار فى بؤرة الضوء كما كتب كارتر "تجربة جديدة ومحيرة بالنسبة لمعظمنا"، ذلك أنه فى خلال أسابيع من إعلانه عن اكتشافه، أخذت البرقيات تتدفق من كل أنحاء العالم. وتبعت ذلك الخطابات، بل والنصائح التى تتحدث عن كيفية الحفاظ على الآثار ودفع الأرواح الشريرة بعيدا. وكانت هناك نشرات دينية وتنديدات، كما كانت هناك عروض مربحة قدمها المسئولون عن السينما، وحقوق ملكية فكرية من عالم الموضة. لقد كتبت التايمز فى ٢٥ يناير ١٩٢٣: "كل الطرق تؤدى إلى توت عنخ آمون، فى هذه الأيام، ومتى ركب المرء على ضفة الترعة العجيبة، بجانب مقبرة البلد المؤدية إلى وادى الملوك، هناك صف لا ينتهى من الناس الذين يركبون الحمير أو عربات الرمال (ساند كارت) على الطريق أو فوق التل، كلهم يتحركون فى اتجاه المقبرة المكتشفة حديثا أو منها. وترى أولادا فقراء عند كل منعطف يعرضون عليك تماثيل صغيرة من الجص لتوت عنخ آمون، وهو بالمناسبة يمكن أن يكون مثل أى ملك آخر".

جاء موسم عيد الميلاد وجاءت معه زيادة كبيرة فى عدد السياح مما جذب الحجاج بعيدا عن بيت لحم. وافتتحت السكك الحديد المصرية خدمة جديدة بين القاهرة والأقصر تسمى مخصوص توت عنخ آمون، وتم إصلاح (ترميم) الأشياء بعناية، ووضعت فى حاويات ثم تم إرسالها إلى القاهرة. ولا يوجد سوى القليل من المؤشرات التى تدل على أن دخلاء الأزمنة القديمة قد فروا بالكثير، ولكن كارتر قد وجد بالفعل قاعدة تمثال ذهبية دون تمثالها الصغير، الذى كان بالتأكيد ذهبيا. كما وجد قطعة من القماش قد لفت فيها حفنة من الخواتم الذهبية الصلبة، وكأن اللصوص قد دُوهموا فغادروا المكان على عجل. بل إنه استطاع أن يستنتج أن المقبرة قد اقتحمت مرتين، فى المرة الأولى، لابد أن الممر الواقع بين البابين

الخارجيين قد أخذ منه ما به، لأن كارتر وجد أشياء من المقبرة مدفونة تحت الركام، إذ كان اللصوص الأوائل مهتمين أساسا بالذهب والفضة، أما اللصوص الذين دخلوا فى المرة الثانية، فكانوا يبحثون عن الزيوت الغالية والدهانات المخزنة فى أوعية المرمر، وأفرغوها فى قرب معدّة لنقل المياه حتى يسهل نقلها. ولا يزال من الممكن رؤية بصمات أصابع أحدهم على أحد الأوعية الذى أفرغ مما به من دهان.

أما أكثر المكتشفات إثارة، فكان الباب المختوم فى الجدار الشمالى فى الغرفة الخارجية، والذى كان يخفى أسرار المقبرة، إذ تنبأ كارتر بثقة، أن وراء ذلك الباب يوجد التابوت الحجرى ومومياء توت عنخ آمون، فإذا صح رأيه، فإن الملك الشاب الذى خلف أخناتون فى سن التاسعة، ومات فى الثامنة عشرة، والذى دفن فى أقل المقابر الملكية مهابة فى وادى الملوك، هو الملك الوحيد الذى ظل يرقد دون إزعاج حتى القرن العشرين. وللمرة الأولى فيما يزيد عن قرن من الاستكشاف فى وادى النيل، عرف المنقبون بيقين أن ما يوجد خلف الباب المختوم هو ما ترك يوم دفن الملك. لقد أصدر كارتر وكارنارفون بيانا مشتركا عاما فى ٣ ديسمبر ١٩٢٢ يعبران فيه عن ثقتهما فى أن "من أختام الباب المفتوح توا هناك كل ما يشير إلى أننا سوف نجد الفرعون توت عنخ آمون". ومع أن المقبرة قد سرقت، فإن إعادة وضع أختام نيكروبوليس (مدينة الموتى) مرة أخرى يعنى: "أنه مهما كان ذلك الذى حدث، للأشياء المعدنية القيمة، فسوف يوجد الملك نفسه دون أن تمسه يد".

لقد كان كارتر يعرف ماذا يوجد خلف الباب المغلق المختوم من دراسته لأوراق البردى، وعلى الأخص مخطط لمقبرة لرمسيس الرابع أعدت فى تورينو، إذ توجد جثة حسب العادات القديمة موضوعة داخل أو ثنايا ثلاثة أكفان، تحميها سلسلة من المظلات الجنائزية. واستمر كارتر فى نبوءته: "سوف نواجه نتيجة أثرية ثرية بشكل يفوق التصور".

فى ٢٦ فبراير ١٩٢٣، أخذت مجموعة من الشخصيات المميزة مقاعدها فى الغرفة الخارجية بعد تنظيفها وهم يواجهون الجدار الشمالى والباب الكبير المختوم أو المغلق. تضم هذه المجموعة عشرين شخصية، منها: آل كارنارفون، ووزير

الأشغال العامة المصرى، وبيير لاكو، مدير مصلحة الآثار؛ وألبيـــرت م. ليثجـــو مدير القسم المصرى بمتحف الميتروبوليتان؛ ولفيف من الأثـــريين؛ والمـــسئولون المصريون؛ وممثل عن اللندن تايمز. ونصبت منصة صغيرة فى مواجهة البـــاب. وخلع النظارة من الرجال ستراتهم توقعا لحرارة الظهيرة، التى زادت من شـــدتها المصابيح الكهربية. أما كارتر ــ الذى كان مأخوذا وشاحب اللون مترقبا ــ فصعد المنصة وقال باختصار: إن كل ما تم عمله، وأى شىء على وشـــك أن ينكـــشف، يرجع كلية إلى لورد كارنارفون. ثم استدار إلى الباب وفى يده الشاكوش.

ويتذكر أرثر فيجال أن: "الساعة كانت بالضبط الواحدة والخمسين دقيقة ظهرا ... وبينما ترددت أصداء الطرقات الأولى عبر الحجرة، سرى فى داخلى شـــعور بالإثارة وكأن شيئا ما يشتعل فى أوردتى، وبدا أنى أرى الفرعون، فى الظلام فـــى الجانب الآخر من الباب وقد استيقظ فجأة من سباته وهو يصغى. كـــان الاعتقـــاد المصرى القديم هو أن رقاد الموت يدوم ثلاثة آلاف سنة، وهكذا فقد انتهى الوقت، وربما بدا له أن يوم البعث قد جاء ... بعد عشر دقائق، دق كارتر ثقبا من الاتساع بحيث يسمح ليده التى تمسك بمصباح كهربى بأن تدخل. وانعكس ضوء المـــصباح على سطح لامع فى الجانب الآخر من الجدار، وأينما حرك كارتر الضوء، علـــى كل جانب أعلى وأسفل، لم يستطع أن يرى ما وراء الانعكاس. وكتب: "وقف ما بدا للناظر أنه حائط من الذهب الصلب يسد مدخل الغرفة". كلما حرك كارتر جزءا من الباب، استطاع المشاهدون من الخلف أن يروا جدار الذهب، وكتـــب: "تمكنـــا ــ وكأن ذلك حدث بتيار كهربى ــ أن نحس باللهفة التى أثارت المـــشاهدين خلـــف الحاجز".

فى الثالثة والنصف ظهرا، كان الثقب من الاتساع بحيث يمكـــن لـــشخص أن يزحف من خلاله. وحين وجهت المصابيح إليه أمكنهم رؤية ضريح ذهبى تحـــت الغرفة الداخلية بثلاث أقدام، وكان ارتفاعه سبع عشرة قدما، وعرضه إحدى عشرة قدما، يكاد يملأ الحجرة، والذهب يغطيه من أعلى إلى أسفل. وعلى جانبى الضريح كانت هناك لوحتان من الخزف المزخرف البراق الأزرق، عليهمـــا رســـوم مـــن الرموز السحرية لضمان قوة الضريح وسلامته.

تمكن كارنارفون وكارتر من المرور بصعوبة بجانب الضريح، عندها استطاع أن يريا بابين ذهبيين فى النهاية بمفصلات من البرونـز مغلقـين، لكنهمـا ليسـا مختومين، فكانت هذه هى اللحظة الصعبة: هل اقتحم اللصوص الضريح المقدس؟ سحب كارتر المزاليج، وفتح البابين، فرأى بالداخل، ضريحا مقدسا آخر بـأبواب مشابهة عليها مزاليج، لكن فى هذه المرة، كانت المزاليج تحمل خاتما وكان الباب سليما دون مس، فلم يعودا فى حاجة إلى التغلغل أكثر من ذلك. وكتـب كـارتر: "أظن أننا فى هذه اللحظة لم نكن حتى نريد أن نفض الخاتم، إذ انتابنا شعور بأننـا نزج بأنوفنا فى أمر خصوصى، وكان هذا الشعور ثقيلا... شعرنا بأننا فى حضرة الملك المتوفى وأن علينا أن نبدى التوقير"، إذ يمكن ترك الملك لبعض الوقت إلـى أن يمكن تجميع الكنوز الموجودة فى الغرف الخارجية بسلام.

أغلق كارتر وكارنارفون أبواب الضريح المقدس، وغادرا الغرفة الداخلية كى يسمحا للضيوف برؤيتها. وكتب كارتر: "كان غريبا ذلك الشعور الذى أحسست به وأنا أقف فى الغرفة أراقب وجوههم وهم يخرجون واحدا بعد الآخر مـن البـاب. كانت تُرى فى عينَى كل منهم نظرة زائغة حائرة، وكل منهم بدوره رفع يديه وهو يخرج أمامه، فى علامة لا شعورية على العجز عن وصف ما رآه من عجائـب". يبدو من المدهش أن كارتر وكارنارفون قنعا بالانتظار لمدة ثلاثة أشهر كى يكتشفا ما يقع خلف الباب. لقد كان لكارتر من قوة الشخصية ما يجعله يقاوم إغراء مسح المقبرة على عجل؛ كان قادرا على الاهتمام بالعمل الضرورى الأولى من حفظ ما اكتشفه وتسجيله دون أن يكترث بتسوية مسألة المومياء غير المكتشفة بسرعة.

وثمة تفسير آخر لاتزان كارتر، إذ كان يعلم تمام العلم ماذا يوجد خلف الباب المختوم، لأنه قد دخل منه من قبل. وهذا الافتراض يشرح أيضا دقة تنبؤ كـارتر بما سوف يكتشف. ذلك أنه دخل من الأبواب فى المرة الأولى فى نـوفمبر حـين دخل الغرفة الخارجية مع لورد كارنارفون وليدى إفلـين؛ وأن الثلاثـة فحـصوا الغرفات الداخلية ثم أعادوا وضع الأختام؛ وأن ما تلا ذلك من عرض المكتـشفات علنا قد دبر بحيث يحدث أكبر أثر ممكن فى الصحافة العالمية. وليس فـى هـذا الرأى ما هو غير محتمل أو غير لائق، فمن حق كارتر وكارنارفون تماما طبقـا لشروط امتيازهما، أن يدخلا ويفتشا المقبرة التى اكتشفاها. وربما أرادا أن يكونـا

حصيفين فيما يتعلق بما يوجد وراء الجدار كى يتحكما فى إمكانيـة وصـول أى شخص، ولا يمكن تحقيق ذلك إلا عن طريق الكشف التدريجى عن الغرف علـى مراحل، وما بها من كنوز.

ثم قرر كارتر وكارنارفون أن يطلبا فترة توقف. وقد أصبح أمرا تقليديا إغلاق موسم الحفر فى فبراير انتظارا للجو الأقل حرارة فى الخريف. لـذلك، ففـى ٢٦ فبراير، أغلقت الأبواب بواسطة بوابة حديدية ودعمت بألواح خشبية. ثم حملت قوة من ثمانين من العمال مئات السلال من الرمل ورقائق الحجر الجيـرى، وصـبت ١٧٠٠ طن منها داخل ساحة المقبرة. واعتكف كارتر فى حجرات العمل كى يشغل نفسه بوضع التصانيف أو كتالوجات الأشياء وتعبئتها كى تنقل إلى متحف القاهرة.

على أى حال، فقد أصبحت الصحافة بسرعة مـشكلة كبـرى، إذ إن لـورد كارنارفون قد تم إقناعه بأن يعطى تغطية منفردة لهذا الاكتشاف للتـايمز، علـى أساس أن هذا سيجعله يتحاشى الاضطرار للتعامـل مـع الطلبـات المتـصارعة للصحف العالمية. وكانت بقية الصحف، بالطبع، معارضة لهذا الترتيب، ذلـك أن الديلى إكسبريس زأرت تقول: "بتسليم ما يمكن أن يسمى حقوق صحفية فـى وادى المقابر لتتحكم به التايمز وحدها، يكونون بذلك قد عاملوا الاكتشاف مقدما وكأنـه ملك خاص لهم". واستطردت الصحيفة تقول: "لقد قـدمت الحكومـة المـصرية، بإحساسها الوليد بالوطنية، الرأى المعاكس، وهو أن توت عنخ آمون وما يخـصه هو كنز وطنى لمصر". وكان هذا يمس منطقة حساسة من الاهتمـام، إذ بـدا أن كارنارفون والتايمز يهنئان مصر على حظها الـسعيد بـأن يستكـشفها رجـلان إنجليزيان يمتلكان الفضائل الإنجليزية مثل الاستقامة والنزاهة وعدم القابلية للفساد.

لكن لم يكن كل المصريين قـانعين بمجـرد أداء دور الخـدمات فـى هـذا الاكتشاف. ولم تنظر الصحف المصرية بعين الرضا إلى الاعتماد علـى صـحيفة أجنبية لتقديم تفاصيل ما كان يحدث فى بلادهم. وشـكا وزيـر الأشـغال العامـة المصرى قائلا: "لم يسمع أحد عن أننا نحن المصريين علينا أن نتوجه إلى صحيفة فى لندن لاستقاء كل المعلومات المتعلقة بمقبرة أحد ملوكنا". وكتبـت الإجبـشيان جازيت شاكية: "إن المصريين فى لندن الذين قرءوا مقالة لورد كارنارفون يشعرن

بالحنق لأن المصريين لا يُحمدون إلا على الحراسة والخدمة". وكتبت التايمز تقييما عن الشعور المحلى فى مصر عن الاكتشاف: "بين المصريين، عموما، يتركز الاهتمام بهذا الاكتشاف بصفة رئيسية، على قيمته الذاتية، وكذلك على الخوف من أن الكثير من الأشياء قد تقع فى أيادى البريطانيين ... ولا يبدو أن هناك أى قدر من الجدال والشرح يمكن أن يرضى عقل المصرى العادى فى هذه النقطة. ومعظم المصريين، اليوم، مقتنعون بأن لورد كارنارفون قد سرق أغلى ما فى الحجرة من أشياء".

أخذ الوطنيون المصريون يصرون علنا على أن تباع الكنوز لسداد ديون مصر. واختلفت كارتر وكارنارفون حول التصرف فى الكنوز. فكان كارتر يريد أن يتم حفظ محتويات المقبرة سليمة كما هى فى جناح خاص فى متحف القاهرة. وأصر على أنه إذا ما تنازل كارنارفون عن جميع حقوقه، فسوف تكون الحكومة المصرية سخية فيما تدفعه له من تعويض. وصار الخلاف بين الرجلين شيئا معلنا، وفرحت الصحافة.. إذ "تجتمع النسور حيث توجد الجيفة" كما اقتبست صحيفة اللندن ستار.

لقد مضت الأيام التى كان فيها كما يتذكر كارتر، الخلاف مع منقب منافس يسوى بالترصد له ببندقية. لكن الخلافات بين الرجلين تواصلت، وكان لها أن تسوى فى وهج الدعاية العالمية وتنطوى على سياسات وطنية. ولم يُسوّى شجار كارتر مع كارنارفون أبدا تسوية تامة. ففى ربيع ١٩٣٢، حسب ما جاء فى مذكرات لورد كارنارفون الحالى: "لدغت بعوضة والدى المسكين، حين كان نائما، وفى الصباح التالى، وبينما كان يحلق ذقنه بموسى حادة جرح المكان الذى لدغته فيه البعوضة، لكنه اعتبر أنه من غير الضرورى أن يفعل أى شيء أكثر من وضع قطعة قطن مغموسة فى الأيودين على الجرح". وأصيب بتسمم فى الدم، وفى ٥ أبريل، ١٩٢٣، مات لورد كارنارفون فى السابعة والخمسين، ووصف بيترى وفاته بأنها كارثة، بما أنه كان يمول الحملة بأكملها، ولا يبدو أن هناك أى شخص يمكن أن يستمر فى ذلك. وقال بيرسى نيوبرى، الذى جمع بين الرجلين: "فى تاريخ البحث الأثرى، لم تحدث حادثة مأساوية كوفاة لورد كارنارفون". وبدا أن المأساة

الحقيقية هى أن لورد كارنارفون مات دون أن يعرف ما إذا كان طموح حملته قــد تحقق أم لا، هل كانت مومياء توت عنخ آمون ترقد فى الغرفة الداخلية أم لا".

فى خريف ١٩٢٣، بدأ كارتر العمل كى يسوى هذه المسألة نهائيــا، بعــد أن وافقت أرملة كارنارفون على استمراره فى العمل بنفس الشروط الــسابقة، وبــدأ العمل فى إزالة الأطنان الألف والسبعمائة من الركام من مدخل الدرجات فــى ٢٣ أكتوبر، واكتمل ذلك فى ٢٠ نوفمبر حين ركبت الأضواء الكهربية وأطلق كــارتر عماله فى العمل فى المقبرة، وبدءوا بإزالة حائط الجص الذى كان يفصل الغرفــة الداخلية عن المدفن، وتركيب أدوات رفع لِنقل الضريح المقدس. لقد استغرق تفكيك الأضرحة أربعة وثمانين يوما، إذ كان كل ضريح محاطا بحبل يحمل أختاما بعقدة سليمة؛ كانت المقبرة سليمة. كانت أبواب كل ضريح من الأضرحة مغلقة بترابيس من الأبنوس. ومع إزالة كل غطاء أو صدفة أو قوقعة كان الذهب يبدو أشد لمعانا. وأخيرا وصلوا إلى الضريح الرابع والأخير، فانقطع الحبل، فشد كارتر المــزاليج الأبنوسية، فرأى "تابوتا حجريا أصفر ضخما، سليما، غطاءه لا يزال مثبتــا فــى مكانه، تماما كما تركته اليد الورعة".

سيكون الاحتفال الأخير هو فتح التابوت الحجرى، حين ينكشف جــسد تــوت عنخ آمون لأول مرة منذ ٣٠٠٠ سنة. وتحدد الموعد فى ١٢ فبراير ١٩٢٤، ودعا كارتر تسعة عشر ضيفا: مصريين، المدير المحلى ومسئول من وزارة الأشــغال العامة؛ وثلاثة فرنسيين ــ منهم، بالطبع، بيير لاكو، مدير الآثار ــ وعــددا مــن الأثريين الإنجليز والأمريكان منهم ممثلون عن متحف الميتروبوليتــان، وجامعــة شيكاغو، ومتحف القاهرة.

اتضح أن غطاء التابوت الحجرى المصنوع من الجرانيت الوردى به شــق، مما جعل عملية الرفع عملية صعبة. فمررت قطع من الحديد بزاوية فى كل جانب من جوانب الغطاء بحيث يمكن رفع الجزأين معا، ونزل الضيوف ــ فيمــا عــدا النساء اللاتى كن ممنوعات من الدخول ــ لمشاهدة رفع غطاء التابوت الحجــرى، ووصف كارتر هذه اللحظة قائلا: "وسط الصمت الرهيب، ارتفعت قطعة الجرانيت الهائلة من مكانها، وقد انكسرت إلى جزأين. وكانت تزن طنا وربعــا، وانعكــس الضوء داخل التابوت. التقت عيوننا بمنظر حيرنا فى بادئ الأمر. إذ كان مخيبــا

للآمال قليلا. كانت المحتويات مغطاة تماما بأغطية من الكتان الجميل. ولما كان الغطاء معلقا فى الهواء، فقد لممنا هذه الأغطية الكتانية واحدا واحدا، ومع رفع آخرها خرجت من شفاهنا أنة من أنات العجب. فما أروع المنظر الذى صافح أعيننا: تمثال صغير للملك الصبى، هو أبدع ما صنع الإنسان، ملأ داخل التابوت بالكامل".

غادرت الجماعة المقبرة وهى فى ذهول من روعة ما رأوه، وكان غطاء التابوت ما يزال معلقا.

وفى اليوم التالى، كتبت التايمز عن الاكتشاف، معبرة عن فرحتها فى المقال الرئيسى بأن كارتر وزملاءه قد "رأت عيونهم ما لم تره عين طوال اثنين وثلاثين قرنا: كفن ملك ووجهه المنحوت، الذى دفن قبل أن يغنى هوميروس بخمسمائة سنة، وحين كان بنو إسرائيل لا يزالون عبيدا فى مصر. لقد أسديت خدمة رائعة للفن والتاريخ، وتم تنفيذ مهمة عظيمة بعناية وحكمة وعلى أعلى درجات المهارة".

عند المقبرة ذاتها، على كل حال، تعكرت الاحتفالات. إذ كان كارتر يعد الترتيبات لأخذ زوجات شركائه إلى هناك فى اليوم التالى. فإذا به يكتشف أن الشرطة أخذت أماكنها عند الموقع ومعها التعليمات بمنع النساء إذا ما حاولن الدخول، فرفض زملاء كارتر الاستمرار فى العمل بعد ذلك ما لم يسمح لزوجاتهم برؤية ثمار جهودهم. وفى حالة من الغضب والإحباط، ذهب كارتر إلى المقبرة، وقطع تيار الكهرباء وأغلق البوابة الصلبة، ووضع المفاتيح فى جيبه. فأمر لاكو، مدير الآثار، كارتر بأن يسلم المفاتيح فرفض. وفى البرلمان البريطانى، وجه سؤال إلى وزير الخارجية إذا ما كان سوف يتصل بحكومة الولايات المتحدة مع التفكير فى تقديم احتجاج مشترك، لكن رامزى ماكدونالد رد بأن هذا الاقتراح ليس صالحا فى الوقت الحاضر.

كان ما يزيد على طن وربع من الجرانيت الصلب، فوق مومياء توت عنخ آمون. وكانت هذه الكمية معلقة بمعدات مصممة لرفع المومياء وليس للإبقاء عليها معلقة لفترة طويلة، خاصة أنها أحمال ثقيلة. وأخذت الصحافة العالمية علما بهذا الموضوع. فطلب، فى باريس، جورنال دى دبا، أن يقوم كارتر بتسليم المفاتيح

للاكو؛ ولم تبطئ التايمز فى تحديد مسئولية النفوذ الفرنسى فى هـذا الأمـر: "إن الاحتكاك الذى أدى إلى إغلاق المقبرة، والتوقف الفجائى فى العمل، للأسف يرجع إلى حد كبير... إلى نفوذ قوى خارجية مثيرة للشر الذى لا داعى لـه". فـى ٢٠ فبراير، فوض مجلس الوزراء المصرى لاكو سلطة إعادة فتح المقبرة واسـتئناف العمل فى أقرب وقت ممكن، وقدم اقتـراح إلـى علمـاء المـصريات بمتحـف ميتروبوليتان للفن بنيويورك بتولى العمل. وتم رفض الاقتراح، فـأعلن لاكـو أن كارتر له مطلق الحرية فى الاستمرار فى العمل على نفقـة ـ وتحـت رقابـة ـ الحكومة المصرية، فرفض هو أيضا، معلنا أن قدميه لن تطآ المقبرة مرة أخرى.

وفى ٢٢ فبراير، توجه لاكو، ومعه قوة من الشرطة المسلحة، يقودهـا قائـد الشرطة، ومعها جماعة من العمال مزودين بالعتلات والفؤوس ومناشير المعـادن، إلى المقبرة، ومروا من السلاسل التى تمسك بالأقفال، فهـشموا مـزاليج البوابـة الداخلية، ومروا من الحجرة الخارجية المغلقة، إلى حجرة الدفن. وكـان الغطـاء الجرانيتى للتابوت الحجرى ما يزال معلقا فوق جسد توت عنخ آمـون، فوضـعوا عارضا خشبيا عبر الجزء الأعلى المفتوح من التابوت الحجرى وأنزلوه إليهم.

وعلى الرغم من أن الحكومة المصرية قد استولت على المقبرة بالقوة؛ بقيـت مسألة ملكية كنوز توت عنخ آمون. ذلك أن شروط الامتيـاز الأصـلى الممنـوح لكارنارفون نصت على أن المقابر "التى تكتشف فى حالة سليمة يجب أن تسلم إلى المتحف المصرى كاملة دون تقسيم"، إذ لم يكن من المتوقع أن مثل هـذه المقـابر يمكن أن تكتشف. وفى حالة "المقابر التى فتشت من قبل" كما هو الحـال بالنـسبة للمقابر التى اكتشفت فى السابق، فإن المتحف احتفظ بـالحق فـى ملكيـة جميـع المومياوات والتوابيت الحجرية، وفى جميع الأشياء ذات الأهمية الكبرى من وجهة نظر علم الآثار والتاريخ. ولم تتحدد بوضوح ملكية بقية الأشياء، ولكـن الامتيـاز نص على أن "نصيب الشخص صاحب الامتياز سوف يعوضه تعويضا كافيا عمـا تكبده من جهد ومشقة".

لقد كان هناك دليل واضح على أن مقبرة توت عنخ آمون قد "فتشت"، وكـان آل كارنارفون لديهم توقعات بالتعويض عن نفقات عمل خمس عشرة سـنة، فـى الوادى. وأيا كان الأمر، فإن المواد القانونية التى تحكم التنقيب فـى مـصر منـذ

١٨٣٥، لم يكن لها تأثير خطير على أنشطة المعنيين بالأمر. فلم يخالج آل كارنارفون أى أمل فى الحصول على ما كانوا يرون أنه حقوقهم القانونية.

يتذكر وريث كارنارفون أنه اتصل بالمستشار البارز، سير إدوارد مارشال هول، من مجلس الملك، طلبا للنصيحة، فقيل له إن القضية سوف تنظر أمام محكمة من خمسة قضاة، أحدهم إنجليزى، والثانى فرنسى، والثالث إيطالى، وقاضيين مصريين؛ "سوف تكون لدى القاضيين المصريين تعليمات بخصوص الحكم الذى يخرجون به، وللتأكد من النتيجة سيتم شراء القاضى الإيطالى، وعلى هذا، فقد نسيت هذا الموضوع غير المستحب". لقد رفع كارتر وليدى كارنارفون قضية ضد الحكومة المصرية، وفى ١٢ مارس ١٩٢٤ حكمت محكمة مختلطة فى القاهرة لصالحهما. وعموما، لم تكن المحكمة بقادرة على تنفيذ حكمها فى مواجهة معارضة الحكومة المصرية. واستؤنف الحكم أمام محكمة استئناف فى الإسكندرية. وفى ٢ أبريل أعلنت هذه المحكمة أن" المحاكم المختلطة ليست لها سلطة التدخل فى قرارات الحكومة الإدارية"، ثم أكدت الحكومة المصرية سيادتها وذلك بأن منعت كارتر وأعضاء عائلة كارنارفون من دخول مقبرة توت عنخ آمون .

ونالت القضية دعاية واسعة فى إنجلترا. وقدمت الأسئلة فى البرلمان، ولكن الوزراء الذين كانوا يعرفون روح الوطنية المتنامية فى مصر كانوا حريصين على عدم التورط، إذ لم ير رامزى ماكدونالد رئيس الوزراء العمالى أى داع للتدخل. وفى ١٢ فبراير ١٩٢٤ أبلغ مجلس النواب "أن هوارد كارتر، فى أعمال التنقيب التى قام بها فى مصر، يعد شخصا خاصا ويخضع لمواد القانون المصرى للآثار".

وكان من الممكن أن ينهى هذا المسألة، كما كان من الممكن أن ينهى كارتر ما بقى له من عمر فى التنقل فى دائرة محاضراته المربحة فى أمريكا، التى كان قد وجه لها طاقاته، ما لم تحدث حادثة اغتيال سير لى ستاك، قائد القوات فى مصر، وحاكم عام السودان، فى ١٩ نوفمبر فى القاهرة، فاتخذت البوارج الحربية البريطانية موقعها قبالة الإسكندرية، واستعرضت القوات البريطانية نفسها فى القاهرة، وطولبت الحكومة المصرية بالتعويضات، واستقال زغلول باشا، وحل محله زيور باشا، وهو سياسى أكثر مرونة مع المصالح البريطانية. فاستدعى كارتر إلى القاهرة، حيث التقى مع رئيس الوزراء الجديد ومجلس الوزراء لمناقشة

شروط البدء مرة أخرى فى العمل، وفى ١٣ يناير ١٩٢٥، حدث تبادل للخطابات بين كارتر ووزير الأشغال العامة. فى هذه الخطابات تخلت كونتيسة كارنارفون عن مزاعمها فى مقبرة توت عنخ آمون. ووعد الوزير، فى مقابل ذلك، أن يسمح لها باختيار ما تريد من المكررات من بين الأشياء المكتشفة هناك.

وفى ٢٥ يناير أعيد افتتاح المقبرة، وكان كارتر، مرة أخرى، فى موضع المسئولية. وفى الخريف التالى نظفت المقبرة وتم تركيب آلات الرفع الضرورية وكذلك الأضواء الكهربائية، كى يمكن رفع غطاء التابوت الحجرى مرة أخرى. كان بالداخل ثلاثة توابيت كل منها بداخل الآخر. وكان التابوت الداخلى فيها جميعا وطوله ست أقدام من الذهب الصلب الخالص، ويحتوى على الجسد المحنط للملك الشاب. كان الرأس مخبأ بواسطة قناع ذهبى يغطى الوجه والرقبة والصدر. وكان على قدم الملك صندل من الذهب، وكانت كل إصبع من أصابع القدم ملفوفة وحدها فى غطاء من الذهب. وكانت المومياء نفسها تحمل إكليلا ملكيا فوق الرأس من الذهب، وأربع ياقات ذهبية، وتمائم ورموز مقدسة، وثلاثة عشر سوارا مرصعة بأحجار شبه كريمة، وخمس صدريات من الذهب والحلى. كما وجد كارتر فى الأربطة التى تحيط بالجسد ما مجمله ١٤٣ من الأشياء الثمينة من الذهب والحلى. وكان، كالمعتاد، منهجيا ومدققا فى تسجيل كل شىء والحفاظ عليه. لكن لا يمكن القول بأن تلك التجربة لم تحركه: "فى تلك اللحظات، تبتعد الانفعالات عن التعبيرات اللفظية على ما بها من تأثير وتعقيد. مضت ثلاثة آلاف سنة أو يزيد منذ أن حملقت عين البشر داخل التابوت الذهبى. إن الزمن الذى يقاس بقصر الحياة الإنسانية بدا وكأنه يفقد منظوره الشائع أمام منظر يعيد للذاكرة بقوة الطقوس الدينية الصارمة، لحضارة قد بادت. ولكن من العبث التفكير فى مثل هذه العواطف، فالجانب العاطفى ليس جزءا من البحث الأثرى".

خلف غرفة الدفن، كان هناك مخزن صغير لم يسد بابه بالطوب. فأطلق كارتر عليه اسم الخزانة الداخلية. وما إن نظر إلى محتوياتها حتى أمر بإغلاقها حتى لا يتشتت ذهنه أثناء إفراغ غرفة الدفن. وهذه علامة أخرى على صبر كارتر الذى يفوق الصبر الإنسانى، إلى الحد الذى جعله يبقى على الحجرة مغلقة لمدة أربع سنوات. على عتبة المخزن كانت هناك صورة الإله الذى هو على شكل ابن آوى،

أنوبيس، يحرس الكنوز فى الداخل، وعلى الأرض خلف مصباح صغير من القش بقاعدة من الطين أو الصلصال يحمل التعويذة، لصد أعداء أوزيريس الميت فى أى صورة يحضرون فيها. وعلى طول الجدار الجنوبى، كانت هناك الكثير من الخزانات السوداء المختومة. وعلى الجدار المواجه يوجد صف من علب مزينة بالعاج والأبنوس والجبس المنقوش بالذهب.

استغرق الأمر عامين حتى تم إخراج محتويات هذه العلب لإرسالها لمتحف القاهرة؛ فهى مجموعة ثرية من الأشياء بشكل يثير الحيرة. وتم عرض ما يربو على ٢٠٠٠ من هذه الأشياء هناك مما أثار دهشة العالم. وقبل الجميع، أخيرا، أنها مملوكة للحكومة المصرية. ذلك أن الاتفاق الذى توصل إليه كارتر مع زيور باشا ومجلس وزرائه عام ١٩٢٥ أخفق فى الصمود أمام مواجهة الاتهامات الخمسة المتتالية للحكومة، والتى أقيمت فى السنوات الخمس المتتالية. وفى عام ١٩٣٠، أعلنت حكومة النحاس باشا أنها لن تسمح بأن تغادر أى من الآثار البلاد، ووعدت بتقديم النقود كتعويض لآل كارنارفون.

تسبب التخلى عن مومياء توت عنخ آمون فى قدر من الاحتكاك الدولى، تماما مثل ذلك الذى حدث مع الكنوز التى كانت تحيط بها، إذ إن كارنارفون كان قد عبر، قبيل وفاته، عن أمله فى أن جثة توت عنخ آمون إذا ما اكتشفت فى مقبرته، يجب أن تبقى فى مكانها. وأصبح الأمر موضوعا للنقاش الدولى، ففى إنجلترا وأمريكا حررت الخطابات للصحف، كان بعضها يؤيد نقل الجثة، وكان البعض الآخر يعارض ذلك النقل، فهل يجب أن تؤخذ كى تحفظ فى أمان فى المتحف، أو تترك فى سلام فى مستقرها الأخير؟ وفتحت التايمز أعمدة مراسلاتها لهذا النقاش، فعبر ريدر هاجارد عن امتعاضه من فكرة أن يكون المصير النهائى لتوت عنخ آمون "أن يرقد نصف عار ليتعفن فى صندوق زجاجى فى المتحف فى القاهرة".

ولم يكن فى وسع البرلمان البريطانى أن يتجاهل مثل هذا الموضوع الذى يثير فضيحة دولية. وكانت الأسئلة التى تتكرر فى مجلس العموم يتم تحاشيها بالقول بأن هذا الموضوع يخص الحكومة المصرية. وأدخل ويليام ليتش عضو البرلمان البهجة على الأعضاء حين سأل رئيس الوزراء.. إذا كان قد تلقى أى طلب من المواطنين المصريين بالإذن بنهب مقابر الملوك والملكات البريطانيين فى

ويستمنستر أبى، أو غيرها، إذا كان المتحف البريطانى ينص على أن يتسلم الآثار والجثث والتوابيت إلخ، وإذا تم تسلم الطلبات، فما الإجابة التى يقترح أن يقدمها لهم فى المتحف؟

بل إن الأخبار جاءت من القاهرة بأن الملك جورج كان قد كتب للسلطات المصرية معبرا عن أمله بألا توضع مومياء توت عنخ آمون للعرض فى القاهرة، وهى رسالة استقبلت محليا باعتبارها مثالا آخر على الإمبريالية البريطانية التى تتعدّى على الشئون المصرية. وتقرر أخيرا أن تبقى المومياء فى مقبرتها. لقد كانت فى حالة سيئة، بحيث يمكن أن تضر بها الرحلة الطويلة إلى القاهرة أكثر من ذلك؛ كما أن المناخ فى الصعيد من المحتمل أن يحفظها بشكل أفضل من رطوبة الدلتا، وكانت الأقصر، بالطبع، حريصة على الاحتفاظ بمعلم للجذب السياحى. وفى ٣١ أكتوبر ١٩٢٦، أعاد كارتر لف المومياء ووضعها فى التابوت الخشبى الخارجى، الذى كان قد أنزل فى التابوت الحجرى وترك ليبقى حيث اكتشف.

إن اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون غيّر مجرى الآثار فى مصر تغييرا تاما؛ لأنه أوجد اهتماما جماهيريا جديدا بهذا الموضوع، ففى أوربا وأمريكا انشغل مئات الآلاف بحكاية كشف المقبرة، لأن الصحف أبقت على القصة ساخنة. ونالت المتاحف شعبية جديدة لما فيها من آثار مصرية، وأخذت تفتش فيما لديها عن أى شىء قد تكون له صلة بتوت عنخ آمون. وعرض متحف ميتروبوليتان فى نيويورك الأشياء التى استخرجها ثيودور ديفيز من وادى الملوك والتى أدت به إلى الافتراض بأنه وجد المقبرة؛ وتقاطر الجمهور لرؤية هذه الأشياء. واكتشفت الجمعية التاريخية فى نيويورك بين مجموعة آبوت الأثرية خاتما أزرق عليه علامة توت عنخ آمون ووضعته للعرض؛ واصطف الناس حول المبنى لرؤية ذلك الخاتم. وغمرت مكتب البراءات فى الولايات المتحدة الطلبات من أجل العلامات التجارية التى تضم اسم "توت عنخ آمون"، فكانت هناك قبعات توت عنخ آمون، وبذلات استحمام، وشمسيات، وعصى مشى. فى باريس ولندن ونيويورك، أصيبت بيوت الأزياء بهوس بالموضة المصرية من العباءات والفساتين المقلمة والتصاميم المشغولة من لوحات المقبرة.

لم يكن اكتشاف توت عنخ آمون أكبر وأضخم حدث نال أوسع دعاية فى تاريخ التنقيب فى وادى النيل فحسب؛ بل هو سد الفجوة فى التنقيب بين عالم القرن التاسع عشر وعالم القرن العشرين. فحين بدأ كارنارفون بحثه فى مصر، كان لا يزال فى وسع أرستقراطى إنجليزى أن ينصحه أحد بالاهتمام بعلم الآثار لدرء الملل، فلورد كرومر، الذى قدم هذه النصيحة، كان أقوى شخصية فى البلاد، وكانت مصر تعتبر ممتنة للخدمات التى تقدمها طاقات المنقبين الأجانب. ولكن المناخ قد تغير، أثناء الفترة التى عمل فيها كارتر وكارنارفون فى وادى الملوك.

وفى الوقت الذى أعلن فيه عن الاكتشاف العظيم، كانت مصر دولة مستقلة ذات سيادة، وغيورا على حقها فى التحكم فى أنشطة الأجانب، وأن تتحدى افتراضاتهم بالتفوق. فقبل توت عنخ آمون، كان من المقبول أن يكون المنقب هو المالك بلا منازع، وإن لم يكن مالك الكنوز، فعلى الأقل، مالك للأسرار التى كشف عنها، ولا يتم الكشف عنها إلا حين يشاء وبالطريقة التى يختارها. وكان عقد كارنارفون الذى يقصر حق نشر أخبار الكشف مع التايمز والذى دخل فيه بكل براءة، قد أثار تساؤلا عن حقه فى بيع معلومات عن ماضى مصر، وبالتالى التساؤل عن صحة أن يكون هناك حق أصلا.

إن نتيجة التحديات التى ألقت بها الحكومة المصرية فى وهج الدعاية المحيطة بحملة توت عنخ آمون، هى أن التنقيب فى مصر أصبح ينظر إليه على أنه فضل تسبغه الحكومة المضيفة على الخبراء الزائرين، وليس العكس. لم يكن يخالج بونابرت وعلماءه أى شك فى أنهم يقومون بمهمة لإدخال الحضارة فى مصر، فهم كانوا ينقذون أهل البلاد من المماليك، ويكشفون للعالم الدور الرئيسى الذى لعبته ثقافته القديمة فى تطور العالم. أما أولئك الذين جاءوا بعدهم فى التنقيب عن آثارها القديمة، فإنما فعلوا ذلك لإثراء المجموعات الخاصة أو متاحف العالم، وحين أدرك المصريون القيمة الرفيعة التى تعطى لآثارهم، كان رد فعلهم هو تحريك تجارة نشطة فى تلك الآثار. ولقد قدمت متاحف أوربا وأمريكا نفسها باعتبارها ملاذات آمنة، تكون فيها كنوز مصر القديمة فى مأمن من عبث المصريين المحدثين. وكانت هذه الاتجاهات لا تزال تلقى رواجا حين بدأ كارنارفون بحثه.

وأيا كان الأمر، فإن كنوز توت عنخ آمون حُفظت فى مصر، وتُركت جثة الملك آمنة فى مقبرتها، عن طريق حكومة مصرية مستقلة عازمة، أخيرا، على تأكيد ملكيتها للآثار القديمة داخل حدودها، وأن تأخذ بيدها مهمة الحفاظ على تراثها القديم.

قائمة المراجع

About, Edmond, *The Fellah* (London, 1870).

Athanasi, Giovanni d', *A brief account of the Researches and Discoveries in Upper Egypt, made under the Direction of Henry Salt Esq.* (London, 1836).

Baikie, James, *A Century of Excavation in the Land of the Pharaohs* (London, 1923).

– *Egyptian Antiquities in the Nile Valley* (London, 1932).

Baines, John and Jaromír Málek, *Atlas of Ancient Egypt* (Time Life Books, 1984).

Belzoni, G. *Narrative of the Operations and Recent Discoveries within pyramids, temples, tombs and excavations in Egypt and Nubia . . .*, 2 vols (London, 1822).

Bevan, Samuel, *Sand and Canvas* (London, 1849).

Biblical Archaeology, Transactions of the Society of (1878 to 1913) (London).

Birch, Samuel, *Ancient History from the Monuments of Egypt* (London, 1875).

– (ed.), *Records of the Past*, 12 vols (London 1874-81).

– 'Description of an Egyptian Tomb New Preserved in the British Museum', *Archaeologia*, Vol XXIX, 11, 1842.

Blunt, Wilfred S., *Secret History of the British Occupation of Egypt* (London, 1922).

Bonwick, J., *Pyramid Facts and Fancies* (London, 1877).

Bratton, F. G., *A History of Egyptian Archaeology* (London, 1967).

Breasted, Charles, *Pioneer to the Past, the story of James Henry Breasted, archaeologist* (New York, 1943).

– *A History of Egypt* (New York, 1909).

– *The Dawn of Conscience* (New York, 1933).

Brugsch, H. F. K., *A History of Egypt under the Pharaohs*, 2 vols (London, 1879).

Budge, Sir E. A. Wallis, *By Nile and Tigris*, 2 Vols (London, 1920).

– *The Rise and Progress of Assyriology* (London, 1925).

"Bunsen's Egypt", *British Quarterly Review*, Vol XXIII, 61, April 1856.

Bunsen, C. C. J., *Egypt's Place in Universal History*, 5 vols (London, 1844-57).

Caillaud, Frédéric, *Travels in the Oasis of Thebes . . .* (London, 1822).
Capart, Jean, *The Tomb of Tutankhamun* (London, 1923).
Carnarvon, The Earl of, *Ermine Tales* (London, 1980).
Carrott, Richard G., *The Egyptian Revival. Its Sources, Monuments and Meaning* (Berkeley, 1978).
Carter, Howard and A. C. Mace, *The Tomb of Tutankhamun discovered by the late Earl of Carnarvon and Howard Carter* (London, 1923).
Ceram, C. W., *Gods, Graves and Scholars* (London, 1952).
– *The March of Archaeology* (New York, 1958).
Champollion (le jeune), *L'Egypt sous les Pharaohs* (Paris, 1814).
Charles-Roux, F., *Bonaparte: Governor of Egypt* (Methuen, London, 1977).
Charmes, Gabriel, *Five Months at Cairo* (London, 1883).
Clair, Colin, *Strong Man Egyptologist* (London, 1957).
Clayton, Peter A. (ed.), *The Rediscovery of Ancient Egypt* (London, 1982).
Clot-Bey, A. B., *Aperçu General sur l'Egypte* (Brussels, 1840).
Combes, Edmond, *Voyage en Egypte* (Paris, 1846).
Conder, Josaiah, *The Modern Traveller* (London, 1830).
Connor, Patrick, (ed.), *The Inspiration of Egypt: its influence on British Artists, Travellers and Designers 1700-1900* (Brighton Borough Council, 1983).
Cottrell, Leonard, *The Mountains of Pharaoh* (New York, 1956).
– *The Anvil of Civilisation* (New York, 1957).
Cromer, Lord, *Modern Egypt* (London 1908).
Crook, J. Mordaunt, *The British Museum: a case study in architectural politics* (London, 1973).
Crow, W. B., *A History of Magic, Witchcraft and Occultism* (London, 1972).
Curl, James, *The Egyptian Revival*, (London 1978).

Daniel, Glyn, *A Hundred and Fifty Years of Archaeology*, 2nd edn (London, 1973).
David, Rosalie, *The Egyptian Kingdoms* (London, 1975).
Dawson, Warren R. and Eric P. Uphill, *Who Was Who in Egyptology* (London, 1972).
Denon, D. V., *Voyage dans la Basse et la Haute Egypte* (Paris, 1802).
Disher, M. W., *Pharaoh's Fool* (London, 1957).
Driault, Edouard, (ed.) *Mohamed Aly et Napoléon (1807-1814): correspondance des consuls de France en Egypte* (Paris, 1925).
Drower, Margaret S., *Flinders Petrie, a life in archaeology* (London, 1985).
Drummond, Sir William, *Memoir on the Zodiacs of Esmen and Dendera* (London, 1821).
Duff Gordon, L., *Letters from Egypt* (London, 1865).

Ebers, George, *Richard Lepsius: a biography*, translated by Zoe Dana Underhill (New York, 1887).
Edmonstone, Sir Archibald, *A Journey to two of the Oases of Upper Egypt* (London, 1822).
Edwards, Amelia B., *A Thousand Miles up the Nile* (London, 1877).
– *Pharaohs, Fellahs and Explorers* (London, 1891).
Edwards, I. E. S., *The Pyramids of Egypt* (Harmondsworth, 1961).
Erman, Adolph, *The Ancient Egyptians* (New York, 1965).
Evans, Joan, *A History of the Society of Antiquaries* (Oxford, 1956).

Fagan, Brian M., *The Rape of the Nile* (London, 1977).

Flower, Raymond, *Napoleon to Nasser: the story of modern Egypt* (London, 1972).

Gardiner, Sir A. H., *Egypt of the Pharaohs* (Oxford, 1961).
– *Egyptian Grammar*, 3rd edn (Oxford, 1969).
Glanville, S. R. K., *The Growth and Nature of Egyptology* (Cambridge, 1947).
Gliddon, George R., *Ancient Egypt: monuments, hieroglyphics, history, archaeology, and other subjects* . . . (Augusta, Georgia, 1847).
Greener, Herbert, L. S., *The Discovery of Egypt* (London, 1966).

Halls, J. J., *The Life and Correspondence of Henry Salt Esq., F.R.S. etc., His Britannic Majesty's Late Consul General in Egypt*, 2nd edition (London, 1834).
Herold, J. Christopher, *Bonaparte in Egypt* (1962).
Hoskins, G. A., *Visit to the Great Oasis of the Libyan Desert* (London, 1837).
– *Winter in Upper and Lower Egypt* (London 1863).
Hoving, Thomas, *Tutankhamun: the untold story* (New York, 1978).

Iversen, E., *The Myth of Egypt* (Copenhagen, 1961).
– *Obelisks in Exile* (Copenhagen, 1968).

James, T. G. H., *The Archaeology of Ancient Egypt* (London, 1972).
– (ed), *An Introduction to Ancient Egypt* (London, 1979).
– *The British Museum and Ancient Egypt* (London, 1981).
– *Excavating in Egypt* (London, 1984).
Jollois, Prosper, *Journal d'un Ingenieur Attaché a l'Expedition d'Egypte (1798-1802)* (Paris, 1904).

Kenrick, John, *Ancient Egypt under the Pharaohs* (London, 1850).
Khater, A., *La Régime Juridique des Fouilles et des Antiquités en Egypte*, Institute francaise d'archéologie orientale du Caire, Recherches, Tome XII (Cairo, 1960).

Lane, E. W., *The Manners and Customs of the Modern Egyptians* (London, 1836).
Legh, Thomas, *Narrative of a Journey in Egypt* (London, 1816).
Lepsius, C. R., *Letters from Egypt* (1853).
– *Discoveries in Egypt* (1853).
Linant de Bellefonds, L. M. A., *Journal d'un Voyage* (Khartoum 1958).

Mariette, Auguste, *Voyage dans la Haute Egypte*, 2 vols (Paris, 1878-80).
– *Outlines of Ancient Egyptian History* (London, 1892).
Mariette, Edouard, *Mariette Pacha* (Paris, 1904).
Maspero, Gaston, *Manual of Egyptian Archaeology* (London, 1895).
– *Auguste Mariette, notice biographique et oeuvres diverses* (Paris, 1904).
Maspero, Sir Gaston, *Egypt: Ancient Sites and Modern Scenes* (London, 1910).
Mayes, S. H., *The Great Belzoni* (London, 1959).
Mertz, Barbara, *Temples Tombs and Hieroglyphs: the story of Egyptology* (New York, 1964).
Michaelis, A. T. F., *A Century of Archaeological Discoveries* (London, 1908).

Osburn, William, *Israel in Egypt: or the books of Genesis and Exodus illustrated by existing monuments* (London, 1854).

Palmer, William, *Egyptian Chronicles, with a harmony of Sacred and Egyptian Chronology* (London, 1861).
Petrie, W. M. Flinders, *Ten Years digging in Egypt, 1881-1891*, The Religious Tract Society (London, 1892).
- *Methods and Aims in Archaeology* (London 1904).
- *Seventy Years in Archaeology* (London, 1931).
Pratt, Ida A., *Ancient Egypt, sources of information in the New York Public Library* (New York, 1925).

Rawlinson, George, *History of Ancient Egypt*, 2 vols (London, 1880).
Rhind, A. Henry, *Thebes, Its Tombs and their Tenants* (London, 1862).
Richardson, Robert, *Travels along the Mediterranean and parts adjacent; in company with the Earl of Belmore, during the years 1816-17-18*, 2 vols (London, 1822).
Richmond, Sir J. C. B., *Egypt 1798-1952; her advance towards a modern identity* (London, 1977).
Roberts, David, *The Holy Land*, 6 vols (London, 1855).
Ruffle, John, *Heritage of the Pharaohs: an introduction to Egyptian archaeology* (Oxford, 1977).

Sayce, Rev. A. H., *The Egypt of the Hebrews and Herodotus*, London, 1895.
- *Reminiscences* (London, 1923).
Sharpe, Samuel, *History of Egypt*, 2 vols (London, 1846).
Smith, Grafton Eliot, *Tutankhamun and the discovery of his tomb by the late Earl of Carnarvon and Howard Carter* (London, 1923).
Smith, Joseph Lindon, *Tombs, Temples, and Ancient Art* (University of Oklahoma Press, 1956).
Spineto, Marquis, *Lectures on the elements of hieroglyphics and Egyptian Antiquities* (London, 1829).
[UPHAM, E.] *Memoranda illustrative of the tombs and sepulchral decorations of the Egyptians; with a key to the Egyptian tomb now exhibiting in Piccadilly. Also remarks on Mummies and observations on the process of embalming* (London, 1822).

Vyse, Richard Howard, *Operations Carried on at the Pyramids of Gizeh in 1837*, 2 vols (London, 1840).

Wakeling, T. G., *Forged Egyptian Antiquities* (London, 1912).
Weigall, A. E. P., *Guide to the Antiquities of Upper Egypt from Abydos to the Sudan Frontier* (London, 1910).
- *Tutankhamun and other essays* (London, 1923).
White, Andrew D., *A History of the Warfare of Science with Theology in Christendom* (London, 1955).
Wilkinson, J. G., *Manners and Customs of the Ancient Egyptians*, 3 vols. (London, 1837).
- *Modern Egypt* (London, 1843).
Wilson, John A., *Signs and Wonders upon Pharaoh: a history of American Egyptology* (University of Chicago Press, 1964).

Winslow, William Copley, *The Queen of Egyptology; Amelia B. Edwards* (Chicago, 1892).
Wood, Alexander and Frank Oldham, *Thomas Young: Natural Philosopher* (Cambridge, 1954).
Wortham, John D., *British Egyptology (1549-1906)* (Newton Abbot, 1972).

صدر فى هذا المشروع(*)

- **أولاً: الموسوعات والمعاجم**

ليونارد كوتريل، **الموسوعة الأثرية العالمية**
ويليام بيتر، **معجم التكنولوجيا الحيوية**
ج. كارفيل، **تبسيط المفاهيم الهندسية**
ب. كوملان، **الأساطير الإغريقية والرومانية**
و.د. هاملتون وآخرون، **المعجم الجيولوجى المصور فى المعادن والصخور والحفريات**
حسام الدين زكريا، **المعجم الشامل للموسيقى العالمية (٢ج)**
خيرية البشلاوى، **معجم المصطلحات السينمائية**
دونالد نيكول، **معجم التراجم البيزنطية**
ر. س. زينر، **موسوعة الأديان الحية (٢ج)**

- **ثانيًا: الدراسات الاستراتيجية وقضايا العصر**

د.محمد نعمان جلال، **حركة عدم الانحياز فى عالم متغير**
إريك موريس،آلان هو، **الإرهاب**
ممدوح عطية، **البرنامج النووى الإسرائيلى**
د. لينوار تشامبرز رايت، **سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر**
إزرا .ف. فوجل، **المعجزة اليابانية**
د.السيد نصر السيد، **إطلالات على الزمن الآتى**
بول هاريسون، **العالم الثالث غدًا**
أقطاب العلماء الأمريكيين، **مبادرة الدفاع الاستراتيجى: حرب الفضاء**
و. مونتجمرى وات، **الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر**
بادى أونيمود، **أفريقيا الطريق الآخر**
فانس بكارد، **إنهم يصنعون البشر (٢ج)**
مارتن فان كريفلد، **حرب المستقبل**
ألفين توفلر، **تحول السلطة (٢ج)**
ممدوح حامد عطية، **إنهم يقتلون البيئة**
د.السيد أمين شلبى، **جورج كينان**
يوسف شرارة، **مشكلات القرن الحادى والعشرين والعلاقات الدولية**
د. السيد عليوة، **إدارة الصراعات الدولية**
د. السيد عليوة، **صنع القرار السياسى**
جرج كاشمان، **لماذا تنشب الحروب(٢ج)**
إيمانويل هيمان، **الأصولية اليهودية**
آلان أنترمان، **اليهود (عقائدهم الدينية وعباداتهم)**
د. ممدوح عطية وأخرون، **البرنامج النووى الإيرانى والمتغيرات فى أمن الخليج**
أنجيلو كودفيللا، **المخابرات وفن الحكم**
بريدراج ماتفيجيفتش، **تراتيل متوسطية**
نعوم تشومسكى، **مداخلات: آراء حرة فى السياسات الأمريكية المعاصرة**

- **ثالثًا: العلوم والتكنولوجيا**

ميكائيل ألبى، **الانقراض الكبير**
فيرنر هيزنبرج، **الجزء والكل: محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية**
فريد هويل، **البذور الكونية**
ويليام بينز، **الهندسة الوراثية للجميع**
د. جوهان دورشنر، **الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد**
إسحق عظيموف، **الشموس المتفجرة (أسرار السوبرنوفا)**

(*) قائمة مصنفة وموجزة بالكتب التى صدرت فى مشروع الألف كتاب الثانى، ولمزيد من البيانات يمكن الرجوع إلى قائمة المشروع بموقع الهيئة المصرية العامة للكتاب WWW.gebo.gov.eg

تيربوسى (٢ج)
إدوارد إيه فايجينباوم، **الجيل الخامس للحاسوب**
د.محمود سرى طه، **الكمبيوتر فى مجالات الحياة**
د. مصطفى عنانى، **الميكروكمبيوتر**
ى.رادو نسكاياى، **الإلكترونيات والحياة الحديثة**
جلال عبد الفتاح، **الكون ذلك المجهول**
إيفرى شاتزمان، **كوننا المتمدد**
فرد س. هيس، **تبسيط الكيمياء**
كاتى ثير، **تربية الدواجن**
د. محمد زينهم، **تكنولوجيا فن الزجاج**
لارى جونيك ومارك هوبليس، **الوراثة والهندسة الوراثية بالكاريكاتير**
جينا كولاتا، **الطريق إلى دوللى**
دور كاس ماكلينتوك، **صور أفريقية: نظرة على حيوانات أفريقيا**
إسحق عظيموف، **أفكار العلم العظيمة**
د. مصطفى محمود سليمان، **الزلازل**
بول دافيز، **الدقائق الثلاث الأخيرة**
ويليام هـ . ماثيوز، **ما هى الجيولوجيا؟**
إسحق عظيموف، **العلم وآفاق المستقبل**
ب.س. ديفيز، **المفهوم الحديث للمكان والزمان**
د. محمود سرى طه، **الاتجاهات المعاصرة فى عالم الطاقة**
بانش هوفمان، **آينشتين**
زافيلسكى ف.س.، **الزمن وقياسة**
ر.ج.فوربس، **تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ج)**
د. فاضل أحمد الطائى، **أعلام العرب فى الكيمياء**
رولاند جاكسون، **الكيمياء فى خدمة الإنسان**
إبراهيم القرضاوى، **أجهزة تكييف الهواء**
ديفيد ألدرتون، **تربية أسماك الزينة**
أندريه سكوت، **جوهر الطبيعة**
إيجور إكيموشكين، **الإيثولوجى**
بارى باركر، **السفر فى الزمان الكونى**
ديمترى ترايفونوف، **ظلال الكيمياء**
بول ديفز، جونز جريبين، **أسطورة المادة**
جيفرى ماوساييف ماسون، **حين تبكى الأفيال**
ليونارد كول، **السلاح الحادى عشر**
و. جراهام ريتشاردز، أسرار الكيمياء
د. زين العابدين متولى، **وبالنجم هم يهتدون**
د.كامل زكى حميد، **الاستنساخ قنبلة بيولوجية**
فلاديمير سميلجا، **النسبية والإنسان**
د. محمد فتحى عوض الله، **رحلات جيولوجية فى صحراء مصر الشرقية**
ليونيد بونوماريف، **الاحتمالات المثيرة للنظرية الكمية**
چون جريبين، **الحياة السرية للشمس**
تيموثى جولد سميث، **الأصول البيولوچية للسلوك البشرى**

- **رابعًا: الاقتصاد**

ديفيد وليام ماكدويل، **مجموعات النقود (صيانتها، تصنيفها، عرضها)**
د. نورمان كلارك، **الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا**
سامى عبد المعطى، **التخطيط السياحى فى مصر**
جابر الجزار، **ماستريخت والاقتصاد المصرى**
ولت ويتمان روستو، **حوار حول التنمية الاقتصادية**
فيكتور مورجان، **تاريخ النقود**
ليستر ثورو، **مستقبل الرأسمالية**
د. ناصر جلال، **حقوق الملكية الفكرية**

- **خامسًا: مصر عبر العصور**

محرم كمال، **الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء**
فرانسوا ديماس، **آلهة مصر**

سيريل ألدريد، **إخناتون**
موريس بيراير، **صناع الخلود**
بكنت أ. كتشن، **رمسيس الثانى: فرعون المجد والانتصار**
ألن شورتر، **الحياة اليومية فى مصر القديمة**
ونفرد هولمز، **كانت ملكة على مصر**
جاك كرابس جونيور، **كتابة التاريخ فى مصر**
نفتالى لويس، **مصر الرومانية**
عبده مباشر، **البحرية المصرية من محمد على للسادات (١٨٠٥ -١٩٧٣)**
د. السيد طه أبو سديرة، **الحرف والصناعات فى مصر الإسلامية**
جابريل باير، **تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة**
عاصم محمد رزق، **مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية**
ت.ج.هـ. جيمز، **كنوز الفراعنة**
حسن كمال، **الطب المصرى القديم**
أ.أ.س. إدواردز، **أهرام مصر**
سومرز كلارك، **الآثار القبطية فى وادى النيل**
كريستيان ديروش نوبلكور، **المرأة الفرعونية**
بيل شول وأدبنيت، **القوة النفسية للأهرام**
جيمس هنرى برستيد، **تاريخ مصر**
د. بيارد دودج، **الأزهر فى ألف عام**
أ. سبنسر، **الموتى وعالمهم فى مصر القديمة**
ألفريد ج. بتلر، **الكنائس القبطية القديمة فى مصر (ج٢)**
روز أليندم، **الطفل المصرى القديم**
ج. و. مكفرسون، **الموالد فى مصر**
جون لويس بوركهارت، **العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية**
سوزان راتييه، **حتشبسوت**
مرجريت مرى، **مصر ومجدها الغابر**
أولج فولكف، **القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة**
د. محمد أنور شكرى، **الفن المصرى القديم**
ت.ج. جيمز، **الحياة أيام الفراعنة**
ايفان كونج، **السحر والسحرة عند الفراعنة**
تشارلز نيمس، **طيبة (آثار الأقصر)**
رندل كلارك، **الرمز والأسطورة فى مصر القديمة**
ديمترى ميكس، **الحياة اليومية للآلهة الفرعونية**
محمد عبد الحميد بسيونى، **بانوراما فرعونية**
حمدى عثمان، **هؤلاء حكموا مصر**
ميكل ونتر، **المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى**
بربارة واترسون، **أقباط مصر**
إيريك هورنونج، **فكرة فى صورة**
بيير جرانديه، **رمسيس الثالث**
محسن لطفى السيد، **أساطير معبد أدفو**
د. نبيل عبيد، **الطب المصرى فى عصر الفراعنة**
بيتر فرانس، **أوربا والآثار المصرية**

- **سادسًا: الكلاسيكيات**

جاليليو جاليليه، **حوار حول النظامين الرئيسين للكون (٣ج)**
أبو القاسم الفردوسى، **الشاهنامة (٢ج)**
إدوارد جيبون، **اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها (٣ج)**
ناصر خسرو علوى، **سفر نامة**
فيليب عطية، **ترانيم زرادشت**
جورج جاموف، **بداية بلا نهاية**
د.رمسيس عوض، **أبرز ضحايا محاكم التفتيش**

- **سابعًا: الفن التشكيلى والموسيقى**

عزيز الشوان، **الموسيقى تعبير نغمى ومنطق**
ألويز جرايتر، **موتسارت**

شوكت الربيعى، **الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى**
ليوناردو دافنشى، **نظرية التصوير**
د. غبريال وهبه، **أثر الكوميديا الإلهية لدانتى فى الفن التشكيلى**
روبين جورج كولنجوود، **مبادئ الفن**
مارتن جك، **يوهان سباستيان باخ**
ميخائيل شتيجمان، **فيفالدى**
هيربرت ريد، **التربية عن طريق الفن**
أدامز فيليب، **دليل تنظيم المتاحف**
حسام الدين زكريا، **أنطون بروكنر**
جيمس جينز، **العلم والموسيقى**
هوجولا يختنتريت، **الموسيقى والحضارة**
محمد كمال إسماعيل، **التحليل والتوزيع الأوركسترالى**
د. صالح رضا، **ملامح وقضايا فى الفن التشكيلى المعاصر**
إدموندو سولمى، **ليوناردو**
سيونايد ميرى روبرتسون، **الأشغال الفنية والثقافة المعاصرة**

- **ثامنًا: الحضارات العالمية**

جاكوب برونوفسكى، **التطور الحضارى للإنسان**
س.م. بورا، **التجربة اليونانية**
جوستاف جرونيباوم، **حضارة الإسلام**
أ.د. جرنى، **الحيثيون**
ل. ديلابورت، **بلاد ما بين النهرين**
ج. كونتنو، **الحضارة الفينيقية**
جوزيف نيدهام، **تاريخ العلم والحضارة فى الصين**
ستيفن رانسيمان، **الحضارة البيزنطية**
سبتينو موسكاتى، **الحضارات السامية**

- **تاسعًا: التاريخ**

جوزيف داهموس، **سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى**
هنرى بيرين، **تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى**
أرنولد توينبى، **الفكر التاريخى عند الإغريق**
بول كولز، **العثمانيون فى أوروبا**
جوناثان ريلى سميث، **الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية**
د. بركات أحمد، **محمد واليهود**
ستيفن أوزمنت،**التاريخ من شتى جوانبه(٣ج)**
و. بارتولد، **تاريخ الترك فى آسيا الوسطى**
فلاديمير تيسمانيانو، **تاريخ أوروبا الشرقية**
د.ألبرت حورانى،**تاريخ الشعوب العربية(٢ج)**
نويل مالكوم، **البوسنة**
جارى.ب. ناش، **الحمر والبيض والسود**
أحمد فريد رفاعى، **عصر المامون (٢ج)**
آرثر كيستلر، **القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم**
ناجاى متشيو، **الثورة الإصلاحية فى اليابان**
محمد فؤاد كوبريلى، **قيام الدولة العثمانية**
د. أبرار كريم الله، **من هم التتار؟**
ستيفن رانسيمان، **الحملات الصليبية**
آلبان ويدجرى، **التاريخ وكيف يفسرونه (٢ج)**
جوسيبى دى لونا، **موسولينى**
جوردون تشيلد، **تقدم الإنسانية**
هـــ.ج. ولز، **معالم تاريخ الإنسانية (٤ج)**
هـــ. سانت موس، **ميلاد العصور الوسطى**
يوهان هويزنجا، **اضمحلال العصور الوسطى**
هـــ.ج. ويلز، **موجز تاريخ العالم**
لورد كرومر، **الثورة العرابية**
و. مونتجمرى وات، **محمد فى مكة**
ألبرت براجو، **ثورات أمريكا الإسبانية**

- **عاشرًا: الجغرافيا والرحلات**

ت.و. فريمان، **الجغرافيا فى مائة عام**
ليستردیل رای، **الأرض الغامضة**
رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف)

إميليا إدواردز، **رحلة الألف ميل**
رحلات فارتيما (الحاج يونس المصرى)
رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز (٣ج)
رحلة عبد اللطيف البغدادى فى مصر
رحلة الأمير رودلف إلى الشرق (٣ج)
يوميات رحلة فاسكو داجاما
س. هوارد، **أشهر الرحلات إلى غرب أفريقيا**
إريك أكسيلون، **أشهر الرحلات فى جنوب أفريقيا**
وليم مارسدن، **رحلات ماركو بولو (٣ج)**
د. مصطفى محمود سليمان، **رحلة فى أرض سبأ**

• حادى عشر: الفلسفة وعلم النفس

جون بورر، **الفلسفة وقضايا العصر (٣ج)**
سوندراى، **الفلسفة الجوهرية**
جون لويس، **الإنسان ذلك الكائن الفريد**
سدنى هوك، **التراث الغامض: ماركس والماركسيون**
إدوارد دو بونو، **التفكير المتجدد**
رونالد دافيد لانج، **الحكمة والجنون والحماقة**
د. توماس أ. هاريس، **التوافق النفسى: تحليل المعاملات الإنسانية**
د. أنور عبد الملك، **الشارع المصرى والفكر**
نيكولاس ماير، **شارلوك هولمز يقابل فرويد**
أنطونى دى كرسبنى، **أعلام الفلسفة المعاصرة**
جين وروبرت هاندلى،**كيف تتخلصين من القلق؟**
هـ ج. كريل، **الفكر الصينى**
د. السيد نصر السيد، **الحقيقة الرمادية**
برتراند راصل، **السلطة والفرد**
مارجريت روز، **ما بعد الحداثة**
كارل بوبر، **بحثا عن عالم أفضل**
ريتشارد شاخت، **رواد الفلسفة الحديثة**
جوزيف داهموس، **سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى**
د. روجر ستروجان، **هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال؟**
إريك برن، **الطب النفسى والتحليل النفسى**
بيرتون بورتر، **الحياة الكريمة (٢ج)**
فرانكلين ل . باومر، **الفكر الأوربى الحديث (٤ج)**
هنرى برجسون، **الضحك**
أرنست كاسيرر، **فى المعرفة التاريخية**
و. مونتجمرى وات، **القضاء والقدر**
إدوارد دو بونو، **التفكير العملى**

• ثانى عشر: العلوم الاجتماعية

د. محيى الدين أحمد حسين، **التنشئة الأسرية والأبناء الصغار**
م. و ثرنج، **ضمير المهندس**
رايموند وليامز، **الثقافة والمجتمع**
روى روبرتسون، **الهيروين والإيدز**
بيتر لورى، **المخدرات حقائق نفسية**
د. ليو بوسكاليا، **الحب**
برنسلاو مالينوفسكى، **السحر والعلم والدين**
بيتر ر. داى ، **الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى**
بيل جيرهارت، **تعليم المعوقين**
أرنولد جزل، **الطفل من الخامسة إلى العاشرة**
رونالد د. سمبسون، **العلم والطلاب والمدارس**
كارل ساجان، **عالم تسكنه الشياطين**

• ثالث عشر: المسرح

لويس فارجاس، **المرشد إلى فن المسرح**
برونو ياشينسكى، **حفلة مانيكان**
جلال العشرى، **فكرة المسرح**
جان بول سارتر، جورج برناردشو، جان أنوى **مختارات من المسرح العالمى**

د. عبد المعطى شعراوى، **المسرح المصرى المعاصر: أصله وبداياته**
توماس ليبهارت، **فن المايم والبانتومايم**
زيجمونت هيبنر، **جماليات فن الإخراج**
أوجين يونسكو، **الأعمال الكاملة (٢ج)**
آلان ماكدونالد، **مسرح الشارع**
نك كاى، **ما بعد الحداثية والفنون الأدائية**
بيتر بروك، **التفسير والتفكيك والإيديولوجية**
أندرية فيلييه، **الممثل الكوميدى**
لى ستراسبرج، **تدريب الممثل**
جلال جميل محمد، **مفهوم الضوء والظلام فى العرض المسرحى**
أيوجينيو باربا، **زورق من الورق**

- **رابع عشر: الطب والصحة**

بوريس فيدوروفيتش سيرجيف، **وظائف الأعضاء من الألف إلى الياء**
د. جون شندلر، **كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة**
د. ناعوم بيتروفيتش، **النحل والطب**
م.هـ. كنج، **التغذية فى البلدان النامية**

- **خامس عشر: الآداب واللغة**

برتراند رسل، **أحلام الأعلام وقصص أخرى**
ألدس هكسلى، **نقطة مقابل نقطة**
جول ويست، **الرواية الحديثة : الإنجليزية والفرنسية**
أنور المعداوى، **على محمود طه: الشاعر والإنسان**
جوزيف كونراد، **مختارات من الأدب القصصى**
تاجور شين ين بنج وآخرون، **مختارات من الآداب الآسيوية**
محمود قاسم، **الأدب العربى المكتوب بالفرنسية**
سوريال عبد الملك، **حديث النهر**
د. رمسيس عوض، **الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها**
مختارات من الأدب اليابانى: الشعر، الدراما، الحكاية، القصة القصيرة
ديفيد بشبندر، **نظرية الأدب المعاصر**
نادين جورديمر وآخرون، **سقوط المطر وقصص أخرى**
رالف ئى ماتلو، **تولستوى**
والتر ألن، **الرواية الإنجليزية**
هادى نعمان الهيتى، **أدب الأطفال**
مالكوم برادبرى، **الرواية اليوم**
لوريتو تود، **مدخل إلى علم اللغة**
د. جابربيل جارسيا ماركيز، **سيمون بوليفار أو (الجنرال فى المتاهة)**
ديلاسى أوليرى، **الفكر العربى ومكانه فى التاريخ**
د. على عبد الرءوف البمبى، **مختارات من الشعرالإسبانى فى العصور الوسطى (ج١)**
ب. إفور إيفانز، **موجز تاريخ الدراما الإنجليزية**
ج. س. فريزر، **الكاتب الحديث وعالمه (٢ج)**
جورج ستاينر، **بين تولستوى ودستويفسكى (٢ج)**
ديلان توماس، **مجموعة مقالات نقدية**
فيكتور برومبير، **ستندال (مقالات نقدية)**
فيكتور هوجو، **رسائل وأحاديث من المنفى**
يانكو لافرين، **الرومانتيكية والواقعية**
د. نعمة رحيم الغزاوى، **أحمد حسن الزيات كاتبًا وناقداً**
ف. برميلوف، **دستويفسكى**
لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، **الدليل الببليوجرافى: روائع الآداب العالمية (ج١)**
محسن جاسم الموسوى، **عصر الرواية: مقال فى النوع الأدبى**

هنرى باربوس، **الجحيم**
ميجيل دى ليبس، **الفئران**
روبرت سكولز وآخرون، **آفاق أدب الخيال العلمى**
يانيس ريتسوس، **البعيد (مختارات شعرية)**
ب. إيفور ايفانس، **مجمل تاريخ الأدب الإنجليزى**
فخرى أبو السعود، **فى الأدب المقارن**
سليمان مظهر، **أساطير من الشرق**
ف. ع. أدينكوف، **فن الأدب الروائى عند تولستوى**
د. صفاء خلوصى، **فن الترجمة**
بلدوميرو ليلو وآخرون، **قصص من أمريكا اللاتينية**
بورخيس، **مختارات الفانتازيا والميتافيزيقا**
مايكل كانينجهام، **الساعات**
شيكسبير، **سونيتات شيكسبير**
ثريا عريان، **حديقة الياسمين**
د. عبد الغفار مكاوى، **النور والفراشة**
إميل فاجية، **مدخل إلى الأدب**
ألكساندر سولجينيتسين، **يوم فى حياة إيفان دينيسوفيتش**
لورانس فينوتى، **اختفاء المترجم**

- **سادس عشر: الإعلام**

فرانسيس ج. برجين، **الإعلام التطبيقى**
بيير ألبير، **الصحافة**
هربرت ثيلر، **الاتصال والهيمنة الثقافية**

- **سابع عشر: السينما**

هاشم النحاس، **الهوية القومية فى السينما العربية**
ج. دادلى أندرو، **نظريات الفيلم الكبرى**
روى آرمز، **لغة الصورة فى السينما المعاصرة**
إدوارد مرى، **عن النقد السينمائى الأمريكى**
جوزيف م. بوجز، **فن الفرجة على الأفلام**
سعيد شيمى، **التصوير السينمائى تحت الماء**
دوايت سوين، **كتابة السيناريو للسينما**
هاشم النحاس، **نجيب محفوظ على الشاشة**
يوجين فال، **فن كتابة السيناريو**
دانييل أريخون ، **قواعد اللغة السينمائية**
كريستيان ساليه ، **السيناريو فى السينما الفرنسية**
تونى بار ، **التمثيل للسينما والتليفزيون**
آلان كاسبيار ، **التذوق السينمائى**
بيتر نيكولز، **السينما الخيالية**
بول وارن، **خفايا نظام النجم الأمريكى**
دافيد كوك، **تاريخ السينما الروائية**
هاشم النحاس، **صلاح أبو سيف (محاورات)**
جان لويس بورى وآخرون، **فى النقد السينمائى الفرنسى**
محمود سامى عطاالله ، **الفيلم التسجيلى**
ستانلى جيه سولومون، **أنواع الفيلم الأمريكى**
جوزيف وهارى فيلدمان، **دينامية الفيلم**
قدرى حفنى، **الإنسان المصرى على الشاشة**
مونى براح، **السينما العربية من الخليج إلى المحيط**
حسين حلمى المهندس، **دراما الشاشة: بين النظرية والتطبيق للسينما والتليفزيون (٢ج)**
جان بول كولين، **السينما الإثنوجرافية سينما الغد**
لويس هيرمان، **الأسس العملية لكتابة السيناريو للسينما والتليفزيون**
موريس إدجار كواندرو، **نظرات فى الأدب الأمريكى**
جوديث ويستون، **توجيه الممثل فى السينما والتليفزيون**
أحمد الحضرى، **تاريخ السينما فى مصر ج٢**

- **ثامن عشر: كتب غيرت الفكر الإنسانى**

سلسلة لتلخيص التراث الفكرى الإنسانى فى صورة عروض موجزة لأهم الكتب التى ساهمت فى تشكيل الفكر الإنسانى وتطوره مصحوبة بتراجم لمؤلفيه وقد صدر منها ١٠ أجزاء.

- **تاسع عشر: الأعمال المختارة**

يوهان هويزنجا، **أعلام وأفكار**
د. مصطفى طه بدر، **محنة الإسلام الكبرى**
ت. كويلر ينج، **الشرق الأدنى**
جيمس نيومان؛ ميشيل ويلسون، **رجال عاشوا للعلم**
ابن زنبل الرمال، **آخرة المماليك**
د. محمد عوض محمد، **نهر النيل**
يعقوب فام، **البراجماتية**
بلوطرخوس، **العظماء**
آرثر كريستنسن، **إيران فى عهد الساسانيين**
أوجست دييس، **أفلاطون**
آدم متز، **الحضارة الإسلامية(٢ج)**
تشارلز ديكنز، **مذكرات بكويك جـ١**
روبرت ديبوجراند وآخرون، **مدخل إلى علم لغة النص**
محمد كرد على، **بين المدنية العربية والأوربية**
ولفرد جوزف دللى، **العمارة العربية بمصر**

منافذ بيع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

- **مكتبة المعرض الدائم**

١١٩٤ كورنيش النيل ــ رملة بولاق ــ مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ت: /٢٥٧٧٥٣٦٧

- **مكتبة مركز الكتاب الدولى**

٣٠ ش٢٦ يوليو ــ القاهرة
ت: ٢٥٧٨٧٥٤٨

- **مكتبة ٢٦ يوليو**

١٩ ش ٢٦ يوليو ــ القاهرة
ت: ٢٥٧٨٨٤٣١

- **مكتبة شريف**

٣٦ ش شريف ــ القاهرة
ت: ٢٣٩٣٩٦١٢

- **مكتبة عرابى**

٥ ميدان عرابى ــ التوفيقية ــ القاهرة
ت: ٢٥٧٤٠٠٧٥

- **مكتبة الحسين**

مدخل ٢ الباب الأخضر ــ الحسين ــ القاهرة ت: ٢٥٩١٣٤٤٧

- **مكتبة ساقية عبد المنعم الصاوى**

الزمالك ــ نهاية شارع ٢٦ يوليو من جهة أبو الفدا ــ القاهرة

- **مكتبة المبتديان**

١٣ ش المبتديان ــ السيدة زينب أمام دار الهلال ــ القاهرة

- **مكتبة ١٥ مايو**

مدينة ١٥ مايو ــ حلوان خلف مبنى الجهاز
ت: ٢٥٥٠٦٨٨٨

- **مكتبة الجيزة**

١ ش مراد ــ ميدان الجيزة ــ الجيزة
ت: ٣٥٧٢١٣١١

- **مكتبة جامعة القاهرة**

بجوار كلية الإعلام ــ بالحرم الجامعى ــ الجيزة

- **مكتبة رادوبيس**

ش الهرم ــ محطة المساحة ــ الجيزة ــ مبنى سينما رادوبيس

- **مكتبة أكاديمية الفنون**

ش جمال الدين الأفغانى من شارع محطة المساحة ــ الهرم ــ مبنى أكاديمية الفنون ــ الجيزة ت: ٣٥٨٥٠٢٩١

- **مكتبة الإسكندرية**

٤٩ ش سعد زغلول ــ محطة الرمل
ت: ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

- **مكتبة الإسماعيلية**

التمليك ــ المرحلة الخامسة ــ عمارة ٦ مدخل (أ) ــ الإسماعيلية ت: ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

- **مكتبة جامعة قناة السويس**

مبنى الملحق الإدارى ــ بكلية الزراعة ــ الجامعة الجديدة ــ الإسماعيلية
ت: ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

- **مكتبة بورفؤاد**

بجوار مدخل الجامعة ناصية شارع ١١، ١٤ بورسعيد

- **مكتبة أسوان**

السوق السياحى ــ أسوان
ت: ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

- **مكتبة أسيوط**

٦٠ ش الجمهورية ــ أسيوط
ت: ٠٨٨ /٢٣٢٢٠٣٢

- **مكتبة المنيا**

١٦ ش بن خصيب ــ المنيا
ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

- **مكتبة المنيا (فرع الجامعة)**

مبنى كلية الآداب ــ جامعة المنيا ــ المنيا

- **مكتبة طنطا**

ميدان الساعة ــ عمارة سينما أمير ــ طنطا
ت:٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

- **مكتبة المحلة الكبرى**

ميدان محطة السكة الحديد
عمارة الضرائب سابقاً

- **مكتبة دمنهور**

ش عبد السلام الشاذلى - دمنهور

- **مكتبة المنصورة**

٥ ش الثورة ــ المنصورة
ت: ٢٢٤٦٧١٩ /٠٥٠

- **مكتبة منوف**

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية "جامعة منوف"

مكتبات ووكلاء
البيع بالدول العربية

- **لبنان**

١ــ مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
شارع صيدنايا المصيطبة ــ بناية الدوحةــ
بيروت ــ ت: ٩٦١/١/٧٠٢١٣٣
ص.ب: ٩١١٣ ــ ١١ بيروت ــ لبنان
٢ ــ مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
بيروت ــ الفرع الجديد ــ شارع الصيدانى
ــ الحمراء ــ رأس بيروت ــ بناية سنتر
ماربيا ص. ب: ٥٧٥٢/ ١١٣
فاكس: ٠٠٩٦١/١/٦٥٩١٥٠

- **سوريا**

دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع ــ سوريا
ــ دمشق ــ شارع كرجيه حداد ــ المتفرع
من شارع ٢٩ أيار. ص. ب:٧٣٦٦ ــ
الجمهورية العربية السورية

- **تونس**

المكتبة الحديثة ــ ٤ ش الطاهر صفرــ
٤٠٠٠ سوسة الجمهورية التونسية

- **المملكة العربية السعودية**

١ ــ مؤسسة العبيكان ــ الرياض (ص.
ب: ٦٢٨٠٧) رمز ١١٥٩٥ ــ تقاطع
طريق الملك فهد مع طريق العروبة
هاتف : ٤٦٥٤٤٢٤ ٤١٦٠٠١٨
٢ ــ شركة كنوز المعرفة للمطبوعات
والأدوات الكتابية ــ جدة ــ الشرفية ــ
ش الستين ــ ص. ب: ٣٠٧٤٦ جدة:
٢١٤٨٧ ت مكتب: ٦٥١٤٢٢٢ ــ
٦٥٧٠٦٢٨ ــ ٦٥٧٠٧٢٢ ــ٦٥١٠٤٢١
٣ ــ مكتبة الرشد للنشر والتوزيع ــ
الرياض ــ المملكة العربية السعودية ــ
ص. ب: ١٧٥٢٢ ــ الرياض ١١٤٩٤
ت: ٤٥٩٣٤٥١
٤ ــ مؤسسة عبد الرحمن السديرى
الخيرية الجوف ــ المملكة العربية
السعوديةــ دار الجوف للعلوم ــ
ص. ب: ٤٥٨ ــ الجوف ــ
هاتف: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٣٩٦٠
فاكس: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٧٧٨٠

- **الأردن ــ عمان**

١ ــ دار الشروق للنشر والتوزيع
ت: ٤٦١٨١٩٠ ــ ٤٦١٨١٩١
فاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦١٠٠٦٥
٢ ــ دار اليازورى العلمية للنشر
والتوزيع عمان ــ وسط البلد ــ شارع
الملك حسين
ت: ٩٦٢٦٤٦٢٦٦٢٦ +
تلفاكس: ٩٦٢٦٤٦١٤١٨٥ +
ص. ب: ٥٢٠٦٤٦ ــ عمان: ١١١٥٢
الأردن.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg